

نداءُ اللهِ للمؤمنينَ في القرآنِ الكريمِ

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الثانية

١٤٣٣ هـ ٢٠١٢ م

حقوق الطبع لكل مسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام وعلى سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد خاطب عباده المؤمنين بأفضل صفة يجبها تعالى، ويجبها عباده، وهي قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وقد وردت في تسعة وثمانين موضعاً في القرآن الكريم، وهي تتضمن أحكاماً شرعية شتى، منها ما يتعلق بالعقيدة، حيث أمر بها كالولاء والبراء، وحذر من الشرك، ومن الرياء، ومن النفاق .

ومنها ما يتعلق بالعبادات، ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام، والأحكام العملية، ففي هذه الآيات بناء متين للمجتمع المسلم، وحماية له من السقوط والتردي .

وقد قمت بجمعها، ووضع لها عناوين مناسبة، وقمت بشرحها بشكل مختصر، بما يبين معناها، ويوضح مرماها .

سائلاً المولى سبحانه وتعالى أن يجعل فيها زاداً لنا في الدارين، قال تعالى: { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) } [الزمر/٢٣، ٢٤]

جمعه وأعدّه

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشعود

٢٠ ربيع الأول ١٤٢٩ هـ الموافق ٢٨/٣/٢٠٠٨ م

وعدل تعديلاً جذرياً في ٢٦ ربيع الأول ١٤٣٣ هـ الموافق ل ١٨/٢/٢٠١٢ م



١. النهي عن قول راعنا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) } سورة البقرة

كَانَ الْأَنْصَارُ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ حِينَمَا يَتْلُو عَلَيْهِمُ الْوَحْيَ: رَاعِنَا (أَي تَمَهَّلْ عَلَيْنَا فِي التَّلَاوَةِ حَتَّى نَعِيَ مَا تَقْرَأُهُ عَلَيْنَا). وَكَانَ الْيَهُودُ يَسْتَعْمِلُونَ هَذَا التَّعْبِيرَ فِي مَخَاطَبَتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ وَهُمْ يَتَّظَاهَرُونَ بِأَتْنَهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَقُولُوا لَهُ: (ارْعِنَا سَمْعَكَ) .

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُمِيلُونَ الْكَلِمَاتِ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَيُورُونَ بِهَا عَنِ الرَّعُونَةِ. (وَرَاعِينُوا فِي الْعِبْرِيَّةِ مَعْنَاهَا شَرِيْرٌ). فَتَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى ذَلِكَ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اسْتِعْمَالِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ. وَأَمْرُهُمْ بِأَنْ يَسْتَعْمِلُوا بَدَلًا مِنْ كَلِمَةِ (رَاعِنَا)، كَلِمَةَ (انظُرْنَا) .

وَيَتَوَعَّدُ اللَّهُ تَعَالَى الْيَهُودَ الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ لَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَسُوءِ أَدْبِهِمْ بِحَقِّ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ.

إِنَّ الَّذِينَ عَرَفْتُمْ حَالَهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، هُمْ حَسَدَةٌ لَكُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَصِيْبَكُمْ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلَا أَنْ يَتَرَسَّخَ دِينُكُمْ، وَلَا أَنْ تُتَثَبَّتْ أَرْكَائُهُ، وَالْمُشْرِكُونَ مِثْلُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُرْهِهِمْ لَكُمْ، وَحَسَدِهِمْ إِيَّاكُمْ، وَتَمَنِّيهِمْ أَنْ تَدُورَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الدَّوَائِرُ، وَأَنْ يَنْتَهِيَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ. وَحَسَدُ الْحَاسِدِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَاحِطٌ عَلَى رَبِّهِ، مُعْتَرِضٌ عَلَى حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، لِأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَى الْمَحْسُودِ بِمَا أَنْعَمَ، وَاللَّهُ لَا يُضِيرُهُ سَخَطُ السَّاحِطِينَ، وَلَا يُحَوِّلُ مَجَارِي نِعْمَتِهِ حَسَدُ الْحَاسِدِينَ، فَهُوَ يَخْتَصُّ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ وَهُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ عَلَى مَنْ اخْتَارَهُ لِلنُّبُوَّةِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْإِحْسَانِ وَالْمِنَّةِ عَلَى عِبَادِهِ^١ .

فقد كانوا يحشون أن يشتموا النبي - ﷺ - مواجهة، فيحتالون على سبه ﷺ - عن هذا الطريق المتلوي، الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء! ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة، وأمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالاته. كي يفوتوا على اليهود غرضهم الصغير السفيه! واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم، كما يشي بسوء الأدب، وخسة الوسيلة، وانحطاط السلوك. والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحى

^١ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١١، بترقيم الشاملة آليا)

برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة، ودفاعه - سبحانه - عن أوليائه، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين.

ثم يكشف للمسلمين عما تكنه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء، وعما تنغل به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل. ليحذروا أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه: «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ. وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» ..

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر .. وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قدم سواء من هذه الناحية وكلاهما يضمم للمؤمنين الحقد والضغن، ولا يود لهم الخير. وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين. هو أن يختارهم الله لهذا الخير ويتزل عليهم هذا القرآن، ويجبوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في الوجود.

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن يتزل الله من فضله على من يشاء من عباده، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل - عليه السلام - إذ كان يتزل بالوحي على الرسول - ﷺ - : «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ» ..

فالله أعلم حيث يجعل رسالته فإذا اختص بها محمدا - ﷺ - والمؤمنين به، فقد علم - سبحانه - أنه وأهم أهل لهذا الاختصاص.

«وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» .. وليس أعظم من نعمة النبوة والرسالة وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه. وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد .. وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة والتشكيك التي قادها - ويقودها - اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!

وكانت الحملة - كما أسلفنا - تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف. وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة. الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» ..

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة - كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها - أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة، وأحوالها المتطورة. أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومها للتوراة .. سواء كانت هذه أم هذه أم هذه، أم هي جميعا المناسبة التي اتخذها اليهود

ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة .. فإن القرآن يبين هنا بيانا حاسما في شأن النسخ والتعديل وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارها يهود، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال - في فترة الرسالة - هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها. والله خالق الناس، ومرسل الرسل، ومترل الآيات، هو الذي يقدر هذا. فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان - سواء كانت آية مقروءة تشتمل حكما من الأحكام، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل - فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء. وهو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السماوات وفي الأرض ..^٢



^٢ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٠٥)

٢. الاستعانة بالصبر والصلاة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) }
سورة البقرة

يُبينُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ أَنَّ خَيْرَ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ دِينِهِمْ، وَالِدَّفَاعَ عَنْهُ، وَعَلَى سَائِرِ مَا يَشْتَقُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَصَائِبِ الْحَيَاةِ هُوَ التَّحَلِّي بِالصَّبْرِ، وَتَوَطُّبِ النَّفْسِ عَلَى احْتِمَالِ الْمَكَارِهِ، وَأَدَاءِ الصَّلَاةِ وَإِقَامَتِهَا حَقَّ إِقَامَتِهَا. فَالصَّبْرُ أَشَدُّ الْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ عَلَى النَّفْسِ، وَالصَّلَاةُ أَشَدُّ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْبَدَنِ، وَاللَّهُ نَاصِرُ الصَّابِرِينَ، وَمُجِيبُ لِدُعَائِهِمْ .
يُخَبِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ الشَّهَدَاءَ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ هُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ بَعِيرِ حِسَابٍ، وَلَكِنَّ الْأَحْيَاءَ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ حَيَاتَهُمْ لَيْسَتْ فِي عَالَمِ الْحِسِّ الَّذِي يُدْرِكُ بِالْمَشَاعِرِ .

يُخَبِّرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ سَيَبْلُوهُمْ وَيَخْتَبِرُهُمْ بِقَلِيلٍ (بِشَيْءٍ) مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَيَذَهَابِ بَعْضِ الْمَالِ، وَيَمُوتِ بَعْضِ الْأَصْحَابِ وَالْأَقْرَابِ وَالْأَحْبَابِ، وَيَنْقُصُ غَلَالَ الْمَزَارِعِ... فَمَنْ صَبَرَ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَحُكْمِهِ أَنَابَهُ، وَمَنْ قَطَعَ وَلَجَّ أَحَلَّ بِهِ عِقَابَهُ .
وَيُبَشِّرُ اللهُ الصَّابِرِينَ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ فِي أُمُورِهِمْ .

أَمَّا الصَّابِرُونَ الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللهُ بِالْبُشْرَى فَهُمْ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ مِنَ اللهِ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ مُصِيبَةٌ صَبَرُوا، وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِمْ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَيَّ إِنَّهُمْ عِبِيدُ اللهِ وَمُلْكُهُ، وَإِنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَيْهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ.

يُشْنِي اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ عَلَى هَوْلَاءِ الصَّابِرِينَ، وَيُخَبِّرُ بِأَنَّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، وَأَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَثَرَهَا فِي بَرْدِ قُلُوبِهِمْ عِنْدَ نَزُولِ الْمُصِيبَةِ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْمُهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ، وَإِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَأَنَّهُمْ اسْتَسَلَمُوا لِقَضَاءِ اللهِ فَلَمْ يَسْتَحُذِ الْجَزَعُ عَلَيْهِمْ .^٣

يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرا ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى

^٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

الصراعات والعقبات والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، بجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج ..

ولا بد من الصبر في هذا كله .. لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشقي صنوفه، والصبر على بقاء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقله العناد، ومضاضة الإعراض ..

وحيث يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد، إذا لم يكن هناك زاد ومدد. ومن ثم يقرن الصلاة إلى الصبر فهي المعين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد. المعين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع. ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

إنه لا بد للإنسان الفاني الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة. حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة. حينما يتقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تتقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهي عنيفة. حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة في عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك المغيب، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب. حينما يجد الشر نافثاً والخير ضاويًا، ولا شعاع في الأفق ولا معلم في الطريق ..

هنا تبدو قيمة الصلاة .. إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية. إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض. إنها مفتاح الكثر الذي يغني ويقني ويفيض. إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير. إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود .. ومن هنا كان رسول الله - ﷺ - إذا كان في الشدة قال: «أرحنا بما يا بلال» فعن عبد الله بن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي علي صهر لنا من الأنصار، فحضرت الصلاة، فقال: يا جاري، اتنني بوضوء لعلني أتوضأ فأستريح، فرأنا أنكرتنا ذلك، أو فكأنه رأنا أنكرتنا ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرْحِنَا بِالصَّلَاةِ " ٤

٤ - شرح مشكل الآثار - (١٤ / ١٦٧) (٥٥٤٩) صحيح

قال الطحاوي: "فإن أنكرتنا هذا الحديث منكراً، وقال: كيف تقبلون على رسول الله ﷺ أمره بأن يرحنا من الصلاة؟، فكان جوابنا له في ذلك: أنه ليس في الحديث أن رسول الله ﷺ أمر أن يرحنا من الصلاة، ولو كان الحديث كذلك، لأنكرناه كما أنكرتنا، ولكن الذي في الحديث إنما هو أمره ﷺ بلالاً أن يرحنا بالصلاة من غيرها إذ كانت الصلاة هي فورة عينه، فأمر أن يرحنا بها مما سواها مما ليس بمنزلة كمنزلتها، وهذا كلام صحيح معقول، والله أعلم بمراده ﷺ بذلك، ما هو مما يشبه ما كان عليه في أمور الله عز وجل، وفي أداء فرائضه، وفي التمسك بها، وفي غلبتها على قلبه، وفي أن لا شيء عنده مثلها، وبالله التوفيق" شرح مشكل الآثار [١٤ / ١٦٧]

وعن عبد الله بن محمد بن الحنفية، قال: انطلقت مع أبي إلى صهر لنا من أسلم، من أصحاب النبي ﷺ، فسمعتة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرخنا بها يا بلال الصلاة»، قال: قلت: أسمعته ذا من رسول الله ﷺ؟ فعضب وأقبل على القوم يحدثهم: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى حي من العرب، فلما أتاهم، قال: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أحكم في نسائكم بما شئت، فقالوا: سمعنا وطاعة لأمر رسول الله ﷺ، وبعثوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن فلاناً جاءنا، فقال: إن النبي ﷺ أمرني أن أحكم في نسائكم بما شئت، فإن كان أمرك فسمعنا وطاعة، وإن كان غير ذلك فأحببنا أن نعلمك، فعضب رسول الله ﷺ، وبعث رجلاً من الأنصار، وقال: اذهب إلى فلان فاقتلته وأحرقه بالنار، فانتهى إليه وقد مات وقبر، فأمر به فنبش، ثم أحرقه بالنار، ثم قال رسول الله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ثم أقبل علي فقال: تراني كذبت على رسول الله ﷺ بعد هذا؟^٥

وعن سلمان بن خالد، أراه من خزاعة، قال: صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحناً»^٦.

.. ويكثر من الصلاة إذا حزبه أمر ليكثر من اللقاء بالله، فعن حذيفة قال: كان النبي ﷺ - إذا حزبه أمر صلى^٧

إن هذا المنهج الإسلامي منهج عبادة. والعبادة فيه ذات أسرار. ومن أسرارها أنها زاد الطريق. وأنها مدد الروح. وأنها جلاء القلب. وأنه حينما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر .. إن الله سبحانه حينما انتدب محمداً - ﷺ - للدور الكبير الشاق الثقيل، قال له: «يا أيها المزمّل قم الليل إلاً قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً .. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً» .. فكان الإعداد للقول الثقيل، والتكليف الشاق، والدور العظيم هو قيام الليل وترتيل القرآن .. إنها العبادة التي تفتح القلب، وتوثق الصلة، وتيسر الأمر، وتشرق بالنور، وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان. ومن ثم يوجه الله المؤمنين هنا وهم على أبواب المشقات العظام .. إلى الصبر وإلى الصلاة ..

ثم يجيء التعقيب بعد هذا التوجيه: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. معهم، يؤيدهم، ويثبتهم، ويقويهم، ويؤنسهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يتركهم لطاقاتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمددهم حين ينفذ زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق ..

^٥ - المعجم الكبير للطبراني [٩٥/ ٦] (٦٠٩١) فيه ضعف

^٦ - المعجم الكبير للطبراني [٩٥/ ٦] (٦٠٩٠) صحيح

^٧ - سنن أبي داود - المكثر - (١٣٢١) صحيح

وهو يناديهم في أول الآية ذلك النداء الحبيب: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».. ويختتم النداء بذلك التشجيع العجيب: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والأحاديث في الصبر كثيرة نذكر بعضها لمناسبتها للسياق القرآني هنا في إعداد الجماعة المسلمة لحمل عبثها والقيام بدورها :

عَنْ حَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا قَالَ « كَانِ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَشَقُّ بِأَثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لِيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »^٨...

وقال عبد الله: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »^٩.

وعن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: " إِنَّ الْمُسْلِمَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ " ^{١٠}



^٨ - صحيح البخارى - المكثر - (٣٦١٢)

^٩ - صحيح البخارى - المكثر - (٣٤٧٧).

^{١٠} - شعب الإيمان - (١٢ / ٢٠١) (٩٢٧٧) صحيح ، في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص:

٣. الأكل من الطيبات

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) } سورة البقرة

كَانَ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فِرْقًا وَأَصْنَافًا: فَمِنْهُمْ مَنْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ أَشْيَاءَ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَرَّمَ بَعْضَ الْحَيَوَانَ، وَكَانَ الشَّائِعُ عِنْدَ النَّصَارَى الْإِفْتِنَانُ فِي حَرْمَانِ النَّفْسِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، فَقَدْ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ اللَّحْمَ وَالسَّمْنَ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ صَوْمِهِمْ، وَحَرَّمُوا السَّمَكَ وَاللَّبْنَ وَالْبَيْضَ فِي بَعْضِهَا الْآخَرَ.

وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ وَضَعَهَا الرَّؤُوسَاءُ، وَلَا وُجُودَ لَهَا فِي التَّوْرَةِ، وَلَا نُقِلَتْ عَنِ الْمَسِيحِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَكَانُوا يَتَّقُونَ أَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَعْدِيْبِ النَّفْسِ، وَتَرَكَ حُطُوزَ الْجَسَدِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ أُمَّةً وَسَطًا تُعْطِي الْجَسَدَ حَقَّهُ، وَالرُّوحَ حَقَّهُ. وَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْأَكْلَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَحَثَّهِمْ عَلَى شُكْرِهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ. ١١

إن الله ينادي الذين آمنوا بالصفة التي تربطهم به سبحانه، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام. ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرزاق، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم فيشعرون أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات، وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلأنه غير طيب، لا لأنه يريد أن يجرمهم ويضيق عليهم - وهو الذي أفاض عليهم الرزق ابتداء - ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك. فيوحي إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد.. كل أولئك في آية واحدة قليلة الكلمات: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» ١٢.. ثم يبين لهم المحرمات من المأكول نصا وتحديدا باستعمال أداة القصر «إِنَّمَا»

..

«إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ».. والميتة تأباها النفس السليمة وكذلك الدم، فضلا على ما أثبتته الطب - بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله -

١١- أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٧٩، بترقيم الشاملة آليا)

١٢- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلُ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبَّ يَا رَبَّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَعُغْدَى بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ ». صحيح مسلم - المكثر [٦ / ٣٣٦] (٢٣٩٣)

من تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة وفي الدم، ولا ندري إن كان الطب الحديث قد استقصى ما فيهما من الأذى أم إن هناك أسباباً أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس.

فأما الخنزير فيجادل فيه الآن قوم.. والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم.. ومع هذا فقد حرمه الله منذ ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة). ويقول الآن قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توافرها وسائل الطهو الحديثة.. وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة. فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، ونُدع كلمة الفصل لها، ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير!

أما ما أهل به لغير الله. أي ما توجه به صاحبه لغير الله. فهو محرم، لا لعله فيه، ولكن للتوجه به لغير الله. محرم لعله روحية تنافي صحة التصور، وسلامة القلب، وطهارة الروح، وخلوص الضمير، ووحدته المتجه.. فهو ملحق بالنجاسة المادية والقذارة الحقيقية على هذا المعنى المشترك للنجاسة. وهو ألصق بالعقيدة من سائر المحرمات قبله. وقد حرص الإسلام على أن يكون التوجه لله وحده بلا شريك..

ومن هنا تتجلى علاقة التحليل والتحريم في هذه الآيات، بالحديث عن وحدانية الله ورحمته كذلك في الآيات السابقة. فالصلة قوية ومباشرة بين الاعتقاد في إله واحد، وبين التلقي عن أمر الله في التحليل والتحريم.. وفي سائر أمور التشريع.. ومع هذا فالإسلام يحسب حساب الضرورات، فيبيح فيها المحظورات، ويحل فيها المحرمات بقدر ما تنتفي هذه الضرورات، بغير تجاوز لها ولا تعد لحدودها: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

وهو مبدأ عام ينصب هنا على هذه المحرمات. ولكنه بإطلاقه يصح أن يتناول سواها في سائر المقامات. فأما ضرورة ملجئة يخشى منها على الحياة، فلصاحبها أن يتفادى هذا الحرج بتناول المحظور في الحدود التي تدفع هذه الضرورة ولا زيادة. على أن هناك خلافاً فقهيًا حول مواضع الضرورة.. هل فيها قياس؟ أم هي الضرورات التي نص عليها الله بأعيانها.. وحول مقدار ما تدفع به الضرورة؟ هل هو أقل قدر من المحظور أم أكلة أو شربة كاملة.. ولا ندخل نحن في هذا الخلاف الفقهي. وحسبنا هذا البيان في ظلال القرآن.^{١٣}



^{١٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٧١)

٤. وجوب القصاص في القتل

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) } سورة البقرة

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ قَدْ فَرَضَ (كَتَبَ) عَلَيْهِمُ الْعَدْلَ وَالْمَسَاوَاةَ فِي الْقِصَاصِ، فَالْحُرُّ يُقْتَلُ بِالْحُرِّ، إِذَا كَانَ الْقَتْلُ عَمْدًا، وَالْعَبْدُ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ، وَالْأُنثَى تُقْتَلُ بِالْأُنثَى (وَقَدْ جَرَى الْعَمَلُ مِنْ لَدُن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلِ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ، وَالْحُرِّ بِالْعَبْدِ إِنْ لَمْ يَكُنِ الْقَاتِلُ سَيِّدَ الْعَبْدِ، فَإِذَا كَانَ سَيِّدُهُ عَزْرًا بِشِدَّةِ)، وَأَمْرَهُمُ اللَّهُ بِالْأَلَا يَعْتَدُوا وَلَا يَتَجَاوَزُوا، كَمَا اعْتَدَى الْيَهُودُ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَعَعَبَرُوا حُكْمَ اللَّهِ، فَكَانَتْ قَبِيلَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ ضَعِيفَةً، وَقَبِيلَةُ بَنِي النَّضِيرِ قَوِيَّةً، فَكَانُوا إِذَا قَتَلَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ أَحَدًا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ لَمْ يَكُنْ يُقْتَلُ بِهِ بَلْ يُفَادَى، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرَيْظِيُّ نَضِيرِيًّا كَانَ يُقْتَلُ بِهِ، وَإِذَا فَادَوْهُ كَانَ يُفَادَى بِمِثْلِي مَا يُفَادَى بِهِ النَّضِيرِيُّ .

وَكَانَ حَيَّانٍ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ افْتَنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبِيلَ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلَى وَجَرَاحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا الْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ، فَكَانَ أَحَدُ الْحَيِّينَ لَا يَرْضَى حَتَّى يُقْتَلَ بِالْعَبْدِ مِنْهُ الْحُرُّ مِنْ خُصُومِهِ، وَبِالْمَرْأَةِ مِنْهُ الرَّجُلُ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ لَا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ الَّذِي يَقْتُلُ الْمَرْأَةَ عَمْدًا، وَلَكِنْ كَانُوا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالرَّجُلِ، وَالْمَرْأَةَ بِالْمَرْأَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ مُبْطِلًا ذَلِكَ التَّعَامُلِ، فَإِذَا قَبِلَ وَلِيُّ الدَّمِ أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَّةَ، وَيُغْفِرَ عَنِ الْقَاتِلِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ ذَلِكَ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْ يَطْلُبَ الدِّيَّةَ بِرِفْقٍ، وَأَنْ لَا يُرْهِقَ الْقَاتِلَ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا. وَعَلَى الْقَاتِلِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ بِإِحْسَانٍ، وَأَنْ لَا يَمْطُلَ وَلَا يَنْقُصَ، وَلَا يُسِيءَ فِي كَيْفِيَّةِ الْأَدَاءِ .

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّهُ شَرَعَ لِلنَّاسِ أَخْذَ الدِّيَّةِ فِي حَالَةِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ تَخْفِيفًا مِنْهُ، وَرَحْمَةً بِالْمُسْلِمِينَ، إِذْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْأَمَمِ السَّالِفَةِ الْقَتْلُ أَوْ الْعَفْوُ. وَإِذَا تَعَدَّدَ أَوْلِيَاءُ الدَّمِ وَعَفَا أَحَدُهُمْ وَجَبَ اتِّبَاعُهُ، وَسَقَطَ الْقِصَاصُ. وَيَجُوزُ الْعَفْوُ فِي الدِّيَّةِ أَيْضًا. (وَقِيلَ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ مَفْرُوضًا عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ لَا غَيْرَ، وَأَهْلَ الْإِنْجِيلِ أَمَرُوا بِالْعَفْوِ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مُقَابِلَ الْعَفْوِ دِيَّةً) .

وَيَهْدِدُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَعْتَدِي بِالْقَتْلِ عَلَى الْقَاتِلِ - بَعْدَ الْعَفْوِ وَالرِّضَا بِالدِّيَّةِ - بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فِي الْقِصَاصِ رَاحَةُ الْبَالِ، وَصِيَانَةُ النَّاسِ مِنْ اعْتِدَاءِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضِهِمْ الْآخَرَ، لِأَنَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ يُعَاقَبُ بِالْقَتْلِ، تَحْمِلُهُمْ عَلَى الْارْتِدَاعِ عَنِ الْقَتْلِ، فَتُصَانُ حَيَاةُ النَّاسِ، وَحَيَاةٌ مَنْ يُفَكِّرُ بِالْقَتْلِ. وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّدَاءِ أَرْبَابَ الْعُقُولِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ، وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهَا هُمْ

الْعُقْلَاءُ. وَإِذَا تَدَبَّرَ أَوْلُو الْأَلْبَابِ الْحِكْمَةَ مِنْ شَرِّهِ الْقِصَاصِ حَمَلَهُمْ ذَلِكَ عَلَى اتِّقَاءِ الْعِتْدَاءِ، وَالْكَفِّ عَنِ سَفْكِ الدِّمَاءِ. ^{١٤}

النداء للذين آمنوا .. بهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله، الذي آمنوا به، في تشريع القصاص. وهو يناديهم لينبئهم أن الله فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى، بالتفصيل الذي جاء في الآية الأولى. وفي الآية الثانية يبين حكمة هذه الشريعة، ويوقظ فيهم التعقل والتدبر لهذه الحكمة، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى وهو صمام الأمن في مجال القتلى والقصاص.

وهذه الشريعة التي تبينها الآية: أنه عند القصاص للقتلى - في حالة العمد - يقتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى.

«فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ» .. وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلا من قتل الجاني. ومتى قبل ولي الدم هذا ورضيه، فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضى والمودة. ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان وإجمال وإكمال. تحقيقا لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس، وتقوية لأواصر الأخوة بين البقية الأحياء.

وقد امتن الله على الذين آمنوا بشريعة الدية هذه بما فيها من تخفيف ورحمة: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» .. ولم يكن هذا التشريع مباحا لبني إسرائيل في التوراة. إنما شرع للأمة المسلمة استبقاء للأرواح عند الترضي والصفاء.

«فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .. وفوق العذاب الذي يتوعده به في الآخرة .. يتعين قتله، ولا تقبل منه الدية. لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول، نكث للعهد، وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب، ومتى قبل ولي الدم الدية، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي.

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام وبصره بحوافر النفس البشرية عند التشريع لها ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع .. إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبسها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الذي يكسر شررة النفوس، ويفثأ حنق الصدور، ويردع الجاني كذلك عن التمادي، ولكن الإسلام في الوقت ذاته يجب في العفو، ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامح في حدود التطوع، لا فرضا يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق:

وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة. نسختها آية المائدة التي نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا: «وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .. الآية» .. قال ابن كثير في التفسير: «وذكر في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم. حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، ثنا يَحْيَى، حَدَّثَنِي ابْنُ لَهَيْعَةَ، حَدَّثَنِي

^{١٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٨٥، بترقيم الشاملة آليا)

عطاءً، عَنْ سَعِيدٍ، "فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى " يَعْنِي إِذَا كَانَ عَمْدًا الْحُرُّ بِالْحُرِّ، وَذَلِكَ أَنَّ حَيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ اقْتَتَلُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ بِقَلِيلٍ، فَكَانَ بَيْنَهُمْ قَتْلٌ وَجَرَاحَاتٌ حَتَّى قَتَلُوا الْعَبِيدَ وَالنِّسَاءَ، فَلَمْ يَأْخُذْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى أَسْلَمُوا، فَكَانَ أَحَدُ الْحَيِّينَ يَتَطَاوَلُ عَلَى الْآخَرِ فِي الْعِدَّةِ وَالْأَمْوَالِ، فَحَلَفُوا أَلَّا يَرْضَوْا، حَتَّى يَقْتُلُوا بِالْعَبْدِ مِمَّا، الْحُرُّ مِنْهُمْ، وَالْمَرْءُ مِمَّا، بِالرَّجُلِ مِنْهُمْ، فَنَزَلَ فِيهِمْ: " الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى "، مِنْهُمَا مَنَسُوخَةٌ نَسَخَتْهَا: " النَّفْسُ بِالنَّفْسِ "، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ نَحْوَ ذَلِكَ. ١٥

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ قَالَ: كَانُوا لَا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالْمَرْءِ، وَلَكِنْ يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالرَّجُلِ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ قَالَ: فَجَعَلَ الْأَحْرَارَ فِي الْقِصَاصِ سَوَاءً فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ، رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ فِي النَّفْسِ وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ مُتَسَاوِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ فِي النَّفْسِ، وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ ١٦ " وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ قَالَ: كَانُوا لَا يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالْمَرْءِ، وَلَكِنْ يَقْتُلُونَ الرَّجُلَ بِالرَّجُلِ وَالْمَرْءَ بِالْمَرْءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ قَالَ: فَجَعَلَ الْأَحْرَارَ فِي الْقِصَاصِ سَوَاءً فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ، رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ فِي النَّفْسِ وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ مُتَسَاوِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي الْعَمْدِ فِي النَّفْسِ، وَفِيمَا دُونَ النَّفْسِ رِجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ ١٧ " والذي يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس . . وأن لكل منهما مجالاً غير مجال الأخرى، وأن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين، أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين كذلك. فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمداً . . فأما الآية التي نحن بصدددها فمجالها مجال الاعتداء الجماعي - كحالة ذينك الحيين من العرب - حيث تعتدي أسرة على أسرة، أو

١٥ - تفسير ابن أبي حاتم - (١ / ٤٤٤) (١٥٨٨) حسن مرسل

١٦ - التَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ (٢٠٩) صحيح مرسل زيادة مبي

١٧ - التَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ لِلْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ (٢١٠) حسن - زيادة مبي

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: "يَذْهَبُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا نَرَى إِلَى أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ لَيْسَتْ بِنَاسِخَةٍ لِتِي فِي الْبَقَرَةِ: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَلَا هِيَ خِلَافُهَا، وَلَكِنَّهُمَا جَمِيعًا مُحْكَمَتَانِ، إِلَّا أَنَّهُ رَأَى أَنَّ التِّي فِي الْمَائِدَةِ كَالْمُفَسَّرَةِ لِتِي فِي الْبَقَرَةِ فَتَأْوَلُ أَنَّ قَوْلَهُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ الْأَحْرَارَ مُتَسَاوِيَةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْعَبِيدِ، وَأَنَّهُمْ يَتَكَافَوْنَ دِمَاؤُهُمْ ذُكُورًا كَانُوا أَمْ إِنَاثًا، وَأَنَّ النَّفْسَ الْمَمَالِكِ مُتَسَاوِيَةٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْأَحْرَارِ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ذُكُورًا كَانُوا أَمْ إِنَاثًا، وَأَنَّهُ لَا قِصَاصَ لِلْمَالِكِ عَلَى الْأَحْرَارِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسٍ، وَلَا مَا دُونَهَا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَهَذَا قَوْلُ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ يُقْتَصَّ مِنَ الْحُرِّ لِلْمَمْلُوكِ فِي نَفْسٍ وَلَا غَيْرِهَا، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ، فَيَرَوْنَ أَنَّ مَنْ رَأَى مِنْهُمْ أَنَّ آيَةَ: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ مَنَسُوخَةٌ نَسَخَتْهَا: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ فِي قَوْلِهِ، فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ الْأَحْرَارِ وَالْعَبِيدِ الْقِصَاصَ فِي النَّفْسِ خَاصَّةً وَلَا يَرَوْنَ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ قِصَاصًا "

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: " وَالْقَوْلُ الَّذِي نَخْتَارُهُ فِي هَذَا مَا قَالَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ جِهَتَيْنِ أَحَدِهِمَا: تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ الَّذِي فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْآخَرَى أَنَّهُ قَوْلٌ يُوَافِقُ بَعْضَهُ بَعْضًا وَلَا يَخْتَلِفُ، وَأَمَّا الْقَوْلُ الْآخَرُ فَلَيْسَ بِمُتَّقٍ مِنَ التَّنْزِيلِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ: أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ، فَأَخَذَ هَوْلَاءُ بِأَوَّلِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَتَرَكُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ مَا جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَأْخُذَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ إِلَّا أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَ ذَلِكَ كِتَابٌ أَوْ سُنَّةٌ، فَهَذَا مَا نَسِخَ مِنْ حُدُودِ الْقُرْآنِ .. "

قبيلة على قبيلة، أو جماعة على جماعة. فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء .. فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك، والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك. وإلا فكيف يكون القصاص في مثل هذه الحالة التي يشترك فيها جماعة في الاعتداء على جماعة؟

وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ لهذه الآية، ولا تعارض في آيات القصاص. ثم يكمل السياق الحديث عن فريضة القصاص بما يكشف عن حكمتها العميقة وأهدافها الأخيرة: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» .. إنه ليس الانتقام، وليس إرواء الأحقاد. إنما هو أجل من ذلك وأعلى. إنه للحياة، وفي سبيل الحياة، بل هو في ذاته حياة .. ثم إنه للتعقل والتدبير في حكمة الفريضة، ولاستحياء القلوب واستحاشتها لتقوى الله ..

والحياة التي في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء. فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتل .. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد. كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل. شفاؤها من الحقد والرغبة في الثأر. الثأر الذي لم يكن يقف عند حد في القبائل العربية حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاما كما في حرب البسوس المعروفة عندهم. وكما نرى نحن في واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلا بعد جيل، ولا تكف عن المسيل ..

وفي القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم. فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، يشترك مع القتل في سمة الحياة. فإذا كف القصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها. وكان في هذا الكف حياة. حياة مطلقة. لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة .. بل حياة .. ثم - وهو الأهم والعامل المؤثر الأول في حفظ الحياة - استحاشة شعور التدبير لحكمة الله، ولتقواه: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ..

هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء. الاعتداء بالقتل ابتداء، والاعتداء في الثأر أخيرا .. التقوى .. حساسية القلب وشعوره بالخوف من الله وتخرجه من غضبه وتطلبه لرضاه.

إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شريعة، ولا يفلح قانون، ولا يتخرج متخرج، ولا تكفي التنظيمات الخاوية من الروح والحساسية والخوف والطمع في قوة أكبر من قوة الإنسان! وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي - ﷺ - وعهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجاني نفسه طائعا مختارا .. لقد كانت هنالك التقوى .. كانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر، وفي حنايا القلوب، تكفها عن مواضع الحدود .. إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكونات القلوب .. وكان هناك ذلك التكامل بين التنظيمات والشرائع من ناحية والتوجيهات والعبادات من ناحية أخرى، تتعاون جميعها على إنشاء مجتمع سليم التصور سليم الشعور. نظيف

الحركة نظيف السلوك. لأنها تقيم محكمتها الأولى في داخل الضمير! «حتى إذا جمحت السورة البهيمية في حين من الأحيان، وسقط الإنسان سقطة، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة، ووخزا لاذعا للضمير، وخيالا مروعا، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة، ويتحملها مطمئنا مرتاحا، تفاديا من سخط الله، وعقوبة الآخرة»^{١٨}
إهما التقوى .. إنها التقوى ...^{١٩}



^{١٨} - عن كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي. ص ٦٢ طبعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. (السيد رحمه الله)

^{١٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٠)

٥. فرض الصيام

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) } سورة البقرة

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّوْمِ تَهْدِيًا لِنَفْسِهِمْ، وَقَالَ تَعَالَى: إِنَّهُ أَوْجَبَ الصَّوْمَ عَلَى الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، لِذَلِكَ فَإِنَّهُ يُوجِبُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ الصَّوْمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيُعِدَّهُمْ لِتَقْوَى اللَّهِ، يَتْرَكَ الشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةَ الْمَيْسُورَةَ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَاحْتِسَابًا لِلْأَجْرِ عِنْدَهُ، فَتَرَبَّى بِذَلِكَ الْعَرَبِيَّةُ وَالْإِرَادَةُ عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ .

وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ الصِّيَامَ عَلَيْكُمْ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، وَلَمْ يُكَلِّفْكُمْ فِي الصَّوْمِ مَا لَا تُطِيقُونَ، فَمَن كَانَ مِنْكُم مَّرِيضًا مَرَضًا يَضُرُّ الصَّوْمَ مَعَهُ، أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ فَلَهُ أَنْ يَفْطَرَ وَيَقْضِيَ الْأَيَّامَ الَّتِي أَفْطَرَهَا بَعْدَ بُرُؤِهِ مِنَ الْمَرَضِ، أَوْ رُجُوعِهِ مِنَ السَّفَرِ.

أَمَّا الْمُقِيمُ غَيْرُ الْمَرِيضِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصَّوْمَ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ لِعُذْرٍ دَائِمٍ كَشَيْخُوخَةٍ أَوْ مَرَضٍ لَا يُرْجَى بُرُؤُهُ فَلَهُ أَنْ يَفْطَرَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُطْعِمَ مِسْكِينًا عَن كُلِّ يَوْمٍ، وَمَنْ صَامَ مُتَطَوِّعًا زِيَادَةً عَنِ الْفَرْضِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ .

وَالْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِصِيَامِهَا هِيَ شَهْرُ رَمَضَانَ. وَيَمْدَحُ اللَّهُ تَعَالَى شَهْرَ رَمَضَانَ وَيُشِيدُ بِفَضْلِهِ، وَهُوَ الشَّهْرُ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الَّذِي يَهْدِي الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَفِيهِ دَلَائِلُ وَحُجَجٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِمَنْ فَهَمَهَا وَتَدَبَّرَهَا، تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْهُدَى الْمُنَافِي لِلضَّلَالَةِ، فَمَنْ شَهِدَ اسْتِهْلَالَ الشَّهْرِ وَجَبَ عَلَيْهِ الصَّوْمُ إِنْ كَانَ مُقِيمًا فِي الْبَلَدِ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي بَدَنِهِ، وَيُكْرَهُ تَعَالَى ذَكَرَ الرُّخْصَةَ فِي الْإِفْطَارِ لِلْمَرَضِيِّ وَالْمُسَافِرِينَ بِشَرْطِ قَضَاءِ الْأَيَّامِ الَّتِي يُفْطَرُونَهَا إِكْمَالًا لِلْعِدَّةِ، وَمَتَى

أَنْهَى الْمُؤْمِنَ عِبَادَتَهُ مِنْ صِيَامٍ وَصَلَاةٍ، كَبَّرَ اللَّهُ، وَذَكَرَهُ وَشَكَرَهُ عَلَى مَا هَدَاهُ، لَعَلَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ لِلَّهِ عَلَى مَا أَعَانَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ .

ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالِاسْتِجَابَةِ إِلَيْهِ، وَبِالْقِيَامِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِبَادَاتِ، كَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ.. لَعَلَّهُمْ يَكُونُونَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ الرَّاشِدِينَ . (فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ كَانَ الْمُسْلِمُ إِذَا أَفْطَرَ يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالْجَمَاعُ حَتَّى صَلَاةِ الْعِشَاءِ، أَوْ إِلَى أَنْ يَنَامَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ، أَوْ نَامَ قَبْلَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ حَرَّمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجَمَاعُ إِلَى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ. فَوَجَدُوا فِي ذَلِكَ مَشَقَّةً كَبِيرَةً بِسَبَبِ اخْتِلَاطِهِمْ فِي الْمَبِيتِ وَالْحَيَاةِ فَخَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ) .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ:

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الْجَمَاعَ (الرَّفَثُ)، أَنْتُمْ سَكَنَ (لِبَاسٌ) لِنِسَائِكُمْ وَهِنَّ سَكَنَ لَكُمْ، فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ يُخَالِفُ الْأَمْرَ الدِّينِيَّ فَيُخْتَانُ نَفْسَهُ، إِذْ يَعْتَقِدُ شَيْئًا ثُمَّ لَا يَلْتَزِمُ الْعَمَلَ بِهِ، فَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيُجَامِعُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ أَوْ بَعْدَ نَوْمِهِ إِنْ نَامَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَعَفَا عَنْكُمْ، وَتَجَاوَزَ عَنْ أَخْطَائِكُمْ. ثُمَّ أَعْلَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ سَمَحَ لَهُمْ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمُبَاشَرَةِ نِسَائِهِمْ حَتَّى الْفَجْرِ (أَي حَتَّى يَتَبَيَّنَ ضِيَاءُ الصُّبْحِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ). فَمَتَى ظَهَرَ الْفَجْرُ امْتَنَعَ عَلَى الصَّائِمِ مَا كَانَ مُبَاحًا لَهُ فِي اللَّيْلِ، وَيَسْتَمِرُّ صَوْمَهُ حَتَّى مَغِيبِ الشَّمْسِ، وَظُهُورِ أَوَّلِ اللَّيْلِ .

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَعْتَكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ أَوْ غَيْرِهَا فِي رَمَضَانَ، أَوْ فِي غَيْرِهِ لِلتُّسُكِ وَالْعِبَادَةِ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مُبَاشَرَةَ النِّسَاءِ، مَا دَامُوا مُعْتَكِفِينَ، حَتَّى وَلَوْ أَتَوْا إِلَى مَنَازِلِهِمْ لِقَضَاءِ بَعْضِ حَوَائِجِهِمْ لِيَعُودُوا بَعْدَهَا إِلَى الْإِعْتِكَافِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَعْتَكِفُونَ فِيهِ. وَيَقُولُ تَعَالَى إِنَّ مَا بَيْنَهُ وَفَرَضَهُ وَحَدَدَهُ مِنَ الصِّيَامِ، وَمَا أَبَاحَهُ وَمَا حَرَّمَهُ. هِيَ الْحُدُودُ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ، عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لِيَعْرِفُوا كَيْفَ يَهْتَدُونَ، وَكَيْفَ يُطِيعُونَ (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)^{٢٠}.

إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - يَعْلَمُ أَنَّ التَّكْلِيفَ أَمْرٌ تَحْتَاجُ النَفْسَ الْبَشَرِيَّةَ فِيهِ إِلَى عَوْنٍ وَدَفْعٍ وَاسْتِجَاشَةٍ لِنَهْضِ بِهِ وَتَسْتَجِيبَ لَهُ مَهْمَا يَكُنُ فِيهِ مِنْ حِكْمَةٍ وَنَفْعٍ، حَتَّى تَقْتَنِعَ بِهِ وَتَرْضَى عَلَيْهِ.

وَمِنْ ثَمَّ يَبْدَأُ التَّكْلِيفَ بِذَلِكَ النِّدَاءِ الْحَبِيبِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، الْمَذْكُورِ لَهُمْ بِمَحَقِقَتِهِمُ الْأَصِيلَةَ ثُمَّ يَقْرَرُ لَهُمْ - بَعْدَ نِدَائِهِمْ ذَلِكَ النِّدَاءَ - أَنَّ الصَّوْمَ فَرِيضَةٌ قَدِيمَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ فِي كُلِّ دِينٍ، وَأَنَّ الْغَايَةَ الْأُولَى هِيَ إِعْدَادُ قُلُوبِهِمُ لِلتَّقْوَى وَالشَّفَافِيَّةِ وَالْحَسَّاسِيَّةِ وَالْخَشْيَةِ مِنَ اللَّهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ..

وَهَكَذَا تَبْرُزُ الْغَايَةُ الْكَبِيرَةُ مِنَ الصَّوْمِ .. إِنَّمَا التَّقْوَى .. فَالتَّقْوَى هِيَ الَّتِي تَسْتَيْقِظُ فِي الْقُلُوبِ وَهِيَ تُوَدِّي هَذِهِ الْفَرِيضَةَ، طَاعَةَ اللَّهِ، وَإِثَارًا لِرِضَاهِ. وَالتَّقْوَى هِيَ الَّتِي تَحْرُسُ هَذِهِ الْقُلُوبَ مِنْ إِفْسَادِ الصَّوْمِ

^{٢٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه.

فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم. وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتجهون إليه عن طريق الصيام.. «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» .. ثم يثني بتقرير أن الصوم أيام معدودات، فليس فريضة العمر وتكليف الدهر. ومع هذا فقد أعفي من أدائه المرضى حتى يصحوا، والمسافرون حتى يقيموا، تحقيقاً وتيسيراً: «أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ..

وظاهر النص في المرض والسفر يطلق ولا يحدد. فأى مرض وأي سفر يسوغ الفطر، على أن يقضي المريض حين يصح والمسافر حين يقيم. وهذا هو الأولى في فهم هذا النص القرآني المطلق، والأقرب إلى المفهوم الإسلامي في رفع الحرج ومنع الضرر. فليست شدة المرض ولا مشقة السفر هي التي يتعلق بها الحكم إنما هي المرض والسفر إطلاقاً، لإرادة اليسر بالناس لا العسر. ونحن لا ندرى حكمة الله كلها في تعليقه بمطلق المرض ومطلق السفر فقد تكون هناك اعتبارات أخرى يعلمها الله ويجهلها البشر في المرض والسفر وقد تكون هناك مشقات أخرى لا تظهر للحظتها، أو لا تظهر للتقدير البشري.. وما دام الله لم يكشف عن علة الحكم فنحن لا نتأولها ولكن نطيع النصوص ولو خفيت علينا حكمتهما. فوراءها قطعاً حكمة. وليس من الضروري أن نكون نحن ندر كها.

يبقى أن القول بهذا يخشى أن يحمل المترخصين على شدة الترخيص، وأن تحمل العبادات المفروضة لأذن سبب. مما جعل الفقهاء يتشددون ويشترطون. ولكن هذا - في اعتقادي - لا يبرر التقييد فيما أطلقه النص. فالدين لا يقود الناس بالسلاسل إلى الطاعات، إنما يقودهم بالتقوى. وغاية هذه العبادة خاصة هي التقوى.

والذي يفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة لا خير فيه منذ البدء، لأن الغاية الأولى من أداء الفريضة لا تتحقق. وهذا الدين دين الله لا دين الناس. والله أعلم بتكامل هذا الدين، بين مواضع الترخيص ومواضع التشدد وقد يكون وراء الرخصة في موضع من المصلحة ما لا يتحقق بدونها. بل لا بد أن يكون الأمر كذلك. ومن ثم أمر رسول الله - ﷺ - أن يأخذ المسلمون برخص الله التي رخصها لهم^{٢١}. وإذا حدث أن فسد الناس في جيل من الأجيال فإن إصلاحهم لا يتأتى من طريق التشدد في الأحكام ولكن يتأتى من طريق إصلاح تربيتهم وقلوبهم واستحياء شعور التقوى في أرواحهم. وإذا صح التشدد في أحكام المعاملات عند فساد الناس كعلاج رادع، وسد للذرائع، فإن الأمر في الشعائر التعبديّة يختلف، إذ هي حساب بين العبد والرب، لا تتعلق به مصالح العباد تعلقاً مباشراً كأحكام

^{٢١} - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ، كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ. صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [٦٩/ ٢] (٣٥٤) صحيح

المعاملات التي يراعى فيها الظاهر. والظاهر في العبادات لا يجدي ما لم يقم على تقوى القلوب. وإذا وجدت التقوى لم يتفلسف، ولم يستخدم الرخصة إلا حيث يرتضيها قلبه، ويراهها هي الأولى، ويحس أن طاعة الله في أن يأخذ بها في الحالة التي يواجهها.

أما تشديد الأحكام جملة في العبادات أو الميل إلى التضييق من إطلاق الرخص التي أطلقتها النصوص، فقد ينشئ حرجا لبعض المتحرجين. في الوقت الذي لا يجدي كثيرا في تقويم المتفلسفين.. والأولى على كل حال أن نأخذ الأمور بالصورة التي أرادها الله في هذا الدين. فهو أحكم منا وأعلم بما وراء رخصه وعزائمه من مصالح قريبة وبعيدة.. وهذا هو جماع القول في هذا المجال.

بقي أن نثبت هنا بعض ما روي من السنة في حالات متعددة من حالات السفر، في بعضها كان التوجيه إلى الفطر وفي بعضها لم يقع نهي عن الصيام.. وهي بمجموعها تساعد على تصور ما كان عليه السلف الصالح من إدراك للأمر، قبل أن تأخذ الأحكام شكل التعقيد الفقهي على أيدي الفقهاء المتأخرين. وصورة سلوك أولئك السلف - رضوان الله عليهم - أملا بالحوية، وألصق بروح هذا الدين وطبيعته، من البحوث الفقهية ومن شأن الحياة معها وفي جوها أن تنشئ في القلب مذاقا حيا لهذه العقيدة وخصائصها:

١ - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - خَرَجَ عَامَ الْفَتْحِ إِلَى مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْعَمِيمِ فَصَامَ النَّاسُ ثُمَّ دَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ فَرَفَعَهُ حَتَّى نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ ثُمَّ شَرِبَ فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ صَامَ فَقَالَ « أُولَئِكَ الْعَصَاةُ أُولَئِكَ الْعَصَاةُ ». (أخرجه مسلم) ٢٢.

٢ - وَعَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - فِي السَّفَرِ فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ - قَالَ - فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فِي يَوْمٍ حَارًّا أَكْثَرْنَا ظِلًّا صَاحِبُ الْكِسَاءِ وَمِنَّا مَنْ يَتَّقِي الشَّمْسَ بِيَدِهِ - قَالَ - فَسَقَطَ الصُّوَامُ وَقَامَ الْمُفْطِرُونَ فَضَرَبُوا الْأَبْنِيَةَ وَسَقَوْا الرِّكَابَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَحْرِ ». (أخرجه مسلم) ٢٣.

٣ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي سَفَرٍ، فَرَأَى زِحَامًا، وَرَجُلًا قَدْ ظَلَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ « مَا هَذَا » فَقَالُوا صَائِمٌ. فَقَالَ « لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصُّوْمُ فِي السَّفَرِ »... (أخرجه البخاري) ٢٤

٢٢ - صحيح مسلم - المكثر - (٢٦٦٦)

٢٣ - صحيح مسلم - المكثر - (٢٦٧٨)

٢٤ - صحيح البخاري - المكثر - (١٩٤٦)

٤ - وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ قَالَ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - مِنْ سَفَرٍ فَقَالَ « انْتَظِرِ الْعَدَاءَ يَا أَبَا أُمَيَّةَ ». فَقُلْتُ إِنِّي صَائِمٌ. فَقَالَ « تَعَالَ اذْنُ مِنِّي حَتَّى أُخْبِرَكَ عَنِ الْمُسَافِرِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَ عَنْهُ الصِّيَامَ وَنِصْفَ الصَّلَاةِ ». (أخرجه النسائي) ٢٥ ..

٥ - وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: أَغَارَتْ عَلَيْنَا خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَأْكُلُ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَصِْبْ مِنْ طَعَامِنَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي صَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: اجْلِسْ أُخْبِرَكَ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالصَّوْمِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَ شَطْرَ الصَّلَاةِ عَنِ الْمُسَافِرِ، وَوَضَعَ الصَّوْمَ أَوْ الصِّيَامَ عَنِ الْمَرِيضِ، وَالْحَبْلِيِّ، وَالْمَرَضِ، وَاللَّهِ لَقَدْ قَالَهَا جَمِيعًا، فَيَا لَهْفَ نَفْسِي أَنْ لَا أَكُونَ أَكَلْتُ مِنْ طَعَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. (أخرجه أصحاب السنن) ٢٦

٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّ حَمْرَةَ بِنَ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ - أَأَصُومُ فِي السَّفَرِ وَكَانَ كَثِيرَ الصِّيَامِ. فَقَالَ « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ ». (أخرجه البخاري) ٢٧

٧ - وَعَنْ حُمَيْدٍ، قَالَ: خَرَجْتُ فَصُمْتُ، فَقَالُوا لِي: أَعَدُّ، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ أَنَسًا أَخْبَرَنِي، أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، " كَانُوا يُسَافِرُونَ، فَلَا يَعْيبُ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ " فَلَقِيتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ، فَأَخْبَرَنِي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِمِثْلِهِ ٢٨

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ كُنَّا نَعْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فِي رَمَضَانَ فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ فَلَا يَجِدُ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ يَرُونَ أَنَّ مَنْ وَجَدَ قُوَّةَ فَصَامَ فَإِنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ وَيَرُونَ أَنَّ مَنْ وَجَدَ ضَعْفًا فَأَفْطَرَ فَإِنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ. ٢٩

٨ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ حَتَّى إِذَا كَانَ أَحَدُنَا لِيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَمَا فِيْنَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ... (أخرجه مسلم) ٣٠.

٩ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ أَتَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ يُرِيدُ سَفَرًا وَقَدْ رُحِلَتْ لَهُ رَاحِلَتُهُ وَلَبِسَ ثِيَابَ السَّفَرِ فَدَعَا بِطَعَامٍ فَأَكَلَ فَقُلْتُ لَهُ سُنَّةٌ قَالَ سُنَّةٌ. ثُمَّ رَكِبَ. (أخرجه الترمذي) ٣١.

٢٥ - سنن النسائي - المكثر - (٢٢٧٩) صحيح

٢٦ - الأحاد والمثاني - (١٤٩٣) وجامع الأصول في أحاديث الرسول - (٤٠٧ / ٦) (٤٥٩٥) صحيح

شطر كل شيء: نصفه. - للرضع: المرضع: المرأة التي لها ولد ترضعه، فإن وصفتها بإرضاع الولد قلت: مرضعة.

٢٧ - صحيح البخاري - المكثر - (١٩٤٣)

٢٨ - صحيح مسلم - المكثر - (٢٦٧٧)

٢٩ - صحيح مسلم - المكثر - (٢٦٧٤)

٣٠ - صحيح مسلم - المكثر - (٢٦٨٦)

١٠ - وَعَنْ عُبَيْدٍ قَالَ كُنْتُ مَعَ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ - فِي سَفِينَةٍ مِنَ الْفُسْطَاطِ فِي رَمَضَانَ فَرُفِعَ ثُمَّ قُرِبَ غَدَاؤُهُ فَلَمْ يُجَاوِزِ الْبُيُوتَ حَتَّى دَعَا بِالسُّفْرَةِ قَالَ اقْتَرِبْ. قُلْتُ أَلَسْتَ تَرَى الْبُيُوتَ قَالَ أَبُو بَصْرَةَ أَتُرْغَبُ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - قَالَ فَأَكَل... (أخرجه أبو داود) ٣٢

١١ - وَعَنْ مَنْصُورِ الْكَلْبِيِّ أَنَّ دَحِيَّةَ بِنَ خَلِيفَةَ خَرَجَ مِنْ قَرْيَةٍ مِنْ دِمَشْقَ مَرَّةً إِلَى قَدْرِ قَرْيَةٍ عُقْبَةَ مَنْ الْفُسْطَاطِ وَذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ فِي رَمَضَانَ ثُمَّ إِنَّهُ أَفْطَرَ وَأَفْطَرَ مَعَهُ نَاسٌ وَكَرِهَ آخَرُونَ أَنْ يُفْطَرُوا فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَرْيَتِهِ قَالَ وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ أَمْرًا مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّي أَرَاهُ إِنْ قَوْمًا رَعِبُوا عَنْ هَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَأَصْحَابِهِ. يَقُولُ ذَلِكَ لِلَّذِينَ صَامُوا ثُمَّ قَالَ عِنْدَ ذَلِكَ اللَّهُمَّ أَقْبِضْنِي إِلَيْكَ... (أخرجه أبو داود) ٣٣ ..

فهذه الأحاديث في حملتها تشير إلى تقبل رخصة الإفطار في السفر في سماحة ويسر. وترجح الأخذ بها. ولا تشترط وقوع المشقة للأخذ بها كما يشير إلى ذلك الحديثان الأخيران بوجه خاص، وإذا كان الحديث الثامن منها يشير إلى أن رسول الله ﷺ - وحده ظل مرة صائما مع المشقة هو وعبد الله بن رواحة، فقد كانت له - ﷺ - خصوصيات في العبادة يعفي منها أصحابه. كنهيه لهم عن مواصلة الصوم وهو كان يواصل أحيانا. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ وَأَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ - آخِرَ الشَّهْرِ، وَأَصَلَ أَنَاسٌ، مِنَ النَّاسِ فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ - فَقَالَ « لَوْ مَدَّ بِي الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ، إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ ». (أخرجه الشيخان) ٣٤ وثابت من الحديث الأول أنه أفطر وقال عن الذين لم يفطروا: أولئك العصاة. أولئك العصاة. وهذا الحديث متأخر - في سنة الفتح - فهو أحدث من الأحاديث الأخرى. وأكثر دلالة على الاتجاه المختار ..

والصورة التي تنشأ في الحس من مجموع هذه الحالات .. أنه كانت هناك مراعاة لحالات واقعية، تقتضي توجيهها معنا - كما هو الشأن في الأحاديث التي تروى في الموضوع العام الواحد، ونجد فيها توجيهات متنوعة - فالرسول ﷺ - كان يربي وكان يواجه حالات حية. ولم يكن يواجهها بقوالب جامدة! ولكن الانطباع الأخير في الحس في أمر الصوم في السفر هو استحباب الفطر، دون تقييد بحصول المشقة بالفعل ..

٣١ - سنن الترمذي - المكثر [٣/ ٣٥٦] (٨٠٤) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ هُوَ ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ هُوَ مَدِينِيٌّ ثَقَفٌ وَهُوَ أَخُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ هُوَ ابْنُ نَجِيحٍ وَالِدُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَدِينِيِّ وَكَانَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ يُضَعِّفُهُ. وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ وَقَالُوا لِلْمَسَافِرِ أَنْ يُفْطَرُوا فِي بَيْتِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْصُرَ الصَّلَاةَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ جِدَارِ الْمَدِينَةِ أَوْ الْقَرْيَةِ. وَهُوَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيِّ.

٣٢ - سنن أبي داود - المكثر [٢/ ٢٩٢] (٢٤١٤) حسن لغيره

٣٣ - سنن أبي داود - المكثر [٢/ ٢٩٣] (٢٤١٥) ضعيف

٣٤ - صحيح البخاري - المكثر [٢٤/ ٢٣] (٧٢٤١) وصحيح مسلم - المكثر [٧/ ١١٧] (٢٦٢٦)

أما المرض فلم أجد فيه شيئاً إلا أقوال الفقهاء، والظاهر أنه مطلق في كل ما يثبت له وصف المرض، بلا تحديد في نوعه وقدره ولا خوف شدته، على وجوب القضاء يوماً بيوم في المرض والسفر، من غير موالة في أيام القضاء على الرأي الأرجح.

وقد استطرقت هذا الاستطراد لأخوض في خلافات فقهية ولكن لتقرير قاعدة في النظر إلى الشعائر التعبدية، وارتباطها الوثيق بإنشاء حالة شعورية هي الغاية المقدمة منها. وهذه الحالة هي التي تحكم سلوك المتعبد وعليها الاعتماد الأول في تربية ضميره، وحسن أدائه للعبادة وحسن سلوكه في الحياة.. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أن نأخذ هذا الدين - كما أراده الله - بتكاليفه كلها، طاعة وتقوى وأن نأخذ جملة بعزائم ورخصه، متكاملًا متناسقًا، في طمأنينة إلى الله، ويقين بحكمته، وشعور بتقواه.

ثم نعود إلى استكمال السياق: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ..

وفي أول الأمر كان تكليف الصوم شاقاً على المسلمين - وقد فرض في السنة الثانية من الهجرة قبيل فرض الجهاد - فجعل الله فيه رخصة لمن يستطيع الصوم بجهد - وهو مدلول يطيقونه - فالإطاعة الاحتمال بأقصى جهد - جعل الله هذه الرخصة، وهي الفطر مع إطعام مسكين.. ثم حبيهم في التطوع بإطعام المساكين إطلاقاً، إما تطوعاً بغير الفدية، وإما بالإكثار عن حد الفدية، كأن يطعم اثنين أو ثلاثة أو أكثر بكل يوم من أيام الفطر في رمضان: «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ» .. ثم حبيهم في اختيار الصوم مع المشقة - في غير سفر ولا مرض - : «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .. لما في الصوم من خير في هذه الحالة. يبدو منه لنا عنصر تربية الإرادة، وتقوية الاحتمال، وإيثار عبادة الله على الراحة. وكلها عناصر مطلوبة في التربية الإسلامية.

كما يبدو لنا منه ما في الصوم من مزايا صحية - لغير المريض - حتى ولو أحس الصائم بالجهد. وعلى أية حال فقد كان هذا التوجيه تمهيداً لرفع هذه الرخصة عن الصحيح المقيم وإيجاب الصيام إطلاقاً.

كما جاء فيما بعد. وقد بقيت للشيخ الكبير الذي يجهد الصوم، ولا ترجى له حالة يكون فيها قادراً على القضاء.. فعن مالك بن أنس: "أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، كَبِرَ حَتَّى كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الصِّيَامِ، فَكَانَ يَفْتَدِي" ٣٥ ..

٣٥ - مَعْرِفَةُ السُّنَنِ وَالْأَثَرِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٢٦٨١) حسن

قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَخَالَفَهُ مَالِكٌ، فَقَالَ: لَيْسَ عَلَيْهِ بِوَاجِبٍ قَالَ أَحْمَدُ: هَذَا مُنْقَطِعٌ وَقَدْ رُوِيَ، عَنْ فَتَادَةَ، مَوْصُولًا، عَنْ أَنَسٍ: "أَنَّهُ ضَعْفَ عَامًا قَبْلَ مَوْتِهِ، فَأَفْطَرَ وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُطْعِمُوا مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا"

وَعَنْ عَطَاءٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ (وَعَلَى الَّذِينَ يُطَوَّقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ) . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَيْسَتْ بِمَنْسُوحَةٍ، هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَلْيُطْعِمَا مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مَسْكِينًا
 ٣٦
 ...

وعن ابن أبي ليلى قال: دخلت على عطاء وهو يأكل في شهر رمضان، فقال: إني شيخ كبير، إن الصوم نزل، فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، حتى نزلت هذه الآية: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر"، فوجب الصوم على كل أحد، إلا مريض أو مسافر أو شيخ كبير مثلي يفتدي. ٣٧.

وتحبيب آخر في أداء هذه الفريضة للصحيح المقيم .. إنها صوم رمضان: الشهر الذي أنزل فيه القرآن - إما بمعنى أن بدء نزوله كان في رمضان، أو أن معظمه نزل في أشهر رمضان - والقرآن هو كتاب هذه الأمة الخالد، الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، فأنشأها هذه النشأة، وبدلها من خوفها أمناً، ومكن لها في الأرض، ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة، ولم تكن من قبل شيئاً. وهي بدون هذه المقومات ليست أمة وليس لها مكان في الأرض ولا ذكر في السماء. فلا أقل من شكر الله على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى صوم الشهر الذي نزل فيه القرآن: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ .. فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ. وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ..

وهذه هي الآية الموجبة الناسخة لرخصة الإفطار والفدية بالنسبة للصحيح المقيم - فيما عدا الشيخ والشيخة كما أسلفنا: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» .. أي من حضر منكم الشهر غير مسافر. أو من رأى منكم هلال الشهر. والمستيقن من مشاهدة الهلال بأية وسيلة أخرى كالذي يشهده في إيجاب الصوم عليه عدة أيام رمضان.

ولما كان هذا نصاً عاماً فقد عاد ليستثني منه من كان مريضاً أو على سفر: «وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» ..

وتحبيب ثالث في أداء الفريضة، وبيان لرحمة الله في التكليف وفي الرخصة سواء: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» ..

وهذه هي القاعدة الكبرى في تكاليف هذه العقيدة كلها. فهي ميسرة لا عسر فيها. وهي توحى للقلب الذي يتذوقها، بالسهولة واليسر في أخذ الحياة كلها وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التي لا تكلف فيها ولا تعقيد. سماحة تؤدي معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاط الحياة الجادة

٣٦ - صحيح البخارى - المكثر [١٤ / ٤٨٣] ٤٥٠٥

٣٧ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٣ / ٤٢٢] (٢٧٤٤) حسن

وكأنما هي مسيل الماء الجاري، ونمو الشجرة الصاعدة في طمأنينة وثقة ورضاء. مع الشعور الدائم برحمة الله وإرادته اليسر لا العسر بعباده المؤمنين.

وقد جعل الصوم للمسافر والمريض في أيام أحر، لكي يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر، فلا يضيع عليه أجرها: «وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ».

والصوم على هذا نعمة تستحق التكبير والشكر: «وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» فهذه غاية من غايات الفريضة.. أن يشعر الذين آمنوا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم. وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة. وهم مكفوفو القلوب عن التفكير في المعصية، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها. وهم شاعرون بالهدى ملموسا محسوسا. ليكبروا الله على هذه الهداية، وليشكروه على هذه النعمة. ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة. كما قال لهم في مطلع الحديث عن الصيام: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ..

وهكذا تبدو منة الله في هذا التكليف الذي يبدو شاقا على الأبدان والنفوس. وتتجلى الغاية التربوية منه، والإعداد من ورائه للدور العظيم الذي أخرجت هذه الأمة لتؤديه، أداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير..^{٣٨}



^{٣٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٨٦)

٦. الدخول في السلم كافةً

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) } سورة البقرة

يَدْعُو اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْأَخْذِ بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ، وَالْعَمَلِ بِجَمِيعِ أَوْامِرِهِ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ، وَيُرِيدُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّهُ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِتِّفَاقُ وَالْإِتِّحَادُ، لَا التَّفَرُّقُ وَالْإِنْتِسَامُ .
ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُهُم بِهِ الشَّيْطَانُ لِأَنَّهُ يَأْمُرُ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَيَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ، وَلِهَذَا كَانَ الشَّيْطَانُ عَدُوًّا بَيْنَ الْعِدَاوَةِ لِلْإِنْسَانِ .
فَإِنْ عَدَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَحَدَّثْتُمْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي دَعَاكُمْ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ السِّلْمُ، وَسِرْتُمْ فِي طَرِيقِ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ طَرِيقُ الْخِلَافِ وَالْإِفْتِرَاقِ، بَعْدَمَا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى أَنَّ صِرَاطَ اللَّهِ هُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ، فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ فِي أَنْتِقَامِهِ، لَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، حَكِيمٌ فِي أَحْكَامِهِ، وَفِي نَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ .^{٣٩}
إنها دعوة للمؤمنين باسم الإيمان. بهذا الوصف المحب إليهم، والذي يميزهم ويفردهم، ويصلهم باللله الذي يدعوهم .. دعوة للذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ..

وأول مفاهيم هذه الدعوة أن يستسلم المؤمنون بكلياتهم لله، في ذوات أنفسهم، وفي الصغير والكبير من أمرهم. أن يستسلموا الاستسلام الذي لا تبقى بعده بقية ناشزة من تصور أو شعور، ومن نية أو عمل، ومن رغبة أو رهبة، لا تخضع لله ولا ترضى بحكمه وقضاه. استسلام الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية. الاستسلام لليد التي تقود خطاهم وهم واثقون أنها تريد بهم الخير والنصح والرشاد وهم مطمئنون إلى الطريق والمصير، في الدنيا والآخرة سواء.

وتوجيه هذه الدعوة إلى الذين آمنوا إذ ذاك تشي بأنه كانت هنالك نفوس ما تزال يثور فيها بعض التردد في الطاعة المطلقة في السر والعلن. وهو أمر طبيعي أن يوجد في الجماعة إلى جانب النفوس المطمئنة الواثقة الراضية .. وهي دعوة توجه في كل حين للذين آمنوا ليخلصوا ويتجردوا وتتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع ما يريد الله بهم، وما يقودهم إليه نبيهم ودينهم، في غير ما تلجج ولا تردد ولا تلفت.

والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام. عالم كله ثقة واطمئنان، وكله رضى واستقرار. لا حيرة ولا قلق، ولا شرود ولا ضلال. سلام مع النفس والضمير. سلام مع العقل والمنطق. سلام مع الناس والأحياء. سلام مع الوجود كله ومع كل

^{٣٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢١٥، بترقيم الشاملة آليا)

موجود. سلام يرف في حنايا السريرة. وسلام يظلل الحياة والمجتمع. سلام في الأرض وسلام في السماء. وأول ما يفيض هذا السلام على القلب يفيض من صحة تصوره لله ربّه، ونصاعة هذا التصور وبساطته ..

إنه إله واحد. يتجه إليه المسلم وجهة واحدة يستقر عليها قلبه فلا تتفرق به السبل، ولا تتعدد به القبل ولا يطارده إله من هنا وإله من هناك - كما كان في الوثنية والجاهلية - إنما هو إله واحد يتجه إليه في ثقة وفي طمأنينة وفي نصاعة وفي وضوح.

وهو إله قوي قادر عزيز قاهر .. فإذا اتجه إليه المسلم فقد اتجه إلى القوة الحقّة الوحيدة في هذا الوجود. وقد أمن كل قوة زائفة واطمأن واستراح. ولم يعد يخاف أحداً أو يخاف شيئاً، وهو يعبد الله القوي القادر العزيز القاهر. ولم يعد يخشى فوت شيء. ولا يطمع في غير من يقدر على الحرمان والعطاء. وهو إله عادل حكيم، فقوته وقدرته ضمان من الظلم، وضمنان من الهوى، وضمنان من البخس. وليس كآلهة الوثنية والجاهلية ذوات التزوات والشهوات. ومن ثم يأوي المسلم من إلهه إلى ركن شديد، ينال فيه العدل والرعاية والأمان.

وهو رب رحيم ودود. منعم وهاب. غافر الذنب وقابل التوب. يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء. فالمسلم في كنفه آمن آنس، سالم غانم، مرحوم إذا ضعف، مغفور له متى تاب .. وهكذا يمضي المسلم مع صفات ربه التي يعرفه بها الإسلام فيجد في كل صفة ما يؤنس قلبه، وما يطمئن روحه، وما يضمن معه الحماية والوقاية والعطف والرحمة والعزة والمنعة والاستقرار والسلام كذلك يفيض السلام على قلب المسلم من صحة تصور العلاقة بين العبد والرب. وبين الخالق والكون. وبين الكون والإنسان .. فالله خلق هذا الكون بالحق وخلق كل شيء فيه بقدر وحكمة. وهذا الإنسان مخلوق قصداً، وغير متروك سدى، ومهيأ له كل الظروف الكونية المناسبة لوجوده، ومسخر له ما في الأرض جميعاً.

وهو كريم على الله، وهو خليفته في أرضه. والله معينه على هذه الخلافة. والكون من حوله صديق مأنوس، تتجاوب روحه مع روحه، حين يتجه كلاهما إلى الله ربّه. وهو مدعو إلى هذا المهرجان الإلهي المقام في السماوات والأرض ليتملاه ويأنس به. وهو مدعو للتعاطف مع كل شيء ومع كل حي في هذا الوجود الكبير، الذي يعج بالأصدقاء المدعويين مثله إلى ذلك المهرجان! والذين يؤلفون كلهم هذا المهرجان! والعقيدة التي تقف صاحبها أمام النبتة الصغيرة، وهي توحى إليه أن له أجراً حين يرويها من عطش، وحين يعينها على النماء، وحين يزيل من طريقها العقبات .. هي عقيدة جميلة فوق أنها عقيدة كريمة. عقيدة تسكب في روحه السلام وتطلقه يعانق الوجود كله ويعانق كل موجود ويشيع من حوله الأمن والرفق، والحب والسلام.

والاعتقاد بالآخرة يؤدي دوره الأساسي في إفاضة السلام على روح المؤمن وعالمه ونفي القلق والسخط والقنوط.. إن الحساب الختامي ليس في هذه الأرض والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة.. إن الحساب الختامي هناك والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب. فلا ندم على الخير والجهاد في سبيله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءه. ولا قلق على الأجر إذا لم يوف في هذه العاجلة بمقاييس الناس، فسوف يوفاه بميزان الله. ولا قنوط من العدل إذا توزعت الحظوظ في الرحلة القصيرة على غير ما يريد، فالعدل لا بد واقع. وما الله يريد ظلماً للعباد.

والاعتقاد بالآخرة حاجز كذلك دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات.

بلا تخرج ولا حياء. فهناك الآخرة فيها عطاء، وفيها غناء، وفيها عوض عما يفوت. وهذا التصور من شأنه أن يفيض السلام على مجال السباق والمنافسة وأن يخلع التجمل على حركات المتسابقين وأن يخفف السعار الذي ينطلق من الشعور بأن الفرصة الوحيدة المتاحة هي فرصة هذا العمر القصير المحدود! ومعرفة المؤمن بأن غاية الوجود الإنساني هي العبادة، وأنه مخلوق ليعبد الله.. من شأنها - ولا شك - أن ترفعه إلى هذا الأفق الوضيء. ترفع شعوره وضميره، وترفع نشاطه وعمله، وتنظف وسائله وأدواته. فهو يريد العبادة بنشاطه وعمله وهو يريد العبادة بكسبه وإنفاقه وهو يريد العبادة بالخلافة في الأرض وتحقيق منهج الله فيها. فأولى به ألا يغدر ولا يفجر وأولى به ألا يغش ولا يخدع وأولى به ألا يطغى ولا يتجبر وأولى به ألا يستخدم أداة مدنسة ولا وسيلة خسيصة. وأولى به كذلك ألا يستعجل المراحل، وألا يعتسف الطريق، وألا يركب الصعب من الأمور. فهو بالغ هدفه من العبادة بالنية الخالصة والعمل الدائب في حدود الطاقة.. ومن شأن هذا كله ألا تنور في نفسه المخاوف والمطامع، وألا يستبد به القلق في أية مرحلة من مراحل الطريق.

فهو يعبد في كل خطوة وهو يحقق غاية وجوده في كل خطوة، وهو يرتقي صعوداً إلى الله في كل نشاط وفي كل مجال.

وشعور المؤمن بأنه يمضي مع قدر الله، في طاعة الله، لتحقيق إرادة الله.. وما يسكبه هذا الشعور في روحه من الطمأنينة والسلام والاستقرار والمضي في الطريق بلا حيرة ولا قلق ولا سخط على العقبات والمشاق وبلا قنوط من عون الله ومدده وبلا خوف من ضلال القصد أو ضياع الجزاء.. ومن ثم يحس بالسلام في روحه حتى وهو يقاتل أعداء الله وأعداءه. فهو إنما يقاتل لله، وفي سبيل الله، وإعلاء كلمة الله ولا يقاتل لجاه أو مغنم أو نزوة أو عرض ما من أعراض هذه الحياة.

كذلك شعوره بأنه يمضي على سنة الله مع هذا الكون كله. قانونه قانونه، ووجهته وجهته. فلا صدام ولا خصام، ولا تبديد للجهد ولا بعثرة للطاقة. وقوى الكون كله تتجمع إلى قوته، وتهتدي بالنور الذي يهتدي به، وتتجه إلى الله وهو معها يتجه إلى الله.

والتكاليف التي يفرضها الإسلام على المسلم كلها من الفطرة ولتصحيح الفطرة. لا تتجاوز الطاقة ولا تتجاهل طبيعة الإنسان وتركيبه ولا تهمل طاقة واحدة من طاقاته لا تطلقها للعمل والبناء والنماء ولا تنسى حاجة واحدة من حاجات تكوينه الجشمان والروحي لا تلبىها في يسر وفي سماحة وفي رخاء .. ومن ثم لا يحار ولا يقلق في مواجهة تكاليفه. يحمل منها ما يطيق حمله، ويمضي في الطريق إلى الله في طمأنينة وروح وسلام.

والمجتمع الذي ينشئه هذا المنهج الرباني، في ظل النظام الذي ينبثق من هذه العقيدة الجميلة الكريمة، والضمانات التي يحيط بها النفس والعرض والمال .. كلها مما يشيع السلم وينشر روح السلام. هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق. هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صورته. ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب، تختلف درجة صفائه، ولكنه يظل في جملة خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة - آصرة العقيدة - حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان، واللغات والألوان، وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان ..

هذا المجتمع الذي يسمع الله يقول له: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (١٠) سورة الحجرات .. والذي يرى صورته في قول رسول الله - ﷺ - « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى » ٤٠ ..

هذا المجتمع الذي من آدابه: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} (٨٦) سورة النساء .. {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (١٨) سورة لقمان .. {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (٣٤) سورة فصلت .. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءِ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئسَ الإِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (١١) سورة الحجرات .. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (١٢) سورة الحجرات ..

٤٠ - صحيح مسلم - المكثر - (٦٧٥١)

هذا المجتمع الذي من ضماناته: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (٦) سورة الحجرات .. { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } (١٢) سورة الحجرات

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٢٧) سورة النور .. وقول رسول الله - ﷺ - « لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ هَا هُنَا ». « وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِحَسَبِ امْرِئٍ مِّنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرِضُهُ ». ٤١ ..

ثم هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تشيع فيه الفاحشة ولا يتبجح فيه الإغراء، ولا تروج فيه الفتنة، ولا ينتشر فيه التبرج، ولا تلتفت فيه الأعين على العورات، ولا ترف فيه الشهوات على الحرمان، ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا .. هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة، والذي يسمع الله - سبحانه - يقول: { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (١٩) سورة النور .. { الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } (٢) سورة النور .. { وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (٤) سورة النور

.. { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } (٣٠) سورة النور .. { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرَابَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٣١) سورة النور

والذي يخاطب فيه نساء النبي - أظهر نساء الأرض في أظهر بيت في أظهر بيئة في أظهر زمان { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ

٤١ - صحيح مسلم - المكثر - (٦٧٠٦)

قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) { سورة الأحزاب ..

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها، ويأمن الزوج على زوجته، ويأمن الأولياء على حرماهم وأعراضهم، ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم. حيث لا تقع العيون على المفاتن، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم. فإما الخيانة المتبادلة حينذاك وإما الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب .. بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن، ترف عليه أجنحة السلم والطهر والأمان!

وأخيرا إنه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملا ورزقا، ولكل عاجز ضمانا للعيش الكريم، ولكل راغب في العفة والحصانة زوجة سالحة، والذي يعتبر أهل كل حي مسؤولين مسؤولية جنائية لومات فيهم جائع حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالدية.

والمجتمع الذي تكفل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماهم وأمواهم بحكم التشريع، بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع. فلا يؤخذ واحد فيه بالظنة، ولا يتسور على أحد بيته، ولا يتجسس على أحد فيه متجسس، ولا يذهب فيه دم هدرا والقصاص حاضر ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهباً والحدود حاضرة.

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون. كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أن حقه منوط بحكم شريعة الله لا بإرادة حاكم، ولا هوى حاشية، ولا قرابة كبير.

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية، الذي لا يخضع البشر فيه للبشر. إنما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته وينفذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته. فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين ..

هذه كلها بعض معاني السلم الذي تشير إليه الآية وتدعو الذين آمنوا للدخول فيه كافة. ليسلموا أنفسهم كلها لله فلا يعود لهم منها شيء، ولا يعود لنفوسهم من ذاتها حظ إنما تعود كلها لله في طواعية وفي انقياد وفي تسليم ..

ولا يدرك معنى هذا السلم حق إدراكه من لا يعلم كيف تنطلق الخيرة وكيف يعربد القلق في النفوس التي لا تطمئن بالإيمان، في المجتمعات التي لا تعرف الإسلام، أو التي عرفت ثم تنكرت له، وارتدت إلى الجاهلية، تحت عنوان من شتى العنوانات في جميع الأزمان .. هذه المجتمعات الشقية الحائرة على الرغم من كل ما قد يتوافر لها من الرخاء المادي والتقدم الحضاري، وسائر مقومات الرقي في عرف الجاهلية الضالة التصورات المختلفة الموازين.

وحسبنا مثل واحد مما يقع في بلد أوربي من أرقى بلاد العالم كله وهو «السويد». حيث يخص الفرد الواحد من الدخل القومي ما يساوي خمسمائة جنيه في العام. وحيث يستحق كل فرد نصيبه من

التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقدا والعلاج المجاني في المستشفيات. وحيث التعليم في جميع مراحلها بالجان، مع تقديم إعانات ملابس وقروض للطلبة المتفوقين وحيث تقدم الدولة حوالي ثلاثمائة جنية إعانة زواج لتأثيث البيوت .. وحيث وحيث من ذلك الرخاء المادي والحضاري العجيب ..

ولكن ماذا؟ ماذا وراء هذا الرخاء المادي والحضاري وخلو القلوب من الإيمان بالله؟

إنه شعب مهدد بالانقراض، فالنسل في تناقص مطرد بسبب فوضى الاختلاط! والطلاق بمعدل طلاق واحد لكل ست زيجات بسبب انطلاق التروات وتبرج الفتن وحرية الاختلاط! والجيل الجديد ينحرف فيدمن على المسكرات والمخدرات ليعوض خواء الروح من الإيمان وطمأنينة القلب بالعقيدة. والأمراض النفسية والعصبية والشذوذ بأنواعه تفترس عشرات الآلاف من النفوس والأرواح والأعصاب .. ثم الانتحار .. والحال كهذا في أمريكا .. والحال أشنع من هذا في روسيا ..

إنها الشقوة النكدة المكتوبة على كل قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة. فلا يدوق طعم السلم الذي يدعى المؤمنون ليدخلوا فيه كافة، ولينعموا فيه بالأمن والظل والراحة والقرار: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً .. وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» ..

ولما دعا الله الذين آمنوا أن يدخلوا في السلم كافة ... حذرهم أن يتبعوا خطوات الشيطان. فإنه ليس هناك إلا اتجاهان اثنان. إما الدخول في السلم كافة، وإما اتباع خطوات الشيطان. إما هدى وإما ضلال. إما إسلام وإما جاهلية. إما طريق الله وإما طريق الشيطان. وإما هدى الله وإما غواية الشيطان .. ويمثل هذا الحسم ينبغي أن يدرك المسلم موقفه، فلا يتلحج ولا يتردد ولا يتحير بين شتى السبل وشتى الاتجاهات.

إنه ليست هنالك مناهج متعددة للمؤمن أن يختار واحدا منها، أو يخلط واحدا منها بواحد .. كلا! إنه من لا يدخل في السلم بكليته، ومن لا يسلم نفسه خالصة لقيادة الله وشريعته، ومن لا يتجرد من كل تصور آخر ومن كل منهج آخر ومن كل شرع آخر .. إن هذا في سبيل الشيطان، سائر على خطوات الشيطان ..

ليس هنالك حل وسط، ولا منهج بين بين، ولا خطة نصفها من هنا ونصفها من هناك! إنما هناك حق وباطل. هدى وضلال. إسلام وجاهلية. منهج الله أو غواية الشيطان. والله يدعو المؤمنين في الأولى إلى الدخول في السلم كافة ويحذرهم في الثانية من اتباع خطوات الشيطان. ويستجيش ضمائرهم ومشاعرهم، ويستثير مخاوفهم بتذكيرهم بعداوة الشيطان لهم، تلك العداوة الواضحة البينة، التي لا ينساها إلا غافل. والغفلة لا تكون مع الإيمان. ثم يخوفهم عاقبة الزلل بعد البيان: «فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

وتذكيرهم بأن الله «عَزِيزٌ» يحمل التلويح بالقوة والقدرة والغلبة، وأنهم يتعرضون لقوة الله حين يخالفون عن توجيهه.. وتذكيرهم بأنه «حَكِيمٌ».. فيه إيجاء بأن ما اختاره لهم هو الخير، وما نهاهم هو الشر، وأنهم يتعرضون للخسارة حين لا يتبعون أمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه.. فالتعقيب بشرطيه يحمل معنى التهديد والتحذير في المقام...^{٤٢}



^{٤٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٠)

٧. الإنفاق مما رزقهم الله

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (٢٥٤) سورة البقرة

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي دَفْعِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، وَفِي سَبِيلِ الْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِيَكْسِبُوا ثَوَابَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ فِي الْآخِرَةِ، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ - وَهُوَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ الْإِنْسَانُ إِلَّا عَمَلُهُ الصَّالِحُ الطَّيِّبُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَنْفَعُهُ فِيهِ صَدَاقَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ شَفِيعٍ - وَجَدُوا مَا أَنْفَقُوا عَمَلًا صَالِحًا لَهُمْ يَنْفَعُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْثَرَ ظُلْمًا لِنَفْسِهِ مِمَّنْ يَأْتِي اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا بِرَبِّهِ، شَحِيحًا بِخِيَالًا مُّتَمَتِّعًا عَن دَفْعِ زَكَاةِ مَالِهِ وَعَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.^{٤٣}

إنها الدعوة بالصفة الحبيبة إلى نفوس المؤمنين، والتي تربطهم بمن يدعوهم، والذي هم به مؤمنون: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».. وهي الدعوة إلى الإنفاق من رزقه الذي أعطاهم إياه. فهو الذي أعطى، وهو الذي يدعو إلى الإنفاق مما أعطى: «أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ»..

وهي الدعوة إلى الفرصة التي إن أفلتت منهم فلن تعود «مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ».. فهي الفرصة التي ليس بعدها - لو فوتوها على أنفسهم - بيع تريح فيه الأموال وتنمو. وليس بعده صداقة أو شفاعنة ترد عنهم عاقبة النكول والتقصير.

ويشير إلى الموضوع الذي يدعوهم إلى الإنفاق من أجله. فهو الإنفاق للجهاد. لدفع الكفر. ودفع الظلم المتمثل في هذا الكفر: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ».. ظلّموا الحق فأنكروه. وظلموا أنفسهم فأوردوها موارد الهلاك. وظلموا الناس فصدوهم عن الهدى وفتنوهم عن الإيمان، وموهوا عليهم الطريق، وحرموهم الخير الذي لا خير مثله. خير السلم والرحمة والطمأنينة والصلاح واليقين. إن الذين يجارون حقيقة الإيمان أن تستقر في القلوب ويجارون منهج الإيمان أن يستقر في الحياة ويجارون شريعة الإيمان أن تستقر في المجتمع.. إنما هم أعدى أعداء البشرية وأظلم الظالمين لها. ومن واجب البشرية - لو رشدت - أن تطاردهم حتى يصبحوا عاجزين عن هذا الظلم الذي يزاولونه وأن ترصد لحربهم كل ما تملك من الأنفس والأموال.. وهذا هو واجب الجماعة المسلمة الذي يندبها إليه ربها ويدعوها من أجله بصفتها تلك ويناديها ذلك النداء الموحى العميق...^{٤٤}



^{٤٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٦١، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٣٣)

٨. عدم إبطال الصدقات بالمن والأذى

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } (سورة البقرة ٢٦٤)

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى يُبْطِلَانِ الْفَائِدَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنْ إِعْطَاءِ الصَّدَقَاتِ، كَمَا يُبْطِلُهَا إِعْطَاءُ الصَّدَقَةِ لِلتَّبَاهِيِ وَالْمُرَاءَةِ أَمَامَ النَّاسِ بِهَا، كَمَنْ يَتَصَدَّقُ مُتَظَاهِرًا بِأَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، وَتَخْفِيفَ بُؤْسِ الْمُحْتَاجِينَ. وَهُوَ إِثْمًا يُرِيدُ مَدْحَ النَّاسِ، وَالْإِشْتِهَارَ بَيْنَهُمْ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. وَهَؤُلَاءِ الْمُرَاؤُونَ مَثَلُ أَعْمَالِهِمْ مَثَلُ تُرَابٍ عَلَى حَجَرٍ أَمْلَسَ، فَهَظَلْ مَطَرٌ فَغَسَلَ الْحَجَرَ، وَلَمْ يَتْرِكْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ، وَأَصْبَحَ الْحَجَرُ صَلْدًا لَا تُرَابَ عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ يَذْهَبُ عَمَلُ الْمُرَائِينَ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ، فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنْ ظَهَرَ أَنَّ لَهُمْ أَعْمَالًا حَسَنَةً، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الْمُنَافِقِينَ الْمُرَائِينَ، إِلَى الْخَيْرِ وَالرَّشَادِ. ^{٤٥}

هذا القلب الصلد المغشى بالرياء يمثله «صفوان عليه تراب» حجر لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف يحجب صلاته عن العين، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان .. «فأصابه وابلٌ فتَرَكَهُ صَلْدًا» .. وذهب المطر الغزير بالتراب القليل! فانكشف الحجر بجذبه وقساوته، ولم ينبت زرعة، ولم يثمر ثمرة ..

كذلك القلب الذي أنفق ماله رياء الناس، فلم يثمر خيرا ولم يعقب مثوبة! ٢٦٥ - أما المنظر الثاني المقابل له في المشهد .. فقلب عامر بالإيمان، ندي ببشاشته. ينفق ماله «إبتغاء مرضاتِ الله» .. وينفقه عن ثقة ثابتة في الخير، نابعة من الإيمان، عميقة الجذور في الضمير .. وإذا كان القلب الصلد وعليه ستار من الرياء يمثله صفوان صلد عليه غشاء من التراب، فالقلب المؤمن يمثله جنة. جنة خصبة عميقة التربة في مقابل حفنة التراب على الصفوان. جنة تقوم على ربوة في مقابل الحجر الذي تقوم عليه حفنة التراب! ليكون المنظر متناسق الأشكال! فإذا جاء الوابل لم يذهب بالتربة الخصبة هنا كما ذهب بغشاء التراب هناك. بل أحيها وأخصبها ونماها ..

«أصابها وابلٌ فَآتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ» .. أحيها كما تحيي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلة بالله، ويزكو ماله كذلك ويضاعف له الله ما يشاء. وكما تزكو حياة الجماعة المسلمة بالإنفاق وتصلح وتنمو: «فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ» .. غزير .. «فَطَلَّ» من الرذاذ يكفي في التربة الخصبة ويكفي منه القليل! إنه المشهد الكامل، المتقابل المناظر، المنسق الجزئيات، المعروف بطريقة معجزة التناسق والأداء، الممثل

^{٤٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧١، بترقيم الشاملة آليا)

بمناظره الشاحصة لكل خالجة في القلب وكل خاطرة، المصور للمشاعر والوجدانات بما يقابلها من الحالات والمحسوسات، الموحى للقلب باختيار الطريق في يسر عجيب ..

ولما كان المشهد مجالاً للبصر والبصيرة من جانب، ومرد الأمر فيه كذلك إلى رؤية الله ومعرفته بما وراء الظواهر، جاء التعقيب لمسة للقلوب: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ..

فأما المشهد الثاني فتمثيل لنهاية المن والأذى، كيف يحرق آثار الصدقة محققاً في وقت لا يملك صاحبها قوة ولا عوناً، ولا يستطيع لذلك الحق رداً. تمثيل لهذه النهاية البائسة في صورة موحية عنيفة بالإحياء. كل ما فيها عاصف بعد أمن ورخاء: «أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ؟ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» ..

هذه الصدقة في أصلها وفي آثارها تمثل في عالم المحسوسات: «جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» ..

إنها ظليلة وارفة مخصبة مثمرة .. وكذلك الصدقة في طبيعتها وفي آثارها .. كذلك هي في حياة المعطي وفي حياة الآخذ وفي حياة الجماعة الإنسانية. كذلك هي ذات روح وظل، وذات خير وبركة، وذات غذاء وري، وذات زكاة ونماء! فمن ذا الذي يود أن تكون له هذه الجنة - أو هذه الحسنة - ثم يرسل عليها المن والأذى. يحققها محققاً، كما يحرق الجنة الإعصار فيه ناراً؟

ومتى؟ في أشد ساعاته عجزاً عن إنقاذها، وحاجة إلى ظلها ونعماتها! «وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ» .. من ذا الذي يود هذا؟ ومن ذا الذي يفكر في ذلك المصير ثم لا يتقيه؟

«كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» .. وهكذا يقوم المشهد الحي الشاحص، بما فيه أول الأمر من رضى ورفه ومتعة وما فيه من نضارة وروح وجمال. ثم بما يعصف به عصفاً من إعصار فيه نار .. يقوم هذا المشهد العجيب بالإحياء الشعوري الرعيب الذي لا يدع مجالاً للتردد في الاختيار، قبل أن تذهب فرصة الاختيار، وقبل أن يصيب الجنة الوارفة الظليلة المثمرة إعصار فيه نار! وبعد فإن التناسق الدقيق الجميل الملحوظ في تركيب كل مشهد على حدة، وفي طريقة عرضه وتنسيقه ..

هذا التناسق لا يقف عند المشاهد فرادى. بل إنه ليمد رواقه فيشمل المشاهد متجمعة من بدئها في هذا الدرس إلى منتهاها .. إنها جميعاً تعرض في محيط متجانس. محيط زراعي! حبة أنبتت سبع سنابل. صفوان عليه تراب فأصابه وابل. جنة بريرة فآتت أكلها ضعفين. جنة من نخيل وأعناب .. حتى الواابل والطل والإعصار التي تكمل محيط الزراعة لم يخل منها محيط العرض الفني المثير.

وهي الحقيقة الكبيرة وراء العرض الفني المثير .. حقيقة الصلة بين النفس البشرية والتربة الأرضية. حقيقة الأصل الواحد، وحقيقة الطبيعة الواحدة، وحقيقة الحياة النابتة في النفس وفي التربة على السواء. وحقيقة الحق الذي يصيب هذه الحياة في النفس وفي التربة على السواء. إنه القرآن .. كلمة الجميلة .. من لدن حكيم خبير ...^{٤٦}



^{٤٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٦١)

٩. الإنفاق من طيبات ما كسبنا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) }
سورة البقرة

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَطْيَبِ الْمَالِ وَأَجْوَدِهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّصَدُّقِ بِأَرْذَلِ الْمَالِ وَأَخْسَسِهِ. لِأَنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا. وَيَقُولُ لَهُمْ لَا تَقْصُدُوا الْمَالَ الْخَبِيثَ لِتُنْفِقُوا مِنْهُ، وَهَذَا الْمَالُ الْخَبِيثُ لَوْ أَنَّهُ أُعْطِيَ إِلَيْكُمْ لَمَا أَخَذْتُمُوهُ، إِلَّا عَنْ إِغْمَاضٍ وَحِيَاءٍ. وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ اللَّهَ وَإِنْ أَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَاتِ فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ وَعَنْ صَدَقَاتِهِمْ، وَهُوَ وَإِنَّمَا يَحْتُثُهُمْ عَلَى التَّصَدُّقِ وَالْإِنْفَاقِ لِيَسَاوِيَ بَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ، وَاللَّهُ حَمِيدٌ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ (وَيُرْوَى أَنَّ السَّبَبَ فِي نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَأْتُونَ بِصَدَقَاتِهِمْ مِنْ رَدِيءِ التَّمْرِ) .

الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ الْمُتَصَدِّقِينَ مِنْكُمْ مِنَ الْفَقْرِ، لِتَمَسِّكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَا تُنْفِقُوهُ فِي سَبِيلِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْمَآثِمِ، وَمُخَالَفَةِ الْأَخْلَاقِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرِّزْقِ، عَلَيَّ لِسَانَ نَبِيِّكُمْ، وَمِمَّا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْفَطْرِ السَّلِيمَةِ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ .
وَاللَّهُ وَاسِعٌ الرِّزْقِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَغْفِرَةِ. عَلِيمٌ بِأَحْوَالِكُمْ وَمَا فِيهِ خَيْرٌكُمْ .^{٤٧}

إن الأسس التي تكشفت النصوص السابقة عن أن الصدقة تقوم عليها وتنبعث منها لتقتضي أن يكون الجود بأفضل الموجود فلا تكون بالدون والردية الذي يعافه صاحبه ولو قدم إليه مثله في صفقة ما قبله إلا أن ينقص من قيمته. فالله أغنى عن تقبل الرديء الخبيث! وهو نداء عام للذين آمنوا - في كل وقت وفي كل جيل - يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيديهم.

تشمل ما كسبته أيديهم من حلال طيب، وما أخرج الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبتروال. ومن ثم يستوعب النص جميع أنواع المال، ما كان معهودا على عهد النبي - ﷺ - وما يستجد. فالنص شامل جامع لا يفلت منه مال مستحدث في أي زمان. وكله مما يوجب النص فيه الزكاة. أما المقادير فقد بينتها السنة في أنواع الأموال التي كانت معروفة حينذاك. وعليها يقاس وبها يلحق ما يجد من أنواع الأموال.

وقد وردت الروايات بسبب لتزول هذه الآية ابتداء، لا بأس من ذكره، لاستحضار حقيقة الحياة التي كان القرآن يواجهها وحقيقة الجهد الذي بذله لتهديب النفوس ورفعها إلى مستواه ..

^{٤٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

روى ابن جرير - بإسناده - عن البراء بن عازب في قول الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض إلى قوله: والله غني حميد قال: "نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كان أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها أفناء البسر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله عز وجل فيمن فعل ذلك: ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون قال " لا تيمموا الحشف منه تنفقون " حدثني موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، زعم السدي، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب بنحوه، إلا أنه قال: "فكان يعمد بعضهم، فيدخل فئو الحشف ويظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من الأفناء، فنزل فيمن فعل ذلك: ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون القنو الذي قد حشف، ولو أهدي إليكم ما قبلتموه" ٤٨

ورواه ابن أبي حاتم عن البراء: ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وكسبتم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله، يقدر كثيره وقلته، فيأتي الرجل أحدهم إذا جاع، جاء فضربه بعصاه، فسقط من البسر والتمر، وكان الناس ممن لا يرعبون في الخير، يأتي بالقنو الحشف والشيص^{٤٩}، ويأتي بالقنو قد انكسر فعلقه، فنزلت: ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وكسبتم بأخذه إلا أن تغمضوا فيه قال: لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى، ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك، يجيء الرجل بصالح ما عنده" ٥٠.

والروايتان قريبتان. وكتاهما تشير إلى حالة واقعة في المدينة وترينا صفحة تقابل الصفحة الأخرى التي خطها الأنصار في تاريخ البذل السمح والعطاء الفياض. وترينا أن الجماعة الواحدة تكون فيها النماذج العجيبة السامقة، والنماذج الأخرى التي تحتاج إلى تربية وتهذيب وتوجيه لتتجه إلى الكمال! كما احتاج بعض الأنصار إلى النهي عن القصد إلى الرديء من أموالهم، الذي لا يقبلونه عادة في هدية إلا حياء من رده ولا في صفقة إلا بإغماض فيه أي: نقص في القيمة! بينما كانوا يقدمونه هم لله! ومن ثم جاء هذا التعقيب: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» ..

غني عن عطاء الناس إطلاقاً. فإذا بذلوه فإنما يبذلونه لأنفسهم فليبذلوه طيباً، وليبذلوه طيبة به نفوسهم كذلك. حميد.. يتقبل الطيبات ويحمدها ويجزي عليها بالحسنى ..

ولكل صفة من الصفتين في هذا الموضع إحاء يهز القلوب. كما هز قلوب ذلك الفريق من الأنصار فعلاً.

٤٨ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٥٥٩٦) حسن

جذاذ النخل: قطع ثماره. - حيطانها: أي بسايتها. - البسر: التمر إذا لون ولم ينضج. - الأسطوانتين: العمودين. - الحشف: أرداد التمر.

٤٩ - الشيص: تمر رديء. (السيد رحمه الله)

٥٠ - تفسير ابن أبي حاتم (٢٨٤٥) حسن

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَفْقَهُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ..» .. وإلا فالله غني عن الخبيث الذي تقصدون إليه فتخرجون منه صدقاتكم! بينما هو - سبحانه - يحمد لكم الطيب حين تخرجونه ويجزيكم عليه جزاء الراضي الشاكر.

وهو الله الرازق الوهاب .. يجزيكم عليه جزاء الحمد وهو الذي أعطاكم إياه من قبل! أي إجماع! وأي إغراء! وأي تربية للقلوب بهذا الأسلوب العجيب!

ولما كان الكف عن الإنفاق، أو التقدم بالردىء الخبيث، إنما ينشأ عن دوافع السوء، وعن تزعزع اليقين فيما عند الله، وعن الخوف من الإملاق الذي لا يساور نفسا تتصل بالله، وتعتمد عليه، وتدرك أن مرد ما عندها إليه .. كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع لتبدو لهم عارية، وليعرفوا من أين تنبت النفوس وما الذي يثيرها في القلوب .. إنه الشيطان ..

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّعْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» ..

الشيطان يخوفكم الفقر، فيثير في نفوسكم الحرص والشح والتكالب. والشيطان يأمركم بالفحشاء - والفحشاء كل معصية تفحش أي تتجاوز الحد، وإن كانت قد غلبت على نوع معين من المعاصي ولكنها شاملة. وخوف الفقر كان يدعو القوم في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة والحرص على جمع الثروة كان يؤدي ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة .. على أن خوف الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة ..

وحين يعدكم الشيطان الفقر ويأمركم بالفحشاء يعدكم الله المغفرة والعطاء: «وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّعْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً» .. ويقدم المغفرة، ويؤخر الفصل .. فالفضل زيادة فوق المغفرة. وهو يشمل كذلك عطاء الرزق في هذه الأرض، جزاء البذل في سبيل الله والإنفاق.

«وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» .. يعطي عن سعة، ويعلم ما يوسوس في الصدور، وما يهجس في الضمير، والله لا يعطي المال وحده، ولا يعطي المغفرة وحدها. إنما يعطي «الحكمة» وهي توحي القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، ووضع الأمور في نصابها في تبصر وروية وإدراك: «يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» .. أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش ولا يتعدى الحدود وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال .. وذلك خير كثير متنوع الألوان ..

«وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» .. فصاحب اللب - وهو العقل - هو الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال ..

وهذه وظيفة العقل .. وظيفته أن يذكر موحيات الهدى ودلائله وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهيا غافلا.

هذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده، فهي معقودة بمشيئة الله سبحانه. هذه هي القاعدة الأساسية في التصور الإسلامي: ردّ كل شيء إلى المشيئة المطلقة المختارة.. وفي الوقت ذاته يقرر القرآن حقيقة أخرى:

أن من أراد الهداية وسعى لها سعيها وجاهد فيها فإن الله لا يجرمه منها، بل يعينه عليها: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ».. ليطمئن كل من يتجه إلى هدى الله أن مشيئة الله ستقسم له الهدى وتؤتيه الحكمة، وتمنحه ذلك الخير الكثير.

وهناك حقيقة أخرى نلم بها قبل مغادرة هذه الوقفة عند قوله تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ...» إن أمام الإنسان طريقين اثنين لا ثالث لهما: طريق الله. وطريق الشيطان. أن يستمع إلى وعد الله أو أن يستمع إلى وعد الشيطان. ومن لا يسير في طريق الله ويسمع وعده فهو سائر في طريق الشيطان ومتبع وعده ..

ليس هنالك إلا منهج واحد هو الحق.. المنهج الذي شرعه الله.. وما عداه فهو للشيطان ومن الشيطان.

هذه الحقيقة يقرها القرآن الكريم ويكررها ويؤكدها بكل مؤكد. كي لا تبقى حجة لمن يريد أن ينحرف عن منهج الله ثم يدعي الهدى والصواب في أي باب. ليست هنالك شبهة ولا غشاوة.. الله أو الشيطان.

منهج الله أو منهج الشيطان. طريق الله أو طريق الشيطان.. ولمن شاء أن يختار.. «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ».. لا شبهة ولا غش ولا غشاوة.. وإنما هو الهدى أو الضلال. وهو الحق واحد لا يتعدد.. فماذا بعد الحق إلا الضلال!؟

بعد ذلك نعود مع السياق إلى الصدقة.. إن الله يعلم كل ما ينفقه المنفق.. صدقة كان أم نذرا. وسرا كان أم جهرا. ومن مقتضى علمه أنه يجزي على الفعل وما وراءه من النية: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»..

والنفقة تشمل سائر ما يخرجها صاحب المال من ماله: زكاة أو صدقة أو تطوعا بالمال في جهاد.. والنذر نوع من أنواع النفقة يوجهه المنفق على نفسه مقدرا بقدر معلوم. والنذر لا يكون لغير الله ولوجهه وفي سبيله. فالنذر لفلان من عباده نوع من الشرك، كالذبايح التي كان يقدمها المشركون لألهتهم وأوثانهم في شتى عصور الجاهلية.

«وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ».. وشعور المؤمن بأن عين الله - سبحانه - على نيته وضميره، وعلى حركته وعمله.. يثير في حسه مشاعر حية متنوعة شعور التقوى والتحرج أن

يهجس في خاطره هاجس رياء أو تظاهر، وهاجس شح أو بخل، وهاجس خوف من الفقر أو الغبن. وشعور الاطمئنان على الجزاء والثقة بالوفاء. وشعور الرضى والراحة بما وفى لله وقام بشكر نعمته عليه بهذا الإنفاق مما أعطاه ..

فأما الذي لا يقوم بحق النعمة والذي لا يؤدي الحق لله ولعباده والذي يمنع الخير بعد ما أعطاه الله إياه .. فهو ظالم. ظالم للعهد، وظالم للناس، وظالم لنفسه: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» ..

فالوفاء عدل وقسط. والمنع ظلم وجور. والناس في هذا الباب صنفان: مقسط قائم بعهد الله معه إن أعطاه النعمة وفى وشكر. وظالم ناكث لعهد الله، لم يعط الحق ولم يشكر.. «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ». وإخفاء الصدقة حين تكون تطوعاً أولى وأحب إلى الله وأجدر أن تبرأ من شوائب التظاهر والرياء. فأما حين تكون أداءً للفريضة فإن إظهارها فيه معنى الطاعة، وفشو هذا المعنى وظهوره خير .. ومن ثم تقول الآية: «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ. وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» .. فتشمل هاتين الحالتين، وتعطي كل حالة ما يناسبها من التصرف وتحمد هذه في موضعها وتلك في موضعها وتعد المؤمنين على هذه وتلك تكفير السيئات: «وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ» ..

وتستجيش في قلوبهم التقوى والتحرج من جانب، والطمأنينة والراحة من جانب آخر، وتصلها بالله في النية والعمل في جميع الأحوال: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» ..

ولا بد أن نلاحظ طول التوجيه إلى الإنفاق وتنوع أساليب الترغيب والترهيب بصدده لندرك أمرين: الأول: بصر الإسلام بطبيعة النفس البشرية وما يخالجها من الشح بالمال، وحاجتها إلى التحريك المستمر والاستجاشة الدائمة لتستعلي على هذا الحرص وتنطلق من هذا الشح، وترتفع إلى المستوي الكريم الذي يريده الله للناس. والثاني: ما كان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة في البيئة العربية التي اشتهرت شهرة عامة بالسخاء والكرم .. ولكنه كان سخاء وكرماً يقصد به الذكر والصيت وثناء الناس وتناقل أخباره في المضارب والخيام! ولم يكن أمراً ميسوراً أن يعلمهم الإسلام أن يتصدقوا دون انتظار لهذا كله، متجردين من هذا كله، متجهين لله وحده دون الناس. وكان الأمر في حاجة إلى التربية الطويلة، والجهد الكثير، والاهتمام المستمر بالتسامي والتجرد والخلاص! .. وقد كان ..^{٥١}



^{٥١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٦٣)

١٠. النهي عن الربا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَّا تَظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَّا يُظْلَمُونَ (٢٨١) } سورة البقرة

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، الْمُصَدِّقِينَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، بِالتَّقْوَى، فَيَقُولُ لَهُمْ: اتَّقُوا اللَّهَ وَاتْرُكُوا مَا لَكُمْ مِنْ عِنْدِ النَّاسِ مِنَ الرِّبَا (أَيُّ مَا يَزِيدُ عَلَى رُءُوسِ أَمْوَالِكُمْ) إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا بِمَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ، وَتَحْرِيمِ الرِّبَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَأَنْذَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ لَا يَمْتَنُّونَ لِأَمْرِهِ مِنْ تَرْكِ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا عِنْدَ النَّاسِ، بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِحُرُوجِهِمْ عَنِ الشَّرْعِ، وَعَدَمِ خَضُوعِهِمْ لَهُ، فَإِن تَأَبَّوْا فَلَهُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِهِمْ بِدُونِ زِيَادَةٍ، وَلَا يُظْلَمُونَ بِأَخْذِ زِيَادَةٍ، وَلَا يُظْلَمُونَ بِوَضْعِ شَيْءٍ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ .

فَإِن كَانَ الْمَدِينُ مُعْسِرًا لَا يَجِدُ وِفَاءَ دَيْنِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ الدَّائِنَ بِنَظَرَتِهِ إِلَى حِينِ مَيْسَرَتِهِ، وَتَمَكُّنِهِ مِنْ دَفْعِ مَا عَلَيْهِ. وَإِن تَصَدَّقَ الدَّائِنُ عَلَى الْمَدِينِ الْمُعْسِرِ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ، أَوْ بِرَأْسِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ. وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي الْحَثِّ عَلَى تَنْفِيسِ كُرْبَةِ الْمَكْرُوبِ وَالتَّجَاوُزِ عَنِ الْمُعْسِرِ .

وَاحْذَرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْعَظِيمِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي تَتَفَرَّغُونَ فِيهِ مِنْ مَشَاغِلِكُمُ الْجَسَدِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَصْرِفُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيُجَازِي اللَّهُ كُلًّا بِعَمَلِهِ، إِن خَيْرًا فَخَيْرًا، وَإِن شَرًّا فَشَرًّا، وَلَا تُنْقِصُ نَفْسٌ مِنْ ثَوَابِهَا، وَلَا يَزَادُ فِي عِقَابِهَا .^{٥٢}

إن النص يعلق إيمان الذين آمنوا على ترك ما بقي من الربا. فهم ليسوا بمؤمنين إلا أن يتقوا الله ويذروا ما بقي من الربا. ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون. فإنه لا إيمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به.

والنص القرآني لا يدعهم في شبهة من الأمر. ولا يدع إنسانا يتستر وراء كلمة الإيمان، بينما هو لا يطيع ولا يرتضي ما شرع الله، ولا ينفذه في حياته، ولا يحكمه في معاملاته. فالذين يفرقون في الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين. مهما ادعوا الإيمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الأخرى أنهم مؤمنون!

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا . . . إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» . . . لقد ترك لهم ما سلف من الربا - لم يقرر استرداده منهم، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزء منها بسبب أن الربا كان داخلا

^{٥٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٨٦، بترقيم الشاملة آليا)

فيها.. إذ لا تحريم بغير نص.. ولا حكم بغير تشريع.. والتشريع ينفذ وينشئ آثاره بعد صدوره.. فأما الذي سلف فأمره إلى الله لا إلى أحكام القانون. وبذلك تجنب الإسلام إحداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريع أثر رجعي. وهو المبدأ الذي أخذ به التشريع الحديث حديثاً! ذلك أن التشريع الإسلامي موضوع ليوافق حياة البشر الواقعية، ويسيرها، ويطهرها، ويطلقها تنمو وترتفع معا.. وفي الوقت ذاته علق اعتبارهم مؤمنين على قبولهم لهذا التشريع وإنفاذه في حياتهم منذ نزوله وعلمهم به.

واستجاش في قلوبهم - مع هذا - شعور التقوى لله. وهو الشعور الذي ينوط به الإسلام تنفيذ شرائعه، ويجعله الضمان الكامن في ذات الأنفس، فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته. فيكون له من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التي لا تستند إلا للرقابة الخارجية! وما أيسر الاحتيال على الرقابة الخارجية، حين لا يقوم من الضمير حارس له من تقوى الله سلطان.

فهذه صفحة الترغيب.. وإلى جوارها صفحة التهيب.. التهيب الذي يزلزل القلوب: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».. يا للهول! حرب من الله ورسوله.. حرب تواجهها النفس البشرية.. حرب رهيبة معروفة المصير، مقررة العقاب.. فأين الإنسان الضعيف الفاني من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة؟! ولقد أمر رسول الله - ﷺ - عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التي نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك إذا لم يكفوا عن التعامل الربوي. عَنْ جَابِرٍ، فِي حَدِيثِهِ عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ لَمَّا زَاغَتِ الشَّمْسُ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ فِي حَجَّتِهِ ، أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ ، فَرُحِلَتْ لَهُ ، فَرَكِبَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي ، فَخَطَبَ النَّاسَ ، فَقَالَ: " إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ ، فَقَتَلْتُهُ هَذَا ، وَإِنَّ رَبَّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رَبًّا أَضَعُ رَبًّا الْعَبَّاسِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ ، اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوجَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ ، فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ: كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ " قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ ، وَأَدَّيْتَ ، [ص: ٣٣] وَنَصَحْتَ ، فَقَالَ بِأَصْبَعِهِ السَّبَابَةَ وَرَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ يَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: " اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ " ٥٣ ..

٥٣ - شرح مشكل الآثار [١ / ٣٢] (٤١) صحيح

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْأَخْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: "خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ كُلَّ رَبِّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلُّهُ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، وَأَوَّلُ رَبِّا مَوْضُوعٍ رَبِّا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، مَوْضُوعٌ كُلُّهُ"^{٥٤}..

و لم يأمرهم برد الزيادات التي سبق لهم أخذها في حال الجاهلية^{٥٥}.

فالإمام مكلف - حين يقوم المجتمع الإسلامي - أن يجارب الذين يصرون على قاعدة النظام الربوي، ويعتون عن أمر الله، ولو أعلنوا أنهم مسلمون. كما حارب أبو بكر - رضي الله عنه - مانعي الزكاة، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقامتهم للصلاة. فليس مسلما من يأبي طاعة شريعة الله، ولا ينفذها في واقع الحياة! على أن الإيدان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الإمام. فهذه الحرب معلنة - كما قال أصدق القائلين - على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي. هذه الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة. وهي حرب على الأعصاب والقلوب. وحرب على البركة والرخاء. وحرب على السعادة والطمأنينة .. حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض. حرب المطاردة والمشاكسة.

حرب الغبن والظلم. حرب القلق والخوف .. وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول. الحرب الساحقة الماحقة التي تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوي المقيت. فالمرابون أصحاب رؤوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر. وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات. ثم تقع فيها الشعوب والحكومات. ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب! أو يتقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم، فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب! وأيسر ما يقع - إن لم يقع هذا كله - هو خراب النفوس، وانهيار الأخلاق، وانطلاق سعار الشهوات، وتحطم الكيان البشري من أساسه، وتدميره. بما لا تبلغه أفضع الحروب الذرية الرعيية! إنها الحرب المشبوبة دائما. وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا .. وهي مسعرة الآن تأكل الأخضر واليابس في حياة البشرية الضالة وهي غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادي الذي تخرجه المصانع .. وكانت هذه التلال حرية بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكي طاهر ولكنها - وهي تخرج من منبع الربا الملوث - لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية، ويسحقها سحقا في حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون! لقد دعا الإسلام الجماعة المسلمة الأولى، ولا يزال يدعو البشرية كلها إلى المشرع الطاهر النظيف، وإلى التوبة من الإثم والخطيئة والمنهج الوبيء: «وإن تبتُّم فلکم رؤسُ أموالکم. لا تظلمون ولا

^{٥٤} - تفسير ابن أبي حاتم [٢/ ٣٥٣] (٢٩٧٢) صحيح

^{٥٥} - تفسير ابن كثير - دار طيبة [١/ ٧٠٩]

تُظَلِّمُونَ» .. فهي التوبة عن خطيئة. إنها خطيئة الجاهلية التي لا تتعلق بزمان دون زمان، ولا نظام دون نظام ..

إنما هي الانحراف عن شريعة الله ومنهجه متى كان وحيث كان .. خطيئة تنشئ آثارها في مشاعر الأفراد وفي أخلاقهم وفي تصورهم للحياة. وتنشئ آثارها في حياة الجماعة وارتباطاتها العامة. وتنشئ آثارها في الحياة البشرية كلها، وفي نموها الاقتصادي ذاته. ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين، أنها وحدها الأساس الصالح للنمو الاقتصادي! واسترداد رأس المال مجردا، عدالة لا يظلم فيها دائن ولا مدين .. فأما تنمية المال فلها وسائلها الأخرى البريئة النظيفة لها وسيلة الجهد الفردي. ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه، ومقاسمته الربح والخسارة. ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق - بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح - وتناول الأرباح الحلال من هذا الوجه. ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة - على أن تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة - ولا تعطيتها بالفائدة الثابتة - ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا فرض ووقعت .. وللمصارف أن تتناول قدرا معينا من الأجر في نظير إدارتها لهذه الأموال .. ووسائل أخرى كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها .. وهي ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر، وتجنب المورد العفن النتن الآسن!^{٥٦}

ويكمل السياق الأحكام المتعلقة بالدين في حالة الإعسار .. فليس السبيل هو ربا النسيئة: بالتأجيل مقابل الزيادة .. ولكنه هو الإنظار إلى ميسرة. والتحبيب في التصديق به لمن يريد مزيدا من الخير أو في وأعلى: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ. وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ .. إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .. إنها السماحة الندية التي يحملها الإسلام للبشرية. إنه الظل الظليل الذي تأوي إليه البشرية المتعبدة في هجير الأثرة والشح والطمع والتكالب والسعار. إنها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذي يظل الجميع! ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدي مفهوما «معقولا» في عقول المناكيد الناشئين في هجير الجاهلية المادية الحاضرة! وأن مذاقها الحلو لا طعم له في حسم المتحجر البليد! - وبخاصة وحوش المرابين سواء كانوا أفرادا قابعين في زوايا الأرض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل بهم المصائب فيحتاجون للمال للطعام والكساء والدواء أو لدفن موتاهم في بعض الأحيان، فلا يجدون في هذا العالم المادي الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء فيلجأون مرغمين إلى أوكار الوحوش. فرائس سهلة تسعى إلى الفخاخ بأقدامها. تدفعها الحاجة وتزجيها الضرورة! سواء كانوا أفرادا هكذا أو كانوا في صورة بيوت مالية ومصارف ربوية. فكلهم سواء. غير

^{٥٦} - تراجع بحوث الأستاذ المودودي التي سبقت الإشارة إليها .. (السيد رحمه الله)

أن هؤلاء يجلسون في المكاتب الفخمة على المقاعد المريحة ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية، والمؤلفات العلمية، والأساتذة والمعاهد والجامعات، والتشريعات والقوانين، والشرطة والمحاكم والجيوش .. كلها قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتهم، وأخذ من يجرؤ على التلکؤ في رد الفائدة الربوية إلى خزائنتهم باسم القانون ..!!

نحن نعرف أن هذه الكلمات لا تصل إلى تلك القلوب .. ولكننا نعرف أنها الحق. ونشق أن سعادة البشرية مرهونة بالاستماع إليها والأخذ بها: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ. وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ». إن المعسر - في الإسلام - لا يطارد من صاحب الدين، أو من القانون والمحاكم. إنما ينظر حتى يوسر ..

ثم إن المجتمع المسلم لا يترك هذا المعسر وعليه دين. فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه - إن تطوع بهذا الخير. وهو خير لنفسه كما هو خير للمدين. وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة. لو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الأمر! ذلك أن إبطال الربا يفقد شطرا كبيرا من حكمته إذا كان الدائن سيروح يضايق المدين، ويضيق عليه الخناق. وهو معسر لا يملك السداد. فهنا كان الأمر - في صورة شرط وجواب - بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء. وكان بجانبه التحبيب في التصديق بالدين كله أو بعضه عند الإعسار. على أن النصوص الأخرى تجعل لهذا المدين المعسر حظا من مصارف الزكاة، ليؤدي دينه، ويسر حياته: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... وَالْغَارِمِينَ...» وهم أصحاب الديون. الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى لذائذهم. إنما أنفقوها في الطيب النظيف. ثم قعدت بهم الظروف!

ثم يجيء التعقيب العميق الإيحاء، الذي ترجف منه النفس المؤمنة، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله، ثم تمضي ناجية من الله يوم الحساب: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ. ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» ..

واليوم الذي يرجعون فيه إلى الله، ثم توفي كل نفس ما كسبت يوم عسير، له في القلب المؤمن وقع ومشهده حاضر في ضمير المؤمن، وله في ضمير المؤمن هول. والوقوف بين يدي الله في هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان! وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات. جو الأخذ والعطاء. جو الكسب والجزاء .. إنه التصفية الكبرى للماضي جميعه بكل ما فيه. والقضاء الأخير في الماضي بين كل من فيه. فما أجدر القلب المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه.

إن التقوى هي الحارس القابع في أعماق الضمير يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فرارا منه لأنه في الأعماق هناك! إنه الإسلام .. النظام القوي .. الحلم الندي الممثل في واقع أرضي .. رحمة الله بالبشر. وتكريم الله للإنسان.

والخير الذي تشرده عنه البشرية ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الإنسان! ^{٥٧}
 وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ آيَةَ آخِرِ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: آخِرُ مَا نَزَلَ مِنْ
 الْقُرْآنِ كُلِّهِ (١١) {وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}
 وَعَاشَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ آيَةِ تِسْعَ لَيَالٍ، ثُمَّ مَاتَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، لِلْيَلْتَنِ خَلْتَا مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ. رَوَاهُ
 ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: {وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ}
 وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ التَّحَوِيِّ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: آخِرُ شَيْءٍ نَزَلَ
 مِنَ الْقُرْآنِ: {وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} .
 وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: {وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} آيَةَ.
 قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: يَقُولُونَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَاشَ بَعْدَهَا تِسْعَ لَيَالٍ، وَبَدِئَ يَوْمَ السَّبْتِ وَمَاتَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، رَوَاهُ
 ابْنُ جَرِيرٍ.

وَرَوَاهُ عَطِيَّةٌ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: آخِرُ آيَةٍ أَنْزَلَتْ: {وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
 مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} ^{٥٨}.



^{٥٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٨٧)

^{٥٨} - تفسير ابن كثير ت سلامة (١ / ٧٢٠)

١١. الأمر بكتابة الدين

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بِيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسُ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإِنَّهُ آتَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) } سورة البقرة

يُرْشِدُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَعَامَلُوا بِمُعَامَلَاتٍ مُّوَجَّلَةٍ فَإِنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكْتُبُوهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظَ لِمَقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا، وَأَضْبَطَ لِلشَّهَادَةِ فِيهَا، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَهُمْ كَاتِبٌ بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ (بِالْعَدْلِ)، وَلَا يَحْرُ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ أَنْ لَا يَمْتَنِعَ عَنِ الْكِتَابَةِ إِذَا مَا سُئِلَ الْكِتَابَةَ لِلنَّاسِ، وَلَا ضَرَرَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَكَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ .

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ: " مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِحَامٍ مِنْ نَارٍ " وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الدَّيْنُ عَلَى الْكَاتِبِ مُقْرَأً بِمَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدَّيْنِ، لِيَكُونَ إِمْلَالُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ تَحْفَظُهَا الْكِتَابَةُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يُنْقِصُ (لَا يَخْسُ) . أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَدِينُ سَفِيهًا مَحْجُورًا عَلَيْهِ لِتَبْدِيرِهِ، أَوْ كَانَ ضَعِيفًا أَوْ صَغِيرًا أَوْ مَحْجُونًا، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَرَّرَ وَيُمْلِيَ عَلَى الْكَاتِبِ لِعِيٍّ أَوْ لِحَهْلٍ... فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ .

وَاسْتَشْهِدُوا شَاهِدَيْنِ زِيَادَةً فِي الْاسْتِثْقَاءِ: رَجُلَيْنِ أَوْ رَجُلًا وَامْرَأَتَيْنِ مِنَ الشُّهُودِ الْعُدُولِ الَّذِينَ تَرْضَوْنَ شَهَادَتَهُمْ. وَإِذَتْ دُعِيَ الشُّهُودُ لِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ فَعَلَيْهِمْ أَلَّا يَمْتَنِعُوا. وَيَحْتُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى عَدَمِ إِهْمَالِ الْكِتَابَةِ فِي الدَّيْنِ، صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، لِأَنَّ ذَلِكَ أَعْدَلُ عِنْدَ اللَّهِ (أَقْسَطُ) وَأَثْبَتُ لِلشَّهَادَةِ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ حِينَ يَضَعُ خَطَّهُ عَلَى السَّنَدِ ثُمَّ يَرَاهُ فَيَذْكُرُ الشَّهَادَةَ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى عَدَمِ الرِّيْبَةِ إِذْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى الْكِتَابَةِ وَمَا جَاءَ فِيهَا .

أَمَّا إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ (تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا) فَلَا بَأْسَ فِي تَرْكِ الْكِتَابَةِ، لِانْتِفَاءِ الْمَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا. وَلَا يَحُوزُ أَنْ يَلْحَقَ ضَرَرٌ بِالْكَاتِبِ أَوْ بِالشَّاهِدِ لِمَا يَقُومَانِ بِهِ. وَمَنْ يُخَالِفْ أَمْرَ

اللَّهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ عَدَمِ إِيدَاءِ الْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ فَإِنَّ ذَلِكَ فَسَقٌ وَخُرُوجٌ عَنِ شَرْعِ اللَّهِ. وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَرَاقِبُوهُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ وَأَجِبَاتِكُمْ، وَيُرْشِدُكُمْ إِلَى خَيْرِكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ .

فَإِنْ كُنْتُمْ مُسَافِرِينَ وَتَدَايَنْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُعَيَّنٍ (مُسَمَّى)، وَلَمْ تَجِدُوا مَنْ يَكْتُبُ، أَوْ لَمْ تَجِدُوا أَدْوَاتِ الْكِتَابَةِ، فَلْيَكُنْ مَقَامَ الْكِتَابَةِ رَهْنٌ يُسَلَّمُهُ الْمَدِينُ إِلَى صَاحِبِ الْحَقِّ، فَإِذَا وَثِقَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلَا بَأْسَ فِيهِ أَلَّا تَكْتُبُوا، أَوْ أَلَّا تَشْهَدُوا شَاهِدِينَ، وَلَيَتَّقِ الْمُؤْمِنُ اللَّهَ رَبَّهُ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَكْتُبُوا الشَّهَادَةَ، وَأَنْ لَا تَمْتَنِعُوا عَنْ أَدَائِهَا، إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى أَدَائِهَا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ آثِمَ الْقَلْبِ، وَقَدْ ارْتَكَبَ إِثْمًا وَذَنْبًا. وَلَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ .^{٥٩}

هذه الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن تكملة للأحكام السابقة في درسي الصدقة والربا. فقد استبعد التعامل الربوي في الدرس السابق والديون الربوية والبيوع الربوية .. أما هنا فالحديث عن القرض الحسن بلا ربا ولا فائدة، وعن المعاملات التجارية الحاضرة المبرأة من الربا ..

وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب أمام التعبير التشريعي في القرآن - حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى ما يبذل لفظ بلفظ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو توخر. وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته. وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطا لطيف المدخل عميق الإيجاء قوي التأثير، دون الإخلال بترباط النص من ناحية الدلالة القانونية. وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب، فينفي هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها. وحيث لا ينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينها وبين نقطة جديدة يقتضى الإشارة إلى الرابطة بينهما ...

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا هو الإعجاز في صياغة آيات الإيجاء والتوجيه. بل هو أوضح وأقوى. لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ. ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد.

ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادئ للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون، كما يعترف الفقهاء المحدثون!

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَآكْتُبُوهُ » .. هذا هو المبدأ العام الذي يريد تقريره. فالكتابة أمر مفروض بالنص، غير متروك للاختيار في حالة الدين إلى أجل. لحكمة سيأتي بيانها في نهاية النص.

^{٥٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

«وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» .. وهذا تعيين للشخص الذي يقوم بكتابة الدين فهو كاتب. وليس أحد المتعاقدين. وحكمة استدعاء ثالث - ليس أحد الطرفين في التعاقد - هي الاحتياط والحيدة المطلقة. وهذا الكاتب مأمور أن يكتب بالعدل، فلا يميل مع أحد الطرفين، ولا ينقص أو يزيد في النصوص ..

«وَلَا يُأَبِّ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ» .. فالتكليف هنا من الله - بالقياس إلى الكاتب - كي لا يتأخر ولا يأبى ولا يثقل العمل على نفسه، فتلك فريضة من الله بنص التشريع، حسابه فيها على الله. وهي وفاء لفضل الله عليه إذ علمه كيف يكتب .. «فَلْيَكْتُبْ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ».

وهنا يكون الشارع قد انتهى من تقرير مبدأ الكتابة في الدين إلى أجل. ومن تعيين من يتولى الكتابة. ومن تكليفه بأن يكتب. ومع التكليف ذلك التذكير اللطيف بنعمة الله عليه، وذلك الإيحاء بأن يلتزم العدل ..

وهنا ينتقل إلى فقرة تالية يبين فيها كيف يكتب .. «وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ» .. وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا. فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ لِهُ بِالْعَدْلِ» .. إن المدين - الذي عليه الحق - هو الذي يملي على الكاتب اعترافه بالدين، ومقدار الدين، وشرطه وأجله ..

ذلك خيفة أن يقع الغبن على المدين لو أملى الدائن، فزاد في الدين، أو قرب الأجل، أو ذكر شروطا معينة في مصلحته. والمدين في موقف ضعيف قد لا يملك معه إعلان المعارضة رغبة في إتمام الصفقة لحاجته إليها، فيقع عليه الغبن. فإذا كان المدين هو الذي يملي لم يعمل إلا ما يريد الارتباط به عن طيب خاطر. ثم ليكون إقراره بالدين أقوى وأثبت، وهو الذي يملي .. وفي الوقت ذاته يناشد ضمير المدين - وهو يملي - أن يتقي الله ربه ولا يبخس شيئا من الدين الذي يقر به ولا من سائر أركان الإقرار الأخرى .. فإن كان المدين سفيها لا يحسن تدبير أموره. أو ضعيفا - أي صغيرا أو ضعيف العقل - أو لا يستطيع أن يعمل هو إما لعي أو جهل أو آفة في لسانه أو لأي سبب من الأسباب المختلفة الحسية أو العقلية .. فليمل ولي أمره القيم عليه .. «بِالْعَدْلِ» ..

والعدل يذكر هنا لزيادة الدقة. فرمما تماون الولي - ولو قليلا - لأن الدين لا يخصه شخصا. كي تتوفر الضمانات كلها لسلامة التعاقد.

وبهذا ينتهي الكلام عن الكتابة من جميع نواحيها، فينتقل الشارع إلى نقطة أخرى في العقد، نقطة الشهادة: «وَاسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ. فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ - مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ - أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى» ..

إنه لا بد من شاهدين على العقد - «مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ» - والرضى يشمل معنيين: الأول أن يكون الشاهدان عدلين مرضيين في الجماعة. والثاني أن يرضى بشهادتهما طرفا التعاقد .. ولكن ظروفًا

معينة قد لا تجعل وجود شاهدين أمرا ميسورا. فهنا ييسر التشريع فيستدعي النساء للشهادة، وهو إنما دعا الرجال لأنهم هم الذين يزاولون الأعمال عادة في المجتمع المسلم السوي، الذي لا تحتاج المرأة فيه أن تعمل لتعيش، فتجور بذلك على أمومتها وأنوثتها وواجبها في رعاية أئمن الأرصدة الإنسانية وهي الطفولة الناشئة المثلة لجيل المستقبل، في مقابل لقيمات أو دريهمات تنالها من العمل، كما تضطر إلى ذلك المرأة في المجتمع النكد المنحرف الذي نعيش فيه اليوم! فأما حين لا يوجد رجلان فليكن رجل واحد وامرأتان.. ولكن لماذا امرأتان؟ إن النص لا يدعنا نحس! ففي مجال التشريع يكون كل نص محددًا واضحًا معلا: «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى».. والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة. فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملايساته ومن ثم لا يكون من الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء، فتذكرها الأخرى بالتعاون معا على تذكر ملايسات الموضوع كله. وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية. فإن وظيفة الأمومة العضوية البيولوجية تستدعي مقابلا نفسيا في المرأة حتما. تستدعي أن تكون المرأة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لا ترجع فيهما إلى التفكير البطيء

..

وذلك من فضل الله على المرأة وعلى الطفولة.. وهذه الطبيعة لا تتجزأ، فالمرأة شخصية موحدة هذا طابعها - حين تكون امرأة سوية - بينما الشهادة على التعاقد في مثل هذه المعاملات في حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال، ووقوف عند الوقائع بلا تأثر ولا إيجاء. ووجود امرأتين فيه ضمانه أن تذكر إحدهما الأخرى - إذا انخرقت مع أي انفعال - فتتذكر وتفيء إلى الوقائع المجردة.

وكما وجه الخطاب في أول النص إلى الكتاب ألا يأبوا الكتابة، يوجهه هنا إلى الشهداء ألا يأبوا الشهادة: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا».

فتلبية الدعوة للشهادة إذن فريضة وليست تطوعا. فهي وسيلة لإقامة العدل وإحقاق الحق. والله هو الذي يفرضها كي يلبى الشهداء عن طواعية تلبية وجدانية، بدون تضرر أو تلكؤ. وبدون تفضل كذلك على المتعاقدين أو على أحدهما، إذا كانت الدعوة من كليهما أو من أحدهما.

وهنا ينتهي الكلام عن الشهادة، فينتقل الشارع إلى غرض آخر. غرض عام للتشريع. يؤكد ضرورة الكتابة - كبر الدين أم صغر - ويعالج ما قد يخطر للنفس من استئصال الكتابة وتكاليها بحجة أن الدين صغير لا يستحق، أو أنه لا ضرورة للكتابة بين صاحبيه لملايسة من الملابس كالتجمل والحياء أو الكسل وقلة المبالاة! ثم يعلل تشديده في وجوب الكتابة تعليلا وجدانيا وتعليلا عمليا: «وَلَا تَسْمُوا - أَنْ تَكْتُبُوهُ - صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا - إِلَى أَجَلِهِ. ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ، وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا». لا تسأموا.. فهو إدراك لانفعالات النفس الإنسانية حين تحس أن تكاليف العمل أضخم من قيمته.. «ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ».. أعدل وأفضل. وهو إيجاء وجداني بأن الله يحب هذا ويؤثره. «وَأَقْوَمٌ

لِلشَّهَادَةِ». فالشهادة على شيء مكتوب أقوم من الشهادة الشفوية التي تعتمد على الذاكرة وحدها. وشهادة رجلين أو رجل وامرأتين أقوم كذلك للشهادة وأصح من شهادة الواحد، أو الواحد والواحدة. «وَأَذِنَ أَلَّا تَرْتَابُوا»: أقرب لعدم الريبة. الريبة في صحة البيانات التي تضمنها العقد، أو الريبة في أنفسكم وفي سواكم إذا ترك الأمر بلا قيد.

وهكذا تتكشف حكمة هذه الإجراءات كلها ويقتنع المتعاملون بضرورة هذا التشريع، ودقة أهدافه، وصحة إجراءاته. إنها الصحة والدقة والثقة والطمأنينة.

ذلك شأن الدين المسمى إلى أجل. أما التجارة الحاضرة فإن بيوعها مستثناة من قيد الكتابة. وتكفي فيها شهادة الشهود تيسيرا للعمليات التجارية التي يعرقلها التعقيد، والتي تتم في سرعة، وتكرر في أوقات قصيرة. ذلك أن الإسلام وهو يشرع للحياة كلها قد راعى كل ملبساتها وكان شريعة عملية واقعية لا تعقيد فيها، ولا تعويق لجريان الحياة في مجراها: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ».

وظاهر النص أن الإعفاء من الكتابة رخصة لا جناح فيها. أما الإشهاد فموجب. وقد وردت بعض الروايات بأن الإشهاد كذلك للندب لا للوجوب. ولكن الأرجح هو ذلك.

والآن - وقد انتهى تشريع الدين المسمى، والتجارة الحاضرة، والتقى كلاهما عند شرطي الكتابة والشهادة - على الوجوب وعلى الرخصة - فإنه يقرر حقوق الكتاب والشهداء كما قرر واجباتهم من قبل.. لقد أوجب عليهم ألا يأبوا الكتابة أو الشهادة. فالآن يوجب لهم الحماية والرعاية ليتوازن الحق والواجب في أداء التكليف العامة.

«وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ. وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». لا يقع ضرر على كاتب أو شهيد، بسبب أدائه لواجبه الذي فرضه الله عليه. وإذا وقع فإنه يكون خروجاً منكم عن شريعة الله ومخالفة عن طريقه. وهو احتياط لا بد منه. لأن الكتاب والشهداء معرضون لسخط أحد الفريقين المتعاقدين في أحيان كثيرة. فلا بد من تمتعهم بالضمانات التي تطمئنهم على أنفسهم، وتشجعهم على أداء واجبهم بالذمة والأمانة والنشاط في أداء الواجبات، والحيدة في جميع الأحوال. ثم - وعلى عادة القرآن في إيقاظ الضمير، واستجاشة الشعور كلما هم بالتكليف، ليستمد التكليف دفعته من داخل النفس، لا من مجرد ضغط النص - يدعو المؤمنين إلى تقوى الله في النهاية ويذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم، وهو الذي يعلمهم ويرشدهم، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهيب أرواحهم للتعليم، ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضى والإذعان: «وَاتَّقُوا اللَّهَ. وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

ثم يعود المشرع إلى تكملة في أحكام الدين، أخرها في النص لأنها ذات ظروف خاصة، فلم يذكرها هناك في النص العام.. ذلك حين يكون الدائن والمدين على سفر فلا يجدان كاتباً. فتيسيرا للتعامل، مع

ضمان الوفاء، رخص الشارع في التعاقد الشفوي بلا كتابة مع تسليم رهن مقبوض للدائن ضامن للدين: «وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ».

وهنا يستجيش الشارع ضمائر المؤمنين للأمانة والوفاء بدافع من تقوى الله. فهذا هو الضمان الأخير لتنفيذ التشريع كله، ولرد الأموال والرهائن إلى أصحابها، والحفاظة الكاملة عليها: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ».

والمدين مؤتمن على الدين، والدائن مؤتمن على الرهن وكلاهما مدعو لأداء ما أؤتمن عليه باسم تقوى الله ربه. والرب هو الراعي والمربي والسيد والحاكم والقاضي. وكل هذه المعاني ذات إجماع في موقف التعامل والائتمان والأداء.. وفي بعض الآراء أن هذه الآية نسخت آية الكتابة في حالة الائتمان. ونحن لا نرى هذا، فالكتابة واجبة في الدين إلا في حالة السفر. والائتمان خاص بهذه الحالة. والدائن والمدين كلاهما - في هذه الحالة - مؤتمن.

وفي ظل هذه الاستحاشة إلى التقوى، يتم الحديث عن الشهادة - عند التقاضي في هذه المرة لا عند التعاقد - لأنها أمانة في عنق الشاهد وقلبه: «وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ. وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ».

ويتكئ التعبير هنا على القلب. فينسب إليه الإثم. تنسيقا بين الإضمار للإثم، والكتمان للشهادة. فكلاهما عمل يتم في أعماق القلب. ويعقب عليه بتهديد ملفوف. فليس هناك خاف على الله.

«وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ». وهو يجزي عليه بمقتضى علمه الذي يكشف الإثم الكامن في القلوب! ثم يستمر السياق في توكيد هذه الإشارة، واستحاشة القلب للخوف من مالك السماوات والأرض وما فيهما، العليم بمكونات الضمائر خفيت أم ظهرت، المجازي عليها، المتصرف في مصائر العباد بما يشاء من الرحمة والعذاب، القدير على كل شيء تتعلق به مشيئته بلا تعقيب! «لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ، فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وهكذا يعقب على التشريع المدني البحت بهذا التوجيه الوجداني البحت ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء في مالك الأرض والسما. فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية.. وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم.. وهي والتشريع في الإسلام متكاملان. فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها ويصنع المجتمع الذي يقن له. صنعة إلهية متكاملة متناسقة. تربية وتشريع. وتقوى وسلطان.. ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان. فأني تذهب شرائع الأرض، وقوانين الأرض، ومنهاج الأرض؟ أني تذهب نظرة إنسان قاصر، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية، يتقلب هواه هنا وهناك، فلا يستقر على حال، ولا يكاد يجتمع اثنان منه على رأي، ولا على رؤية، ولا على إدراك؟ وأن

تذهب البشرية شاردة عن ربها. ربها الذي خلق، والذي يعلم من خلق، والذي يعلم ما يصلح لخلق، في كل حالة وفي كل آن؟

ألا إنها الشقوة للبشرية في هذا الشرود عن منهج الله وشرعه. الشقوة التي بدأت في الغرب هرباً من الكنيسة الطاغية الباغية هناك ومن إلهها الذي كانت تزعم أنها تنطق باسمه وتحرم على الناس أن يتفكروا وأن يتدبروا وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر.. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها. ولكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانها! ثم تخلصوا من كل دين يقودهم في حياتهم الأرضية. بمنهج الله.. وكانت الشقوة وكان البلاء!!^{٦٠}

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشريعته وقانونه؟ ما بالنا وديننا السمح القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال، ويحط عنا الأثقال، ويفيض علينا الرحمة والهدى واليسر والاستقامة على الطريق المؤدي إليه وإلى الرقي والفلاح؟!^{٦١}



^{٦٠} - يراجع في هذا الموضوع كتاب: «الإنسان بين المادية والإسلام» وكتاب: «معركة التقاليد» لمحمد قطب. «دار الشروق».

^{٦١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥٩٢)

١٢. طاعة الكافرين سبب للكفر بعد الإيمان

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) } سورة آل عمران

يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِطَاعَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَمَا مَنَحَهُمْ مِنْ إِرْسَالِ رَسُولٍ إِلَيْهِمْ، لِأَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ .

وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي اثْنَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ. فَيُرَوَى أَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ حُرُوبٌ شَدِيدَةٌ، وَعَدَاوَاتٌ مُّسْتَحْكِمَةٌ، وَلَمَّا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ أَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَأَصْبَحُوا إِخْوَةً فِي الْإِسْلَامِ. وَمَرَّ يَهُودِيٌّ فَرَأَى الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ مُجْتَمِعِينَ وَهُمْ أَكْثَرُ مَا يَكُونُونَ تَوَادًّا وَصَفَاءً، فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَدَسَّ يَهُودِيًّا يَذْكُرُهُمْ بِأَيَّامِ الْحُرُوبِ بَيْنَهُمْ، وَبِمَا كَانُوا يُفَاحِرُونَ بِهِ مِنْ أَشْعَارٍ، فَفَعَلَ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَوْسِ وَآخَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ فَتَلَّسَتَا، وَأَثَارَ كُلُّ مِنْهُمَا جَمَاعَتَهُ، وَدَعَاهُمْ بِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَسَلَّحَ النَّاسُ وَخَرَجُوا لِلْقِتَالِ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَخَطَبَهُمْ وَذَكَرَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ فَسَكَتُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ وَالتِّي قَبَلَهَا .

وَيَسْتَبَعِدُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكْفُرُوا، وَحَاشَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ)، فَآيَاتُ اللَّهِ تُنَزَّلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْهِمْ، وَيُبَلِّغُهَا إِلَيْهِمْ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا، عِنْدَ كُلِّ شُبْهَةٍ يَسْمَعُونَهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ، إِلَى الرَّسُولِ ﷺ حَتَّى يَكْشِفَ لَهُمْ عَنْهَا، وَيُزِيلَ مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ مِنْهَا .

وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ، وَيَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُبْعِدُهُ عَنِ الْعَمَى وَالضَّلَالِ، وَيُوصِلُهُ إِلَى الْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ، وَطَرِيقِ السَّادِ .^{٦٢}

لقد جاءت هذه الأمة المسلمة لتنشئ في الأرض طريقها على منهج الله وحده، متميزة متفردة ظاهرة. لقد انبثق وجودها ابتداء من منهج الله لتؤدي في حياة البشر دورا خاصا لا ينهض به سواها. لقد وجدت لإقرار منهج الله في الأرض، وتحقيقه في صورة عملية، ذات معالم منظورة، وترجم فيها النصوص إلى حركات وأعمال، ومشاعر وأخلاق، وأوضاع وارتباطات.

وهي لا تحقق غاية وجودها، ولا تستقيم على طريقها، ولا تنشئ في الأرض هذه الصورة الوضيئة الفريدة من الحياة الواقعية الخاصة المتميزة، إلا إذا تلقت من الله وحده، وإلا إذا تولت قيادة البشرية بما

^{٦٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

تلقاه من الله وحده. قيادة البشرية .. لا التلقي من أحد من البشر، ولا اتباع أحد من البشر، ولا طاعة أحد من البشر .. إما هذا وإما الكفر والضلال والانحراف ..

هذا ما يؤكد القرآن ويكرره في شتى المناسبات. وهذا ما يقيم عليه مشاعر الجماعة المسلمة وأفكارها وأخلاقها كلما سنحت الفرصة .. وهنا موضع من هذه المواضع، مناسبتة هي المناظرة مع أهل الكتاب، ومواجهة كيدهم وتآمرهم على الجماعة المسلمة في المدينة .. ولكنه ليس محدودا بحدود هذه المناسبة، فهو التوجيه الدائم لهذه الأمة، في كل جيل من أجيالها. لأنه هو قاعدة حياتها، بل قاعدة وجودها.

لقد وجدت هذه الأمة لقيادة البشرية. فكيف تتلقى إذن من الجاهلية التي جاءت لتبدلها ولتصلها بالله، ولتقودها بمنهج الله؟ وحين تتخلى عن مهمة القيادة فما وجودها إذن، وليس لوجودها - في هذه الحال - من غاية؟!!

لقد وجدت للقيادة: قيادة التصور الصحيح. والاعتقاد الصحيح. والشعور الصحيح. والخلق الصحيح. والنظام الصحيح. والتنظيم الصحيح .. وفي ظل هذه الأوضاع الصحيحة يمكن أن تنمو العقول، وأن تتفتح، وأن تتعرف إلى هذا الكون، وأن تعرف أسرارها، وأن تسخر قواه وطاقاته ومدخراته .. ولكن القيادة الأساسية التي تسمح بهذا كله وتسيطر على هذا كله، وتوجهه لخير البشر لا لتهديدهم بالخراب والدمار، ولا لتسخيره في المآرب والشهوات .. ينبغي أن تكون للإيمان، وأن تقوم عليها الجماعة المسلمة، مهتدية فيها بتوجيه الله. لا بتوجيه أحد من عبيد الله.

وهنا في هذا الدرس يجذر الأمة المسلمة من اتباع غيرها، ويبين لها كذلك طريقها لإنشاء الأوضاع الصحيحة وصيانتها. ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب، وإلا فسيفقدونها إلى الكفر لا مناص. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة. كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعودا في طريق النماء والارتقاء. وهذا بذاته ديبب الكفر في النفس، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب.

هذا من جانب المسلمين. فأما من الجانب الآخر، فأهل الكتاب لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها. فهذه العقيدة هي صخرة النجاة وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة. وأعداؤه يعرفون هذا جيدا. يعرفونه قديما ويعرفونه حديثا، ويبدلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعدة. وحين يعجزهم أن يجاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين. وحين يعييبهم أن يجاربوا بأنفسهم وحدهم، يجندون

من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن ينتسبون - زورا - للإسلام، جنودا مجندة، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعا غير أوضاعها، وقيادة غير قيادتها ..

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعا واتباعا، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله في سبيل الغاية التي تؤرقهم، وسيقودونهم ويقودون الجماعة كلها من ورائهم إلى الكفر والضلال. ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ» ..

وما كان يفزع المسلم - حينذاك - ما يفزعه أن يرى نفسه منتكسا إلى الكفر بعد الإيمان. وراجعا إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة. وهذا شأن المسلم الحق في كل زمان ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطا يلهب الضمير، ويوقظه بشدة لصوت النذير .. ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير ..

فيا له من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله فيهم. ودواعي الإيمان حاضرة، والدعوة إلى الإيمان قائمة، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه هذا النور: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟» أجل. إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن في ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان .. وإذا كان رسول الله - ﷺ - قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله - ﷺ - باق .. ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن كما خوطب به الأولون، وطريق العصمة بين، ولواء العصمة مرفوع: «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..

أجل. إنه الاعتصام بالله يعتصم. والله سبحانه باق. وهو - سبحانه - الحي القيوم. ولقد كان رسول الله - ﷺ - يتشدد مع أصحابه - رضوان الله عليهم - في أمر التلقي في شأن العقيدة والمنهج، بقدر ما كان يفسح لهم في الرأي والتجربة في شؤون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة، كشؤون الزرع، وخطط القتال، وأمثالها من المسائل العملية البحتة التي لا علاقة لها بالتصور الاعتقادي، ولا بالنظام الاجتماعي، ولا بالارتباطات الخاصة بتنظيم حياة الإنسان .. وفرق بين هذا وذلك بين. فمنهج الحياة شيء، والعلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية شيء آخر. والإسلام الذي جاء ليقود الحياة بمنهج الله، هو الإسلام الذي وجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجه للحياة ..

روى أحمد عن عبد الله بن ثابت، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ، فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَةِ أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَعَيَّرَ وَجْهَهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَى مَا بَوَّجَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ

دينًا، وبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، قَالَ: فَسَرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى
ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَّمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ. ٦٣

وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ
يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، وَإِمَّا أَنْ تُكْذِبُوا بِحَقٍّ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا
بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي". ٦٤ ..

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : « لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَن
شَيْءٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا » ٦٥ .

هؤلاء هم أهل الكتاب. وهذا هو هدى رسول الله ﷺ - في التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعبادة
والتصور، أو بالشرعية والمنهج .. ولا ضير - وفق روح الإسلام وتوجيهه - من الانتفاع بجهود البشر
كلهم في غير هذا من العلوم البحتة، علما وتطبيقا .. مع ربطها بالمنهج الإيماني: من ناحية الشعور
بها، وكونها من تسخير الله للإنسان. ومن ناحية توجيهها والانتفاع بها في خير البشرية، وتوفير الأمن لها
والرخاء.

وشكر الله على نعمة المعرفة ونعمة تسخير القوى والطاقات الكونية. شكره بالعبادة، وشكره بتوجيهه
هذه المعرفة وهذا التسخير لخير البشرية ..

فأما التلقي عنهم في التصور الإيماني، وفي تفسير الوجود، وغاية الوجود الإنساني. وفي منهج الحياة
وأنظمتها وشرائعها، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضا .. أما التلقي في شيء من هذا كله، فهو الذي
تغير وجه رسول الله ﷺ - لأيسر شيء منه. وهو الذي حذر الله الأمة المسلمة عاقبته. وهي الكفر
الصراح ..

هذا هو توجيه الله - سبحانه - وهذا هو هدى رسوله ﷺ - فأما نحن الذين نزعم أننا
مسلمون، فأرانا نتلقى في صميم فهمنا لقرآنا وحديث نبينا ﷺ - عن المستشرقين وتلامذة
المستشرقين! وأرانا نتلقى فلسفتنا وتصوراتنا للوجود والحياة من هؤلاء وهؤلاء، ومن الفلاسفة
والمفكرين: الإغريق والرومان والأوروبيين والأمريكان! وأرانا نتلقى نظام حياتنا وشرائعنا وقوانيننا من
تلك المصادر المدخولة! وأرانا نتلقى قواعد سلوكنا وآدابنا وأخلاقنا من ذلك المستنقع الآسن، الذي
انتهت إليه الحضارة المادية المجردة من روح الدين .. أي دين .. ثم نزعم - والله - أننا مسلمون! وهو
زعم إثم أثقل من إثم الكفر الصريح. فنحن بهذا نشهد على الإسلام بالفشل والمسوخ. حيث لا يشهد
عليه هذه الشهادة الآثمة من لا يزعمون - مثلنا - أنهم مسلمون! إن الإسلام منهج. وهو منهج ذو

٦٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٤٤٩/ ٥] (١٥٨٦٤) (١٥٩٥٨) حسن لغيره

٦٤ - مسند أبي يعلى الموصلي مشكل [٣٥٤/ ٢] (٢١٣٥) حسن

٦٥ - السنن الكبرى للبيهقي - المكثر [١٠/ ٢] (٢٣٣٠) حسن

خصائص متميزة: من ناحية التصور الاعتقادي، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها. ومن ناحية القواعد الأخلاقية، التي تقوم عليها هذه الارتباطات، ولا تفارقها، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية. وهو منهج جاء لقيادة البشرية كلها. فلا بد أن تكون هناك جماعة من الناس تحمل هذا المنهج لتقود به البشرية. ومما يتناقض مع طبيعة القيادة - كما أسلفنا - أن تتلقى هذه الجماعة التوجيهات من غير منهجها الذاتي ..

ولخير البشرية جاء هذا المنهج يوم جاء. ولخير البشرية يدعو الدعاة لتحكيم هذا المنهج اليوم وغدا. بل الأمر اليوم ألزم، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني. وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي، الذي يجب أن يحتفظ بكل خصائصه كي يؤدي دوره للبشرية وينقذها مرة أخرى.

لقد أحرزت البشرية انتصارات شتى في جهادها لتسخير القوى الكونية. وحققت في عالم الصناعة والطب ما يشبه الخوارق - بالنسبة للماضي - وما تزال في طريقها إلى انتصارات جديدة .. ولكن ما أثر هذا كله في حياتها؟ ما أثره في حياتها النفسية؟ هل وجدت السعادة؟ هل وجدت الطمأنينة؟ هل وجدت السلام؟ كلا! لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف .. والأمراض العصبية والنفسية، والشذوذ والجريمة على أوسع نطاق! ..

إنهما لم تتقدم كذلك في تصور غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية .. وحين تقاس غاية الوجود الإنساني وأهداف الحياة الإنسانية في ذهن الرجل المتحضر المعاصر، إلى التصور الإسلامي في هذا الجانب، تبدو هذه الحضارة في غاية القزامة! بل تبدو لعنة تحط من تصور الإنسان لنفسه ومقامه في هذا الوجود، وتسفل به، وتصغر من اهتماماته ومن أشواقه! .. والخواء يأكل قلب البشرية المكدود، والحيرة تهد روحها المتعبة ..

إنهما لا تجد الله .. لقد أبعدهما عنه ملابسات نكدية. والعلم الذي كان من شأنه، لو سار تحت منهج الله، أن يجعل من كل انتصار للبشرية في ميدانه خطوة تقربها من الله، هو ذاته الذي تبعد به البشرية أشواطاً بسبب انطماس روحها ونكستها .. إنهما لا تجد النور الذي يكشف لها غاية وجودها الحقيقية فتنتقل إليها مستعينة بهذا العلم الذي منحه الله لها ووهبها الاستعداد له. ولا تجد المنهج الذي ينسق بين حركتها وحركة الكون، وفطرتها وفطرة الكون، وقانونها وناموس الكون. ولا تجد النظام الذي ينسق بين طاقاتها وقواها، وآخرتها وديناها، وأفرادها وجماعاتها، وواجباتها وحقوقها .. تنسيقاً طبيعياً شاملاً مريحاً ..

وهذه البشرية هي التي يعمل ناس منها على حرمانها من منهج الله الهادي. وهم الذين يسمون التطلع إلى هذا المنهج «رجعية!» ويحسبونه مجرد حنين إلى فترة زاهية من فترات التاريخ .. وهم يجهالتهم هذه أو بسوء نيتهم يجرمون البشرية التطلع إلى المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقود خطاها إلى السلام

والطمأنينة، كما يقود خطاها إلى النمو والرقى . . ونحن الذين نؤمن بهذا المنهج نعرف إلى ماذا ندعو. إننا نرى واقع البشرية النكد، ونشم رائحة المستنقع الآسن الذي تتمرغ فيه. ونرى هنالك على الأفق الصاعد راية النجاة تلوح للمكدودين في هجير الصحراء المحرق، والمرتمى الوضيء النظيف يلوح للغارقين في المستنقع ونرى أن قيادة البشرية إن لم ترد إلى هذا المنهج فهي في طريقها إلى الارتكاس الشائن لكل تاريخ الإنسان، ولكل معنى من معاني الإنسان! وأولى الخطوات في الطريق أن يتميز هذا المنهج ويتفرد، ولا يتلقى أصحابه التوجيه من الجاهلية الطامة من حولهم . . كما يظل المنهج نظيفا سليما. إلى أن يأذن الله بقيادته للبشرية مرة أخرى. والله أرحم بعباده أن يدعهم لأعداء البشر، الداعين إلى الجاهلية من هنا ومن هناك! . . وهذا ما أراد الله سبحانه أن يلقيه للجماعة المسلمة الأولى في كتابه الكريم وما حرص رسول الله ﷺ - أن يعلمها إياه في تعليمه القويم...^{٦٦}



^{٦٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٠٦)

١٣. الأمر بتقوى الله حق تقاته

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَتَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) } سورة آل عمران

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَأَنْ يُذَكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيَقُولُ لَهُمْ: حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَيَاتِكُمْ لَتَمُوتُوا عَلَيْهِ، فَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَ عَلَيْهِ .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّمَسُّكِ بِحَبْلِ اللَّهِ، أَيِ بَعْدِهِ وَدِينِهِ وَذِمَّتِهِ وَقُرْآنِهِ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالاجْتِمَاعِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَأَخَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ الْمُسْتَحْكِمَةِ، وَالْفُرْقَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، فَقَدْ كَانُوا عَلَىٰ مِثْلِ شَفِيرِ النَّارِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَضَلَالِهِمْ وَأَقْتِتَالِهِمْ، فَهَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَنْقَذَهُمْ .

وَكَأَمَّا بَيْنَ لَهُمْ رُبُّهُمْ، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، مَا يُضْمِرُهُ لَهُمُ الْيَهُودُ مِنْ شَرِّ وَخِدَاعِ وَعِشِّ، وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي حَالِ جَاهِلِيَّتِهِمْ مِنْ كُفْرٍ وَفُرْقَةٍ وَأَقْتِتَالٍ، وَمَا صَارُوا إِلَيْهِ بِفَضْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ وَحْدَةٍ وَإِخَاءٍ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ سَائِرَ حُجَجِهِ فِي تَنْزِيلِهِ عَلَى رَسُولِهِ، لِيُعِدَّهُمْ لِلْإِهْتِدَاءِ الدَّائِمِ، حَتَّى لَا يَعُودُوا إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْإِقْتِتَالِ .

لَتَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الْأَحْكَامِ، وَحِكْمَةَ التَّشْرِيْعِ وَفِقْهَهُ، تَتَوَلَّى الْقِيَامَ بِالذِّكْرِ إِلَى الدِّينِ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتُحَارِبُ الْمُنْكَرَ، وَتَنْهَى عَنْهُ، وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُحَارِبَ الْمُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَنْ يَكُونُوا كَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ تَفَرَّقُوا فِي الدِّينِ، وَكَانُوا شِيعًا تَذْهَبُ كُلُّ شِيعَةٍ مِنْهَا مَذْهَبًا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَتُخَطِّئُ غَيْرَهَا، وَلِذَلِكَ تَعَادَوْا وَأَقْتِتَلُوا .

وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَتَّجِهَ إِلَى غَايَةِ وَاحِدَةٍ، لَمَا تَفَرَّقُوا، وَلَمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ. وَهَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفُونَ الْمُتَفَرِّقُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخُسْرَانٌ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الآخِرَةِ .

وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَبَيُّضُ وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَسْرُوتُ لِمَا يَعْمَلُونَهُ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ. وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ وَالْاِخْتِلَافِ، لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ، وَمَا يَحِلُّ بِهَا مِنَ التَّكَالِ وَالْوَبَالِ. وَيَسْأَلُ الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ وَالْاِخْتِلَافِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَكْفَرْتُمْ بِاللَّهِ، وَخَالَفْتُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنَ الْاِعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَبِالْوِفَاقِ وَاتِّحَادِ الْكَلِمَةِ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ الَّذِي تَسْتَحِقُّونَهُ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ .

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبِاتِّحَادِ الْكَلِمَةِ، وَعَدَمِ التَّفَرُّقِ، فَيَكُونُونَ فِي الدُّنْيَا فِي نَعِيمٍ، مَا دَامُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَيَكُونُونَ فِي الآخِرَةِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ لِيَكُونُوا فِيهَا خَالِدِينَ أَبَدًا .

جَمِيعٌ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عِبِيدٌ لِلَّهِ، وَهُمْ مُلْكٌ لَهُ، يَتَصَرَّفُ فِي شُؤُونِهِمْ بِحَسَبِ سُنَنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي لَا تَعْيِيرُ فِيهَا وَلَا تَبْدِيلَ، وَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِلَيْهِ تَصِيرُ أُمُورُ الْخَلْقِ جَمِيعًا فَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ .

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ فِي الْوُجُودِ، لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا صَادِقًا بِاللَّهِ، وَيُظْهِرُ أَنْرَهُ فِي نَفْسِهِمْ، فَيَنْزِعُهُمْ عَنِ الشَّرِّ، وَيَصْرِفُهُمْ إِلَى الْخَيْرِ، فَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ .

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِيمَانًا صَاحِحًا يَسْتَوِي عَلَى النَّفْسِ، وَيَمْلِكُ أَرْمَةَ الْقُلُوبِ فَيَكُونُ مَصْدَرَ الْفَضَائِلِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، كَمَا تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ، أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، لَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا يَدْعُونَهُ مِنْ إِيمَانٍ لَا يَزَعُ النَّفْسَ عَنِ الشُّرُورِ، وَلَا يُبْعِدُهَا عَنِ الرَّدَائِلِ. وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ جَمَاعَةٌ مُؤْمِنُونَ مُخْلِصُونَ فِي إِيمَانِهِمْ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ عَنْ دِينِهِمْ، مُتَمَرِّدُونَ فِي الْكُفْرِ .^{٦٧}

إِهْمَا رَكِيزَتَانِ تَقُومُ عَلَيْهِمَا الْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ، وَتُؤَدِّي بِهَمَا دَوْرَهَا الشَّاقَّ الْعَظِيمَ. فَإِذَا انْهَارَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَوْرٌ لَهَا تُؤَدِّيهِ: رَكِيزَةُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى أَوْ لَا. .التَّقْوَى الَّتِي تَبْلُغُ أَنْ تُوْفَى بِحَقِّ اللَّهِ الْجَلِيلِ. .التَّقْوَى الدَّائِمَةُ الْيَقِظَةُ الَّتِي لَا تَغْفَلُ وَلَا تَفْتَرُ لِحِظَةٍ مِنْ لِحِظَاتِ الْعَمْرِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجْلَهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» . .

^{٦٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٩٥، بترقيم الشاملة آليا)

اتقوا الله - كما يحق له أن يتقى - وهي هكذا بدون تحديد تدع القلب مجتهدا في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها. وكلما أو غل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق، وجدّت له أشواق. وكلما اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى. وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام! «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ..

والموت غيب لا يدري إنسان متى يدركه. فمن أراد ألا يموت إلا مسلما فسيبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما، وأن يكون في كل لحظة مسلما. وذكر الإسلام بعد التقوى يشي بمعناه الواسع: الاستسلام لله، طاعة له، واتباعا لمنهجه، واحتكاما إلى كتابه. وهو المعنى الذي تقرره السورة كلها في كل موضع منها، على نحو ما أسلفنا.

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقيق وجودها وتؤدي دورها. إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجمعا جاهليا. ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة، إنما تكون هناك مناهج جاهلية. ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية، إنما تكون القيادة للجاهلية.

فأما الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة .. الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا. وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» ..

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام .. من الركيزة الأولى .. أساسها الاعتصام بحبل الله - أي عهده ومنهجه ودينه - وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!

«وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» .. هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى. وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما. وهو هنا يذكرهم هذه النعمة. يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية «أعداء» .. وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد. وهما الحيان العربيان في يثرب. يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعا. ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام .. وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة. وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخوانا.

وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والنارات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال ..

«وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً، فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» ..

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها، إنقاذهم من النار بمهاديتهم إلى الاعتصام بحبل الله - الركنة الأولى - وبالتأليف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا - الركنة الثانية - : «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا».

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط: «الْقَلْبِ» .. فلا يقول: فألف بينكم. إنما ينفذ إلى المكمن العميق: «فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» فيصور القلوب حزمة مؤلفة متألفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه. كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه. بل مشهدا حيا متحركا تتحرك معه القلوب: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ» .. وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة، إذا بالقلوب ترى يد الله، وهي تدرك وتنقذ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم. وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والتركيب!

وهو مشهد متحرك حي تتبعه القلوب واجفة خافقة، وتكاد العيون تملأه من وراء الأجيال! وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، وذلك أن رجلا من اليهود مرَّ بمألاً من الأوس والخزرج، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلا معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بُعثت وتلك الحروب، ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض، وتناوروا، ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم، وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟" وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح، رضي الله عنهم وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تناوروا في قضية الإفك. والله أعلم. ٦٨.

وعن عاصم بن عمرو بن قتادة المدني، عن أشياخ، من قومه، قالوا: "قَدِمَ سُؤَيْدُ بْنُ صَامِتٍ أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ مَكَّةَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا. قَالَ: وَكَانَ سُؤَيْدٌ إِنَّمَا يُسَمِّيهِ قَوْمُهُ فِيهِمُ الْكَامِلَ لِحَدِّهِ وَشِعْرِهِ وَنَسَبِهِ وَشَرَفِهِ، قَالَ: فَتَصَدَّى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ سَمِعَ بِهِ، فَدَعَاهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ سُؤَيْدٌ: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِي، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟ " قَالَ مَجَلَّةٌ لِقَمَانٍ يَعْنِي حِكْمَةَ لِقَمَانٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " اعْرِضْهَا عَلَيَّ " فَعَرَضَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: " إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ، مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيَّ هُدًى وَنُورٌ "، قَالَ: فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَسَنٌ ثُمَّ انصَرَفَ عَنْهُ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَتَلْتُهُ الْخَزْرَجُ، فَإِنْ كَانَ قَوْمُهُ لَيَقُولُونَ: قَدْ قُتِلَ وَهُوَ مُسْلِمٌ، وَكَانَ قَتْلُهُ قَبْلَ يَوْمِ بُعَاثٍ " ٦٩.

وعن محمد بن إسحاق، قال: ثني الحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل أن محمود بن أسد أحد بني عبد الأشهل، قال: لما قدم أبو الجيش أنس بن رافع مكة، ومعه

٦٨ - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٢ / ٩٠]

٦٩ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٦٩٠٦) صحيح مرسل

فَتِيَّةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فِيهِمْ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ، يَلْتَمِسُونَ الْحَلْفَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْخَزْرَجِ، سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَاهُمْ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: "هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟" قَالُوا: وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ: "أَنَا رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْكِتَابَ"، ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ، وَكَانَ غُلَامًا حَدَّثًا: أَيُّ قَوْمٍ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو الْجَيْشِ أَنَسُ بْنُ رَافِعٍ حَفْنَةً مِنَ الْبُطْحَاءِ فَضَرَبَ بِهَا وَجْهَ إِيَّاسِ بْنِ مُعَاذٍ، وَقَالَ: دَعْنَا مِنْكَ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ جِئْنَا لَغَيْرِ هَذَا، قَالَ: فَصَمَتَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ، وَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمْ، وَأَنْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ وَقْعَةٌ بَعَثَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاذٍ أَنْ هَلَكَ قَالَ: فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِظْهَارَ دِينِهِ، وَإِعْزَازَ نَبِيِّهِ ﷺ، وَإِنْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَوْسِمَ الَّذِي لَقِيَ فِيهِ النَّفْرَ مِنَ الْأَنْصَارِ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ، فَبِينَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، إِذْ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ أَرَادَ اللَّهُ لَهُمْ خَيْرًا، قَالَ ابْنُ حُمَيْدٍ: قَالَ سَلَمَةُ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ قَتَادَةَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ قَوْمِهِ، قَالُوا: لَمَّا لَقِيَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ: "مَنْ أَنْتُمْ؟" قَالُوا: نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ، قَالَ: وَأَمِنْ مَوَالِي يَهُودٍ؟" قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: "أَفَلَا تَجْلِسُونَ حَتَّى أُكَلِّمَكُمْ؟" قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَجَلَسُوا مَعَهُ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، قَالَ: وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُمْ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ بِلَادِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانُوا أَهْلَ شَرِكٍ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، وَكَانُوا قَدْ غَزَوْهُمْ بِلَادِهِمْ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، قَالُوا لَهُمْ: إِنَّ نَبِيًّا آتَانَا مَبْعُوثٌ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ تَتَّبِعُهُ وَتَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتَلَ عَادَ وَإِرَمَ، فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْلَئِكَ النَّفْرَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا قَوْمَ تَعْلَمُونَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيِّ الَّذِي تُوعِدُكُمْ بِهِ يَهُودٌ، وَلَا يَسْبِقَنَّكُمْ إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْ صَدَّقُوهُ، وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا، وَكَانَ قَوْمٌ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ بِكَ، وَسَنَقْدُمُ عَلَيْهِمْ، فَندَعُوهُمْ إِلَى أَمْرِكَ، وَنَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَجَبْنَاكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الدِّينِ، فَإِنْ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَلَا رَجُلٌ أَعَزُّ مِنْكَ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ، قَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا، وَهُمْ فِيمَا ذَكَرَ لِي سِتَّةٌ نَفَرٍ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ عَلَى قَوْمِهِمْ، ذَكَرُوا لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى فَشْنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، وَافَى الْمَوْسِمَ مِنَ الْأَنْصَارِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَلَقَوْهُ بِالْعَقَبَةِ، وَهِيَ الْعَقَبَةُ الْأُولَى، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْهِمُ الْحَرْبُ " ٧٠ .

٧٠ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٦٩٠٧) حَسَنٌ مَرْسَلٌ

وكذلك بين الله لهم فاهتدوا، وحق فيهم قول الله سبحانه في التعقيب في الآية: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحايين فيه، القائمين على منهجه، لقيادة البشرية في طريقه.. هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائما للجماعة المسلمة، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله. وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب. كادت ترد المسلمين الأولين كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض. وتقطع بينهم حبل الله المتين، الذي يتآخون فيه مجتمعين. وهذه صلة هذه الآية بالآيات قبلها في هذا السياق.

على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة. فهي تشي - مع ما قبلها في السياق وما بعدها - بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل. والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم، ومن التفرق كما تفرقوا.. هذه التحذيرات تشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذورهم لبذور الشقاق والشك والبلبله باستمرار.. وهو دأب يهود في كل زمان. وهو عملها اليوم وغدا في الصف المسلم، في كل مكان!

فأما وظيفة الجماعة المسلمة التي تقوم على هاتين الركيزتين لكي تنهض بها.. هذه الوظيفة الضرورية لإقامة منهج الله في الأرض، ولتغليب الحق على الباطل، والمعروف على المنكر، والخير على الشر.. هذه الوظيفة التي من أجلها أنشئت الجماعة المسلمة بيد الله وعلى عينه، ووفق منهجه.. فهي التي تقررها الآية التالية: «وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»..

فلا بد من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر. والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته.

فهناك «دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف. وهناك «نهي» عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة.. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى.. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر.. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل الله وحبل الأخوة في الله.. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج الله في حياة البشر.. وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر.. فتطاع.. والله يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ».. فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان. فهذا شرط. أما الشرط الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي، على تحقيق

المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره، زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب! والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من ثم - تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم.

وفيهم الجبار الغاشم. وفيهم الحاكم المتسلط. وفيهم الهابط الذي يكره الصعود. وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهم المنحل الذي يكره الجد. وفيهم الظالم الذي يكره العدل. وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ..

وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر. ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً .. وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى ..

وتطاع ..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين: الإيمان بالله والأخوة في الله. لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة، وكتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته. فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير. المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل. والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم .. عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر. والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة. والحق فيه أقوى من الباطل. والعدل فيه أنفع من الظلم .. فاعل الخير فيه يجد على الخير أعواناً. وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانا .. ومن هنا قيمة هذا التجمع ..

إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه. والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص .. يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافاً جوهرياً أصيلاً. فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة. لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو أو تقاومه. وحين توجد هذه

العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل الله تجدد من يدافعها دون منهج الله في الحياة.

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة. الإيمان بالله كي يتوحد تصورهما للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص، وترجع إلى ميزان واحد تقوم به كل ما يعرض لها في الحياة، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند الله، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج الله في الأرض.. والأخوة في الله. كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار. الإيثار المنطلق في يسر، المندفع في حرارة، المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين.. على الإيمان بالله: ذلك الإيمان المنبثق من معرفة الله - سبحانه - وتمثل صفاته في الضمائر وتقواه ومراقبته، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال. وعلى الحب. الحب الفياض الرائق، والود. الود العذب الجميل، والتكافل. التكافل الجاد العميق.. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغاً، لولا أنه وقع، لعد من أحلام الخاملين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الخاملة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض. ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان! ١٠٦ - وعلى مثل ذلك الإيمان ومثل هذه الأخوة يقوم منهج الله في الأرض في كل زمان..

ومن ثم يعود السياق فيحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف وينذر عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله قبلها - من أهل الكتاب - ثم تفرقوا واختلّفوا، فترع الله الراية منهم، وسلمها للجماعة المسلمة المتأخية.. فوق ما ينتظرهم من العذاب، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ: أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» ..

وهنا يرسم السياق مشهداً من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية.. فنحن في مشهد هول. هول لا يتمثل في ألفاظ ولا في أوصاف. ولكن يتمثل في آدميين أحياء. في وجوه وسمات.. هذه وجوه قد أشرقت بالنور، وفاضت بالبشر، فابيضت من البشر والبشاشة، وهذه وجوه كمدت من الحزن، واغبرت من الغم، واسودت من الكآبة.. وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه. ولكنه اللذع بالتبكيك والتأنيب: «أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ!» ..

«وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». هكذا ينبض المشهد بالحياة والحركة والحوار.. على طريقة القرآن. وهكذا يستقر في ضمير الجماعة المسلمة معنى التحذير من الفرقة والاختلاف. ومعنى النعمة الإلهية الكريمة.. بالإيمان والاتلاف.

وهكذا ترى الجماعة المسلمة مصير هؤلاء القوم من أهل الكتاب، الذين تحذّر أن تطيعهم. كي لا تشاركهم هذا المصير الأليم في العذاب العظيم. يوم تبيض وجوهه، وتسود وجوهه .. ويعقب على هذا البيان لمصائر الفريقين تعقيباً قرآنياً يتمشى مع خطوط السورة العريضة، يتضمن إثبات صدق الوحي والرسالة. وجدية الجزاء والحساب يوم القيامة. والعدل المطلق في حكم الله في الدنيا والآخرة.

وملكية الله المفردة لما في السماوات وما في الأرض. ورجعة الأمر إليه في كل حال: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» ..

تلك الصور. تلك الحقائق. تلك المصائر .. تلك آيات الله وبيناته لعباده: نتلوها عليك بالحق. فهي حق فيما تقرره من مبادئ وقيم وهي حق فيما تعرضه من مصائر وجزاءات. وهي تتزل بالحق ممن يملك تنزيلها ومن له الحق في تقرير القيم، وتقرير المصائر، وتوقيع الجزاءات. وما يريد بها الله أن يوقع بالعباد ظلماً. فهو الحكم العدل. وهو المالك لأمر السماوات والأرض. ولكل ما في السماوات وما في الأرض. وإليه مصير الأمور. إنما يريد الله بترتيب الجزاء على العمل أن يحق الحق، وأن يجري العدل، وأن تمضي الأمور بالجد اللائق بجلال الله .. لا كما يدعي أهل الكتاب أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات!

بعدئذ يصف الأمة المسلمة لنفسها! ليعرفها مكانها وقيمتها وحقيقتها ثم يصف لها أهل الكتاب - ولا يخسهم قدرهم، إنما يبين حقيقتهم ويطمعهم في ثواب الإيمان وخيره - ويطمئن المسلمين من جانب عدوهم. فهم لن يضروهم في كيدهم لهم وقتلهم، ولن ينصروا عليهم. وللذين كفروا منهم عذاب النار في الآخرة، لا ينفعهم فيه ما أنفقوا في الحياة الدنيا بلا إيمان ولا تقوى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ. تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ. لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى، وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يُولُوكُمْ الْآذِبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ. ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا - إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ - وَبِأُذٍ بَعْضٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. لَيْسُوا سَوَاءً. مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُعْطِيَهُمْ أَموالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ، أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» ..

إن شطر الآية الأولى في هذه المجموعة يضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجبا ثقيلا، بقدر ما يكرم هذه الجماعة ويرفع مقامها، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..».

إن التعبير بكلمة «أُخْرِجَتْ» المبني لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر. وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجا وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله .. إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الديب. حركة تخرج على مسرح الوجود أمة. أمة ذات دور خاص. لها مقام خاص، ولها حساب خاص:

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» .. وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض. ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية. إنما ينبغي دائما أن تعطي هذه الأمم مما لديها. وأن يكون لديها دائما ما تعطيه. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها.

واجبها أن تكون في الطليعة دائما، وفي مركز القيادة دائما. ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلا له .. وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له. فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي، وبعمارتها للأرض - قياما بحق الخلافة - أهلا له كذلك .. ومن هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشيء الكثير ويدفعها إلى السبق في كل مجال .. لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه.

وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد .. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي خير أمة أخرجت للناس. لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف - تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا - وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ» .. كلا! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر: «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» ..

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما في طريقها من أشواك .. إنه التعرض للشر والتحريض على الخير وصيانة المجتمع من عوامل الفساد .. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضروري لإقامة المجتمع الصالح وصيانتها ولتحقيق الصورة التي يجب الله أن تكون عليها الحياة ..

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعريف الصحيح للمعروف والمنكر. فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفي. فقد يعم الفساد حتى تضطرب الموازين وتختل. ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير وللشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر. يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس في جيل من الأجيال.

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه. وللإنسان وغاية وجوده ومركزه الحقيقي في هذا الكون.. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية. ومن الباعث على إرضاء الله وتوقى غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد. ومن سلطان الله في الضمائر، وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك.

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أن يعضوا في هذا الطريق الشاق، ويحتملوا تكاليفه. وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقله المطامع..

وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هي الإيمان. وسندهم هو الله.. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد. وكل عدة سوى عدة الإيمان تفل، وكل سند غير سند الله ينهار! وقد سبق في السياق الأمر التكليفي للجماعة المسلمة أن ينتدب من بينها من يقومون بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما هنا فقد وصفها الله سبحانه بأن هذه صفتها. ليدلها على أنها لا توجد وجودا حقيقيا إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تعرف بها في المجتمع الإنساني. فإما أن تقوم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مع الإيمان بالله - فهي موجودة وهي مسلمة. وإما أن لا تقوم بشيء من هذا فهي غير موجودة، وغير متحققة فيها صفة الإسلام.

وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة تقرر هذه الحقيقة، ندعها لموضعها. وفي السنة كذلك طائفة صالحة من أوامر الرسول - ﷺ - وتوجيهاته نقتطف بعضها:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: أَخْرَجَ مَرْوَانَ الْمُنْبَرِ فِي يَوْمِ عِيدٍ، وَبَدَأَ بِالْخُطْبَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا مَرْوَانَ، خَالَفْتَ السُّنَّةَ، أَخْرَجْتَ الْمُنْبَرِ فِي يَوْمِ عِيدٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَخْرُجُ، وَبَدَأْتَ بِالْخُطْبَةِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَكُنْ يُبْدَأُ بِهَا، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ. زَادَ إِسْحَاقُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَلْيَسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَى الْإِيمَانِ. ^{٧١}

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي، نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، قَالَ يَزِيدُ: أَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَسْوَاقِهِمْ، وَوَاكُلُوهُمْ وَشَارِبُوهُمْ، فَضْرَبَ اللَّهُ

^{٧١} - صحيح مسلم - المكثر - (١٨٦) - وصحيح ابن حبان - (١ / ٥٤٢) (٣٠٧)

قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكَبِّراً، فَجَلَسَ، فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى تَأْطُرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا. ٧٢ أي تعطفوهم وتردوهم.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " هَلْ تَدْرُونَ فِيَمَا سَخَطَ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ " قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " إِنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَرَى الرَّجُلَ مِنْهُمْ عَلَى مَعْصِيَةِ فِيْنَهَا بَعْدَ التَّهْيِ، ثُمَّ يَلْقَاهُ بَعْدَ فَيَصَافِحُهُ وَيُؤَاكِلُهُ وَيُشَارِبُهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ حَتَّى كَثُرَ ذَلِكَ فِيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لِيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ ٧٣ "

وَعَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُوْنَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ " ٧٤
وَعَنِ الْعُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ « إِذَا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكْرَهَا ». وَقَالَ مَرَّةً « أَنْكَرَهَا ». « كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا ». ٧٥ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ». أَوْ « أَمِيرٍ جَائِرٍ » ٧٦ .

وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَالَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاها فَقَتَلَهُ ٧٧ ..

وغيرها كثير .. وكلها تقرر أصالة هذه السمة في المجتمع المسلم، وضرورتها لهذا المجتمع أيضا. وهي تحتوي مادة توجيه وتربية منهجية ضخمة. وهي إلى جانب النصوص القرآنية زاد نحن غافلون عن قيمته وعن حقيقته ٧٨

٧٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٤٧) (٣٧١٣) حسن - تأطر: تعطفه عليه وتوجهه إليه

٧٣ - شعب الإيمان - (١٠ / ٤٥) (٧١٣٩) حسن

٧٤ - شعب الإيمان - (١٠ / ٥٤) (٧١٥٢) صحيح لغيره

٧٥ - سنن أبي داود - المكثر - (٤٣٤٧) حسن

٧٦ - سنن أبي داود - المكثر - (٤٣٤٦) صحيح لغيره

٧٧ - المستدرک للحاكم (٤٨٨٤) صحيح

٧٨ - يراجع بتوسع كتاب: «قبسات من الرسول» لمحمد قطب فصل: «قبل أن تدعوا فلا أجيب». دار الشروق (السيد رحمه الله)

ثم نعود إلى الشطر الآخر من الآية الأولى في هذه المجموعة .. «وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ» .. وهو ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان. فهو خير لهم. خير لهم في هذه الدنيا، يستعصمون به من الفرقة والهليلة التي كانوا عليها في تصوراتهم الاعتقادية، والتي ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية. إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعي لحياتهم، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية - من ثم - على غير أساس، عرجاء أو معلقة في الهواء ككل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس اعتقادي شامل، وعلى تفسير كامل للوجود، ولغاية الوجود الإنساني، ومقام الإنسان في هذا الكون .. وخير لهم في الآخرة يقيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير.

ثم هو بيان كذلك لحالهم، لا يبغض الصالحين منهم حقهم: «مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ» وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحسن إسلامهم. منهم عبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شعبة، وكعب بن مالك .. وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال - وفي آية تالية بالتفصيل - أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين: أن يؤمن كل منهم بأخيه الذي يجيء بعده، وأن ينصره. وفسقوا عن دين الله وهم يأبون الاستسلام لإرادته في إرسال آخر الرسل من غير بني إسرائيل، واتباع هذا الرسول وطاعته والاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله، أرادها للناس أجمعين.

ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلوات منوعة باليهود في المدينة، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة: عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين في نفوس المسلمين، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم، وتفرقهم شيعا وفرقا، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة.

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٌّ، وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأُدْبَارَ، ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ، ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا - إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ - وَبَأْوُ بِعَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة، وضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء، وهم معتصمون بدينهم وربهم في يقين: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىٌّ. وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ».

فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة، ولن يؤثر في كينونة الجماعة المسلمة، ولن يجلبها من الأرض .. إنما هو الأذى العارض في الصدام، والألم الذاهب مع الأيام .. فأما حين يشتبكون مع المسلمين في قتال، فالهزيمة مكتوبة عليهم - في النهاية - والنصر ليس لهم على المؤمنين، ولا ناصر لهم كذلك ولا عاصم من المؤمنين .. ذلك أنه قد «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ» وكتبت لهم مصيرا. فهم في كل أرض يذلون، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين - حين يدخلون في ذمتهم فتعصم دماءهم

وأموالهم إلا بحقتها، وتبليهم الأمن والطمأنينة - ولم تعرف يهود منذ ذلك الحين الأمن إلا في ذمة المسلمين. ولكن يهود لم تعاد أحدا في الأرض عداها للمسلمين! .. «وَبَاؤُاْ بِغَضَبِ مِّنَ اللّٰهِ» .. كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب. «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» تعيش في ضمائرهم وتكمن في مشاعرهم ..

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية. فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر - ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم، وأقاموا منهج الله في حياتهم - وكتب لأعدائهم المذلة والهوان إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم. ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود. فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم، مهما تكن دعواهم في الدين: إنه المعصية والاعتداء: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ، وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْاْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ».

فالكفر بآيات الله - سواء بإنكارها أصلا، أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها في واقع الحياة - وقتل الأنبياء بغير حق. وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس كما جاء في آية أخرى في السورة - والعصيان والاعتداء ..

هذه هي المؤهلات لغضب الله، وللهزيمة والمذلة والمسكنة .. وهذه هي المؤهلات التي تتوافر اليوم في البقايا الشاردة في الأرض من ذراري المسلمين. الذين يسمون أنفسهم - بغير حق - مسلمين! هذه هي المؤهلات التي يتقدمون بها إلى ربهم اليوم، فينالون عليها كل ما كتبه الله على اليهود من الهزيمة والمذلة والمسكنة. فإذا قال أحد منهم: لماذا تغلب في الأرض ونحن مسلمون؟ فلينظر قبل أن يقولها: ما هو الإسلام، ومن هم المسلمون؟! ثم يقول!

وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب، يعود السياق عليهم بالاستثناء، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء. فهناك المؤمنون. يصور حالهم مع ربهم، فإذا هي حال المؤمنين الصادقين. ويقرر جزاءهم عنده فإذا هو جزاء الصالحين. «لَيْسُوا سَوَاءً. مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ، يَتْلُونَ آيَاتِ اللّٰهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ. وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصّٰلِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ، وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» ..

وهي صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب. فقد آمنوا إيمانا صادقا عميقا، وكاملا شاملا، وانضموا للصف المسلم، وقاموا على حراسة هذا الدين ..

آمنوا بالله واليوم الآخر .. وقد نهضوا بتكاليف الإيمان، وحققوا سمة الأمة المسلمة التي انضموا إليها - خير أمة أخرجت للناس - فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ..

وقد رغبت نفوسهم في الخير جملة، فجعلوه الهدف الذي يسابقون فيه، فسارعوا في الخيرات، ومن ثم هذه الشهادة العلوية لهم أنهم من الصالحين.

وهذا الوعد الصادق لهم أنهم لن يخسوا حقاً، ولن يكفروا أجراً. مع الإشارة إلى أن الله - سبحانه - علم أنهم من المتقين .. وهي صورة ترفع أمام الراغبين في هذه الشهادة، وفي هذا الوعد، ليحققها في ذات نفسه كل من يشاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير.

هذا في جانب .. وفي الجانب الآخر، الكافرون، الكافرون الذين لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولن تنفعهم نفقة ينفقونها في الدنيا، ولن ينالهم شيء منها في الآخرة لأنها لم تتصل بخط الخير الثابت المستقيم. الخير المنبثق من الإيمان بالله، على تصور واضح، وهدف ثابت، وطريق موصول. وإلا فالخير نزوة عارضة لا ثبات لها، وجنوح يصرفه الهوى، ولا يرجع إلى أصل واضح مدرك مفهوم، ولا إلى منهج كامل شامل مستقيم ..

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً. وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ، أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» .. وهكذا ترسم هذه الحقيقة في مشهد ينبض بالحركة ويفيض بالحياة على طريقة التعبير القرآني الجميل .. إن أموالهم وأولادهم ليست بممانعتهم من الله، ولا تصلح فدية لهم من العذاب، ولا تنجيهم من النار ..

وهم أصحاب النار وكل ما ينفقونه من أموالهم فهو ذاهب هالك، حتى ولو أنفقوه فيما يظنونه خيراً. فلا خير إلا أن يكون موصولاً بالإيمان، ونابعا من الإيمان. ولكن القرآن لا يعبر هكذا كما نعبّر. إنما يرسم مشهداً حياً نابضاً بالحياة ...

إننا ننظر فإذا نحن أمام حقل قد تمياً للإحصاب. فهو حرث. ثم إذا العاصفة تمب. إنها عاصفة باردة ثلجية محرقة! تحرق هذا الحرث بما فيها من صرّ. واللفظة ذاتها كأها مقذوف يلقي بعنف، فيصور معناه بجرسه النفاذ. وإذا الحرث كله مدمر خراب! إنها لحظة يتم فيها كل شيء. يتم فيها الدمار والهلاك. وإذا الحرث كله يباب! ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا في هذه الدنيا - ولو كان ينفق فيما ظاهره الخير والبر - ومثل ما بأيديهم من نعم الأولاد والأموال .. كلها إلى هلاك وفناء .. دون ما متاع حقيقي ودون ما جزاء .. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون». فهم الذين تنكبوا المنهج الذي يجمع مفردات الخير والبر، فيجعلها خطأ مستقيماً ثابتاً وأصلاً له هدف مرسوم، وله دافع مفهوم، وله طريق معلوم .. فلا يترك للزوة العارضة، والرغبة الغامضة، والفتنة التي لا ترجع إلى منهج ثابت مستقيم ..

هم الذين اختاروا لأنفسهم الشرود والضلال والانفلات من عصمة الحبل الممدود. فإذا ذهب عملهم كله هباء - حتى ما ينفقونه فيما ظاهره الخير - وإذا أصاب حرثهم كله الدمار، فلم يغن عنهم مال ولا ولد .. فما في هذا ظلم من الله - تعالى - لهم. إنما هو ظلمهم لأنفسهم، بما اختاروه لأنفسهم من تنكب وشرود.

وهكذا يتقرر أن لا جزاء على بذل وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان وإلا أن يكون باعته الإيمان .. يقول الله هذا ويقرره فلا تبقى بعده كلمة لإنسان ولا يجادل في هذا القرار إلا الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ..^{٧٩}



^{٧٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧١١)

١٤. تحريم اتخاذ بطانة من غير المسلمين

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ
الْبَعْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ
أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنَّا لِلَّهِ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمَسَسَكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
وَإِن تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ
(١٢٠) } سورة آل عمران

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ بَطَانَةً وَخَوَاصًّا لَهُمْ مِنْ دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ، يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سِرِّهِمْ، وَمَا يُضْمِرُونَ لِأَعْدَائِهِمْ. لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَأْلُونَ جُهْدًا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنِ
عَمَلٍ فِيهِ إِيْدَاءٌ وَإِضْرَارٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ وَقُوعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الضَّيْقِ
وَالْمَشَقَّةِ. وَقَدْ بَدَتِ الْبَعْضَاءُ وَالْعِدَاوَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِ
الْحَقْدِ، وَصُدُورُهُمْ تُخْفِي حَقْدًا أَكْبَرَ، وَبَعْضًا أَعْظَمَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ، وَقَدْ
بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَةَ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا الْوَلِيُّ مِنَ الْعَدُوِّ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عِدَاوَةً لَكُمْ، وَلَا يُقْصِرُونَ
فِي إِفْسَادِ أَمْرِكُمْ، وَتَمَّتِي عَنْتِكُمْ. وَيُظْهِرُونَ لَكُمْ الْعِدَاوَةَ وَالْغِشَّ، وَيَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ رَيْبَ الْمُنُونِ، فَكَيْفَ
تُؤَادُونَهُمْ وَتُؤَاصِلُونَهُمْ، وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمُ لَا ظَاهِرًا وَلَا بَاطِنًا، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ
عَلَيْكُمْ، وَبِالْكِتَابِ الَّتِي أَنْزَلَتْ قَبْلَهُ، وَلَيْسَ لَدَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الشَّكِّ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
بِكِتَابِكُمْ، وَعِنْدَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَكٌّ وَحَيْرَةٌ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِبَعْضِهِمْ مِنْهُمْ لَكُمْ، فَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا: آمَنَّا
إِرْضَاءً لَكُمْ، وَحَذَرًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْكُمْ. وَإِذَا فَارَقُوكُمْ، وَاخْتَلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ، عَضُّوا عَلَيْكُمْ أَطْرَافَ
أَصَابِعِهِمْ مِنْ غَيْظِهِمْ مِنْكُمْ، فَقُلْ لَهُمْ: مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ فَلَنْ يَضُرَّنَا ذَلِكَ شَيْئًا، وَاللَّهُ مُتِمُّ نِعْمَتِهِ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الْبَعْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَلِشِدَّةِ عِدَاوَةِ هَؤُلَاءِ
الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُمْ مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ - نَصْرٌ أَوْ رِيحٌ أَوْ خَصْبٌ
- كَمَا يَسُرُّهُمْ مَا يَنْزِلُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَلَاءٍ وَسُوءٍ وَهَزِيمَةٍ. وَيَنْصَحُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّحَلِّيِ بِالصَّبْرِ
وَالْتَّقْوَى، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ لِلنَّجَاةِ مِنْ كَيْدِهِمْ وَأَذَاهُمْ، لِأَنَّهُ مُحِيطٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِمَشِيئَتِهِ
وَقَدْرِهِ .^{٨٠}

^{٨٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤١١، بترقيم الشاملة آليا)

إنها صورة كاملة السمات، ناطقة بدخائل النفوس، وشواهد الملامح، تسجل المشاعر الباطنة، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآتية. وتسجل بذلك كله نموذجاً بشرياً مكروراً في كل زمان وفي كل مكان.

ونستعرضها اليوم وغداً فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء. يتظاهرون للمسلمين - في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم - بالمودعة. فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة. وينخدع المسلمون بهم فيمنحوهم الود والثقة، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال، ولا يقصرون في إغيات المسلمين ونشر الشوك في طريقهم، والكيد لهم والفس، ما وأتتهم الفرصة في ليل أو نهار.

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب، كانت تنطبق ابتداءً على أهل الكتاب المخاورين للمسلمين في المدينة وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين، وللشر المبيت، وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء، وما يزال يفضي إليهم بالمودعة، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ويتخذ منهم بطانة وأصحاباً وأصدقاء، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار.. فجاء هذا التنوير، وهذا التحذير، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر، ويوعيتها لكيد أعدائها الطبيعيين، الذين لا يخلصون لها أبداً، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة. ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة، فهو حقيقة دائمة، تواجه واقعاً دائماً.. كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود..

والمسلمون في غفلة عن أمر ربهم: ألا يتخذوا بطانة من دونهم. بطانة من ناس هم دونهم في الحقيقة والمنهج والوسيلة. وألا يجعلوهم موضع الثقة والسر والاستشارة.. المسلمون في غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعاً في كل أمر، وكل شأن، وكل وضع، وكل نظام، وكل تصور، وكل منهج، وكل طريق! والمسلمون في غفلة من تحذير الله لهم، يوادون من حاد الله ورسوله ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم.

والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة في أي جيل: «وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ»..

والله سبحانه يقول: «هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَإِذَا لَقُواكُمْ قَالُوا: آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ»..

والله سبحانه يقول: «إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ، وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا»..

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة، ولكننا لا نفيق.. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر. ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتتم عن أحقادهم التي لا يذهب بها ود يبذله المسلمون، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين.. ومع ذلك نعود، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ

منهم رفقاء في الحياة والطريق! .. وتبلغ بنا المحاملة، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فتحاشى ذكرها، وفي منهج حياتنا فلا نقيم على أساس الإسلام، وفي تزوير تاريخنا وطمس معلمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله. ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي. ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا، ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا ..

وها هو ذا كتاب الله يعلمنا - كما علم الجماعة المسلمة الأولى - كيف نتقي كيدهم، وندفع أذاهم، وننجو من الشر الذي تكنه صدورهم، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ: «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا. إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوى وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقعة والخداع. الصبر والتماسك لا الاهتار والتخاذل ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشهرهم المتوقع أو كسبا لودهم المدخول .. ثم هو التقوى: الخوف من الله وحده. ومراقبته وحده .. هو تقوى الله التي تربط القلوب بالله، فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه، ولا تعتصم بجبل إلا حبله .. وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته وستشد هذه الرابطة من عزمته، فلا يستسلم من قريب، ولا يواد من حاد الله ورسوله، طلبا للنجاة أو كسبا للعزة! هذا هو الطريق: الصبر والتقوى .. التماسك والاعتصام بجبل الله. وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها، وحققوا منهج الله في حياتهم كلها .. إلا عزوا وانتصروا، ووقاهم الله كيد أعدائهم، وكانت كلمتهم هي العليا. وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبيعيين، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سرا وجهرا، واستمعوا إلى مشورتهم، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعوانا وخبراء ومستشارين .. إلا كتب الله عليهم الهزيمة، ومكن لأعدائهم فيهم، وأذل رقابهم، وأذاقهم وبال أمرهم .. والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة وأن سنة الله نافذة. فمن عمي عن سنة الله المشهودة في الأرض، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلة والانكسار والهوان ..

بهذا ينتهي هذا الدرس وينتهي كذلك المقطع الأول في السورة. وقد وصل السياق إلى ذروة المعركة وقمة المفاصلة الكاملة الشاملة ..

ويحسن قبل أن ننهي هذا الدرس أن نقرر حقيقة أخرى، عن سماحة الإسلام في وجه كل هذا العداء. فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء. ولكنه لا يجرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر. ممتلها. إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة .. مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطر الذي يحيطها به الآخرون .. أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعا وبمحبة الخير الشامل يلقي الناس جميعا يتقي الكيد

ولكنه لا يكيد، ويجذر الحقد ولكنه لا يحقد. إلا أن يحارب في دينه، وأن يفتن في عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله ومنهجه.

فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يزيل العقبات التي تصد الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه في الحياة. يحارب جهادا في سبيل الله لا انتقاما لذاته. وحا لخير البشر لا حقا على الذين آذوه. وتحطيمًا للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس. لا حبا للغلب والاستعلاء والاستغلال.. وإقامة للنظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظلّه بالعدل والسلام. لا لتركيز راية قومية ولا لبناء امبراطورية! هذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة وترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى، وهي تعمل في الأرض وفق هذه النصوص.

إن هذا المنهج خير. وما يصد البشرية عند إلا أعدى أعداء البشرية. الذين ينبغي لها أن تطاردهم، حتى تقصيهم عن قيادتها.. وهذا هو الواجب الذي انتدبت له الجماعة المسلمة، فأدته مرة خير ما يكون الأداء. وهي مدعوة دائما إلى أدائه، والجهاد ماض إلى يوم القيامة.. تحت هذا اللواء.^{٨١}



^{٨١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٢٥)

١٥. النهي عن أكل الربا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) } سورة آل

عمران

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ أَكْلِ الرِّبَا، وَالتَّعَامُلِ بِهِ، بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَهُدَى اللَّهِ لَهُمْ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، إِذْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْمَدِينِ إِذَا حَلَّ أَجْلُ الدَّيْنِ: إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ دَيْنَكَ وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي. فَإِنْ قَضَاهُ فِيهَا، وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ وَزَادَهُ فِي الْمَقْدَارِ، وَهَكَذَا كُلُّ عَامٍ، فَرُبَّمَا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا. وَيَأْمُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يُفْلِحُونَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالتَّقْوَى، وَبِالِابْتِعَادِ عَنِ مُتَابَعَةِ الْمُرَائِبِينَ، وَتَعَاطِي مَا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، الَّذِي يُفْضِي بِهِمْ إِلَى دُخُولِ النَّارِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، وَمَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ كَيْ يُرْحَمُوا فِي الدُّنْيَا، بِصَلَاحِ حَالِ الْمُجْتَمَعِ، وَفِي الْآخِرَةِ، بِحُسْنِ الْجَزَاءِ.^{٨٢}

نقف عند الأضعاف المضاعفة. فإن قوما يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص، ويتداروا به، ليقولوا: إن المحرم هو الأضعاف المضاعفة. أما الأربعة في المائة والخمسة في المائة والسبعة والتسعة . فليست أضعافا مضاعفة. وليست داخلية في نطاق التحريم! ونبدأ فنحسم القول بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع، وليست شرطا يتعلق به الحكم. والنص الذي في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا - بلا تحديد ولا تقييد: «وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» . أيا كان! فإذا انتهينا من تقرير المبدأ فرغنا لهذا الوصف، لنقول: إنه في الحقيقة ليس وصفا تاريخيا فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة، والتي قصد إليها النهي هنا بالذات. إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي المقيت، أيا كان سعر الفائدة.

إن النظام الربوي معناه إقامة دورة المال كلها على هذه القاعدة. ومعنى هذا أن العمليات الربوية ليست عمليات مفردة ولا بسيطة. فهي عمليات متكررة من ناحية، ومركبة من ناحية أخرى. فهي تنشئ مع الزمن والتكرار والتركيب أضعافا مضاعفة بلا جدال.

إن النظام الربوي يحقق بطبيعته دائما هذا الوصف. فليس هو مقصورا على العمليات التي كانت متبعة في جزيرة العرب. إنما هو وصف ملازم للنظام في كل زمان.

^{٨٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٢٣، بترقيم الشاملة آليا)

ومن شأن هذا النظام أن يفسد الحياة النفسية والخلقية - كما فصلنا ذلك في الجزء الثالث - كما أن من شأنه أن يفسد الحياة الاقتصادية والسياسية - كما فصلنا ذلك أيضا - ومن ثم تتبين علاقته بحياة الأمة كلها، وتأثيره في مصائرهما جميعا.

والإسلام - وهو ينشئ الأمة المسلمة - كان يريد لها نظافة الحياة النفسية والخلقية، كما كان يريد لها سلامة الحياة الاقتصادية والسياسية. وأثر هذا وذاك في نتائج المعارك التي تخوضها الأمة معروف. فالنهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على المعركة الحربية أمر يبدو إذن مفهوما في هذا المنهج الشامل البصير ..

أما التعقيب على هذا النهي بالأمر بتقوى الله رجاء الفلاح وابتغاء النار التي أعدت للكافرين .. أما التعقيب بهاتين اللمتين فمفهوم كذلك وهو أنسب تعقيب:

إنه لا يأكل الربا إنسان يتقي الله ويخاف النار التي أعدت للكافرين .. ولا يأكل الربا إنسان يؤمن بالله، ويعزل نفسه من صفوف الكافرين .. والإيمان ليس كلمة تقال باللسان إنما هو اتباع للمنهج الذي جعله الله ترجمة عملية واقعية لهذا الإيمان. وجعل الإيمان مقدمة لتحقيقه في الحياة الواقعية، وتكييف حياة المجتمع وفق مقتضياته.

ومحال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي في مكان. وحيثما قام النظام الربوي فهناك الخروج من هذا الدين جملة وهناك النار التي أعدت للكافرين!

والمماحكة في هذا الأمر لا تخرج عن كونها مباحة .. والجمع في هذه الآيات بين النهي عن أكل الربا والدعوة إلى تقوى الله، وإلى ابتغاء النار التي أعدت للكافرين، ليس عبثا ولا مصادفة. إنما هو لتقرير هذه الحقيقة وتعميقها في تصورات المسلمين.

وكذلك رجاء الفلاح بترك الربا وتقوى الله .. فالفلاح هو الثمرة الطبيعية للتقوى، ولتحقيق منهج الله في حياة الناس .. ولقد سبق الحديث في الجزء الثالث عن فعل الربا بالمجتمعات البشرية، وويلاته البشعة في حياة الإنسانية. فلنرجع إلى هذا البيان هناك. لنذكر معنى الفلاح هنا، واقتارنه بترك النظام الربوي المقيت!

ثم يجيء التوكيد الأخير: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» .. وهو أمر عام بالطاعة لله والرسول، وتعليق الرحمة بهذه الطاعة العامة. ولكن للتعقيب به على النهي عن الربا دلالة خاصة. هي أنه لا طاعة لله وللرسول في مجتمع يقوم على النظام الربوي ولا طاعة لله وللرسول في قلب يأكل الربا في صورة من صورته .. وهكذا يكون ذلك التعقيب توكيدا بعد توكيد ..

وذلك فوق العلاقة الخاصة بين أحداث المعركة التي خولف فيها أمر رسول الله - ﷺ - وبين الأمر بالطاعة لله وللرسول، بوصفها وسيلة الفلاح، وموضع الرجاء فيه ..

ثم لقد سبق في سورة البقرة - في الجزء الثالث - أن رأينا السياق هناك يجمع بين الحديث عن الربا، والحديث عن الصدقة. بوصفهما الوجهين المتقابلين للعلاقات الاجتماعية في النظام الاقتصادي وبوصفهما السمتين البارزتين لنوعين متباينين من النظم: النظام الربوي. والنظام التعاوني .. فهنا كذلك نجد هذا الجمع في الحديث عن الربا والحديث عن الإنفاق في السراء والضراء ..

فبعد النهي عن أكل الربا، والتحذير من النار التي أعدت للكافرين، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح .. بعد هذا يجيء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وإلى جنة عرضها السماوات والأرض (أعدت للمتقين) ..

ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» - فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة - ثم تجيء بقية الصفات والسمات: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ. وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ. وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ. وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ، فَاسْتَعْفَرُوا لِدُنُوْبِهِمْ - وَمَنْ يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ؟ - وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ..»

والتعبير هنا يصور أداء هذه الطاعات في صورة حسية حركية .. يصوره سباقاً إلى هدف أو جائزة تنال: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ» .. «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» .. سارعوا فهي هناك: المغفرة والجنة .. «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» ..

ثم يأخذ في بيان صفات المتقين: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» .. فهم ثابتون على البذل، ماضون على النهج، لا تغيرهم السراء ولا تغيرهم الضراء. السراء لا تبطريهم فتلهيهم. والضراء لا تضجرهم فتتسيهم. إنما هو الشعور بالواجب في كل حال والتحرر من الشح والحرص ومراقبة الله وتقواه .. وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها، المحبة للمال ببطرتها .. ما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال، إلا دافع أقوى من شهوة المال، وربقة الحرص، وثقله الشح .. دافع التقوى. ذلك الشعور اللطيف العميق، الذي تشف به الروح وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال ..

ولعل للتبويه بهذه الصفة مناسبة خاصة كذلك في جو هذه المعركة. فنحن نرى الحديث عن الإنفاق يتكرر فيها، كما نرى التنديد بالمتنعين والمانعين للبذل - كما سيأتي في السياق القرآني - مكرراً كذلك. مما يشير إلى ملابسات خاصة في جو الغزوة، وموقف بعض الفئات من الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ..

«وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» .. كذلك تعمل التقوى في هذا الحقل، بنفس البواعث ونفس المؤثرات. فالغيظ انفعال بشري، تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم فهو إحدى دفعات التكوين البشري، وإحدى ضروراته. وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات.

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى. وهي وحدها لا تكفي. فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين.. وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن.. لذلك يستمر النص ليقدر النهاية الطليقة لذلك الغيظ العظيم في نفوس المتقين.. إنها العفو والسماحة والانطلاق..

إن الغيظ وقر على النفس حين تكظمه وشواظ يلفح القلب ودخان يغشى الضمير.. فأما حين تصفح النفس ويعفو القلب، فهو الانطلاق من ذلك الوقر، والرفرة في آفاق النور، والبرد في القلب، والسلام في الضمير.

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».. والذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون. والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون.. والله «يُحِبُّ» المحسنين.. والحب هنا هو التعبير الودود الحاني المشرق المنير، الذي يتناسق مع ذلك الجو اللطيف الوضيء الكريم..

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه. وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب.. فليس هو مجرد التعبير الموحى، ولكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير! والجماعة التي يجيها الله، وتحب الله.. والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحن والأضغان.. هي جماعة متضامنة، وجماعة متآخية، وجماعة قوية. ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق!

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ - وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ؟ - وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ».. يا لسماحة هذا الدين! إن الله - سبحانه - لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته - سبحانه - وتعالى - معهم. ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا:

إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين.. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين «الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ».. والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها. ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها، من رحمة الله. ولا تجعلهم في ذيل القافلة.. قافلة المؤمنين.. إنما ترتفع بهم إلى أعلى مرتبة.. مرتبة «المتقين».. على شرط واحد. شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته..

أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم، وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء.. وبعبارة أخرى أن يكونوا في اطار العبودية لله، والاستسلام له في النهاية. فيظلوا في كنف الله وفي محيط عفوهِ ورحمته وفضله.

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقله الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فيتزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته

وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع. يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه. حين يرتكب الفاحشة.. المعصية الكبيرة.. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ، وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تدبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له ربا يغفر.. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير.. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر. فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه، والحبل في يده. ما دام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته.

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة، ولا يلقيه منبوذا حائرا في التيه! ولا يدعه مطرودا خائفا من المآب.. إنه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق، ويأخذ بيده المرتعشة، ويسند خطواته المتعثرة، وينير له الطريق، ليفيء إلى الحمى الآمن، ويثوب إلى الكنف الأمين.

شيء واحد يتطلبه: ألا يجف قلبه، وتظلم روحه، فينسى الله.. وما دام يذكر الله. ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي. ما دام في قلبه ذلك الندى البليل.. فسيطلع النور في روحه من جديد، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد، وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطئ ويعرف أن السوط - لا سواه - في الدار.. سيروح آبقا شاردا لا يثوب إلى الدار أبدا. فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يدا حانية، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة.. فإنه سيعود! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه.. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب الثقللة رفرقة، وبجانب التزوة الحيوانية أشواقا ربانية.. فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقبي الصعود، ويربت عليه في لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد. ما دام يذكر الله ولا ينساه، ولا يصبر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة! عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « مَا أَصْرٌ مَنْ اسْتَعْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً »^{٨٣}.

والإسلام لا يدعو - بهذا - إلى الترخص، ولا يمجد العاثر الهابط، ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف «الواقعية»! إنما هو يقبل عثرة الضعف، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء، كما يستجيش فيها الحياة! فالمغفرة من الله - ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ - تخجل ولا تطمع، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار.

^{٨٣} - سنن أبي داود - المكثر - (١٥١٦) والدعاطب (١٧٩٧) والانحاف ٦٠٥/٨ والفتح ٩٩/١١ حسن لغیره

فأما الذين يستهترون ويصرون، فهم هنالك خارج الأسوار، موصدة في وجوههم الأسوار! وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى، والرحمة بمذه البشرية التي يعلم طاقتها. ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها»... هؤلاء المتقون ما لهم؟

«أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا. وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»
فهم ليسوا سلبين بالاستغفار من المعصية. كما أنهم ليسوا سلبين بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس.. إنما هم عاملون. «وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».. المغفرة من ربهم، والجنة تجري من تحتها الأنهار بعد المغفرة وحب الله.. فهنالك عمل في أغوار النفس، وهنالك عمل في ظاهر الحياة. وكلاهما عمل، وكلاهما حركة، وكلاهما نماء.

وهنالك الصلة بين هذه السمات كلها وبين معركة الميدان التي يتعقبها السياق.. وكما أن للنظام الربوي - أو النظام التعاوني - أثره في حياة الجماعة المسلمة وعلاقته بالمعركة في الميدان، فكذلك لهذه السمات النفسية والجماعية أثرها الذي أشرنا إليه في مطلع الحديث.. فالانتصار على الشح، والانتصار على الغيظ، والانتصار على الخطيئة، والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه.. كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة. وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح! وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته. ففي هذا تكون العداوة، وفي هذا تكون المعركة، وفي هذا يكون الجهاد.^{٨٤}

وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد. فهو إنما يعادي لله، ويعارك لله، ويجاهد لله! فالصلة وثيقة بين هذه التوجيهات كلها وبين استعراض المعركة في هذا السياق.. كما أن الصلة وثيقة بينها وبين الملابس الخاصة التي صاحبت هذه المعركة. من مخالفة عن أمر رسول الله - ﷺ - ومن طمع في الغنيمة نشأت عنه المخالفة. ومن اعتزاز بالذات والهوى نشأ عنه تخلف عبد الله ابن أبيّ ومن معه.

ومن ضعف بالذنب نشأ عنه تولى من تولى - كما سيرد في السياق - ومن غبش في التصور نشأ عنه عدم رد الأمور إلى الله، وسؤال بعضهم: «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟» وقول بعضهم: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا»..

والقرآن يتناول هذه الملابس كلها، واحدة واحدة، فيجلوها، ويقرر الحقائق فيها، ويلمس النفوس لمسات موحية تستجيشها وتحييها.. على هذا النحو الفريد الذي نرى نماذج منه في هذا السياق.

^{٨٤} - يراجع بتوسع فصل: «سلام الضمير» في كتاب: «السلام العالمي والإسلام».. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

بعد ذلك يبدأ السياق في الفقرة الثالثة من الاستعراض فيلمس أحداث المعركة ذاتها، ولكنه ما يزال يتوخى تقرير الحقائق الأساسية الأصيلة في التصور الإسلامي، ويجعل الأحداث مجرد محور ترتكز إليه هذه الحقائق.

وفي هذه الفقرة يبدأ بالإشارة إلى سنة الله الجارية في المكذبين، ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنة الثابتة، إنما هو حادث عابر، ورائه حكمة خاصة.. ثم يدعوهم إلى الصبر والاستعلاء بالإيمان. فإن يكن أصابتهم جراح وآلام فقد أصاب المشركين مثلها في المعركة ذاتها. وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع يكشف لهم عنها: حكمة تمييز الصفوف، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء الذين يموتون دون عقيدتهم ووقف المسلمين أمام الموت وجها لوجه وقد كانوا يتمنوناه، ليزنوا وعودهم وأمانهم بميزان واقعي!

ثم في النهاية محق الكافرين، بإعداد الجماعة المسلمة ذلك الإعداد المتين.. وإذن فهي الحكمة العليا من وراء الأحداث كلها سواء كانت هي النصر أو هي الهزيمة..^{٨٥}

التحذير من الربا في السنة النبوية :

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: «مَا شَاءَ اللَّهُ» فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ، بِيَدِهِ كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ» قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى: " إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلْبُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفَهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهَدَهَ الْحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ الثَّنُورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ - قَالَ يَزِيدُ، وَوَهَبُ بْنُ جَرِيرٍ: عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ - وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَا: انْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصَبِيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعَدَا بِي فِي

^{٨٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٧٣)

الشَّجَرَةَ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصَبِيَّانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُمْ، قَالَا: نَعَمْ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذِبِ، فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقَبِ فَهُمْ الزُّنَاةُ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ آكِلُوا الرِّبَا، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصَّبِيَّانُ، حَوْلُهُ، فَأَوْلَادُ النَّاسِ [ص: ١٠٢] وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ، وَالذَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَارْفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنَزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنَزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنَزِلَكَ^{٨٦}

وَعَنْ سَمُرَةَ بِنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ وَعَلَى وَسَطِ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلُّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ آكِلُ الرِّبَا"^{٨٧}

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبِي اشْتَرَى عَبْدًا حَجَّامًا، فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَثَمَنِ الدَّمِّ، وَنَهَى عَنِ الْوَأَشِمَةِ وَالْمَوْشُومَةِ، وَآكَلِ الرِّبَا وَمُوكَلِهِ، وَلَعَنَ الْمُصَوِّرَ»^{٨٨}
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشَّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ»^{٨٩}

^{٨٦} - صحيح البخاري (٢/ ١٠١) (١٣٨٦)

[ش (كلوب) الحديدية التي ينشل بها اللحم ويعلق ومثله الكلاب. (شدهقه) جانب فمه. (يلتئم) يصح ويبرأ. (بفهر) بحجر ملء الكف. (فيشدخ) من الشدخ وهو كسر الشيء الأوجف. (تدهده) تدرج]

^{٨٧} - صحيح البخاري (٣/ ٥٩) (٢٠٨٥)

^{٨٨} - صحيح البخاري (٣/ ٥٩) (٢٠٨٦)

[ش (بحاجمه) جمع محجم وهو الآلة التي يحجم بها. (فسألته) عن سبب كسرها. (ثمن الكلب) يبيعه وأخذ ثمنه لأنه نجس. (ثمن الدم) أجرة الحمامة ويدخل فيه بيع الدم في هذه الأيام. (الواشمة) فاعلة الوشم وهو أن يغرز الجلد بإبرة ثم يحشى بكحل أو نيلة فيزرق أثره أو يخضر. (الموشومة) التي يفعل بها الوشم. (آكل الربا) آخذه. (موكله) معطيه. (المصور) لما له روح من حيوان أو إنسان والنص عام في الرسم والنحت وما يسمى الآن تثبيت ظل وهو حرام بالإجماع إلا لضرورة]

^{٨٩} - صحيح مسلم (١/ ١٤٥) (٨٩) -

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكَلَ الرَّبَا وَمُؤْكَلَهُ»، قَالَ: قُلْتُ: وَكَاتِبُهُ، وَشَاهِدِيهِ؟ قَالَ: «إِنَّمَا نُحَدِّثُ بِمَا سَمِعْنَا»^{٩٠}

وَعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكَلَ الرَّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبُهُ، وَشَاهِدِيهِ»، وَقَالَ: «هُمْ سَوَاءٌ»^{٩١}
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا، فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ بُخَارِهِ»^{٩٢} .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرَّبَا، النَّاجِي مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ الَّذِي يُصِيبُهُ غُبَارُهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: الْعَيْنَةُ مِنْ غُبَارِهِ^{٩٣}

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكَلَ الرَّبَا، وَمُؤْكَلَهُ وَشَاهِدَهُ وَكَاتِبَهُ»^{٩٤}
وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَفَعَ لِأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا، فَقَدْ أَتَى أَبَا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرَّبَا»^{٩٥}

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ، قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: أَذْهَبُ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ فَقَالَ صَاحِبُهُ: لَا تَقُلْ نَبِيٌّ، إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ، فَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيَّنَّتْ لَهُمْ: «لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَمْشُوا بِيْرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرَّبَا، وَلَا تَقْدِفُوا مُحْصَنَةً، وَلَا تُؤْكَلُوا الْفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً الْيَهُودُ أَنْ لَا تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ»، قَالَ: فَقَبِلُوا يَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ. فَقَالَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. قَالَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟» قَالُوا: إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لَا يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ أَنْ تَبْعَنَّا أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ»^{٩٦}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ»^{٩٧}

[ش (الموبقات) هي المهلكات يقال ويق الرجل يبق وويق يوبق إذا هلك وأوبق غيره إذا أهلكه (المحصنات الغافلات المؤمنات) المحصنات بكسر الصاد وفتحها قراءتان في السبع والمراد بالمحصنات هنا العفاف وبالغافلات الغافلات عن الفواحش وما قد فن به وقد ورد رد الإحصان في الشرع على خمسة أقسام العفة والإسلام والنكاح والتزويج والحرية]

٩٠ - صحيح مسلم (١٢١٨/٣) - ١٠٥ (١٥٩٧)

٩١ - صحيح مسلم (١٢١٩/٣) - ١٠٦ (١٥٩٨)

٩٢ - سنن أبي داود (٢٤٤/٣) (٣٣٣١) حسن لغيره

٩٣ - مسند الشاميين للطبراني (١/٣٢٤) (٥٧١) حسن لغيره

٩٤ - سنن أبي داود (٢٤٤/٣) (٣٣٣٣) صحيح

٩٥ - سنن أبي داود (٢٩١/٣) (٣٥٤١) حسن

٩٦ - سنن الترمذي ت شاكر (٧٧/٥) (٢٧٣٣) حسن

٩٧ - صحيح البخاري (٥٩/٣) (٢٠٨٣)

وَعَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْلَ الرِّبَا، وَمُوكَلَّهُ، وَشَاهِدِيهِ، وَكَاتِبَهُ، وَالْوَأَشِمَةَ، وَالْمُسْتَوْشِمَةَ
لِلْحُسْنِ، وَمَنَاعَ الصَّدَقَةِ، وَالْمُحَلَّ لَهُ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ التَّوْحِ" ٩٨

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ: «لَا أُقْسِمُ، لَا أُقْسِمُ، لَا أُقْسِمُ»، ثُمَّ
نَزَلَ، فَقَالَ: «أَبَشِّرُوا أَبَشِّرُوا، إِنَّهُ مَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَاجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ
شَاءَ»، قَالَ الْمُطَّلِبُ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْأَلُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو: أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَذْكُرُهُنَّ؟، قَالَ: نَعَمْ: «عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَالشَّرْكَ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَكْلُ مَالِ
الْيَتِيمِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ الرِّبَا» ٩٩

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا
هُنَّ؟ قَالَ: «الشَّرْكَ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ
الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ» ١٠٠
وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرِّبَا ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ، وَإِنْ أَرَبَى
الرِّبَا عَرَضَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمِ» ١٠١

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الرِّبَا بَضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا وَالشَّرْكَ مِثْلُ ذَلِكَ» ١٠٢
وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشْرَةَ: أَكْلَ الرِّبَا، وَمُوكَلَّهُ، وَشَاهِدِيهِ، وَكَاتِبَهُ، وَالْوَأَشِمَةَ
وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وَمَنَاعَ الصَّدَقَةِ، وَالْحَالَ، وَالْمُحَلَّ لَهُ" ١٠٣
وَعَنْ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي رَجُلًا يَسْبُحُ فِي نَهْرِ يُلْقَمُ الْحِجَارَةَ، فَسَأَلْتُ: مَنْ
هَذَا؟ فَقِيلَ: هَذَا أَكَلُ الرِّبَا" ١٠٤

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إِلَى قَلِّ» ١٠٥



٩٨ - مسند أحمد ط الرسالة (٢٠٧/٢) (٨٤٤) حسن لغيره

٩٩ - المعجم الكبير للطبراني (١٣/٩) (٣) حسن

١٠٠ - صحيح البخاري (٤/١٠) (٢٧٦٦) وصحيح مسلم (١/٩٢) (١٤٥) - (٨٩)

[ش (اجتنبوا) ابتعدوا. (الموبقات) المهلكات. (السحر) هو في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه ومعنى صرف الشيء عن وجهه
ويستعمل بمعنى الخداع. والمراد هنا ما يفعله المشعوذون من تخبيلات وتمويه تأخذ أبصار المشاهدين وتوهمهم الإتيان بحقيقة أو تغييرها.
(بالحق) كالقتل قصاصا. (التولي يوم الزحف) الفرار عن القتال يوم ملاقات الكفار والزحف في الأصل الجماعة الذين يرحفون إلى العدو
أي يمشون إليهم بمشقة مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على مقعدته. (قذف) هو الاتهام والرمي بالزنا. (المحصنات) جمع محصنة وهي
العفيفة التي حفظت فرجها وصانها الله من الزنا. (الغافلات) البرينات اللواتي لا يفتنن إلى ما رمين به من الفجور]

١٠١ - المستدرک على الصحيحين للحاكم (٢/٤٣) (٢٢٥٩) صحيح

١٠٢ - مسند البزار = البحر الزخار (٥/٣١٨) (١٩٣٥) والسنة لعبد الله بن أحمد (١/٣٧٣) (٨١٤-٨١٦) صحيح موقوف

١٠٣ - شعب الإيمان (٧/٣٥٨) (٥١٢٠) حسن لغيره

١٠٤ - شعب الإيمان (٧/٣٥٨) (٥١٢١) صحيح

١٠٥ - المستدرک على الصحيحين للحاكم (٢/٤٣) (٢٢٦٢) صحيح

١٦. طاعة الكفار خسارة في الدارين

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سُنِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ (١٥١) } سورة آل عمران يُحذِرُ اللهُ تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِطَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ حَاوَلُوا إِقْعَاءَ الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِ ضِعَافِ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا حَقًّا لَانْتَصَرَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمٌ وَعَلَيْهِ يَوْمٌ. (وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَبُو سُفْيَانُ وَعَبْدُ اللهِ بْنِ أَبِي بَنِ سَلُولٍ) لِأَنَّ إِطَاعَتَهُمْ تُورِثُ الْبَوَارِ فِي الدُّنْيَا، بِخُضُوعِهِمْ لِسُلْطَانِهِمْ، وَذَلَّتْهُمْ بَيْنَهُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ فِيمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَجَهَنَّمَ بِئْسَ الْمَصِيرُ وَالْمُسْتَقَرُّ .

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ، وَمُؤَالَاتِهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَحَدَهُ، لِأَنَّهُ خَيْرُ نَاصِرٍ لِعِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ. أَمَّا رُؤُوسُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ وَالتَّفَاقُ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ، وَلَا نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ . يُشِيرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ سَيَلْقِي فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الرَّغْبَ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ، وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللهِ، قَدْ جَعَلَ نُفُوسَ الْمُشْرِكِينَ مُضْطَرِبَةً، وَقُلُوبَهُمْ مُمْتَلِئَةً رُغْبًا وَهَلَعًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَمَا يَلْتَقُونَ بِهِمْ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، وَأَنَّهُ سَيَدَّخِرُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابَ النَّارِ وَتَكَالَهَا. وَالتَّارُ بِئْسَ الْمَثْوَى وَالتَّهَابَةُ لِلظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ . ١٠٦ .

لقد انتهز الكفار والمنافقون واليهود في المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقرح، ليثبطوا عزائمهم، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال، وعواقب الاشتباك مع مشركي قريش وحلفائهم .. وجو الهزيمة هو أصلح الأجواء لبليلة القلوب، واخلخلة الصفوف، وإشاعة عدم الثقة في القيادة والتشكيك في جدوى الإصرار على المعركة مع الأقوياء وتزيين الانسحاب منها، ومسألة المنتصرين فيها! مع إثارة المواجه الشخصية والآلام الفردية وتحويلها كلها لهدم كيان الجماعة، ثم لهدم كيان العقيدة، ثم للاستسلام للأقوياء الغالبين! ومن ثم يحذر الله الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا. فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة، وليس فيها ربح ولا منفعة. فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر. فالؤمن إما أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار، ويكافح الباطل والمبطلين، وإما أن يترد على عقبيه كافرا - والعياذ بالله - ومحال أن يقف سلبيا بين بين، محافظا على موقفه، ومحافظا بدنيه .. إنه قد يخيل إليه هذا .. يخيل إليه في أعقاب الهزيمة، وتحت وطأة الجرح والقرح، أنه مستطيع أن ينسحب من المعركة مع الأقوياء الغالبين وأن يسالمهم ويطيعهم، وهو مع هذا

١٠٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٢، بترقيم الشاملة آليا)

محتفظ بدينه وعقيدته وإيمانه وكيانه! وهو وهم كبير. فالذي لا يتحرك إلى الأمام في هذا المجال لا بد أن يرتد إلى الوراء، والذي لا يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان، لا بد أن يتخاذل ويتقهقر ويرتد على عقبيه إلى الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان! والذي لا تعصمه عقيدته ولا يعصمه إيمانه من طاعة الكافرين، والاستماع إليهم، والثقة بهم يتنازل - في الحقيقة - عن عقيدته وإيمانه منذ اللحظة الأولى.. إنها الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته، وأن يستمع إلى وسوستهم، وأن يطيع توجيهاتهم.. الهزيمة بادئ ذي بدء. فلا عاصم له من الهزيمة في النهاية، والارتداد على عقبيه إلى الكفر، ولو لم يحس في خطواته الأولى أنه في طريقه إلى هذا المصير البائس.. إن المؤمن يجد في عقيدته، وفي قيادته، غناء عن مشورة أعداء دينه وأعداء قيادته. فإذا استمع إلى هؤلاء مرة فقد سار في طريق الارتداد على الأعقاب.. حقيقة فطرية وحقيقة واقعية، ينبه الله المؤمنين لها، ويحذرهم إياها، وهو يناديهم باسم الإيمان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ»..

وأية خسارة بعد خسارة الارتداد على الأعقاب، من الإيمان إلى الكفر؟ وأي ربح يتحقق بعد خسارة الإيمان؟

وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنصرة عندهم، فهو وهم، يضرب السياق صفحا عنه، ليذكرهم بحقيقة النصر والحماية: «بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ».. فهذه هي الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية، ويطلبون عندها النصر. ومن كان الله مولاه، فما حاجته بولاية أحد من خلقه؟ ومن كان الله ناصره فما حاجته بنصرة أحد من العبيد؟

ثم يمضي السياق يثبت قلوب المسلمين، ويبشرهم بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، بسبب إشراكهم بالله ما لم يتزل به سلطانا، ولم يجعل له قوة وقدرة. وذلك فوق عذاب الآخرة المهيأ للظالمين: «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا. وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ».. والوعد من الله الجليل القادر القاهر، بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، كفيل بنهاية المعركة، وضممان لهزيمة أعدائه ونصر أوليائه.. وهو وعد قائم في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالإيمان. فما يلقي الذين كفروا الذين آمنوا حتى يخافوهم، ويتحرك الرعب الملقى من الله في قلوبهم. ولكن المهم أن توجد حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين. حقيقة الشعور بولاية الله وحده، والثقة المطلقة بهذه الولاية، والتجرد من كل شائبة من شك في أن جند الله هم الغالبون، وأن الله غالب على أمره، وأن الذين كفروا غير معجزين في الأرض ولا سابقين لله سبحانه!

والتعامل مع وعد الله هذا، مهما تكن ظواهر الأمور تخالفه، فوعد الله أصدق مما تراه عيون البشر وتقدره عقولهم! إنه الرعب لأن قلوبهم خاوية من السند الصحيح. لأنهم لا يستندون إلى قوة ولا إلى ذي قوة. إنهم أشركوا بالله آلهة لا سلطان لها، لأن الله لم يمنحها سلطانا.

والتعبير: «ما لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا» ذو معنى عميق، وهو يصادفنا في القرآن كثيرا. مرة توصف به الآلهة المدعاة، ومرة توصف به العقائد الزائفة.. وهو يشير إلى حقيقة أساسية عميقة:

إن أية فكرة، أو عقيدة، أو شخصية، أو منظمة.. إنما تحيا وتعمل وتتوثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر. هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من «الحق» أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام الله عليها الكون، ومع سنن الله التي تعمل في هذا الكون. وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هذا الوجود. وإلا فهي زائفة باطلة ضعيفة واهية، مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش! والمشركون يشركون مع الله آلهة أخرى - في صور شتى - ويقوم الشرك ابتداء على إعطاء غير الله - سبحانه - شيئا ما من خصائص الألوهية ومظاهرها. وفي مقدمة هذه الخصائص حق التشريع للعباد في شؤون حياتهم كلها وحق وضع القيم التي يتحاكم إليها العباد في سلوكهم وفي مجتمعاتهم وحق الاستعلاء على العباد وإلزامهم بالطاعة لتلك التشريعات والاعتبار لهذه القيم.. ثم تأتي مسألة العبادة الشعائرية ضمن إعطاء هذه الخصائص لغير الله سبحانه، وواحدة منها! فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الذي أقام الله عليه الكون؟ إن الله الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى خالقه الواحد وخلق هذه الخلائق لتقرر له بالعبودية وحده بلا شريك ولتلقى منه الشريعة والقيم بلا منازع ولتعبد له وحده حق عبادته بلا أنداد.. فكل ما يخرج على قاعدة التوحيد في معناها الشامل، فهو زائف باطل، مناقض للحق الكامن في بنية الكون. ومن ثم فهو واه هزيل، لا يحمل قوة ولا سلطانا، ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة بل لا يملك عناصر الحياة ولا حق الحياة! وما دام أولئك المشركون يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا من الآلهة والعقائد والتصورات فهم يرتكبون إلى ضعف وخواء، وهم أبدا حوارون ضعفاء وهم أبدا في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكبين إلى الحق ذي السلطان.. وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل.. وكم من مرة وقف الباطل مدحجا بالسلاح أمام الحق الأعزل. ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب، ويرتجف من كل حركة وكل صوت - وهو في حشده المسلح المحشود! فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفرع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل ولو كانت له الحشود، وكان للحق القلة، تصديقا لوعده الله الصادق: «سُنِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا»..

ذلك في الدنيا. فأما في الآخرة.. فهناك المصير الحزن البائس الذي يليق بالظالمين.

«وَمَا أُوَاهِمُ النَّارُ. وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ!»..^{١٠٧}



^{١٠٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٩٤)

١٧. وجوب التسليم بقضاء الله وقدره

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَعْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَنْ تُحْشَرُونَ (١٥٨) } سورة آل عمران

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُشَابَهَةِ الْمُنَافِقِينَ (الْكَافِرِينَ) فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ، إِذْ يَقُولُونَ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي الْحُرُوبِ (كَانُوا غُزًى)، أَوْ مَاتُوا وَهُمْ فِي أَسْفَارِهِمْ سَعِيًّا وَرَاءَ الرِّزْقِ فِي التَّجَارَةِ (ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ)، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقَامُوا، وَتَرَكُوا ذَلِكَ لَمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْعَيْتَادَ فِي نَفْسِهِمْ لِيَزِدَادُوا أَلْمًا وَحَسْرَةً عَلَى مَوْتَاهُمْ، يَزِيدَانِهِمْ ضَعْفًا، وَيُورِثَانِهِمْ نَدْمًا عَلَى تَمَكِينِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنَ التَّعَرُّضِ لِمَا ظَنُّوهُ سَبَبًا ضَرُورِيًّا لِلْمَوْتِ .

وَيُرَدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ قَائِلًا: إِنَّ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ، وَعِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذَانِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَا يَكُونُوا مِثْلَ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ، وَإِلَّا أَصَابَهُمُ الضَّعْفُ وَالْوَهْنُ وَالْفِشْلُ؛ وَالْإِيمَانُ الصَّادِقُ يَزِيدُ صَاحِبَهُ إِيقَانًا وَتَسْلِيمًا بِكُلِّ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَضَاءُ، وَأَنْ مَا وَقَعَ كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَقَعَ .

فَالَّذِينَ يُقْتَلُونَ وَهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَتَنْصِرِ دِينِهِ، أَوْ يَمُوتُونَ فِي أَثْنَاءِ الْجِهَادِ، سَيَجِدُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ مَغْفِرَةً تَمْحُو مَا كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَرَحْمَةً وَرِضْوَانًا خَيْرًا مِنْ جَمِيعِ مَا يَنْتَمِعُ بِهِ الْكُفَّارُ مِنَ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، فَهَذَا ظِلُّ زَائِلٌ، وَذَلِكَ نَعِيمٌ خَالِدٌ .
وَبِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ هَلَاكُكُمْ، فَإِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ لِيَجْزِيَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ مَا تَسْتَحِقُّونَ، فَاتَرَوْا مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، وَيُحَقِّقُ لَكُمْ رِضَاهُ، فَعَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ .^{١٠٨}

وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات ..

وأهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد، مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهلهم، واستحاشة الأسى على فقدهم في المعركة - نتيجة لخروجهم - ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجه دامية مما يترك في الصف المسلم الخلل والبلبل. ومن ثم جاء هذا البيان القرآني لتصحيح القيم والتصورات، ورد هذا الكيد إلى نحور كائديه.

^{١٠٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩، بترقيم الشاملة آليا)

إن قول الكافرين: «لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا».. ليكشف عن الفارق الأساسي في تصور صاحب العقيدة وتصور المحروم منها، للسنن التي تسير عليها الحياة كلها وأحداثها: سراؤها وضراؤها.. إن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله، متعرف إلى مشيئة الله، مطمئن إلى قدر الله. إنه يعلم أن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. ومن ثم لا يتلقى الضراء بالجزع، ولا يتلقى السراء بالزهو، ولا تطير نفسه لهذه أو لتلك ولا يتحسر على أنه لم يصنع كذا ليتقي كذا، أو ليستجلب كذا، بعد وقوع الأمر وانتهائه! فمجال التقدير والتدبير والرأي والمشورة، كله قبل الإقدام والحركة فأما إذا تحرك بعد التقدير والتدبير - في حدود علمه وفي حدود أمر الله وهيبه - فكل ما يقع من النتائج، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضى والتسليم موقنا أنه وقع وفقا لقدرة الله وتدبيره وحكمته وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع ولو أنه هو قدم أسبابه بفعله!.. توازن بين العمل والتسليم، وبين الإيجابية والتوكل، يستقيم عليه الخطو، ويستريح عليه الضمير.. فأما الذي يفرغ قلبه من العقيدة في الله على هذه الصورة المستقيمة، فهو أبدا مستطار، أبدا في قلق! أبدا في «لو» و«لولا» و«يا ليت» و«وا أسفاه!» والله - في تربيته للجماعة المسلمة، وفي ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها - يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا. أولئك الذين تصيبهم الحسرات، كلما مات لهم قريب وهو يضرب في الأرض ابتغاء الرزق، أو قتل في ثنايا المعركة وهو يجاهد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا»..

يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون، ولحقيقة القوة الفاعلة في كل ما يجري. فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملايسات السطحية، بسبب انقطاعهم عن الله، وعن قدره الجاري في الحياة.

«لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ».. فإحساسهم بأن خروج إخوانهم ليضربوا في الأرض في طلب الرزق فيموتوا، أو ليغزوا ويقاتلوا فيقتلوا..

إحساسهم بأن هذا الخروج هو علة الموت أو القتل، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعهم من الخروج! ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية وهي استيفاء الأجل، ونداء المضجع، وقدر الله، وسنته في الموت والحياة، ما تحسروا. وتلقوا الابتلاء صابرين، ولفاعوا إلى الله راضين: «وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ».. فبيده إعطاء الحياة، وبيده استرداد ما أعطى، في الموعد المضروب والأجل المرسوم، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة. وعنده الجزاء، وعنده العوض، عن خبرة وعن علم وعن بصر: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»..

أن الأمر لا ينتهي بالموت أو القتل فهذه ليست نهاية المطاف. وعلى أن الحياة في الأرض ليست خير ما يمنحه الله للناس من عطاء. فهناك قيم أخرى، واعتبارات أرقى في ميزان الله: «وَلَكِنَّ قُتِلْتُمْ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ. وَلَكِنَّ مَثُماً أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ» ..

فالموت أو القتل في سبيل الله - بهذا القيد، وبهذا الاعتبار - خير من الحياة، وخير مما يجمعه الناس في الحياة من أعراضها الصغار: من مال ومن جاه ومن سلطان ومن متاع. خير بما يعقبه من مغفرة الله ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير مما يجمعون. وإلى هذه المغفرة وهذه الرحمة يكل الله المؤمنين .. إنه لا يكلهم - في هذا المقام - إلى أجماد شخصية، ولا إلى اعتبارات بشرية. إنما يكلهم إلى ما عند الله، ويعلق قلوبهم برحمة الله. وهي خير مما يجمع الناس على الإطلاق، وخير مما تتعلق به القلوب من أعراض ..

وكلهم مرجعون إلى الله، محشورون إليه على كل حال. ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض، أو قتلوا وهم يجاهدون في الميدان. فما لهم مرجع سوى هذا المرجع وما لهم مصير سوى هذا المصير .. والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه، والاهتمام .. أما النهاية فواحدة: موت أو قتل في الموعد المحتوم، والأجل المقسوم. ورجعة إلى الله وحشر في يوم الجمع والحشر .. ومغفرة من الله ورحمة، أو غضب من الله وعذاب .. فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس. وهو ميت على كل حال! بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة، وحقيقة قدر الله. وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر وإلى ما وراء القدر من حكمة، وما وراء الابتلاء من جزاء .. وبذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحداث المعركة، وفيما صاحبها من ملايسات ..^{١٠٩}



^{١٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٠٣)

١٨. الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٢٠٠) سورة

آل عمران

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَدْعُوْنَهُ لَشِدَّةٍ وَلَا لِرَحَاءٍ، حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ. وَالْمُرَابِطَةُ هِيَ الْمُرَابِطَةُ فِي الثُّغُورِ لِلْعَزْوِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " رَبَاطُ يَوْمٍ وَكَيْلَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا " .

(وَقِيلَ إِنَّ الْمُرَابِطَةَ الْمَقْصُودَةَ هُنَا هِيَ الْإِنْتِظَارُ فِي الْمَسَاجِدِ لِأَدَاءِ الصَّلَوَاتِ حِينَمَا تَحِينُ أَوْقَاتُهَا، أَيْ رَابِطُوا فِي الْمَسَاجِدِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِيمَا فَرَضَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ١١٠ .

إنه النداء العلوي للذين آمنوا. نداؤهم بالصفة التي تربطهم. بمصدر النداء. والتي تلقي عليهم هذه الأعباء.

والتي تؤهلهم للنداء وتؤهلهم للأعباء، وتكرمهم في الأرض كما تكرمهم في السماء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا». النداء لهم. للصبر والمصابرة، والمرابطة، والتقوى ..

وسياق السورة حافل بذكر الصبر وبذكر التقوى .. يذكران مفردين، ويذكران مجتمعين .. وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلية، ومن ثم تحتّم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة، وإلى المرابطة والتقوى، فيكون هذا أنسب ختام.

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء .. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملاها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصرفهم، وانحراف طباعهم، وأثرهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للشار! والصبر على تنفج الباطل، ووقاحة الطغيان، وانتفاش الشر، وغلبة الشهوة، وتصعير الغرور والخيلاء!

والصبر على قلة الناصر، وضعف المعين، وطول الطريق، ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق! والصبر على مرارة الجهاد لهذا كله، وما تثيره في النفس من انفعالات متنوعة. من الألم والغيب، والحلق، والضيق، وضعف الثقة أحيانا في الخير، وقلة الرجاء أحيانا في الفطرة البشرية والممل والسأم واليأس أحيانا والقنوط!

١١٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع ..

والصبر على هذا كله - وعلى مثله - مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل .. لا تصوره حقيقة الكلمات.

فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والذين آمنوا كانوا قد ذاقوا جوانب كثيرة من ذلك المدلول الحقيقي. فكانوا أعرف بمذاق هذا النداء. كانوا يعرفون معنى الصبر الذي يطلب الله إليهم أن يزاووه ..

والمصابرة .. وهي مفاعلة من الصبر .. مصابرة هذه المشاعر كلها، ومصابرة الأعداء الذين يحاولون جاهدين أن يفلوا من صبر المؤمنين .. مصابرتها ومصابرتهم، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة.

بل يظلون أصبر من أعدائهم وأقوى: أعدائهم من كوامن الصدور، وأعدائهم من شرار الناس سواء.

فكأنما هو رهان وسباق بينهم وبين أعدائهم، يدعون فيه إلى مقابلة الصبر بالصبر، والدفع بالدفع، والجهد بالجهد، والإصرار بالإصرار .. ثم تكون لهم عاقبة الشوط بأن يكونوا أثبت وأصبر من الأعداء. وإذا

كان الباطل يصبر ويصبر ويمضي في الطريق، فما أجدد الحق أن يكون أشد إصراراً وأعظم صبراً على المضي في الطريق! والمرابطة .. الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء .. وقد كانت

الجماعة المسلمة لا تغفل عيونها أبداً، ولا تستسلم للرقاد! فما هادتها أعداؤها قط، منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، والتعرض بها للناس. وما يهادنها أعداؤها قط في أي زمان أو في أي مكان وما تستغني

عن المرابطة للجهاد، حيثما كانت إلى آخر الزمان! إن هذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي. منهج يتحكم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، كما يتحكم في نظام حياتهم

ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم. ولكن الشر لا يستريح للمنهج الخير العادل المستقيم والباطل لا يجب الخير والعادل والاستقامة والطغيان لا يسلم للعدل والمساواة والكرامة .. ومن ثم ينهد لهذه الدعوة

أعداء من أصحاب الشر والباطل والطغيان. ينهد لحرها المستنفعون المستغلون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن الاستنفاع والاستغلال. وينهد لحرها الطغاة المستكبرون الذين لا يريدون أن يتخلوا عن

الطغيان والاستكبار. وينهد لحرها المنحلون، لأنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الانحلال والشهوات .. ولا بد من مجاهدتهم جميعاً. ولا بد من الصبر والمصابرة. ولا بد من المرابطة والحراسة. كي

لا تؤخذ الأمة المسلمة على غرة من أعدائها الطبيعيين، الدائمين في كل أرض وفي كل جيل ..

هذه طبيعة هذه الدعوة، وهذا طريقها .. إنها لا تريد أن تعتدي ولكن تريد أن تقيم في الأرض منهجها القويم ونظامها السليم .. وهي واجدة أبدا من يكره ذلك المنهج وهذا النظام. ومن يقف في طريقها بالقوة والكيد. ومن يتربص بها الدوائر. ومن يجارها باليد والقلب واللسان .. ولا بد لها أن تقبل المعركة بكل تكاليفها، ولا بد لها أن ترابط وتحرس ولا تغفل لحظة ولا تنام!!
والتقوى .. التقوى تصاحب هذا كله. فهي الحارس اليقظ في الضمير يجرسه أن يغفل ويجرسه أن يضعف ويجرسه أن يعتدي ويجرسه أن يجيد عن الطريق من هنا ومن هناك.
ولا يدرك الحاجة إلى هذا الحارس اليقظ، إلا من يعاني مشاق هذا الطريق ويعالج الانفعالات المتناقضة المتكاثرة المتواكبة في شتى الحالات وشتى اللحظات ..
إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات. وهو جماعها كلها، وجماع التكاليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها .. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار: «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وصدق الله العظيم.^{١١١}



^{١١١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٧٠)

١٩. تحريم عضل النساء

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) } سورة النساء

كَانَ النَّاسُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يَجْعَلُونَ النِّسَاءَ كَالْمَتَاعِ فَإِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِامْرَأَتِهِ يَتَزَوَّجُونَهَا بِدُونِ مَهْرٍ وَلَا رِضًا مِنْهَا، وَكَانَتْهَا شَيْءٌ مِنْ مِيرَاثِ الرَّجُلِ الْمُتَوَفَّى، فَإِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوَّجُوا، فَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ لِإِبْطَالِ هَذَا التَّعَامُلِ الْجَائِرِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ بِعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِالْمَرْأَةِ، وَبِعَدَمِ مُضَايَقَتِهَا (عَضْلِهَا) فِي الْعِشْرَةِ لِتَتْرَكَ لِلرَّجُلِ مَا دَفَعَهُ لَهَا مِنْ مَهْرٍ، أَوْ بَعْضِ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ، أَوْ شَيْئًا مِنْ حُقُوقِهَا فِي الْمِيرَاثِ، عَلَى سَبِيلِ الْقَهْرِ وَالْإِضْرَارِ .

أَمَّا إِذَا زَنَّتِ الْمَرْأَةُ فَكَانَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يُضَاجِرَهَا حَتَّى تَتْرُكَهُ (أَيَّ أَنْ لَهُ عَضْلُهَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ). أَمَّا فِي غَيْرِ حَالَةِ الزَّنى فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الرَّجَالَ بِمُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ بِالْمَعْرُوفِ، أَيَّ مَعَ طَيْبِ قَوْلٍ، وَحُسْنِ فِعْلٍ، حَتَّى وَلَوْ كَرِهْتُمُوهُنَّ، فَقَدْ يَكْرَهُ الْإِنْسَانُ شَيْئًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا، كَانَ تَلَدٌ لَهُ الْمَرْأَةُ وَلَدًا يَنْبِغُ أَوْ يَسُودُ، أَوْ يَكُونُ ذَا شَأْنٍ أَوْ أَنْ يَنْصَلِحَ حَالَهَا فَتَكُونَ سَبَبًا فِي سَعَادَتِهِ .

وَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَتَهُ لِكُرْهِهِ إِيَّاهَا، وَعَدَمِ صَبْرِهِ عَلَى مُعَاشَرَتِهَا، وَأَنْ يَسْتَبْدِلَ غَيْرَهَا بِهَا، وَهِيَ لَمْ تَأْتِ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، وَكَانَ قَدْ أَعْطَاهَا الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ مَقْبُوضًا أَوْ مُلْتَزِمًا، دَفَعَهُ إِلَيْهَا، أَوْ صَارَ دَيْنًا فِي ذِمَّتِهِ، فَعَلَى الرَّجُلِ أَنْ لَا يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَيْهَا بِالْكَامِلِ، وَلَوْ كَانَ قِنْطَارًا مِنَ الْمَالِ. ثُمَّ يُنْكَرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الرَّجَالَ الْبَاهِتِينَ الْآتِمِينَ الَّذِينَ كَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا تَطْلِيقَ الزَّوْجَةِ رَمَوْهَا بِالْفَاحِشَةِ حَتَّى تَخَافَ وَتَشْتَرِيَ نَفْسَهَا مِنْهُمْ بِتَرْكِ الْمَهْرِ الَّذِي دَفَعُوهُ.

وَيُكْرَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِنْكَارَهُ عَلَى الرَّجَالَ الَّذِينَ يُفَكِّرُونَ بِأَخْذِ شَيْءٍ مِمَّا أَعْطَوْا النِّسَاءَ مِنْ مَهْرٍ وَصَدَاقٍ فَيَقُولُ: كَيْفَ تَسْتَسْيِعُونَ أَخْذَ شَيْءٍ مِمَّا دَفَعْتُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ كَلًّا أَوْ بَعْضًا، بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَتِ الرَّابِطَةُ، بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، بِأَقْدَسِ رِبَاطٍ حَيَوِيٍّ، وَلَا يَسَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِالِاتِّصَالِ الْجَسَدِيِّ، حَتَّى صَارَ

أَحَدُهُمَا بِمَثَابَةِ الْجُزْءِ الْمُتَمِّمِ لِلْآخَرِ، وَأَخَذَنَ عَلَيْكُمُ عَهْدَ اللَّهِ عَلَىٰ إِمْسَاكِهِنَّ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ تَسْرِيحِهِنَّ بِإِحْسَانٍ؟!^{١١٢}

كان بعضهم في الجاهلية العربية - قبل أن ينتشل الإسلام العرب من هذه الوهدة ويرفعهم إلى مستواه الكريم - إذا مات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات! إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجها وأخذوا مهرها - كما يبيعون البهائم والمتروكات! - وإن شاءوا عضلوا وأمسكوها في البيت. دون تزويج، حتى تفتدي نفسها بشيء ..

وكان بعضهم إذا توفي عن المرأة زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه، فمنعها من الناس، وحازها كما يجوز السلب والغنيمة! فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، أو تفتدي نفسها منه بمال! فأما إذا فاتته فانطلقت إلى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقي عليها ثوبه، فقد نجت وتحررت وحمى نفسها منه! وكان بعضهم يطلق المرأة، ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي نفسها منه، بما كان أعطاها .. كله أو بعضه! وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها! وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها، فيحبسها عن الزواج، حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها، ويأخذ مالها! وهكذا. وهكذا. مما لا يتفق مع النظرة الكريمة التي ينظر بها الإسلام لشقي النفس الواحدة ومما يهبط بإنسانية المرأة وإنسانية الرجل على السواء .. ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار، أو علاقة بهائم! ومن هذا الدرك الهابط رفع الإسلام تلك العلاقة إلى ذلك المستوي العالي الكريم، اللائق بكرامة بني آدم، الذين كرمهم الله وفضلهم على كثير من العالمين. فمن فكرة الإسلام عن الإنسان، ومن نظرة الإسلام إلى الحياة الإنسانية، كان ذلك الارتفاع، الذي لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر الكريم^{١١٣}.

حرم الإسلام وراثته المرأة كما تورث السلعة والبهيمة، كما حرم العضل الذي تسامه المرأة، ويتخذ أداة للإضرار بها - إلا في حالة الإتيان بالفاحشة، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف - وجعل للمرأة حرمتها في اختيار من تعاشره ابتداءً أو استئنافاً. بكراً أم ثيباً مطلقة أو متوفى عنها زوجها. وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال - حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة - ونسم في هذه الحالة نسمة الرجاء في غيب الله وفي علم الله. كي لا يطاوع المرء انفعاله الأول، فيبت وشيخة الزوجية العزيزة.

فما يدرية أن هنالك خيراً فيما يكره، هو لا يدرية. خيراً مخبوءاً كامناً، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه: «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ

^{١١٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥١٢، بترقيم الشاملة آليا)

^{١١٣} - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

ما آتَيْتُمُوهُنَّ - إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ. وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا، وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» ..

وهذه اللمسة الأخيرة في الآية، تعلق النفس بالله، وتهدئ من فورة الغضب، وتفثأ من حدة الكره، حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء وحتى لا تكون العلاقة الزوجية ريشة في مهب الرياح. فهي مربوطة العرى بالعروة الوثقى. العروة الدائمة. العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربّه، وهي أوثق العرى وأبقاها.

والإسلام الذي ينظر إلى البيت بوصفه سكنا وأمنا وسلاما، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنسا، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق، كي تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب ..

هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج: «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» ..

كي يستأني بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر، وكي يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة، وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عرضة لنزوة العاطفة المتقلبة، وحماسة الميل الطائر هنا وهناك ..

وما أعظم قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لرجل أراد أن يطلق زوجته «لأنه لا يحبها» .. «ويحك! ألم تبني البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟» ..

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينطق به المتحذلقون باسم «الحب» وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، ويبيحون باسمه - لا انفصال الزوجين - وتحطيم المؤسسة الزوجية - بل خيانة الزوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟! وخيانة الزوج لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟! وما يهجم في هذه النفوس التافهة الصغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة، ونزوة الميل الحيواني المسعور. ومن المؤكد أنه لا يخطر لهم أن في الحياة من المروءة والنبيل والتجمل والاحتمال، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدقون به في تصور هابط هزيل .. ومن المؤكد طبعا أنه لا يخطر لهم خاطر ..

الله .. فهم بعيدون عنه في جاهليتهم المزوّقة! فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين: «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» ..

إن العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النفوس، وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ!

فإذا تبين بعد الصبر والتحمل والمحاولة والرجاء. أن الحياة غير مستطاعة، وأنه لا بد من الانفصال، واستبدال زوج مكان زوج، فعندئذ تنطلق المرأة. بما أخذت من صداق، وما ورثت من مال، لا يجوز استرداد شيء منه، ولو كان قنطارا من ذهب. فأخذ شيء منه إثم واضح، ومنكر لا شبهة

فيه: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج، وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً. أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مبيناً؟».

ومن ثم لمسة وجدانية عميقة، وظل من ظلال الحياة الزوجية وريف، في تعبير موح عجيب: «وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً؟».. ويدع الفعل: «أفضى» بلا مفعول محدد. يدع اللفظ مطلقاً، يشع كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل إيجاءاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته. بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان.. وفي كل احتلاجة حب إفضاء. وفي كل نظرة ود إفضاء. وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء. وفي كل تفكير في حاضر أو مستقبل إفضاء. وفي كل شوق إلى خلف إفضاء. وفي كل التقاء في وليد إفضاء.. كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحى العجيب: «وقد أفضى بعضكم إلى بعض».. فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير، ويحجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف! ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملاً آخر، من لون آخر: «وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً».. هو ميثاق النكاح، باسم الله، وعلى سنة الله.. وهو ميثاق غليظ لا يستهين بجرمته قلب مؤمن وهو يخاطب الذين آمنوا، ويدعوهم بهذه الصفة أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ.

وفي نهاية هذه الفقرة يحرم تحريماً باتاً - مع التفتيح والتبشيع - أن ينكح الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء.

وقد كان ذلك في الجاهلية حالاً. وكان سبباً من أسباب عضل النساء أحياناً، حتى يكبر الصبي فيتزوج امرأة أبيه، أو إن كان كبيراً تزوجها بالوراثة كما يورث الشيء! فجاء الإسلام يحرم هذا الأمر أشد التحريم: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء - إلا ما قد سلف - إنه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً».. ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات - وإن كنا نحن البشر لا نحيط بكل حكمة التشريع، ولا يتوقف خضوعنا له، وتسليمنا به، ورضاؤنا إياه على إدراكنا أو عدم إدراكنا لهذه الحكمة، فحسبنا أن الله قد شرعه، لنستيقن أن ورائه حكمة، وأن فيه المصلحة.

نقول: يبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات: الأول أن امرأة الأب في مكان الأم. والثاني: ألا يخلف الابن أباه فيصبح في خياله ندا له. وكثيراً ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعاً، فيكره أباه ويمقتة! والثالث: ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوج الأب. الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية. وهو معنى كرهه يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء. وهما من نفس واحدة، ومهانة أحدهما

مهانة للآخر بلا مرء.لهذه الاعتبارات الظاهرة - ولغيرها مما يكون لم يتبين لنا - جعل هذا العمل
شنيعا غاية الشناعة ..جعله فاحشة.وجعله مقتا:أي بغضا وكراهية.وجعله سيلا سيئا ..إلا ما كان
قد سلف منه في الجاهلية،قبل أن يرد في الإسلام تحريمه.فهو معفو عنه.متروك أمره لله سبحانه^{١١٤}



^{١١٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٩٣٥)

٢٠. تحريم أكل أموال الناس بالباطل

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) } سورة النساء

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ عَنْ أَنْ يَأْكُلَ بَعْضُهُمْ مَالَ بَعْضٍ بِالْبَاطِلِ، أَيْ أَنْ يَأْخُذَهُ بِطَرِيقٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ: كَالْقِمَارِ وَالرِّبَا وَالْحَيْلِ وَغَيْرِهَا. وَإِنْ ظَهَرَتْ فِي قَالِبِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ مَعَاطِيهَا إِنَّمَا يُرِيدُ الْحَيْلَةَ لِأَكْلِ الرَّبَا. فَاللَّهُ تَعَالَى يُحَرِّمُ عَلَى النَّاسِ تَعَاطِي الْأَسْبَابِ الْمُحَرَّمَةِ فِي اكْتِسَابِ الْأَمْوَالِ، وَاسْتَنْتَى مِنَ التَّحْرِيمِ الْمُتَاجِرَةَ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَتِمُّ عَنْ تَرَاضٍ بَيْنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي، فَسَمَحَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِتَعَاطِيهَا، وَالتَّسَبُّبِ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ بِهَا. وَيَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ قَتْلِ أَنْفُسِهِمْ بِارْتِكَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَأَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ رَحِيمًا بِهِمْ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْهُ، لِأَنَّ فِيهِ صَلَاحَهُمْ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ تُشْمَلُ أَيْضًا مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ قَتْلًا حَقِيقًا وَأَعَدَمَهَا الْحَيَاةَ بِحَدِيدٍ أَوْ بِسُمٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ قَتَلَ غَيْرَهُ. وَجَعَلَ اللَّهُ جَنَايَةَ الْإِنْسَانِ عَلَى غَيْرِهِ جَنَايَةً عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْبَشَرِيَّةِ جَمْعًا. وَمَنْ تَعَاطَى مَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مُعْتَدِيًا فِيهِ عَلَى الْحَقِّ، وَظَالِمًا فِي تَعَاطِيهِ، وَعَارِفًا بِتَحْرِيمِهِ، وَمُتَحَاسِرًا عَلَى انْتِهَاكِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُعَذِّبُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَذَلِكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ عَلَيْهِ ^{١١٥}.

النداء للذين آمنوا، والنهي لهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ». مما يوحي بأنها عملية تطهير لبقايا روااسب الحياة الجاهلية في المجتمع الإسلامي واستجاشة ضمائر المسلمين بهذا النداء: «يا أيها الذين آمنوا».. واستحياء مقتضيات الإيمان. مقتضيات هذه الصفة التي يناديهم الله بها، لينهاهم عن أكل أموالهم بينهم بالباطل.

وأكل الأموال بالباطل يشمل كل طريقة لتداول الأموال بينهم لم يأذن بها الله، أو نهى عنها، ومنها الغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها، وجميع أنواع البيوع المحرمة - والربا في مقدمتها - ولا نستطيع أن نجزم إن كان هذا النص قد نزل بعد تحريم الربا أو قبله فإن كان قد نزل قبله، فقد كان تمهيدا للنهي عنه. فالربا أشد الوسائل أكلا للأموال بالباطل. وإن كان قد نزل بعده، فهو يشملها فيما يشمل من ألوان أكل أموال الناس بالباطل.

^{١١٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٢٢، بترقيم الشاملة آليا)

واستثنى العمليات التجارية التي تتم عن تراض بين البائع والشاري: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ».. وهو استثناء منقطع.. تأويله: ولكن إذا كانت تجارة عن تراض منكم فليست داخلية في النص السابق.. ولكن مجيئها هكذا في السياق القرآني، يوحى بنوع من الملاسة بينها وبين صور التعامل الأخرى، التي توصف بأنها أكل لأموال الناس بالباطل.. ونذكر هذه الملاسة إذا استصحبنا ما ورد في آيات النهي عن الربا - في سورة البقرة - من قول المرابين في وجه تحريم الربا: «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا».. ورد الله عليهم في الآية نفسها: «وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا».. فقد كان المرابون يغالطون، وهم يدافعون عن نظامهم الاقتصادي الملعون. فيقولون: إن البيع - وهو التجارة - تنشأ عنها زيادة في الأموال وريح. فهو - من ثم - مثل الربا. فلا معنى لإحلال البيع وتحريم الربا! والفرق بعيد بين طبيعة العمليات التجارية والعمليات الربوية أولاً، وبين الخدمات التي تؤديها التجارة للصناعة وللجماهير والبلاء الذي يصبه الربا على التجارة وعلى الجماهير.

فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك تقوم بترويج البضاعة وتسويقها ومن ثم تحسينها وتيسير الحصول عليها معاً. وهي خدمة للطرفين، وانتفاع عن طريق هذه الخدمة. انتفاع يعتمد كذلك على المهارة والجهد ويتعرض في الوقت ذاته للريح والخسارة..

والربا على الضد من هذا كله. يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التي تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التي يفرضها على الصناعة. وهو في الوقت ذاته - كما تجلّى ذلك في النظام الرأسمالي عند ما بلغ أوجه - يوجه الصناعة والاستثمار كله وجهة لا مراعاة فيها لصالح الصناعة ولا لصالح الجماهير المستهلكة وإنما الهدف الأول فيها زيادة الربح للوفاء بفوائد القروض الصناعية. ولو استهلكت الجماهير مواد الترف ولم تجد الضروريات! ولو كان الاستثمار في أحط المشروعات المثيرة للغرائز، المخطمة للكيان الإنساني.. وفوق كل شيء.. هذا الربح الدائم لرأس المال وعدم مشاركته في نوبات الخسارة - كالتجارة - وقلة اعتماده على الجهد البشري، الذي يبذل حقيقة في التجارة.. إلى آخر قائمة الاتهام السوداء التي تحيط بعنق النظام الربوي وتقتضي الحكم عليه بالإعدام كما حكم عليه الإسلام^{١١٦}!

فهذه الملاسة بين الربا والتجارة، هي التي لعلها جعلت هذا الاستدراك - «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» يجيء عقب النهي عن أكل الأموال بالباطل. وإن كان استثناء منقطعاً كما يقول النحويون! «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا»..

^{١١٦} - يراجع ما كتبناه في الظلال في الجزء الثالث من ص ٣١٨ - ص ٣٢٨ ويراجع بتوسع ما كتبه الأستاذ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان في كتابه «الربا» (السيد رحمه الله)

تعقيب يجيء بعد النهي عن أكل الأموال بالباطل فيوحي بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة إنها عملية قتل.. يريد الله أن يرحم الذين آمنوا منها، حين ينهاهم عنها! وإنها كذلك. فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة: بالربا. والغش. والقمار. والاحتكار.

والتدليس. والاختلاس. والاحتيال. والرشوة. والسرقه. وبيع ما ليس يباع: كالعرض. والذمة. والضمير. والخلق. والدين! - مما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء - ما تروج هذه الوسائل في جماعة، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها، وتردى في هاوية الدمار! والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة، المردية للنفوس وهذا طرف من إرادة التخفيف عنهم ومن تدارك ضعفهم الإنساني، الذي يرددهم حين يتخلون عن توجيه الله، إلى توجيه الذين يريدون لهم أن يتبعوا الشهوات! ويلي ذلك التهديد بعذاب الآخرة، تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل، معتدين ظالمين، تهديدهم بعذاب الآخرة بعد تحذيرهم من مقتلة الحياة الدنيا ودمارها. الأكل فيهم والمأكول فالجماعة كلها متضامنة في التبعة ومتى تركت الأوضاع المعتدية الظالمة، التي تؤكل فيها الأموال بالباطل تروج فيها فقد حقت عليها كلمة الله في الدنيا والآخرة: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا، فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

وهكذا يأخذ المنهج الإسلامي على النفس أقطارها - في الدنيا والآخرة - وهو يشرع لها ويوجهها ويقوم من النفس حارسا حذرا يقظا على تلبية التوجيه، وتنفيذ التشريع وقيم من الجماعة بعضها على بعض رقيقا لأنها كلها مسؤولة وكلها نصيبها المقتلة والدمار في الدنيا، وكلها تحاسب في الآخرة على إهمالها وترك الأوضاع الباطلة تعيش فيها.. «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» فما يمنع منه مانع، ولا يحول دونه حائل، ولا يتخلف، متى وجدت أسبابه، عن الوقوع!

وفي مقابل اجتناب «الكبائر» - ومنها أكل الأموال بينهم بالباطل - يعدهم الله برحمته، وغفرانه، وتجاوزه عما عدا الكبائر مراعاة لضعفهم الذي يعلمه - سبحانه - وتيسيرا عليهم، وتطمينا لقلوبهم وعونا لهم على التحايز عن النار باجتناب الفواحش الكبار: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا».

ألا ما أسمح هذا الدين! وما أيسر منهجه! على كل ما فيه من هتاف بالرفعة والسمو والطهر والنظافة، والطاعة. وعلى كل ما فيه من التكاليف والحدود، والأوامر والنواهي، التي يراد بها إنشاء نفوس زكية طاهرة وإنشاء مجتمع نظيف سليم.

إن هذا الهتاف، وهذه التكاليف، لا تغفل - في الوقت ذاته - ضعف الإنسان وقصوره ولا تتجاوز به حدود طاقته وتكوينه ولا تتجاهل فطرته وحدودها ودوافعها ولا تجهل كذلك دروب نفسه ومنحنياتها الكثيرة. ومن ثم هذا التوازن بين التكليف والطاقة. وبين الأشواق والضرورات. وبين الدوافع

والكوايح. وبين الأوامر والزواجر. وبين الترغيب والترهيب. وبين التهديد الرعيب بالعذاب عند المعصية والإطماع العميق في العفو والمغفرة ..

إنه حسب هذا الدين من النفس البشرية أن يتم اتجاهها لله وأن تخلص حقا في هذا الاتجاه، وأن تبذل غاية الجهد في طاعته ورضاه .. فأما بعد ذلك .. فهناك رحمة الله .. هناك رحمة الله ترحم الضعف، وتعطف على القصور وتقبل التوبة، وتصفح عن التقصير وتكفر الذنب وتفتح الباب للعائدين، في إيناس وفي تكريم ..

وآية بذل الطاقة اجتناب كبائر ما نهى الله عنه. أما مقارفة هذه الكبائر - وهي واضحة ضخمة بارزة لا ترتكبها النفس وهي جاهلة لها أو غير واعية! فهي دليل على أن هذه النفس لم تبذل المحاولة المطلوبة ولم تستنفد الطاقة في المقاومة .. وحتى هذه فالتوبة منها في كل وقت مع الإخلاص مقبولة برحمة الله التي كتبها على نفسه .. وقد قال فيها: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)} [آل عمران: ١٣٥] .. وعدهم من «المتقين».

إنما الذي نحن بصدده هنا هو تكفير السيئات والذنوب مباشرة من الله، متى اجتنبت الكبائر وهذا هو وعد الله هنا وبشراه للمؤمنين.

أما ما هي الكبائر .. فقد وردت أحاديث تعدد أنواعا منها - ولا تستقصيها - وذلك بدليل احتواء كل حديث على مجموعة تزيد أو تنقص مما يدل على أن هذه الأحاديث كانت تعالج حالات واقعة فتذكر من الكبائر - في كل حديث - ما يناسب الملابس الحاضرة، والمسلم لا يعسر عليه أن يعلم «الكبائر» من الذنوب. وإن كانت تختلف عددا ونوعا بين بيئة وبيئة، وبين جيل وجيل! ونذكر هنا قصة عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو المتحرج المتشدد الشديد الحساسية بالمعصية.

تبين - مع ذلك كله - كيف قوّم الإسلام حسه المرهف، وكيف جعل الميزان الحساس يعتدل في يده ويستقيم وهو يعالج أمور المجتمع وأمور النفوس: عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ نَاسًا ، لَقَوْا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بِمِصْرَ ، فَقَالُوا: نَرَىٰ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَمْرًا أَنْ يُعْمَلَ بِهَا ، لَأَ يُعْمَلَ بِهَا ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَلْقَىٰ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ؟ فَقَدِمَ وَقَدِمُوا مَعَهُ ، فَلَقِيَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ: مَتَى قَدِمْتَ ؟ قَالَ: مُنْذُ كَذَا وَكَذَا قَالَ: أَيَّذَنْ قَدِمْتَ ؟ قَالَ: فَلَا أَدْرِي كَيْفَ رَدَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ نَاسًا لَقَوْنِي بِمِصْرَ ، فَقَالُوا: إِنَّا نَرَىٰ أَشْيَاءَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَمْرًا أَنْ يُعْمَلَ بِهَا وَلَا يُعْمَلَ بِهَا ، فَأَحْبَبُوا أَنْ يَلْقَوْكَ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ: اجْمَعْتُهُمْ لِي . قَالَ: فَجَمَعْتُهُمْ لَهُ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ: أَظُنُّهُ قَالَ فِي نَهْرٍ - فَأَخَذَ أَدْنَاهُمْ رَجُلًا ، فَقَالَ: أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ وَبِحَقِّ الْإِسْلَامِ عَلَيْكَ ، أَفَرَأَتِ الْقُرْآنَ كُلَّهُ ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: فَهَلْ أَحْصَيْتَهُ فِي نَفْسِكَ ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا . - قَالَ: وَلَوْ قَالَ نَعَمْ لَخَصَمَهُ - قَالَ: فَهَلْ أَحْصَيْتَهُ فِي بَصْرِكَ ؟ هَلْ أَحْصَيْتَهُ فِي لَفْظِكَ ؟ هَلْ أَحْصَيْتَهُ فِي أَثْرِكَ ؟ قَالَ: ثُمَّ تَبِعْتُهُمْ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ آخِرِهِمْ ، فَقَالَ: ثَكَلَتْ عُمَرُ أُمَّهُ ،

أَتَكَلَّفُونَهُ أَنْ يُقِيمَ النَّاسَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ؟ قَدْ عَلِمَ رَبُّنَا أَنْ سَتَكُونُ لَنَا سَيِّئَاتٌ. قَالَ: وَتَلَا: إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا هَلْ عَلِمَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ؟ أَوْ قَالَ: "هَلْ عَلِمَ أَحَدٌ بِمَا قَدِمْتُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: لَوْ عَلِمُوا لَوْعَظْتُ بِكُمْ" ١١٧.

فهكذا كان عمر - المتحرج الشديد الحساسية - يسوس القلوب والمجتمع وقد قوّم القرآن حسه وأعطاه الميزان الدقيق.. «قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات!» ولن نكون غير ما علم ربه أن نكون! إنما المعول عليه هو القصد والتصويب والمحاولة والرغبة في الوفاء بالالتزامات، وبذل الجهد في هذا الوفاء.. إنه التوازن والجد واليسر والاعتدال ١١٨



١١٧ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٨٤٤٣) قال ابن كثير: "إسناد صحيح ومتن حسن، وإن كانت رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر، فتكفي شهرته". وقال السيوطي: "أخرج ابن جرير بسند حسن". "أحصى الشيء": أحاط به وحفظه، يعني: هل استوفيتم القيام بكل أمر به في ذلك وحفظتموه وضبطتم العمل به، ومنه قوله تعالى: "عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ" أي: أن تطبقوا القيام به.. - "خاصمت الرجل فخصمته": أي غلبته بالحجة. - "الأثر": ما تركه في الأرض من ثقل خطاك عليها، وأراد به هنا: السعي في الأرض. كالذي في قوله تعالى: "ونكتب ما قدموا وآثارهم"، أي خطاهم حيث سعوا في الأرض.

وقوله: "لوعظت بكم"، أي: لأنزلت بكم من العقوبة، ما يكون عظة لغيركم من الناس. وذلك أنهم جاءوا في شكاة عاملهم على مصر، وتشددوا ولم يسروا، وأرادوا أن يسير في الناس بما لا يطيقون هم في أنفسهم من الإحاطة بكل أعمال الإسلام، وما أمرهم الله به. وذلك من الفتن الكبيرة. ولم يريدوا ظاهر الإسلام وأحكامه، وإنما أرادوا بعض ما أدب الله به خلقه. وعمر أجل من أن يتهاون في أحكام الإسلام. وإنما قلت هذا وشرحته، مخافة أن يحتج به محتج من ذوي السلطان والجبروت، في إباحة ترك أحكام الله غير معمول بها، كما هو أمر الطغاة والجبابرة من الحاكمين في زماننا هذا. تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (٨ / ٢٥٥)

١١٨ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٩٧١)

٢١. تحريم الصلاة وهم سكارى

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا } (٤٣) سورة النساء

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ، الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمُصَلِّي مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ وَمَا يَفْعَلُ (وَكَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ بِصُورَةٍ قَاطِعَةٍ) .

وَيَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى مَنْ كَانَ جُنُبًا مِنْ دُخُولِ الْمَسَاجِدِ (إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مَكْتٍ. وَكَانَتْ بَيُوتُ الْأَنْصَارِ أَبْوَابُهَا مِنْ دَاخِلِ الْمَسْجِدِ، فَكَانَتْ تُصَيِّهُمُ الْجَنَابَةَ وَلَا مَاءَ عِنْدَهُمْ، فَيَرِدُونَ الْمَاءَ وَلَا يَجِدُونَ مَمَرًا إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ) وَيَسْتَمِرُّ تَحْرِيمُ الْمَكْتِ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى الْجُنُبِ وَالْحَائِضِ حَتَّى يَغْتَسِلَا أَوْ يَتَيَمَّمَا .

وَإِذَا كُنْتُمْ مَرْضَى مَرَضًا تُخَافُ زِيَادَتَهُ بِاسْتِعْمَالِ الْمَاءِ، أَوْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَأَحَدْتُمْ حَدَنًا أَصْعَرَ (جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ) أَوْ وَافَعْتُمُ النِّسَاءَ (لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)، وَلَمْ تَجِدُوا مَاءً لَتَغْتَسِلُوا أَوْ لَتَتَوَضَّؤُوا فَتَيَمَّمُوا التُّرَابَ الطَّاهَرَ الْحَلَالَ (الطَّيِّبَ)، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ لِيَقُومَ ذَلِكَ مَقَامَ الْوَضُوءِ وَالْعُسْلِ، وَمَنْ عَفَوْهُ تَعَالَى عَنْكُمْ، وَمَنْ غَفَرَانَهُ لَكُمْ، أَنْ شَرَعَ لَكُمْ التَّيَمُّمَ، وَأَبَاحَ لَكُمْ الصَّلَاةَ إِذَا فَقَدْتُمُ الْمَاءَ، تَوْسِعَةً عَلَيْكُمْ وَرُخْصَةً لَكُمْ، وَيَكُونُ التَّيَمُّمُ بِضَرْبَتَيْنِ بِالْيَدَيْنِ عَلَى الْأَرْضِ، ضَرْبَةً يَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ، وَضَرْبَةً يَمْسَحُ بِهَا يَدَيْهِ . ١١٩

إنها حلقة في سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة - التي التقطها المنهج الإسلامي من سفح الجاهلية - وكانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصيلة الشاملة وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع. كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضا.. الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني في أوج جاهليته وللمجتمع الفارسي أيضا. وكذلك هي اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوربي والمجتمع الأمريكي في أوج جاهليته! والشأن أيضا كذلك في جاهلية المجتمع الإفريقي المتخلفة من الجاهلية الأولى! في السويد - وهي أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة - كانت كل عائلة في النصف الأول من القرن الماضي تعد الخمر الخاصة بها. وكان متوسط ما يستهلكه الفرد، حوالي عشرين لترا. وأحست الحكومة خطورة هذه الحال، وما ينشره من إدمان فاتجهت إلى سياسة احتكار الخمر، وتحديد الاستهلاك الفردي، ومنع شرب الخمر في المحال العامة.. ولكنها

١١٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٣٦، بترقيم الشاملة آليا)

عادت فخففت هذه القيود منذ أعوام قليلة! فأبيح شرب الخمر في المطاعم بشرط تناول الطعام. ثم أبيضت الخمر في عدد محدود من المحال العامة، حتى منتصف الليل فقط! وبعد ذلك يباح شرب «النيذ والبيرة» فحسب! وإدمان الخمر عند المراهقين يتضاعف!..

أما في أمريكا، فقد حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة فسنت قانونا في سنة ١٩١٩ سمي قانون «الجفاف»! من باب التهكم عليه، لأنه يمنع «الري» بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائما مدة أربعة عشر عاما، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة ١٩٣٣. وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدر أن ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات. وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة. وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه. وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس وسجن كذلك ٣٣٥،٥٣٢ نفسا. وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه. وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه.. وبعد ذلك كله اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون^{١٢٠}.

فأما الإسلام فقضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي.. بوضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني.. بين منهج الله، ومنهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء! ولكي ندرك تغلغل هذه الظاهرة في المجتمع الجاهلي، يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلي حيث نجد «الخمر» عنصرا أساسيا من عناصر المادة الأدبية كما أنه عنصر أساسي من عناصر الحياة كلها.

لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر، أن أصبحت كلمة التجارة، مرادفة لبيع الخمر.. يقول لبيد:
قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها
ويقول عمرو بن قميئة:

إذ أسحب الريط والمروط إلى أدني تجاري وأنفض اللما
ووصف مجالس الشراب، والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلي، وتطبعه طابعا ظاهرا.
يقول امرؤ القيس:

وأصبحت ودعت الصبا غير أنني أراقب خللات من العيش أربعا
فمنهن قولي للندامي: ترفقوا يداجون نشاجا من الخمر مترعا
ومنهن ركض الخيل ترحم بالقنا يبادرن سربا آمنا أن يفزعا
... إلخ ويقول طرفة بن العبد:

^{١٢٠} - عن كتاب تنقيحات للسيد أبي الأعلى المودودي. نقلا عن كتاب: «ما ذا خسر العالم باخطاط المسلمين» للسيد الندوي. (السيد رحمه الله)

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتي وجدك لم أحفل متى قام عوددي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كमित متى ما تعل بالماء تزبد
وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبذلي وإنفاقي طريفي وتالدي
إلى أن تحامتني العشرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد
ويقول الأعشى:

فقد أشرب الراح قد تعلمين يوم المقام ويوم الطعن
وأشرب بالريف حتى يقال قد طال بالريف ما قد دجن
ويقول المنخل البشكري:

ولقد شربت من المدامة بالصغير وبالكبير
فإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير^{١٢١}
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير
وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي ...

ورواية الحوادث التي صاحبت مراحل تحريم الخمر في المجتمع المسلم، والرجال الذين كانوا أبطال هذه
الحوادث .. وفيهم عمر، وعلي، وحمزة، وعبد الرحمن بن عوف .. وأمثال هذا الطراز من الرجال ..

تشي بمدى تغلغل هذه الظاهرة في الجاهلية العربية. وتكفي عن الوصف المطول المفصل:

فَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ
الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ
فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ
الصَّلَاةَ سُكَارَى فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي
الْمَائِدَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا^{١٢٢} ..

وفي سبب نزول هذه الآية: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» ترد روايتان يشترك
في أحدهما علي وعبد الرحمن بن عوف من المهاجرين. وسعد بن معاذ من الأنصار.

روى ابن أبي حاتم عن سعد، قال: "نزلت في أربع آيات، صنع رجل من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى
سكرنا، ثم افتخرنا فرجع رجل في لحي بعير فعزز به أنف سعد، فكان سعد مغرور الأنف، وذلك قبل
أن يحرم الخمر، فنزلت: "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" ..^{١٢٣}

١٢١ - قصيران للنعمان بن المنذر كانت تتحدث بما العرب في الجاهلية. (السيد رحمه الله)

١٢٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ١٨٩) (٣٧٨) صحيح

١٢٣ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ١٧١) (٥٣٩٢) صحيح

وروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: "صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منّا، وحضرت الصلاة، فقدموا فلاناً، قال: فقرأ: "قل يا أيها الكافرون أعبدوا ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون قال: فأنزل الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون " ١٢٤.

ولا نحتاج إلى مزيد من الأمثلة والروايات لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر في المجتمع الجاهلي. فهي كانت والميسر، الظاهرتين البارزتين المتداخلتين، في تقاليد هذا المجتمع ..

فماذا صنع المنهج الرباني لمقاومة هذه الظاهرة المتغلغلة؟ ماذا صنع لمكافحة هذه الآفة، التي لا يقوم معها مجتمع جاد صالح مستقيم واع أبداً؟ ماذا صنع ليوقف في وجه عادة أصيلة قديمة، تتعلق بها تقاليد اجتماعية كما تتعلق بها مصالح اقتصادية؟

لقد عالج المنهج الرباني هذا كله ببضع آيات من القرآن وعلى مراحل، وفي رفق وتؤدة. وكسب المعركة.

دون حرب. ودون تضحيات. ودون إراقة دماء .. والذي أريق فقط هودنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت في أفواه الشاربين - حين سمعوا آية التحريم - فمجوها من أفواههم. ولم يلعوها. كما سيحيء! في مكة - حيث لم يكن للإسلام دولة ولا سلطان .. إلا سلطان القرآن - وردت في القرآن المكي تلميحاً سريعة إلى نظرة الإسلام للخمر. تدرك من ثنايا العبارة. وهي مجرد إشارة:

جاء في سورة النحل: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً» .. فوضع «السكر» وهو الشراب المسكر الذي كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والأعناب، في مقابل الرزق الحسن! ملمحاً بهذا التقابل إلى أن السكر شيء، والرزق «الحسن» شيء آخر .. وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد! ولكن عادة الشراب، أو تقليد الشراب - بمعنى أدق - فقد كان أعمق من عادة فردية. كان تقليداً اجتماعياً، له جذور اقتصادية .. كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة .. وفي المدينة حيث قامت للإسلام دولة وكان له سلطان .. لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان. إنما كان أولاً سلطان القرآن ..

وبدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر، وفي خبرة بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية ..

بدأ المنهج عمله في رفق وفي يسر، وفي خبرة بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية ..

بدأ بآية البقرة رداً على أسئلة تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ، وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ..»

١٢٤ - تفسير ابن أبي حاتم - (٤ / ١٧٠) (٥٣٩١) صحيح

وكانت هي الطريقة الأولى، ذات الصوت المسموع .. في الحس الإسلامي، وفي الضمير الإسلامي. وفي المنطق الفقهي الإسلامي .. فمدار الحل والحزمة .. أو الكراهية .. على رجحان الإثم أو رجحان الخير، في أمر من الأمور .. وإذا كان إثم الخمر والميسر أكبر من نفعهما .. فهذا مفرق الطريق .. ولكن الأمر كان أعمق من هذا .. عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، قَالَ: فَدَعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانٌ فَدَعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدَعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا^{١٢٥} ...

عمر!!! وهذا وحده يكفي لبيان عمق هذا التقليد في نفس العربي! ثم حدثت أحداث - كالتي رويناها - ونزلت هذه الآية: «يا أيُّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون» ..

وأخذ المنهج البصير الرفيق يعمل ..

لقد كانت هذه هي المرحلة الوسيطة، بين التنفير من الخمر، لأن إثمها أكبر من نفعها، وبين التحريم البات، لأنها رجس من عمل الشيطان. وكانت وظيفة هذه المرحلة الوسيطة: هي «قطع عادة الشراب» أو «كسر الإدمان» .. وذلك بحظر الشراب قرب أوقات الصلاة. وأوقات الصلاة موزعة على مدار النهار. وبينها فترات لا تكفي للشراب - الذي يرضي المدمنين - ثم الإفاقة من السكر الغليظ! حتى يعلموا ما يقولون! فضلا على أن للشراب كذلك أوقاتا ومواعيد خاصة من الصبح والغبوق .. صباحا ومساء .. وهذه تتخللها وتعقبها أوقات الصلاة .. وهنا يقف ضمير المسلم بين أداء الصلاة وبين لذة الشراب .. وكان هذا الضمير قد بلغ أن تكون الصلاة عنده عماد الحياة ..

ومع ذلك .. فقد قال عمر رضي الله عنه - وهو عمر!!! - «اللهم بين لنا بيانا شافيا في الخمر» .. ثم مضى الزمن. ووقعت الأحداث. وجاء الوعد المناسب - وفق ترتيب المنهج - للضربة الحاسمة. فنزلت الآيات في المائدة: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟» ..

وانتهى المسلمون كافة. وأريق زقاق الخمر، وكسرت دناهما في كل مكان .. بمجرد سماع الأمر ..

^{١٢٥} - مسند أحمد (عالم الكتب) [١ / ١٨٩] (٣٧٨) صحيح

ومج الذين كان في أفواههم جرعات من الخمر ما في أفواههم - حين سمعوا ولم يلعوها وهي في أفواههم. وهم شاربون ..

لقد انتصر القرآن. وأفلح المنهج. وفرض سلطانه - دون أن يستخدم السلطان!!! ولكن كيف كان هذا؟ كيف تمت هذه المعجزة، التي لا نظير لها في تاريخ البشر ولا مثل لها في تاريخ التشريعات والقوانين والإجراءات الحكومية في أي مكان، ولا في أي زمان؟

لقد تمت المعجزة، لأن المنهج الرباني، أخذ النفس الإنسانية، بطريقته الخاصة .. أخذها بسطان الله وخشيته ومراقبته، وبحضور الله - سبحانه - فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان .. أخذها جملة لا تفارق .. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة ..

لقد ملاً فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا تملؤه بنشوة الخمر، وخيالات السكر، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء .. في الهواء .. ملاً فراغها باهتمامات. منها: نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها، من تيه الجاهلية الأجرد، وهجيرها المتلظى، وظلامها الدامس، وعبوديتها المذلة، وضيقتها الخائق، إلى رياض الإسلام البديعة، وظلاله الندية، ونوره الوضيء، وحرته الكريمة، وسعته التي تشمل الدنيا والآخرة! وملاً فراغها - وهذا هو الأهم - بالإيمان. بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل البهيج. فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر، تحلق بها في خيالات كاذبة وسمادير! وهي ترف بالإيمان المشع إلى الملاء الأعلى الوضيء .. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله .. وتذوق طعم هذا القرب، فتمج طعم الخمر ونشوتها وترفض خمارها وصداعها وتستقذر لوثتها وخمودها في النهاية! إنه استنقذ الفطرة من ركاب الجاهلية وفتحها بمفتاحها، الذي لا تفتح بغيره وتمشى في حناياها وأوصالها وفي مسالكها ودروها .. ينشر النور، والحياة، والنظافة، والطهر، واليقظة، والهمة، والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير، والخلافة في الأرض، على أصولها، التي قررها العليم الخبير، وعلى عهد الله وشرطه، وعلى هدى ونور

إن الخمر - كالميسر. كبقية الملاهي. كالجنون بما يسمونه «الألعاب الرياضية» والإسراف في الاهتمام بمشاهدتها .. كالجنون بالسرعة .. كالجنون بالسينما .. كالجنون «بالمودات» «والتقاليع» .. كالجنون بمصارعة الثيران .. كالجنون ببقية التفاهات التي تغشى حياة القطعان البشرية في الجاهلية الحديثة اليوم، جاهلية الحضارة الصناعية! إن هذه كلها ليست إلا تعبيرا عن الخواء الروحي .. من الإيمان أولا .. ومن الاهتمامات الكبيرة التي تستنفد الطاقة ثانيا .. وليست إلا إعلانا عن إفلاس هذه الحضارة في إشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية .. ذلك الخواء وهذا الإفلاس هما اللذان يقودان إلى الخمر والميسر ملء الفراغ، كما يقودان إلى كل أنواع الجنون التي ذكرنا .. وهما بذاتهما اللذان يقودان إلى «الجنون» المعروف، وإلى المرض النفسي والعصبي .. وإلى الشذوذ ..

إنها لم تكن كلمات .. هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة .. إنما كان منهج. منهج هذه الكلمات متنه وأصله. منهج من صنع رب الناس. لا من صنع الناس! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما

يتخذه البشر من مناهج، لا تؤدي إلى كثير! إنه ليست المسألة أن يقال كلام! فالكلام كثير. وقد يكتب فلان من الفلاسفة. أو فلان من الشعراء أو فلان من المفكرين. أو فلان من السلاطين! قد يكتب كلاما منمقا جميلا يبدو أنه يؤلف منهجا، أو مذهبا، أو فلسفة.. إلخ.. ولكن ضمائر الناس تتلقاه، بلا سلطان. لأنه «ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ!» فمصدر الكلمة هو الذي يمنحها السلطان.. وذلك فوق ما في طبيعة المنهج البشري ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور! فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا حياة الناس مناهج، غير منهج العليم الخبير؟

وأن يشرعوا للناس قواعد غير التي شرعها الحكيم البصير؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير؟ متى متى ينتهون عن هذا الغرور؟؟؟

ونعود من هذا الاستطراد إلى الآية الكريمة: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ - حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ - وَلَا جُنُبًا - إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ - حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا...»
كما منعت الآية - الذين آمنوا - أن يقربوا الصلاة وهم سكارى - حتى يعلموا ما يقولون - كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب - إلا عابري سبيل - حتى يغتسلوا ..

وتختلف الأقوال في المقصود من «عابري سبيل» كما تختلف في معنى قرب الصلاة المنهي عنه .. فقول: إن المقصود هو عدم قرب المساجد، أو المكث فيها، لمن كان جنباً، حتى يغتسل. إلا أن يكون عابراً بالمسجد مجرد عبور. وقد كان جماعة من الصحابة أبواب بيوتهم تفتح في مسجد الرسول - ﷺ - وهو طريقهم من وإلى هذه البيوت. فرخص لهم في المرور - وهم جنب - لا بالمكث في المسجد - ولا الصلاة بطبيعة الحال - إلا بعد الاغتسال.

وقول: إن المقصود هو الصلاة ذاتها. والنهي عن أدائها للجنب - إلا بعد الاغتسال - ما لم يكن مسافراً.

فيحل له عندئذ أن يقصد المسجد وأن يصلي - بلا اغتسال - ولكن بالتيمم. الذي يسد مسد الغسل - عندئذ - كما يسد مسد الوضوء ..

والقول الأول يبدو أظهر وأوجه. لأن الحالة الثانية - حالة السفر - ذكرت في الآية نفسها بعد ذلك. فتفسير عابري سبيل - بالمسافرين، ينشئ تكراراً للحكم في الآية الواحدة، لا ضرورة له: «وَأَنْتُمْ مَرْضَىٰ، أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ - فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً - فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا. فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا» ..

فهذا النص يشمل حالة المسافر - عند ما يصيبه حدث أكبر فيكون جنباً في حاجة إلى الغسل أو حدث أصغر، فيكون في حاجة إلى الوضوء، لأداء الصلاة.

والنص يسويه في هذه الحالة بمن كان مريضاً، فألم به حدث أكبر أو أصغر. أو بمن جاء من الغائط (والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه، فكفى عن الفعل بالمجيء من مكان الفعل) فأصابه حدث أصغر يقتضي الوضوء. أو بمن لامس النساء ..

وفي «لامستم النساء» .. أقوال كذلك:

قول: إنه كناية عن الجماع .. فهو يستوجب الغسل. وقول: إنه يعني حقيقة اللمس .. لمس أي جزء من جسم الرجل لجسم المرأة .. وهو يستوجب الوضوء في بعض المذاهب، ولا يستوجب في بعضها. بتفصيلات تطلب في كتب الفروع نذكر منها إجمالاً:

«أ» اللمس يوجب الوضوء إطلاقاً.

«ب» اللمس يوجب الوضوء إذا كان اللامس ممن تثور الشهوة في نفسه باللمس. وإذا كانت الملموسة ممن تثير الشهوة باللمس.

«ج» اللمس يوجب الوضوء إذا أحس اللامس نفسه - حسب تقديره في كل حالة - أن اللمسة أثارت في نفسه حركة.

«د» اللمس لا يوجب الوضوء إطلاقاً، ولا العناق ولا التقبيل للزوجة ..

ولكل قول سنده من أفعال أو من أقوال الرسول ﷺ .. على طريقة الاختلافات الفقهية في الفروع. والذي نرجحه في معنى «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» أنه كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل. وبذلك نستغني هنا عن كل الخلافات في مسألة الوضوء^{١٢٦} ..

وفي جميع هذه الحالات المذكورة، سواء كانت الحالة تستوجب الغسل أو تستوجب الوضوء للصلاة ..

حين لا يوجد الماء - وكذلك حين يوجد ولكن استعماله يكون ضاراً أو غير مقدور عليه - يغني عن الغسل والوضوء: التيمم. وقد جاء اسمه من نص الآية.

«فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً» .. أي فاقصدوا صعيداً طيباً .. طاهراً .. والصعيد كل ما كان من جنس الأرض من تراب. أو حجر. أو حائط. ولو كان التراب مما على ظهر الدابة. أو في الفراش من ذرات التراب المتطاير. متى كان هناك تراب يتطاير عند ضرب اليدين به.

وطريقة التيمم: إما خبطة واحدة بالكفين على الصعيد الظاهر. ثم نفضهما. ثم مسح الوجه. ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما .. وإما خبطتان: خبطة يمسح بها الوجه، وخبطة يمسح بها الذراعان^{١٢٧} .. ولا

^{١٢٦} - النصوص في القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين محتملة لهذا وذاك فأبي الأخذ بمذنب القولين فلا حرج ولا إثم وهو ممن

اختلاف النوع - راجع كتابي السنة النبوية وأثرها في اختلاف الفقهاء

^{١٢٧} - عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: التَّيَمُّمُ ضَرْبَتَانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ، وَضَرْبَةٌ لِلْكَفَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ " السنن الكبرى للبيهقي - المكثر [١]

[٢٠٧/](١٠٣٥) صحيح

داعي هنا لذكر الخلافات الفقهية الدقيقة فيما وراء هذا .. فهذا الدين يسر، وفي شرعية التيمم يتجلى معنى التيسير واضحا: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا» ..

وهو التعقيب الموحى بالتيسير. وبالعطف على الضعف، وبالمسامحة في القصور. والمغفرة في التقصير .. وقبل أن ننهي الحديث عن هذه الآية وعن هذا الدرس .. نقف أمام بضع لمسات في هذه الآية القصيرة:

نقف أمام «حكمة التيمم». نحاول استيضاح ما ييسره لنا الله من حكمته ..

إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية، يندفعون أحيانا في تحليل هذه الأحكام بصورة توحى بأنهم استقصوا هذه الحكمة فلم يعد وراء ما استقصوه شيء! وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية .. ما لم يكن قد نص على حكمته نصا .. وأولى: أن نقول دائما:

إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم. وأنه قد تكون دائما هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها! وبذلك نضع عقلنا البشري - في مكانه - أمام النصوص والأحكام الإلهية. بدون إفراط ولا تفريط ..

أقول هذا، لأن بعضنا - ومنهم المخلصون - يجنون أن يقدموا النصوص والأحكام الإسلامية للناس، ومعها حكمة محددة، مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم أو مما كشف عنه «العلم الحديث»! وهذا حسن - ولكن في حدود - هي الحدود التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة. وكثيرا ما ذكر عن حكمة الوضوء - قبل الصلاة - أنها النظافة ..

وقد يكون هذا المعنى مقصودا في الوضوء. ولكن الجزم بأنه هو .. وهو دون غيره .. هو المنهج غير السليم. وغير المأمون أيضا: فقد جاء وقت قال بعض المباحكين: لا حاجة بنا إلى هذه الطريقة البدائية: فالنظافة الآن موفورة. والناس يجعلونها في برنامج حياتهم اليومي. فإذا كانت هذه هي «حكمة الوضوء» فلا داعي للوضوء إذن للصلاة! بل .. لا داعي للصلاة أيضا!! وكثيرا ما ذكر عن «حكمة الصلاة» ... تارة أنها حركات رياضية تشغل الجسم كله وتارة بأنها تعويد على النظام: أولا في مواقيتها. وثانيا في حركاتها. وثالثا في نظام الصفوف والإمامة ... إلخ. وتارة أنها الاتصال بالله في الدعاء والقراءة .. وهذا وذاك وذلك قد يكون مقصودا .. ولكن الجزم بأن هذا أو ذاك أو ذلك هو «حكمة الصلاة» يتجاوز المنهج السليم والحد المأمون.

وقد جاء حين من الدهر قال بعضهم فيه: إنه لا حاجة بنا إلى حركات الصلاة الرياضية. فالتدريبات الرياضية المنوعة كفيلا بهذا بعد أن أصبحت الرياضة فنا من الفنون! وقال بعضهم: ولا حاجة بنا إلى الصلاة لتعود النظام. فعندنا الجندية - مجال النظام الأكبر. وفيها غناء! وقال بعضهم: لا حاجة لتحتيم شكل هذه الصلاة. فالإتصال بالله يمكن أن يتم في خلوة ونجوة بعيدا عن حركات الجوارح، التي قد

تعطل الاستشراف الروحي! وهكذا.. إذا رحنا «نحدد» حكمة كل عبادة. وحكمة كل حكم. ونعقله تعليلاً وفق «العقل البشري» أو وفق «العلم الحديث» ثم نجزم بأن هذا هو المقصود.. فإننا نبعد كثيراً عن المنهج السليم في مواجهة نصوص الله وأحكامه. كما نبعد كذلك عن الحد المأمون. ونفتح الباب دائماً للمماحكات. فوق ما تحتمله تعليقاتنا من خطأ جسيم. وبخاصة حين نربطها بالعلم. والعلم قلب لا يثبت على حال. وهو كل يوم في تصحيح وتعديل! وهنا في موضوعنا الحاضر - موضوع التيمم - يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل، ليست هي «بمجرد» النظافة.

وإلا فإن البديل من أحدهما أو من كليهما، لا يحقق هذه «الحكمة»! فلا بد إذن من حكمة «أخرى» للوضوء أو الغسل. تكون متحققة كذلك في «التيمم»..

ولا نريد نحن أن نقع في الغلطة نفسها فنجزم! ولكننا نقول فقط: إنها - ربما - كانت هي الاستعداد النفسي للقاء الله، بعمل ما، يفصل بين شواغل الحياة اليومية العادية، وبين اللقاء العظيم الكريم.. ومن ثم يقوم التيمم - في هذا الجانب - مكان الغسل أو مكان الوضوء..

ويبقى وراء هذا علم الله الكامل الشامل اللطيف بدخائل النفوس، ومنحنياتها ودروبها، التي لا يعلمها إلا اللطيف الخبير.. ويبقى أن نتعلم نحن شيئاً من الأدب مع الجليل العظيم العلي الكبير..

ونقف مرة أخرى أمام حرص المنهج الرباني على الصلاة وعلى إقامتها في وجه جميع الأعداء والمعوقات.

وتذليل هذه المعوقات. والتيسير البادي في إحلال التيمم محل الوضوء، ومحل الغسل، أو محلها معاً، عند تعذر وجود الماء أو عند التضرب بالماء (أو عند الحاجة إلى الماء القليل للشرب وضروريات الحياة) وكذلك عند السفر (حتى مع وجود الماء في أقوال) ..

إن هذا كله يدل - بالإضافة إلى ما سيأتي في السورة من بيان كيفية الصلاة عند الخوف - في ميدان القتال - على حرص شديد من المنهج الرباني، على الصلاة.. بحيث لا ينقطع المسلم عنها لسبب من الأسباب (ويبدو ذلك كذلك في المرض حيث تؤدي الصلاة من قعود، أو من اضطجاع، أو من نوم. وتؤدي بحركات من جفني العين عند ما يشق تحريك الجسم والأطراف!) إنها هذه الصلة بين العبد والرب. الصلة التي لا يجب الله للعبد أن ينقطع عنها. لأنه - سبحانه - يعلم ضرورتها لهذا العبد. فالله سبحانه غني عن العالمين. ولا يناله من عبادة العباد شيء. إلا صلاحهم هم. وإلا ما يجدون في الصلاة والاتصال بالله، من العون على تكاليفهم، والاسترواح لقلوبهم، والاطمئنان لأرواحهم.

والإشراق في كيانهم والشعور بأنهم في كنف الله، وقربه، ورعايته، بالطريقة التي تصلح لفطرتهم.. والله أعلم بفطرتهم هذه، وبما يصلح لها وما يصلحها.. وهو أعلم بمن خلق. وهو اللطيف الخبير.

ونقف كذلك أمام بعض التعبيرات الرائقة في هذا النص القصير :

ذلك حين يعبر عن قضاء الحاجة في الغائط بقوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» .. فلا يقول: إذا عملتم كذا وكذا .. بل يكتفي بالعودة من هذا المكان، كناية عما تم فيه! ومع هذا لا يسند الفعل إلى المخاطبين.

فلا يقول: أو جئتم من الغائط. بل يقول: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» زيادة في أدب الخطاب، ولطف الكناية. ليكون هذا الأدب نموذجاً للبشر حين يتخاطبون! وحين يعبر عما يكون بين الرجل والمرأة بقوله: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» والتعبير باللامسة أرق وأحشم وأرقى - واللامسة قد تكون مقدمة للفعل أو تعبيراً عنه - وعلى أية حال فهو أدب يضربه الله للناس، في الحديث عن مثل هذه الشؤون. عند ما لا يكون هناك مقتض للتعبير المكشوف. وحين يعبر عن الصعيد الطاهر، بأنه الصعيد الطيب. ليشير إلى أن الطاهر طيب. وأن النجس خبيث .. وهو إيجاء لطيف المدخل إلى النفوس .. وسبحان خالق النفوس. العليم بهذه النفوس! ^{١٢٨}



^{١٢٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٠٠)

٢٢. وجوب طاعة الله والرسول

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } (٥٩) سورة النساء

فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِإِطَاعَتِهِ تَعَالَى، وَبِالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ، وَبِإِطَاعَةِ رَسُولِهِ، لِأَنَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ شَرْعَ وَأَوَامِرَهُ، كَمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِإِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ، مِنْ حُكَّامٍ وَأُمَرَاءٍ وَرُؤَسَاءِ جُنْدٍ، مِمَّنْ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجَاتِ، وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، فَهَؤُلَاءِ إِذَا اتَّفَقُوا عَلَى أَمْرٍ وَجَبَ أَنْ يُطَاعُوا فِيهِ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونُوا أُمَّنَاءَ، وَأَنْ لَا يُخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَلَا سُنَّةَ نَبِيِّهِ الَّتِي عُرِفَتْ بِالتَّوَاتُرِ، وَأَنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي بَحْتِهِمْ فِي الْأَمْرِ، وَاتَّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ غَيْرِ مُكْرَهِينَ عَلَيْهِ بِقُوَّةِ أَحَدٍ أَوْ نَفُوذِهِ. وَكُلُّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ فَمِنَ الْوَاجِبِ رَدُّهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، وَيَحْتَكِمَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَحْتَكِمَ إِلَى شَرْعِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَالًا (تَأْوِيلًا)، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُشَرِّعْ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ وَمَنْفَعَتُهُمْ، وَالْإِحْتِكَامُ إِلَى الشَّرْعِ يَمْنَعُ الْإِخْتِلَافَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى التَّنَازُعِ وَالضَّلَالِ. ١٢٩

وفي هذا النص القصير يبين الله - سبحانه - شرط الإيمان وحد الإسلام. في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم، ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا، من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام!

إن «الحاكمية» لله وحده في حياة البشر - ما جل منها وما دق، وما كبر منها وما صغر - والله قد سن شريعة أودعها قرآنه. وأرسل بها رسولا يبينها للناس. ولا ينطق عن الهوى. فسنته - ﷺ - من ثم شريعة من شريعة الله.

والله واجب الطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشريعته واجبة التنفيذ. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله - ابتداء - وأن يطيعوا الرسول - بما له من هذه الصفة. صفة الرسالة من الله - فطاعته إذن من طاعة الله، الذي أرسله بهذه الشريعة، وبيأها للناس في سنته.. وسنته وقضاؤه - على هذا -

١٢٩ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٥٢، بترقيم الشاملة آليا)

جزء من الشريعة واجب النفاذ .. والإيمان يتعلق - وجودا وعدما - بهذه الطاعة وهذا التنفيذ - بنص القرآن: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» .. فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم.

«وَأُولِي الْأَمْرِ .. مِنْكُمْ» .. أي من المؤمنين .. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية .. من طاعة الله وطاعة الرسول وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمة وحق التشريع للناس ابتداء والتلقي منه وحده - فيما نص عليه - والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه. والنص يجعل طاعة الله أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك - بما أنه مرسل منه - ويجعل طاعة أولي الأمر .. منكم .. تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول - ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله - بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه ..

وطاعة أولي الأمر .. منكم .. بعد هذه التقريرات كلها، في حدود المعروف المشروع من الله، والذي لم يرد نص بحرمته ولا يكون من المحرم عند ما يرد إلى مبادئ شريعته، عند الاختلاف فيه .. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة، على وجه الجزم واليقين: في الصحيحين عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ » ١٣٠ .

وعَنْ عَلِيٍّ - رضى الله عنه - قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ - ﷺ - سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَعَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمْرُكُمْ النَّبِيَّ - ﷺ - أَنْ تُطِيعُونِي. قَالُوا بَلَى. قَالَ فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا. فَجَمَعُوا، فَقَالَ أَوْفِدُوا نَارًا. فَأَوْفِدُوهَا، فَقَالَ ادْخُلُوهَا. فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمَسِّكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - مِنَ النَّارِ. فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقَالَ « لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ » ١٣١ .

وأخرج عَنْ يَحْيَى بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ سَمِعْتُ جَدَّتِي تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ - ﷺ - يَخْطُبُ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يَقُولُ « وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا » ١٣٢ .

وعن يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّتَهُ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ بَعْرَفَاتٍ وَهُوَ يَقُولُ: وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: إِنَِّّي لَأَرَى لَهُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ١٣٣ .

١٣٠ - صحيح البخارى - المكنز [٢٣/ ٣٦٣] (٧١٤٤) وأخرجه الجماعة المسند الجامع [١٠/ ١٢٥٩] (٨١٥٩)

١٣١ - صحيح البخارى - المكنز [١٤/ ٢٥٦] (٤٣٤٠) وصحيح مسلم - المكنز [١٢/ ٢٥٥] (٤٨٧١)

١٣٢ - صحيح مسلم - المكنز [١٢/ ٢٤٨] (٤٨٦٤)

١٣٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٨/ ٨٠٩] (٢٧٢٦٩) ٢٧٨١٢ صحيح

فالعبارة هي الحكم بما أنزل الله ليس إلا، ولا قيمة لأي حاكم مهما علا كعبه إذا لم يحكم بما أنزل الله .

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أميناً على شريعة الله وسنة رسوله. أميناً على إيمانه هو ودينه. أميناً على نفسه وعقله. أميناً على مصيره في الدنيا والآخرة.. ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة. والشريعة التي تطاع والسنة التي تتبع واحدة لا تتعدد، ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! ذلك فيما ورد فيه نص صريح. فأما الذي لم يرد فيه نص. وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات - ولا يكون فيه نص قاطع، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق.. مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام - فإنه لم يترك كذلك تيهها. ولم يترك بلا ميزان.

ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع.. ووضع هذا النص القصير، منهج الاجتهاد كله، وحدوده بحدوده وأقام «الأصل» الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضاً.

«فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ».. رده إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمناً. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.. وهذه ليست عائمة، ولا فوضى، ولا هي من المجالات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول. وهناك - في هذا الدين - مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية، وتضع لها سياجاً حرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط. بميزان هذا الدين^{١٣٤}.

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».. تلك الطاعة لله والطاعة للرسول، ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول.. ورد ما يتنازع فيه إلى الله والرسول.. هذه وتلك شرط الإيمان بالله واليوم الآخر. كما أنها مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر.. فلا يوجد الإيمان ابتداءً وهذا الشرط مفقود.. ولا يوجد الإيمان، ثم يتخلف عنه أثره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي، يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب: «ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».. ذلك خير لكم وأحسن مآلاً. خير في الدنيا وخير في الآخرة. وأحسن مآلاً في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة كذلك.. فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضا الله وثواب الآخرة - وهو أمر هائل، عظيم - ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إن هذا المنهج معناه: أن يستمتع «الإنسان». بمزايا منهج يضعه له الله.. الله الصانع الحكيم العليم البصير الخبير.. منهج بريء من جهل الإنسان، وهوى الإنسان، وضعف الإنسان. وشهوة الإنسان

^{١٣٤} - يراجع بتوسع فصل: «الثبات» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

..منهج لا محاباة فيه لفرد، ولا لطبقة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لجيل من البشر على جيل .. لأن الله رب الجميع، ولا تخالجه - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - شهوة المحاباة لفرد، أو طبقة، أو شعب، أو جنس، أو جيل.

ومنهج من مزاياه، أن صانعه هو صانع هذا الإنسان .. الذي يعلم حقيقة فطرته، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، كما يعلم منحنيات نفسه ودروها ووسائل خطاها وإصلاحها، فلا يخط - سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق. ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية، حين يخطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون. فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري. وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون، الذي يعيش فيه الإنسان. فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون فلا يروح يعارك هذه النواميس. بل يروح يتعرف إليها، ويصادقها، وينتفع بها .. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنه - في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه - يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج .. مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة. ثم الاجتهاد في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين .. ذلك إلى المجال الأصيل، الذي يحكمه العقل البشري، ويعلن فيه سيادته الكاملة: ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه ^{١٣٥} ..

«ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» .. وصدق الله العظيم. ^{١٣٦}



^{١٣٥} - يراجع كتاب: «هذا الدين» فصل «منهج متفرد». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{١٣٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٣٣)

٢٣. وجوب أخذ الحذر من الأعداء

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) } سورة النساء

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الْحِذْرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّعَرُّفَ عَلَى أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ، وَمَعْرِفَةَ أَرْضِيهِمْ، وَعَدَدِهِمْ، وَسِلَاحِهِمْ، وَأَحْلَافِهِمْ، وَتَرَوَاتِهِمْ، كَمَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُبَ لَهُمْ، وَإِعْدَادَ الرَّجَالِ لِلْحَرْبِ وَتَدْرِيهِمْ وَتَسْلِيحَهُمْ، وَجَمْعَ السَّلَاحِ وَالْمُونِ وَوَسَائِلِ النَّقْلِ وَالرُّكُوبِ، وَالِاسْتِعْدَادَ لِلتَّنْفِيرِ لِلْقِتَالِ، حِينَمَا يَدْعُو دَاعِيَ الْجِهَادِ، وَالخُرُوجِ جَمَاعَاتٍ مُتَلَحِّقَةً (ثُبَاتٍ)، أَوْ خُرُوجِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ جَمِيعًا، حَسَبَ حَالِ الْعَدُوِّ، وَخَطَرِهِ وَقُوَّتِهِ، وَالْخَطَرَ الَّذِي يَتَهَدَّدُ الْأُمَّةُ .

وَمِنَ النَّاسِ (وَمِنْهُمْ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَبَّائِرُ وَضِعَافُ الْإِيمَانِ) مَنْ يَتَأَخَّرُ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ، وَيَتَبَايَأُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْعُدُ عَنِ الْجِهَادِ، وَيُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ، فَإِنْ أَصَابَتِ الْمُؤْمِنِينَ مُصِيبَةٌ مِنْ قَتْلِ وَشَهَادَةٍ، أَوْ تَغَلَّبَ عَدُوٌّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَرِحَ وَعَدَّ تَخَلُّفَهُ عَنِ الْجِهَادِ نِعْمَةً، إِذْ أَنْجَاهُ تَخَلُّفُهُ مِنَ الْمَصَابِ الَّذِي حَلَّ بِالْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ عَلَى الشَّدَّةِ، وَالشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ .

وَإِذَا أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ نَصْرًا، وَحَقَّقُوا ظَفْرًا، وَفَازُوا بِمَعْنَمٍ، (فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ)، اغْتَمَّ أَلَّا يَكُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُصِيبُهُ سَهْمٌ مِنَ الْعَنِيمَةِ. وَالْعَنِيمَةُ هِيَ أَكْبَرُ هَمِّهِ، وَيَقُولُ، وَكَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ كَمَا فَازُوا، فَهُوَ قَدْ نَسِيَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ، مِنْ مَدِّ يَدِ الْعَوْنِ لِإِخْوَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَدَّلَ كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ بَدْلَهُ مِنْ نَفْسٍ وَمَالٍ، لِيَتِمَّ لَهُمُ الظَّفَرُ .^{١٣٧}

إنها الوصية للذين آمنوا: الوصية من القيادة العليا، التي ترسم لهم المنهج، وتبين لهم الطريق. وإن الإنسان ليعجب، وهو يراجع القرآن الكريم فيجد هذا الكتاب يرسم للمسلمين - بصفة عامة طبعاً - الخطة العامة للمعركة وهي ما يعرف باسم «استراتيجية المعركة». ففي الآية الأخرى يقول للذين آمنوا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً». فيرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية. وفي هذه الآية يقول للذين آمنوا: «خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا» وهي تبين ناحية من الخطة التنفيذية أو ما يسمى «التاكتيك». وفي سورة الأنفال جوانب كذلك في الآيات: «فَإِمَّا تَقَفْنَا فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْعُرُونَ... الآيات».

^{١٣٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب - كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين! إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة. ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملاسبات واقعية.. ومن ثم يطلب - بحق - الوصاية التامة على الحياة البشرية ولا يقبل من الفرد المسلم ولا من المجتمع المسلم، أقل من أن تكون حياته بجملتها من صنع هذا المنهج، وتحت تصرفه وتوجيهه. وعلى وجه التحديد لا يقبل من الفرد المسلم، ولا من المجتمع المسلم أن يجعل لحياته مناهج متعددة المصادر: منهجا للحياة الشخصية، وللشعائر والعبادات، والأخلاق والآداب، مستمدا من كتاب الله. ومنهجا للمعاملات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدولية، مستمدا من كتاب أحد آخر أو من تفكير بشري على الإطلاق!

إن مهمة التفكير البشري أن تستنبط من كتاب الله منهجه أحكاما تفصيلية تطبيقية لأحداث الحياة المتجددة، وأقضيتها المتطورة - بالطريقة التي رسمها الله في الدرس السابق من هذه السورة - ولا شيء وراء ذلك. وإلا فلا إيمان أصلا ولا إسلام. لا إيمان ابتداء ولا إسلام، لأن الذين يفعلون ذلك لم يدخلوا بعد في الإيمان، ولم يعترفوا بعد بأركان الإسلام. وفي أولها: شهادة أن لا إله إلا الله، التي ينشأ منها أن لا حاكم إلا الله، وأن لا مشرع إلا الله.

وها هو ذا كتاب الله يرسم للمسلمين جانبا من الخطة التنفيذية للمعركة المناسبة لموقفهم حينذاك. ولو جودهم بين العداوات الكثيرة في الخارج. والمنافقين وحلفائهم اليهود في الداخل. وهو يحذرهم ابتداء: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ».. خذوا حذركم من عدوكم جميعا. وبخاصة المندسين في الصفوف من المبطلين، الذين سيرد ذكرهم في الآية: «فَأَنْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا».. ثبات. جميع ثبة: أي مجموعة.. والمقصود لا تخرجوا للجهاد فرادى. ولكن اخرجوا مجموعات صغيرة، أو الجيش كله.. حسب طبيعة المعركة.. ذلك أن الأحاد قد يتصيدهم الأعداء، المبتوثون في كل مكان. وبخاصة إذا كان هؤلاء الأعداء منبئين في قلب المعسكر الإسلامي.. وهم كانوا كذلك، ممثلين في المنافقين، وفي اليهود، في قلب المدينة.

« وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ. فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا. وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ - كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ - يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا»..

انفروا جماعات نظامية. أو انفروا جميعا. ولا ينفر بعضكم ويتناقل بعضكم - كما هو واقع - وخذوا حذركم. لا من العدو الخارجي وحده ولكن كذلك من المعوقين المبطلين المخذلين سواء كانوا يبطلون أنفسهم - أي يقعدون متناقلين - أو يبطلون غيرهم معهم وهو الذي يقع عادة من المخذلين المبطلين! ولفظة «ليبطلن» مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها، حتى يأتي على آخرها، وهو يشدها شدا وإنما لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر

والتناقل في جرسها. وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن، الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة^{١٣٨}.

وكذلك يشي تركيب الجملة كلها: «وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لُيَبِّطُنَّ»، بأن هؤلاء المبطين - وهم معدودون من المسلمين - «منكم» يزاولون عملية التبطة كاملة، ويصرون عليها إصرارا، ويجتهدون فيها اجتهادا.. وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة! مما يوحي بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطة، وشدة أثرها في الصف المسلم وشدة ما يلقاه منها! ومن ثم يسלט السياق الأضواء الكاشفة عليهم، وعلى دخيلة نفوسهم ويرسم حقيقتهم المنفرة، على طريقة القرآن التصويرية العجيبة:

فها هم أولاء، بكل بواعتهم، وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم.. هاهم أولاء مكشوفين للأعين، كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر، يكشف النوايا والسرائر ويكشف البواعث والدوافع.

ها هم أولاء - كما كانوا على عهد الرسول - ﷺ - وكما يكونون في كل زمان وكل مكان. هاهم أولاء. ضعافا منافقين ملتوين صغار الاهتمامات أيضا: لا يعرفون غاية أعلى من صالحهم الشخصي المباشر، ولا أفقا أعلى من ذواتهم المحدودة الصغيرة. فهم يديرون الدنيا كلها على محور واحد. وهم هم هذا المحور الذي لا ينسونه لحظة! إنهم يبطنون ويتلكأون، ولا يصارحون، ليمسكوا العصا من وسطها كما يقال! وتصورهم للربح والخسارة هو التصور الذي يليق بالمنافقين الضعاف الصغار:

يتخلفون عن المعركة.. فإن أصابت المجاهدين محنة، وابتلوا الابتلاء الذي يصيب المجاهدين - في بعض الأحيان - فرح المتخلفون وحسبوا أن فرارهم من الجهاد، ونجاتهم من الابتلاء نعمة: «فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا»..

إنهم لا يحجلون - وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة - أن ينسبوا لله. الله الذي خالفوا عن أمره فقعدوا! والنجاة في هذه الملابس لا تكون من نعمة الله أبدا. فنعمة الله لا تنال بالمخالفة. ولو كان ظاهرها نجاة! إنها نعمة! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله. عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله. ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة. نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطن الأقدام في هذه الأرض.. كالنمل.. نعمة عند من لا يحسون أن البلاء - في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله - هو فضل واختيار من الله، يختص به من يشاء من عباده ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري، ويطلقهم من إفساد الأرض يستشرفون حياة رفيعة، يملكونها ولا تملكهم. وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة.. في منازل الشهداء

^{١٣٨} - يراجع فصل «التناسق الفني» في كتاب: «التصوير الفني في القرآن». «دار الشروق» (السيد رحمه الله)

إن الناس كلهم يموتون! ولكن الشهداء - في سبيل الله - هم وحدهم الذين «يستشهدون».. وهذا فضل من الله عظيم.

فأما إذا كانت الأخرى.. فانتصر المجاهدون الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله.. وناولهم فضل من الله بالنصر والغنيمة.. ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة رابحة! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة!

«وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فِضْلٌ مِنَ اللَّهِ، لَيَقُولَنَّ - كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ - يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا». إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب، هي التي يقولون عنها: «فوزا عظيما» والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة بل مطلوب منه أن يرجوه من الله. والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية.. ولكن التصور الكلي للمؤمن غير هذا التصور، الذي يرسمه التعبير القرآني لهذه الفئة ربما مستنكرا منفرا..

إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية. ولكنه إذا ندب للجهاد خرج - غير متناقل - خرج يسأل الله إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة.. وكلاهما فضل من الله وكلاهما فوز عظيم. فيقسم له الله الشهادة، فإذا هو راض بما قسم الله أو فرح بمقام الشهادة عند الله. ويقسم له الله الغنيمة والإياب، فيشكر الله على فضله، ويفرح بنصر الله. لا مجرد النجاة! وهذا هو الأفق الذي أراد الله أن يرفع المسلمين إليه وهو يرسم لهم هذه الصورة المنفرة لذلك الفريق «منهم» وهو يكشف لهم عن المندسين في الصف من المعوقين، ليأخذوا منهم حذرهم كما يأخذون حذرهم من أعدائهم! ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان، يرتسم نموذج إنساني متكرر في بني الإنسان، في كل زمان ومكان، في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن! ثم تبقى هذه الحقيقة تتعلاها الجماعة المسلمة أبدا. وهي أن الصف قد يوجد فيه أمثال هؤلاء. فلا يئس من نفسه. ولكن يأخذ حذره ويمضي. ويحاول بالتربية والتوجيه والجهاد، أن يكمل النقص، ويعالج الضعف، وينسق الخطى والمشاعر والحركات! ^{١٣٩}



^{١٣٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٥٤)

٢٤. لا يجوز قتل من أسلم أثناء القتال

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (٩٤) سورة النساء

يُنَبِّهُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ضَرْبِ آخَرَ مِنْ ضُرُوبِ الْقَتْلِ خَطَأً، كَأَن يَحْصَلَ أَثْنَاءَ سَفَرٍ، أَوْ غَزْوٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى أَرْضِ الْمُشْرِكِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ انْتَشَرَ فِي أَمَاكِنَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يُحَاوِلُونَ الْإِصْطِلَ بِإِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ لَا يَحْسَبُوا كُلَّ مَنْ وَجَدُوهُ، فِي أَرْضِ الْكُفْرِ كَافِرًا، وَأَنْ يَتَرَيَّنُوا فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ حَتَّى يَفْحَصُوا أَمْرَهُ وَيَتَبَيَّنُوهُ .

وَيَقُولُ تَعَالَى: إِذَا كُنْتُمْ تُجَاهِدُونَ فِي أَرْضِ الْأَعْدَاءِ فَتَبَيَّنُوا، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ، وَيُظْهِرُ لَكُمْ إِسْلَامَهُ، لَسْتَ مُسْلِمًا، وَتَقْتُلُونَهُ رَغْبَةً مِنْكُمْ فِي الْاِسْتِحْوَاذِ عَلَى الْمَعْتَمِ مِنْهُ، فَعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ، وَأُظْهِرَ لَكُمْ الْإِيمَانَ، فَتَغَافَلْتُمْ عَنْهُ وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمُصَانَعَةِ وَالتَّغْيِيبِ لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرِّزْقِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالٍ هَذَا. وَقَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ، فِي مِثْلِ حَالِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُسِرُّ إِسْلَامَهُ، وَيُخْفِيهِ عَنِ قَوْمِهِ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالْعَزِّ وَالتَّصَرُّ، وَهَدَاكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْبُوعَاثِ الَّتِي حَفَزَتْكُمْ عَلَى فِعْلِ مَا فَعَلْتُمُوهُ .^{١٤٠}

وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآية:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ غَنَمٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ، فَعَدُوا عَلَيْهِ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوْا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا } [النساء]، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. ^{١٤١}

وَعَنِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَدَرْدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَدَرْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِصْمَ، فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعِيٍّ، وَمُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِيَطْنِ إِصْمَ مَرَّ بِنَا عَامِرُ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ، لَهُ مَعَهُ مُتَبِّعٌ وَوَطْبٌ مِنْ لَبْنٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِنَا، سَلَّمَ عَلَيْنَا، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ، فَقَتَلَهُ بِشَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتَبِّعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، نَزَلَ فِيْنَا الْقُرْآنُ: { يَا أَيُّهَا

^{١٤٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٨٧، بترقيم الشاملة آليا)

^{١٤١} - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١١ / ٥٩] (٤٧٥٢) صحيح

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا { ١٤٢ .

وعن سعيد بن جبير، قال: خرج المقداد بن الأسود في سرية، فمروا برجل في غنيمة له، فأرادوا قتله، فقال: لا إله إلا الله، فقال المقداد: ودَّ لو فرَّ بأهله وماله، قال: فلما قدموا، ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } قال: الغنيمة، { فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل } قال: تكتمون إيمانكم من المشركين، { فمن الله عليكم } فأظهر الإسلام، { فتبينوا } وعيدا من الله، { إن الله كان بما تعملون خبيرا } . { ١٤٣ .

وعن أبي ظبيان، قال: سمعت أسامة بن زيد، يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا، ورجل من الأنصار رجلا منهم، فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي فقتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: يا أسامة قتلته، بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنما قال متعوذا، فقال: طعنته بعدما قال لا إله إلا الله؟ فما زال يكررها، حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. { ١٤٤ .

ومن ثم نزلت الآية، تخرج على مثل هذا التصرف وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمة أو تسرع في الحكم .. وكلاهما يكرهه الإسلام.

إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين في حساب إذا خرجوا يجاهدون في سبيل الله. إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه .. وكذلك التسرع بإهدار دم قبل التبين. وقد يكون دم مسلم عزيز، لا يجوز أن يراق.

والله سبحانه يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة وما كان فيها من طمع في الغنيمة. ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم، فلم يعودوا يغزوا ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم. ويمن عليهم أن شرع لهم حدودا وجعل لهم نظاما فلا تكون الهيجة الأولى هي الحكم الآخر.

كما كانوا في جاهليتهم كذلك .. وقد يتضمن النص إشارة إلى أنهم هم كذلك كانوا يخفون إسلامهم - على قومهم - من الضعف والخوف، فلا يظهره إلا عند الأمن مع المسلمين، وأن ذلك الرجل

١٤٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٩١٢] (٢٣٨٨١) (٢٤٣٧٨) حسن

١٤٣ - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبله [١٤/ ٥٨٠] (٢٩٥٤٣) فيه انقطاع

١٤٤ - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١١/ ٥٧] (٤٧٥١) صحيح - الروايات من عندي أشار إليها السيد رحمه الله فقط

القتيل كان يخفي إسلامه على قومه، فلما لقي المسلمين أظهر لهم إسلامه وأقرأهم سلام المسلمين. «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ. فَمَنْ اللَّهُ عَلَيكُمْ. فَتَبَيَّنُوا. إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا».

وهكذا يلمس المنهج القرآني القلوب لتتحيا وتتخرج وتتذكر نعمة الله.. وعلى هذه الحساسية والتقوى، يقيم الشرائع والأحكام بعد بيانها وإيضاحها.

وهكذا يتناول هذا الدرس تلك الجوانب من قواعد المعاملات الدولية بمثل هذا الوضوح، ومثل هذه النظافة. منذ أربعة عشر قرناً..^{١٤٥}



^{١٤٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٠٩٦)

٢٥. وجوب العدل في الشهادة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } (سورة النساء ١٣٥)

العدل هو نظام الوجود، ولذلك أمر الله المؤمنين بأن يجعلوا العناية بإقامة العدل، على وجهه الصحيح، صفة ثابتة لهم، راسخة في نفوسهم (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ).

والعدل كما يكون في الحكم بين الناس، يكون أيضاً في العمل: كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد، في النفقة، والمساواة بينهم. ويأمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا شهداء لله، بأن يتحرروا الحق الذي يرضاه الله، ويأمر به، من غير مراعاة لأحد، ولا محاباة له، ولو كانت الشهادة على نفس الإنسان، بأن ثبت بها الحق عليه (وَمَنْ أَقْرَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِحَقِّ شَهِدٍ عَلَيْهَا) أَوْ عَلَىٰ وَالِدَيْهِ الْإِنْسَانِ، أَوْ عَلَىٰ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، إِذْ لَيْسَ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَلَا مِنْ صِلَةِ الرَّحْمِ، أَنْ يُعَانُوا عَلَىٰ أَكْلِ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ حَقٌّ، بَلِ الْبِرُّ وَالصَّلَةُ فِي الْحَقِّ وَالْمَعْرُوفِ .

ويوصي الله تعالى المؤمنين بالترام العدل في الشهادة، وإن كان المشهود عليه من الأقارب، سواء أكان فقيراً أو غنياً، فإن الله تعالى أولى به، وشرعه أحق بأن يتبع فيه، فحذار أن تحابوا غنياً طمعاً في بره، أو خوفاً من سطوته، وحذار أن تحابوا فقيراً عطفاً عليه، أو شفقة به فمرضاة المشهود عليه ليست خيراً لكم ولا له من مرضاة الله، فلا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل .

ويأمر الله تعالى المؤمنين أن لا يحرفوا الشهادة ولا يعمدوا الكذب فيها، وأن لا يعرضوا عن أدائها إذا ما دعوا إلى الشهادة، ويخبرهم الله تعالى بأنه لا تخفى عليه خافية من تصرفات العباد، فلا يخفى عليه قصدهم، وأنه مجازيهم بما يعملون.^{١٤٦}

إنه نداء للذين آمنوا. نداء لهم بصفاتهم الجديدة. وهي صفتهم الفريدة. صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرى وولدوا ميلادا آخر. ولدت أرواحهم، وولدت تصوراتهم، وولدت مبادئهم وأهدافهم، وولدت معهم المهمة الجديدة التي تناط بهم، والأمانة العظيمة التي وكلت إليهم .. أمانة القوامة على البشرية، والحكم بين الناس بالعدل .. ومن ثم كان للنداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه: «يا أيها الذين آمنوا ...» فبسبب من اتصافهم بهذه الصفة، كان التكليف بهذه الأمانة الكبرى. وبسبب من اتصافهم بهذه الصفة كان التهيؤ والاستعداد للنهوض بهذه الأمانة الكبرى ..

^{١٤٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٢٨، بترقيم الشاملة آليا)

وهي لمسة من لمسات المنهج التربوي الحكيم تسبق التكليف الشاق الثقيل: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ - وَكُونُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ. إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا»

..

إنها أمانة القيام بالقسط .. بالقسط على إطلاقه. في كل حال وفي كل مجال. القسط الذي يمنع البغي والظلم - في الأرض - والذي يكفل العدل - بين الناس - والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين .. ففي هذا الحق يتساوى عند الله المؤمنون وغير المؤمنين - كما رأينا في قصة اليهودي - ويتساوى الأقارب والأبعد. ويتساوى الأصدقاء والأعداء. ويتساوى الأغنياء والفقراء .. «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ» .. حسبة لله. وتعاملا مباشرا معه. لا لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم. ولا لمصلحة فرد أو جماعة أو أمة. ولا تعاملا مع الملابس المحيطة بأي عنصر من عناصر القضية. ولكن شهادة لله، وتعاملا مع الله. وتجردا من كل ميل، ومن كل هوى، ومن كل مصلحة، ومن كل اعتبار. «وَكُونُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ» ..

وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها، تجاه ذاتها أولا، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيا .. وهي محاولة شاقة .. أشق كثيرا من نطقها باللسان، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل .. إن مزاولتها عمليا شيء آخر غير إدراكها عقليا. ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعا .. ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة. لأنها لا بد أن توجد. لا بد أن توجد في الأرض هذه القاعدة. ولا بد أن يقيمها ناس من البشر.

ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيرا، تشفق النفس من شهادة الحق ضده، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه. أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية. وحين يكون المشهود له أو عليه غنيا تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته. أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده! وهي مشاعر فطرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع .. والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندتها تجاه حب الذات، وحب الوالدين والأقربين.

«إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» .. وهي محاولة شاقة .. ولا نفتأ نكرر أنها محاولة شاقة .. وأن الإسلام حين دفع نفوس المؤمنين - في عالم الواقع - إلى هذه الذروة، التي تشهد بها تجارب الواقع التي وعها التاريخ - كان ينشئ معجزة حقيقية في عالم البشرية. معجزة لا تقع إلا في ظل هذا المنهج الإلهي العظيم القويم. «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا» .. والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها .. حب الذات هوى. وحب الأهل والأقربين هوى. والعطف على الفقير - في موطن الشهادة والحكم - هوى. ومعاملة الغني هوى. ومضارته هوى. والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن - في

موضع الشهادة والحكم - هوى. وكرهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين - في موطن الشهادة والحكم - هوى .. وأهواء شتى الصنوف والألوان .. كلها مما ينهاى الله الذين آمنوا عن التأثر بها، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها.

وأخيرا يجيء التهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشهادة، والإعراض عن هذا التوجيه فيها .. «وَأِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» .. ويكفي أن يتذكر المؤمن أن الله خبير بما يعمل، ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير، يرتجف له كيانه ..

فقد كان الله يخاطب بهذا القرآن المؤمنين!

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَاتَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ حَتَّى أَلْجَأَهُمْ إِلَى قَصْرِهِمْ فَغَلَبَ عَلَى الْأَرْضِ، وَالزَّرْعِ، وَالنَّخْلِ، فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يُجْلُوا مِنْهَا وَلَهُمْ مَا حَمَلَتْ رِكَابُهُمْ، وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَكْتُمُوا وَلَا يُغَيَّبُوا شَيْئًا، فَإِنْ فَعَلُوا، فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا عَصْمَةَ، فَعَيَّبُوا مَسْكًَا فِيهِ مَالٌ وَحُلِيٌّ لِحَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، كَانَ احْتَمَلَهُ مَعَهُ إِلَى خَيْبَرَ، حِينَ أُجْلِيَتِ النَّضِيرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّ حَيٍّ: مَا فَعَلَ مَسْكَ حَيٍّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنَ النَّضِيرِ؟ فَقَالَ: أَذْهَبَتْهُ النَّفَقَاتُ وَالْحُرُوبُ فَقَالَ ﷺ: الْعَهْدُ قَرِيبٌ وَالْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِلَى الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَمَسَّهُ بِعَذَابٍ، وَقَدْ كَانَ حَيٌّ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ دَخَلَ خَرْبَةً، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ حَيًّا يَطُوفُ فِي خَرْبَةٍ هَاهُنَا، فَذَهَبُوا فَطَافُوا، فَوَجَدُوا الْمَسْكَ فِي خَرْبَةٍ فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَ أَبِي حَفِيْقٍ وَأَحَدَهُمَا زَوْجَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حَيٍّ بْنِ أَخْطَبَ، وَسَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَهُمْ، وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ لِلنَّكَتِ الَّذِي نَكَّتُوهُ، وَأَرَادَ أَنْ يُجْلِيَهُمْ مِنْهَا، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ دَعْنَا نَكُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ نُصَلِّحُهَا، وَتَقُومُ عَلَيْهَا وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا لِأَصْحَابِهِ غُلْمَانُ يَقُومُونَ عَلَيْهَا فَكَانُوا لَا يَتَفَرَّغُونَ أَنْ يَقُومُوا، فَأَعْطَاهُمْ خَيْبَرَ عَلَى أَنْ لَهُمُ الشَّطْرُ مِنْ كُلِّ زَرْعٍ وَنَخْلٍ وَشَيْءٍ مَا بَدَأَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَأْتِيَهُمْ كُلَّ عَامٍ يَخْرِصُهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يُضَمِّنُهُمُ الشَّطْرَ، قَالَ: فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِدَّةَ خَرْصِهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ، فَقَالَ: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ أَتَطْعَمُونِي السُّحْتَ، وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ عَدَنَتِكُمْ مِنَ الْقَرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بَعْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ. قَالَ: وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعِيْنِي صَفِيَّةَ خُضْرَةَ، فَقَالَ: يَا صَفِيَّةُ مَا هَذِهِ الْخُضْرَةُ؟ فَقَالَتْ: كَانَ رَأْسِي فِي حِجْرِ بْنِ أَبِي حَفِيْقٍ وَأَنَا نَائِمَةٌ، فَرَأَيْتُ كَأَنَّ قَمْرًا وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَلَطَمَنِي، وَقَالَ: تَمَنِّيَنَ مَلِكٌ يَتْرَبُ؟ قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْغَضِ النَّاسِ إِلَيَّ قَتَلَ زَوْجِي وَأَبِي وَأَخِي، فَمَا زَالَ يَعْتَدِرُ إِلَيَّ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكَ أَلْبَ عَلِيَّ الْعَرَبِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِي كُلَّ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ ثَمَانِينَ وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ كُلَّ عَامٍ وَعِشْرِينَ وَسَقًا مِنْ شَعِيرٍ. فَلَمَّا كَانَ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، غَشَّتْهُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلْقَوْا ابْنَ عُمَرَ مِنْ فَوْقِ بَيْتٍ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَنْ كَانَ لَهُ سَهْمٌ مِنْ خَيْبَرَ، فَلْيَحْضُرْ حَتَّى نَقْسِمَهَا بَيْنَهُمْ، فَقَسَمَهَا

عُمَرُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُخْرِجْنَا دَعْنَا نَكُونَ فِيهَا كَمَا أَقْرَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ عُمَرُ لِرَئِيسِهِمْ: أَتَرَاهُ سَقَطَ عَنِّي قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ: كَيْفَ بِكَ إِذَا أَفْضَتْ بِكَ رَاحِلَتُكَ نَحْوَ الشَّامِ يَوْمًا ثُمَّ يَوْمًا وَقَسَمَهَا عُمَرُ بَيْنَ مَنْ كَانَ شَهِدَ حَيِّبٍ مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَّةِ. ١٤٧

لقد كان - رضي الله عنه - قد تخرج في مدرسة الرسول - ﷺ - على المنهج الرباني المنفرد.

وكان إنسانا من البشر خاض هذه التجربة الشاقة ونجح وحقق - كما حقق الكثيرون غيره في ظل ذلك المنهج - تلك المعجزة التي لا تقع إلا في ظل ذلك المنهج!

ولقد مضت القرون تلو القرون بعد تلك الفترة العجيبة وحفلت المكتبات بكتب الفقه والقانون وحفلت الحياة بالتنظيمات والتشكيلات القضائية وضبط الإجراءات والشكليات التنظيمية. وامتلات الرؤوس بالكلام عن العدالة وامتلات الأفواه بالحديث عن إجراءاتها الطويلة.. ووجدت نظريات وهيئات وتشكيلات منوعة لضبط هذا كله..

ولكن التذوق الحقيقي لمعنى العدالة والتحقق الواقعي لهذا المعنى في ضمائر الناس وفي حياتهم والوصول إلى هذه الذروة السامقة الوضيئة.. لم يقع إلا في ذلك المنهج.. في تلك الفترة العجيبة في ذروة القمة.. وبعدها على مدار التاريخ في الأرض التي قام فيها الإسلام. وفي القلوب التي عمرت بهذه العقيدة. وفي الجماعات والأفراد التي تخرجت على هذا المنهج الفريد.

وهذه حقيقة ينبغي أن يتنبه إليها الذين يؤخذون بالتشكيلات القضائية التي جددت وبالإجراءات القضائية التي استحدثت وبالأنظمة والأوضاع القضائية التي تمت وتعدت. فيحسبون أن هذا كله أقمن بتحقيق العدالة وأضمن مما كان في تلك الإجراءات البسيطة في تلك الفترة الفريدة! في تلك القرون البعيدة! وأن الأمور اليوم أضبط وأحكم مما كانت على صورتها البسيطة! هذا وهم تنشئه الأشكال والأحجام في تصورات من لا يدركون حقائق الأشياء والأوضاع.. إن المنهج الرباني وحده هو الذي يبلغ بالناس ما بلغ على بساطة الأشكال وبساطة الأوضاع.. وهو وحده الذي يمكن أن يبلغ بالناس هذا المستوي على ما استحدثت من الأشكال والأوضاع! وليس معنى هذا أن نلغي التنظيمات القضائية الجديدة. ولكن معناه أن نعرف أن القيمة ليست للتنظيمات. ولكن للروح التي وراءها. أيا كان شكلها وحجمها وزمانها ومكانها.. والفضل للأفضل بغض النظر عن الزمان والمكان!!! ١٤٨



١٤٧ - صحيح ابن حبان - (١١ / ٦٠٧) (٥١٩٩) صحيح - الحديث أورده السيد رحمه الله مختصرا

١٤٨ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١١٤٥)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } (١٣٦)

سورة النساء

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِرَسُولِهِ الْكَرِيمِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَبِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ (وَهُوَ الْقُرْآنُ)، وَبِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَهَا اللَّهُ مِنْ قَبْلُ، عَلَى رَسُولِهِ وَأَنْبِيَائِهِ الْكَرَامِ، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ عَوَاقِبِ الْكُفْرِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يَكُنْ قَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، وَبَعْدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبُعْدِ .^{١٤٩}

إنه النداء الثاني للذين آمنوا. بصفتهم هذه التي تفردهم من الجاهلية حولهم. وتحدد وظيفتهم وتكاليفهم. وتصلهم بالمصدر الذي يستمدون منه القوة والعون على هذه التكاليف! «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ، وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ» ..

فهو بيان لعناصر الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا. بيان للتصور الإسلامي الاعتقادي:

فهو إيمان بالله ورسوله. يصل قلوب المؤمنين برهم الذي خلقهم، وأرسل إليهم من يهديهم إليه، وهو الرسول - ﷺ - وإيمان برسالة الرسول وتصديقه في كل ما ينقله لهم عن ربه الذي أرسله.

وهو إيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله. يربطهم بالمنهج الذي اختاره الله لحياتهم وبينه لهم في هذا الكتاب والأخذ بكل ما فيه، بما أن مصدره واحد، وطريقه واحد وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقي والقبول والطاعة والتنفيذ.

وهو إيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل.. بما أن مصدر الكتب كلها واحد هو الله وأساسها كذلك واحد هو إسلام الوجه لله وإفراد الله سبحانه بالألوهية - بكل خصائصها - والإقرار بأن منهج الله وحده هو الذي تجب طاعته وتنفيذه في الحياة.. وهذه الوحدة هي المقتضى الطبيعي البديهي لكون هذه الكتب - قبل تحريفها - صادرة كلها عن الله. ومنهج الله واحد، وإرادته بالبشر واحدة، وسبيله واحد، تتفرق السبل من حولها وهي مستقيمة إليه واصله.

والإيمان بالكتاب كله - بوصف أن الكتب كلها كتاب واحد في الحقيقة - هو السمة التي تنفرد بها هذه الأمة المسلمة. لأن تصورهما لربها الواحد، ومنهجها الواحد، وطريقه الواحد، هو التصور الذي يستقيم مع حقيقة الألوهية. ويستقيم مع وحدة البشرية. ويستقيم مع وحدة الحق الذي لا يتعدد.. والذي ليس وراءه إلا الضلال «فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟».

^{١٤٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

وبعد الأمر بالإيمان، يجيء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان، مع التفصيل فيها في موضع البيان قبل العقاب: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» .. وقد ذكر في الأمر الأول الإيمان بالله وكتبه ورسله. ولم يذكر الملائكة. وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر. ولكنه يبرزها هنا، لأنه موطن الوعيد والتهديد، الذي يبين فيه كل عنصر على التحديد. والتعبير بالضلال البعيد غالباً يحمل معنى الإبعاد في الضلال، الذي لا يرجى معه هدى ولا يرتقب بعده مآب! والذي يكفر بالله الذي تؤمن به الفطرة في أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعي فيها، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، استمدادا من كفره بالحقيقة الأولى.. الذي يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب، الحد الذي لا يرجى معه هدى ولا يرتقب بعده مآب! ^{١٥٠}



^{١٥٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١١٤٨)

٢٧. تحريم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } (١٤٤) سورة النساء
يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ، مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يُصَاحِبُونَهُمْ وَيُصَادِقُونَهُمْ، وَيُنَاصِحُونَهُمْ، وَيُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ، وَيُفْشُونَ إِلَيْهِمْ أَحْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةَ .
وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ جَعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةً بَيِّنَةً وَعُدْرًا فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاهُمْ. (وَالْمُرَادُ هُنَا النُّصْرَةُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ ضَرَرٌ الْمُسْلِمِينَ)^{١٥١} .

إنها العودة إلى نداء الذين آمنوا، بالصفة التي تفرقهم وتميزهم ممن حولهم. والتي بها يتميز منهجهم وسلوكهم وواقعهم. والتي بها يستجيبون للنداء كذلك ويطيعون التوجيهات.

نداء لهم بهذه الصفة أن يحذروا سلوك طريق المنافقين، ويحذروا أن يتولوا الكفار من دون المؤمنين .. وهو نداء لا بد كانت هناك حاجة إليه في المجتمع المسلم يومذاك. حيث كانت الصلوات ما تزال قائمة في المجتمع بين بعض المسلمين واليهود في المدينة وبين بعض المسلمين وقرابتهم في قريش - ولو من الناحية النفسية - ونقول «بعض المسلمين» لأن هناك البعض الآخر الذي فصم كل علاقاته بالمجتمع الجاهلي - حتى مع الآباء والأبناء - وجعل العقيدة وحدها هي آصرة التجمع ووشيجة الرحم كما علمهم الله.

وذلك البعض هو الذي كانت الحاجة قائمة لتنبهه إلى أن هذا هو طريق النفاق والمنافقين - بعد تصوير النفاق والمنافقين تلك الصور الزرية المنفرة البغيضة - وتحذيره من التعرض لغضب الله وبطشه ونقمته: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا؟» ولا يفرق قلب المؤمن ويرتجف أكثر من فرقه وارتجافه من التعرض لبطش الله ونقمته .. ومن ثم جاء التعبير في صورة الاستفهام .. وبمجرد التلويح بالاستفهام يكفي في خطاب قلوب المؤمنين! وطريقة أخرى عالية على هذه القلوب. غير موجهة إليها مباشرة. ولكن عن طريق التلويح .. طريقة تقرر المصير الرعيب المفزع المهين للمنافقين: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا». في الدرك الأسفل .. إنه مصير يتفق مع ثقل الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون. ثقله المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور! الثقل التي تمبط بهم إلى موالة الكافرين ومداراة المؤمنين. والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين: «مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ. لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ». فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاوون تهية

^{١٥١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٣٧، بترقيم الشاملة آليا)

أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين «فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» .. بلا أعوان هنالك ولا أنصار .. وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا، فأنى ينصرهم الكفار؟

ثم يفتح لهم - بعد هذا المشهد المفزع - باب النجاة .. باب التوبة لمن أراد النجاة: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا، وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ، وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ، فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ. وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا» .. وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول: «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا» .. فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام باللَّهِ، وإخلاص الدين لله. ولكنه هنا ينص على الاعتصام باللَّهِ، وإخلاص الدين لله. لأنه يواجه نفوسا تذبذبت، ونافقت، وتولت غير الله. فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح، على التجرد لله، والاعتصام به وحده وإخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة .. ليكون في الاعتصام باللَّهِ وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد ..

بذلك تخف تلك الثقلة التي تمهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتمهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار. وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده. المستعلين بالإيمان. المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان .. وجزاء المؤمنين - ومن معهم - معروف: «وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا».

وبهذه اللمسات المنوعة، يكشف حقيقة المنافقين في المجتمع المسلم، ويقلل من شأنهم وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق، ويحذرهم مصيره. ويفتح باب التوبة للمنافقين ليحاول من فيه منهم خير، أن يخلص نفسه، وينضم إلى الصف المسلم في صدق وفي حرارة وفي إخلاص ..^{١٥٢}



^{١٥٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١١٥٦)

٢٨. وجوب الوفاء بالعقود

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } (١) سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَرْتَمُوا الْوَفَاءَ بِجَمِيعِ الْعُهُودِ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَالْعُهُودِ الْمَشْرُوعَةِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّاسِ، (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْعُقُودِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هِيَ عُهُودُ اللَّهِ الَّتِي عَاهَدَ بِهَا إِلَى عِبَادِهِ، أَيُّ مَا أَحَلَّ وَمَا حَرَّمَ، وَمَا فَرَضَ وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ فَلَا عُدْرَ وَلَا نَكْثَ) .

فَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بِمَا عَقَدُوهُ، وَارْتَبَطُوا بِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى، مَا لَمْ يَكُنْ يُحَرِّمُ حَلَالًا، أَوْ يُحَلِّلُ حَرَامًا: كَالْعَقْدِ عَلَى الرَّبَا، أَوْ أَكْلِ مَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (كَالرَّشْوَةِ وَالْقِمَارِ) .

ثُمَّ فَصَّلَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَحْكَامَ الَّتِي أَمَرَ بِهَا فَقَالَ: إِنَّهُ أَحَلَّ لِلنَّاسِ أَكْلَ الْبَهِيمَةِ مِنَ الْأَنْعَامِ (وَهِيَ الْبَقَرُ وَالْإِبِلُ وَالْمَاعِزُ وَالْغَنَمُ وَالْحَقَبِيهَا الضَّبَاءُ وَبَقَرُ الْوَحْشِ وَنَحْوُهَا)، إِلَّا مَا سَيُتْلَى عَلَيْهِمْ مِنْ تَحْرِيمٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخِتْرِ { وَعَلَى أَنْ لَا يُحْلَلُوا صَيْدَ الْحَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ، حِينَمَا يَكُونُوا مُحْرَمِينَ لِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ .

وَاللَّهُ حَلَّ ثَنَاؤُهُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ، بِحَسَبِ الْحِكْمِ وَالْمَصَالِحِ الَّتِي يَعْلَمُهَا .
العُقُودُ - كُلُّ مَا تَعَاهَدَ عَلَيْهِ الْمَرْءُ وَالتَّزَمَ فِيهِ بِمُوجِبِ نَحْوِ اللَّهِ وَنَحْوِ النَّاسِ .^{١٥٣}

إنه لا بد من ضوابط للحياة .. حياة المرء مع نفسه التي بين جنبيه وحياته مع غيره من الناس ومن الأحياء والأشياء عامة .. الناس من الأقربين والأبعدين، من الأهل والعشيرة، ومن الجماعة والأمة ومن الأصدقاء والأعداء .. والأحياء مما سخر الله للإنسان ومما لم يسخر .. والأشياء مما يحيط بالإنسان في هذا الكون العريض .. ثم .. حياته مع ربه ومولاه وعلاقته به وهي أساس كل حياة.

والإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس. يقيمها ويحددها بدقة ووضوح ويربطها كلها باللَّه سبحانه ويكفل لها الاحترام الواجب، فلا تنتهك، ولا يستهزأ بها ولا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات المتقلبة ولا للمصالح العارضة التي يراها فرد، أو تراها مجموعة أو تراها أمة، أو يراها جيل من الناس فيحطمون في سبيلها تلك الضوابط .. فهذه الضوابط التي أقامها الله وحددها هي «المصلحة» ما دام أن الله هو الذي أقامها للناس .. هي المصلحة ولو رأى فرد، أو رأت مجموعة أو رأت أمة من الناس أو جيل أن المصلحة غيرها! فالله يعلم والناس لا يعلمون! وما يقرره الله خير لهم مما يقررون! وأدنى مراتب الأدب مع الله - سبحانه - أن يتهم الإنسان تقديره الذاتي للمصلحة أمام

^{١٥٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

تقدير الله. أما حقيقة الأدب فهي ألا يكون له تقدير إلا ما قدر الله. وألا يكون له مع تقدير الله، إلا الطاعة والقبول والاستسلام، مع الرضى والثقة والاطمئنان ..

هذه الضوابط يسميها الله «العقود» .. ويأمر الذين آمنوا به أن يوفوا بهذه العقود ..

وافتح هذه السورة بالأمر بالوفاء بالعقود، ثم المضي بعد هذا الافتتاح في بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح. وفي بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية. وفي بيان حقيقة العقيدة الصحيحة.

وفي بيان حقيقة العبودية وحقيقة الألوهية. وفي بيان علاقات الأمة المؤمنة بشئى الأمم والملل والنحل. وفي بيان تكاليف الأمة المؤمنة في القيام لله والشهادة بالقسط والوصاية على البشرية بكتابها المهيمن على كل الكتب قبلها، والحكم فيها. بما أنزل الله كله والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله والحذر من عدم العدل تأثرا بالمشاعر الشخصية والمودة والشنآن ..

افتتاح السورة على هذا النحو، والمضي فيها على هذا النهج يعطي كلمة «العقود» معنى أوسع من المعنى الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة. ويكشف عن أن المقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التي قررها الله .. وفي أولها عقد الإيمان بالله ومعرفة حقيقة ألوهيته سبحانه، ومقتضى العبودية لألوهيته .. هذا العقد الذي تنبثق منه، وتقوم عليه سائر العقود وسائر الضوابط في الحياة.

وعقد الإيمان بالله والاعتراف بألوهيته وربوبيته وقوامته ومقتضيات هذا الاعتراف من العبودية الكاملة، والالتزام الشامل والطاعة المطلقة والاستسلام العميق .. هذا العقد أخذه الله ابتداء على آدم - عليه السلام - وهو يسلمه مقاليد الخلافة في الأرض، بشرط وعقد هذا نصه القرآني: «قُلْنَا: اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا. فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى، فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» .. فهي خلافة مشروطة بتابع هدى الله الذي يتزله في كتبه على رسله وإلا فهي المخالفة لعقد الخلافة والتملك. المخالفة التي تجعل كل عمل مخالف لما أنزل الله، باطلا بطلانا أصليا، غير قابل للتصحيح المستأنف! وتحتم على كل مؤمن بالله، يريد الوفاء بعقد الله، أن يرد هذا الباطل، ولا يعترف به ولا يقبل التعامل على أساسه. وإلا فما أوفى بعقد الله.

ولقد تكرر هذا العقد - أو هذا العهد - مع ذرية آدم. وهم بعد في ظهور آبائهم. كما ورد في السورة الأخرى: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا! أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ. أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ؟» .. فهذا عقد آخر مع كل فرد عقد يقرر الله - سبحانه - أنه أخذه على بني آدم كلهم وهم في ظهور آبائهم .. وليس لنا أن نسأل: كيف؟ لأن الله أعلم بخلقه وأعلم كيف يخاطبهم في كل طور من أطوار حياتهم. بما يلزمهم الحجة. وهو يقول: إنه أخذ عليهم هذا العهد، على ربوبيته لهم .. فلا بد أن ذلك كان، كما قال الله سبحانه .. فإذا لم يفوا

بتعاقدهم هذا مع ربهم لم يكونوا أوفياء! ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل - كما سيحيى في السورة - يوم نتق الجبل فوقهم كأنه ظلّة وظنوا أنه واقع بهم .. وسنعلم - من السياق - كيف لم يفوا بالميثاق وكيف نالهم من الله ما ينال كل من ينقض الميثاق.

والذين آمنوا بمحمد - ﷺ - قد تعاقدوا مع الله - على يديه - تعاقدًا عامًا على السمع والطاعة، فعن عبادة بن الصّامت، قال: «بَايَعَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً»^{١٥٤}.

وبعضهم وقعت له بعد ذلك عقود خاصة قائمة على ذلك التعاقد العام .. ففي بيعة العقبة الثانية التي ترتبت عليها هجرة الرسول - ﷺ - من مكة إلى المدينة، كان هناك عقد مع نقيب الأنصار .. وفي الحديبية كان هناك عقد الشجرة وهو «بيعة الرضوان».

وعلى عقد الإيمان بالله، والعبودية لله، تقوم سائر العقود .. سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهي في شريعة الله، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس والأحياء والأشياء في هذا الكون في حدود ما شرع الله - فكلها عقود ينادي الله الذين آمنوا، بصفتهم هذه، أن يوفوا بها. إذ أن صفة الإيمان ملزمة لهم بهذا الوفاء، مستحثة لهم كذلك على الوفاء .. ومن ثم كان هذا النداء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»^{١٥٥}.



^{١٥٤} - صحيح البخاري (٧٧ / ٩) (٧١٩٩) وصحيح مسلم (٣ / ١٤٧٠) - ٤١ - (١٧٠٩)

^{١٥٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢١٣)

٢٩. تحريم استحلال شعائر الله ونحوها

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمِ يَمَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَؤنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (٣) سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْتَبِيحُوا حُرْمَةَ شَعَائِرِ اللَّهِ بِأَن تَجْعَلُوا شَعَائِرَ دِينِ اللَّهِ حَلَالًا لَّكُمْ تَتَصَرَّفُونَ فِيهَا كَيْفَ تَشَاءُونَ، بَلْ أَعْمَلُوا بِمَا بَيْنَهُ لَكُمْ رُبُّكُمْ، وَلَا تَتَهَاوَنُوا بِحُرْمَتِهَا، وَلَا تَحُولُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُتَنَسِّكِينَ بِهَا، فَتَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ .

وَلَا تُحِلُّوا الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ. (وَهِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحَرَّمُ وَرَجَبٌ)، وَلَا تَمْنَعُوا الْهَدْيَ (وَهُوَ مِضَا يُهْدَى إِلَى الْحَرَمِ مِنَ الْأَنْعَامِ لِيُذَبِّحَ فِيهِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ) وَذَلِكَ بِأَخْذِهِ غَضَبًا وَسِرْقَةً .

وَلَا تُحِلُّوا أَخْذَ الْمُقْلَدِ مِنَ الْهَدْيِ (وَكَانُوا يُقْلِدُونَ الْأَنْعَامَ الَّتِي تُوجِّهُهُ إِلَى الْبَيْتِ هَدْيًا بِوَضْعِ قِلَادَةٍ فِي أَعْنَاقِهَا لِكَيْلَا يَتَعَرَّضَ لَهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ) .

وَلَا تُحِلُّوا قِتَالَ قَاصِدِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ لِزِيَارَتِهِ فَتَصُدُّوهُمْ عَن ذَلِكَ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ .

وَلَا تُصُدُّوا مَنْ قَصَدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لِلتَّجَارَةِ أَوْ لِلنُّسُكِ وَالرَّغْبَةِ بِالْفَوْزِ بِرِضْوَانِ اللَّهِ (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا) .

وَإِذَا فَرَعْتُمْ مِّنْ إِحْرَامِكُمْ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، أَوْ خَرَجْتُمْ مِّنْ أَرْضِ الْحَرَمِ فَاصْطَادُوا إِذَا شِئْتُمْ. وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ وَعَدَاوَتُهُمْ، (وَهُمْ الَّذِينَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ) عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا، وَتَتَجَاوَزُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيهِمْ، فَتَقْتَصُوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، بَلْ أَحْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُم بِهِ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ وَاحِدٍ .

وَرُوي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ مَعَ أَصْحَابِهِ، وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ صَدُّ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ عَن بُلُوغِ الْبَيْتِ، فَمَرَّ بِهِمْ أَنَسٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ مِّنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، يُرِيدُونَ الْعُمْرَةَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ نَصُدُّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَدْنَا أَصْحَابَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. وَفِيهَا يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّقْوَى، وَبِالتَّعَاوُنِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ (وَهُوَ الْبِرُّ)، وَعَلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ (وَهُوَ التَّقْوَى)

(وَيَنْهَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، وَيُحَذِّرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَطْشِهِ وَعِقَابِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ عَصَاهُ وَتَعَدَّى حُدُودَهُ .

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا حَرَّمَ أَكْلَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ لَحْمِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ:

الْمَيْتَةُ - وَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ ذِكَاةٍ وَلَا اصْطِيَادٍ وَذَلِكَ لِمَ فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ، وَيُسْتَشْنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ، فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَاءَ مَا تَبَدَّ كَيْفًا أَوْ بَعِيْرَهَا .

وَالدَّمُ الْمَسْفُوحُ - وَهُوَ الدَّمُ الَّذِي يَسِيلُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ .

وَكَانَ الْأَعْرَابُ فِي الْبَادِيَةِ إِذَا جَاعُوا فِي الصَّحْرَاءِ يَأْخُذُونَ شَيْئًا مُحَدَّدًا مِنْ عَظْمٍ أَوْ نَحْوِهِ فَيَقْصِدُونَ بِهِ حَيَوَانًا فَيَجْمَعُونَ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ دَمٍ فَيَشْرِبُونَهُ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ .

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالسَّمَكُ وَالْجِرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ. (رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابَيْهَقِيُّ) .

لَحْمُ الْخَنْزِيرِ - إِنْسِيَّةٌ وَوَحْشِيَّةٌ. فَلَحْمُهُ حَرَامٌ .

مَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ - أَيُّ مَا ذُبِحَ فَذَكَرَ اسْمُ غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ. لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ الْأَنْعَامُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ .

(وَالْإِهْلَالُ هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ، وَالْإِهْلَالُ هُنَا رَفْعُ الصَّوْتِ بِذِكْرِ اسْمِ غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ .

وَالْمَوْفُودَةُ - وَهِيَ الَّتِي تَضْرِبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ .

وَالْمُتَرَدِّيَةُ - وَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ، أَوْ تَقَعُ فِي بئرٍ فَتَمُوتُ فَلَا يَحِلُّ أَكْلُ لَحْمِهَا .

وَالنَّطِيحَةُ - وَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحٍ غَيْرِهَا لَهَا، فَهِيَ حَرَامٌ وَلَوْ خَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحِهَا .

وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ - وَهِيَ مَا عَدَتْ عَلَيْهَا الْحَيَوَانَاتُ الْجَارِحَةُ فَقَتَلَتْهَا فَلَا تَحِلُّ بِالْإِجْمَاعِ .

وَاسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ الْحَيَوَانُ الَّذِي لِحَقِّهِ الْإِنْسَانُ بِالذَّبْحِ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقْرَّةٌ، فَإِنَّهُ إِذَا ذُبِحَ أَصْبَحَ حَلَالًا يَجُوزُ أَكْلُهُ لِلْمُسْلِمِينَ .

وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ - مُحَرَّمٌ أَكْلُهُ .

وَالنَّصْبُ هِيَ حِجَارَةٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا تَذْبَحُ عِنْدَهَا الذَّبَائِحَ، وَيُنْضَحُ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ بِدَمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ، وَيُسْرَّحُونَ اللَّحْمَ وَيَضْعُونَهُ عَلَى النَّصْبِ فَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ أَكْلَ الذَّبَائِحِ الَّتِي تَمَّ ذَبْحُهَا عِنْدَ تِلْكَ النَّصْبِ. فَالذَّبْحُ عِنْدَ النَّصْبِ مِنَ الشَّرْكِ .

ثُمَّ أَضَافَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ الَّتِي كَانَتْ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَحِلُّونَهَا، عَمَلًا آخَرَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَهُوَ الْاسْتِقْسَامُ بِالْأَرْلَامِ .

وَالْأَرْلَامُ وَاحِدُهَا (رَلَمَ)، هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ (سِهَامٍ) ثَلَاثَةٌ أَحَدُهَا مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ: (افْعَلْ) وَثَانِيهَا مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ: (لَا تَفْعَلْ). وَثَالِثُهَا لَمْ يُكْتُبْ عَلَيْهِ شَيْءٌ. فَإِذَا أَجَالَهَا فَطَلَعَ السَّهْمُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْهِ (لَا

تَفْعَلُ) ، لَمْ يَفْعَلْ. وَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْهِ (أَفْعَلْ) فَعَلَ. وَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ الْغُلُّ مِنَ الْكِتَابَةِ
أَعَادَ. فَحَرَّمَ اللَّهُ الْاسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَامِ، وَعَدَّهُ فِسْقًا، وَخُرُوجًا عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ .

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أَمْرِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ، ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي
يُرِيدُونَ .^{١٥٦}

إن هذا التحريم والتحليل في الذبائح، وفي الأنواع، وفي الأماكن، وفي الأوقات .. إن هذا كله من
«العقود» .. وهي عقود قائمة على عقد الإيمان ابتداءً. فالذين آمنوا يقتضيهم عقد الإيمان أن يتلقوا
التحريم والتحليل من الله وحده ولا يتلقوا في هذا شيئاً من غيره .. ومن ثم نودوا هذا النداء، في مطلع
هذا البيان .. وأخذ بعده في بيان الحلال والحرام: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ - إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ - »
..

والمقتضى هذا الإحلال من الله وبمقتضى إذنه هذا وشرعه - لا من أي مصدر آخر ولا استمدادا من
أي أصل آخر - صار حلالا لكم ومباحا أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول «بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ»
من الذبائح والصيد - إلا ما يتلى عليكم تحريمه منها - وهو الذي سيرد ذكره محرما .. إما حرمة
وقتية أو مكانية وإما حرمة مطلقة في أي مكان وفي أي زمان. وبهيمية الأنعام تشمل الإبل والبقر
والغنم ويضاف إليها الوحشي منها، كالبقرة الوحشي، والحمر الوحشية والظباء.

ثم يأخذ في الاستثناء من هذا العموم .. وأول المستثنيات الصيد في حال الإحرام: «غَيْرَ مُحَلِّي الصَّيْدِ
وَأَنْتُمْ حُرْمٌ» .. والتحريم هنا ينطبق ابتداءً على عملية الصيد ذاتها. فالإحرام للحج أو للعمرة، تجرد عن
أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه إلى الله في بيته الحرام، الذي جعله الله مثابة الأمان
.. ومن ثم ينبغي عنده الكف عن بسط الأكف إلى أي حي من الأحياء .. وهي فترة نفيسة ضرورية
للنفس البشرية تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء في واهب الحياة وتأمين فيها وتؤمن كذلك
من كل اعتداء وتتخفف من ضرورات المعاش التي أحل من أحلها صيد الطير والحيوان وأكله لترتفع
في هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها، وتتطلع إلى هذا الأفق الرفاف الوضيء.

وقبل أن يمضي السياق في بيان المستثنيات من حكم الحل العام، يربط هذا العقد بالعقد الأكبر، ويذكر
الذين آمنوا. بمصدر ذلك الميثاق: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ» .. طليقة مشيئته، حاكمة إرادته، متفردا -
سبحانه - بالحكم وفق ما يريد. ليس هنالك من يريد معه وليس هنالك من يحكم بعده ولا راد لما
يحكم به .. وهذا هو حكمه في حل ما يشاء وحرمة ما يشاء ..

ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمات الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ
اللَّهِ. وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ. وَلَا الْهَدْيَ. وَلَا الْقَلَائِدَ. وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ

^{١٥٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧١، بترقيم الشاملة آليا)

وَرِضْوَانًا. وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ..». وأقرب ما يتجه إليه الذهن في معنى «شعائر الله» في هذا المقام أنهما شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم للحج أو العمرة حتى ينتهي حجه بنحر الهدى الذي ساقه إلى البيت الحرام فلا يستحلها المحرم في فترة إحرامه لأن استحلالها فيه استهانة بجرمة الله الذي شرع هذه الشعائر. وقد نسبها السياق القرآني إلى الله تعظيماً لها، وتحذيراً من استحلالها. والشهر الحرام يعني الأشهر الحرم وهي رجب، وذو القعدة، وذو الحجة والحرم. وقد حرم الله فيها القتال - وكانت العرب قبل الإسلام تحرمها - ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء فينسئونها - أي يؤجلونها - بفتوى بعض الكهان، أو بعض زعماء القبائل القوية! من عام إلى عام. فلما جاء الإسلام شرع الله حرمتها، وأقام هذه الحرمة على أمر الله، يوم خلق الله السماوات والأرض كما قال في آية التوبة: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ..»

وقرر أن النسيء زيادة في الكفر. واستقام الأمر فيها على أمر الله .. ما لم يقع الاعتداء فيها على المسلمين، فإن لهم حينئذ أن يردوا الاعتداء وألا يدعوا المعتدين يحتمون بالأشهر الحرم - وهم لا يرفعون حرمتها - ويتترسون خلفها للنيل من المسلمين، ثم يذهبون ناجين! وبين الله حكم القتال في الأشهر الحرم كما مر بنا في سورة البقرة.^{١٥٧}

والهدى وهو الذبيحة التي يسوقها الحاج أو المعتمر وينحرها في آخر أيام الحج أو العمرة، فينهي بها شعائر حجه أو عمرته. وهي ناقة أو بقرة أو شاة .. وعدم حلها معناه ألا ينحرها لأي غرض آخر غير ما سيقته له ولا ينحرها إلا يوم النحر في الحج وعند انتهاء العمرة في العمرة. ولا ينتفع من لحومها وجلودها وأشعارها وأوبارها بشيء بل يجعلها كلها للفقراء.

والقلائد. وهي الأنعام المقلدة التي يقلدها أصحابها - أي يضعون في رقبتها قلادة - علامة على نذرها لله ويطلقونها ترعى حتى تنحر في موعد النذر ومكانه - ومنها الهدى الذي يشعر: أي يعلم بعلامة الهدى ويطلق إلى موعد النحر - فهذه القلائد يحرم إحلالها بعد تقليدها فلا تنحر إلا لما جعلت له .. وكذلك قيل: إن القلائد هي ما كان يتقلد به من يريدون الأمان من ثأر أو عدو أو غيره فيتخذون من شجر الحرم ما يتقلدون به، وينطلقون في الأرض لا يبسط أحد يده إليهم بعدوان - وأصحاب هذا القول قالوا: إن ذلك قد نسخ بقول الله فيما بعد: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» .. وقوله: «فَخَذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ» .. والأظهر القول الأول وهو أن القلائد هي الأنعام المقلدة للنذور لله وقد جاء ذكرها بعد ذكر الهدى المقلد للنحر للحج أو العمرة، للمناسبة بين هذا وذاك. كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً

^{١٥٧} - يراجع الجزء الثاني من الظلال ص ٢٢٥ - ٢٢٧. (السيد رحمه الله)

..وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله ..حجاجا أو غير حجاج ..وأعطاهم الأمان في حرمة بيته الحرام.

ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الإحرام، في غير البيت الحرام، فلا صيد في البيت الحرام: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا» ..إنها منطقة الأمان يقيمها الله في بيته الحرام كما يقيم فترة الأمان في الأشهر الحرم ..منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى. وأن يروعها العدوان .. إنه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت استجابة لدعوة إبراهيم - أبي هذه الأمة الكريم - ويرفرف على الأرض كلها أربعة أشهر كاملة في العام - في ظل الإسلام - وهو سلام يتذوق القلب البشري حلاوته وطمأنينته وأمنه ليحرص عليه - بشروطه - وليحفظ عقد الله وميثاقه، وليحاول أن يطبقه في الحياة كلها على مدار العام، وفي كل مكان ..وفي جو الحرمات وفي منطقة الأمان، يدعو الله الذين آمنوا به، وتعاقدوا معه، أن يفوا بعقدهم وأن يرتفعوا إلى مستوى الدور الذي ناطه بهم .. دور القوامه على البشرية بلا تأثر بالمشاعر الشخصية، والعواطف الذاتية، والملايسات العارضة في الحياة .. يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام في عام الحديبية وقبله كذلك وتركوا في نفوس المسلمين جروحا وندوبا من هذا الصد وخلفوا في قلوبهم الكره والبغض. فهذا كله شيء وواجب الأمة المسلمة شيء آخر. شيء يناسب دورها العظيم: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا. وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

إنها قمة في ضبط النفس وفي سماحة القلب .. ولكنها هي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربهما أن تقوم على البشرية لتهدئتها وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء. إنها تبعة القيادة والقوامه والشهادة على الناس .. التبعة التي لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجا من السلوك الذي يحققه الإسلام، ومن التسامي الذي يصنعه الإسلام. وبهذا يؤدون للإسلام شهادة طيبة تجذب الناس إليه وتحببهم فيه.

وهو تكليف ضخم ولكنه - في صورته هذه - لا يعنت النفس البشرية، ولا يحملها فوق طاقتها. فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب، ومن حقها أن تكره. ولكن ليس من حقها أن تعتدي في فورة الغضب ودفعة الشنآن .. ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة في البر والتقوى لا في الإثم والعدوان ويخوفها عقاب الله، ويأمرها بتقواه، لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط، وعلى التسامي والتسامح، تقوى لله، وطلبا لرضاه.

ولقد استطاعت التربية الإسلامية، بالمنهج الرباني، أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية، والاعتقاد لهذا السلوك الكريم .. وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوي وعن هذا الاتجاه

.. كان المنهج العربي المسلموك والمبدأ العربي المشهور: «انصرُ أحمك ظالمًا، أو مظلومًا»^{١٥٨} .. كانت حمية الجاهلية، ونعرة العصبية. كان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى وكان الحلف على النصرة، في الباطل قبل الحق. ونذر أن قام في الجاهلية حلف للحق. وذلك طبيعي في بيئة لا ترتبط بالله ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله .. يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلي المشهور: «انصر أحمك ظالما أو مظلوما» .. وهو المبدأ الذي يعبر عنه الشاعر الجاهلي في صورة أخرى، وهو يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد!

ثم جاء الإسلام .. جاء المنهج الرباني للتربية .. جاء ليقول للذين آمنوا: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا. وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ. وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

جاء ليربط القلوب بالله وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله. جاء ليخرج العرب - ويخرج البشرية كلها - من حمية الجاهلية، ونعرة العصبية، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية في مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ..

وولد «الإنسان» من جديد في الجزيرة العربية .. ولد الإنسان الذي يتخلق بأخلاق الله .. وكان هذا هو المولد الجديد للعرب كما كان هو المولد الجديد للإنسان في سائر الأرض .. ولم يكن قبل الإسلام في الجزيرة إلا الجاهلية المتعصبة العمياء: «انصر أحمك ظالما أو مظلوما». كذلك لم يكن في الأرض كلها إلا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء!

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية، وأفق الإسلام هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور: «انصر أحمك ظالما أو مظلوما». وقول الله العظيم: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا. وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ». وشتان شتان!

ثم يأخذ السياق في تفصيل ما استثناه في الآية الأولى من السورة من حل بهيمة الأنعام: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ، وَالدَّمُ، وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ، وَمَا أُهْلَ لِعَیْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ، وَالْمَوْقُوذَةُ، وَالْمُتَرَدِّيةُ، وَالتَّنَطِيحَةُ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ - إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ - وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ، وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ .. ذَلِكُمْ فَسَقٌ .. الْيَوْمَ يَنسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .. فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ - غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ - فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

^{١٥٨} - عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « انصرُ أحمك ظالمًا أو مظلومًا ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا قَالَ « تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ ». صحيح البخاري - المكثر [١٠٠/٩] (٢٤٤٤)

والميتة والدم ولحم الخنزير، سبق بيان حكمها، وتعليل هذا الحكم في حدود ما يصل إليه العلم البشري بحكمة التشريع الإلهي، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات^{١٥٩} وسواء وصل العلم البشري إلى حكمة هذا التحريم أم لم يصل، فقد قرر العلم الإلهي أن هذه المطاعم ليست طيبة وهذا وحده يكفي. فالله لا يجرم إلا الخبائث. وإلا ما يؤدي الحياة البشرية في جانب من جوانبها. سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه.. وهل علم الناس كل ما يؤدي وكل ما يفيد؟! وأما ما أهل لغير الله به، فهو محرم لمناقضته ابتداء للإيمان. فالإيمان يوحد الله، ويفرده - سبحانه - بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته. وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه إلى الله وحده بكل نية وكل عمل وأن يهل باسمه - وحده - في كل عمل وكل حركة وأن تصدر باسمه - وحده - كل حركة وكل عمل. فما يهل لغير الله به وما يسمى عليه بغير اسم الله (وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد) حرام لأنه ينقض الإيمان من أساسه ولا يصدر ابتداء عن إيمان.. فهو خبيث من هذه الناحية يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير. وأما المنخقة (وهي التي تموت خنقا) والموقوذة (وهي التي تضرب بعصا أو خشبة أو حجر فتموت) والمتردية (وهي التي تتردى من سطح أو جبل أو تتردى في بئر فتموت) والنطيحة (وهي التي تنطحها بهيمة فتموت) وما أكل السبع (وهي الفريسة لأي من الوحش).. فهي كلها أنواع من الميتة إذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح: (إلا ما ذكيتم) فحكمها هو حكم الميتة.. وإنما فصل هنا لنفي الشبهة في أن يكون لها حكم مستقل..

على أن هناك تفصيلا في الأقوال الفقهية واختلافا في حكم «التذكية»، ومتى تعتبر البهيمة مذكاة فبعض الأقوال يخرج من المذكاة، البهيمة التي يكون ما حل بها من شأنه أن يقتلها سريعا - أو يقتلها حتما - فهذه حتى لو أدركت بالذبح لا تكون مذكاة. بينما بعض الأقوال يعتبرها مذكاة متى أدركت وفيها الروح، أي كان نوع الإصابة.. والتفصيل يطلب في كتب الفقه المختصة..

وأما ما ذبح على النصب - وهي أصنام كانت في الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة في الجاهلية، ومثلها غيرها في أي مكان - فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام - حتى لو ذكر اسم الله عليه، لما فيه من معنى الشرك بالله. ويبقى الاستقسام بالأزلام. والأزلام: قداح كانوا يستشيرونها في الإقدام على العمل أو تركه. وهي ثلاثة في قول، وسبعة في قول. وكانت كذلك تستخدم في الميسر المعروف عند العرب فتقسم بواسطتها الجزور - أي الناقة التي يتقامرون عليها - إذ يكون لكل من المتقامين قدح، ثم تدار، فإذا خرج قدح أحدهم كان له من الجزور بقدر ما خصص لهذا القدح.. فحرم الله الاستقسام بالأزلام - لأنه نوع من الميسر المحرم - وحرّم للحموم التي تقسم عن هذا الطريق..... «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

^{١٥٩} - ص ١٥٦ - ص ١٥٧ من الجزء الثاني من الظلال (السيد رحمه الله)

فالمضطرب من الجوع - وهو المخصصة - الذي يخشى على حياته التلف، له أن يأكل من هذه المحرمات ما دام أنه لا يعتمد الإثم، ولا يقصد مقارفة الحرام. وتختلف آراء الفقهاء في حد هذا الأكل: هل هو مجرد ما يحفظ الحياة. أو هو ما يحقق الكفاية والشبع. أو هو ما يدخر كذلك لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام.. فلا ندخل نحن في هذه التفاصيل.. وحسبنا أن ندرك ما في هذا الدين من يسر، وهو يعطى للضرورات أحكامها بلا عنت ولا حرج. مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة والتقوى الموكولة إلى الله.. فمن أقدم مضطراً، لا نية له في مقارفة الحرام ولا قصد، فلا إثم عليه إذن ولا عقاب: «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

وننتهي من بيان المحرم من المطاعم لنقف وقفة خاصة أمام ما تخلل آية التحريم من قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»..

وهي آخر ما نزل من القرآن الكريم^{١٦٠}، ليعلن كمال الرسالة، وتمام النعمة، فيحس عمر - رضي الله عنه - ببصيرته النافذة وبقلمه الواصل - أن أيام الرسول - ﷺ - على الأرض معدودة. فقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة ولم يعد إلا لقاء الله. فيبكي - رضوان الله عليه - وقد أحس قلبه دنو يوم الفراق.

هذه الكلمات الهائلة ترد ضمن آية موضوعها التحريم والتحليل لبعض الذبائح وفي سياق السورة التي تضم تلك الأغراض التي أسلفنا بياها.. ما دلالة هذا؟ إن بعض دلالاته أن شريعة الله كل لا يتجزأ. كل متكامل. سواء فيه ما يختص بالتصور والاعتقاد وما يختص بالشعائر والعبادات وما يختص بالحلال والحرام وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية. وأن هذا في مجموعه هو «الدين» الذي يقول الله عنه في هذه الآية:

إنه أكمله. وهو «النعمة» التي يقول الله للذين آمنوا: إنه أتمها عليهم. وأنه لا فرق في هذا الدين بين ما يختص بالتصور والاعتقاد وما يختص بالشعائر والعبادات وما يختص بالحلال والحرام وما يختص بالتنظيمات الاجتماعية والدولية.. فكلها في مجموعها تكوّن المنهج الرباني الذي ارتضاه الله للذين آمنوا والخروج عن هذا المنهج في جزئية منه، كالخروج عليه كله، خروج على هذا «الدين» وخروج من هذا الدين بالتبعية..

١٦٠ - بل آخر ما نزل من القرآن الكريم هو آية سورة البقرة قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (٢٨١) سورة البقرة

فمن بن عباس في قوله: ؟ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون؟، إنها آخر آية أنزلت على رسول الله ﷺ. السنن الكبرى للإمام النسائي الرسالة [٤٦٥/ ٦] (١٠٩٩٢) صحيح

والأمر في هذا يرجع إلى ما سبق لنا تقريره من أن رفض شيء من هذا المنهج، الذي رضي الله للمؤمنين، واستبدال غيره به من صنع البشر معناه الصريح هو رفض ألوهية الله - سبحانه - وإعطاء خصائص الألوهية لبعض البشر واعتداء على سلطان الله في الأرض، وادعاء للألوهية بادعاء خصيصتها الكبرى.. الحاكمية.. وهذا معناه الصريح الخروج على هذا الدين والخروج من هذا الدين بالتبعية .. «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» .. يئسوا أن يطلوه، أو ينقصوه، أو يحرفوه. وقد كتب الله له الكمال وسجل له البقاء.. ولقد يغلبون على المسلمين في موقعة، أو في فترة، ولكنهم لا يغلبون على هذا الدين. فهو وحده الدين الذي بقي محفوظا لا يناله الدثور، ولا يناله التحريف أيضا على كثرة ما أراد أعداؤه أن يحرفوه وعلى شدة ما كادوا له، وعلى عمق جهالة أهله به في بعض العصور.. غير أن الله لا يخلي الأرض من عصابة مؤمنة تعرف هذا الدين وتناضل عنه، ويبقى فيها كاملا مفهوما محفوظا حتى تسلمه إلى من يليها. وصدق وعد الله في يأس الذين كفروا من هذا الدين! «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ» ..

فما كان للذين كفروا أن ينالوا من هذا الدين في ذاته أبدا. وما كان لهم أن ينالوا من أهله إلا أن ينحرف أهله عنه فلا يكونوا هم الترجمة الحية له ولا ينهضوا بتكاليفه ومقتضياته ولا يحققوا في حياتهم نصوصه وأهدافه ..

وهذا التوجيه من الله للجماعة المسلمة في المدينة، لا يقتصر على ذلك الجيل إنما هو خطاب عام للذين آمنوا في كل زمان وفي كل مكان.. نقول: للذين آمنوا.. الذين يرتضون ما رضي الله لهم من هذا الدين، بمعناه الكامل الشامل الذين يتخذون هذا الدين كله منهجا للحياة كلها.. وهؤلاء - وحدهم - هم المؤمنون.. «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» .. اليوم.. الذي نزلت فيه هذه الآية في حجة الوداع.. أكمل الله هذا الدين. فما عادت فيه زيادة لمستزيد. وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل. ورضي لهم «الإسلام» دينا فمن لا يرتضيه منهجا لحياته - إذن - فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين.

ويقف المؤمن أمام هذه الكلمات الهائلة فلا يكاد ينتهي من استعراض ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة، وتوجيهات عميقة، ومقتضيات وتكاليف ..

إن المؤمن يقف أولا: أمام إكمال هذا الدين يستعرض موكب الإيمان، وموكب الرسالات، وموكب الرسل، منذ فجر البشرية، ومنذ أول رسول - آدم عليه السلام - إلى هذه الرسالة الأخيرة. رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين.. فماذا يرى؟.. يرى هذا الموكب المتطاوّل المتواصل. موكب الهدى والنور. ويرى معالم الطريق، على طول الطريق. ولكنه يجد كل رسول - قبل خاتم النبيين - إنما أرسل لقومه. ويرى كل رسالة - قبل الرسالة الأخيرة - إنما جاءت لمرحلة من الزمان.. رسالة خاصة، لمجموعة خاصة، في بيئة خاصة.. ومن ثم كانت كل تلك الرسالات محكومة بظروفها هذه

متكيفة بهذه الظروف .. كلها تدعو إلى إله واحد - فهذا هو التوحيد - وكلها تدعو إلى عبودية واحدة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الدين - وكلها تدعو إلى التلقي عن هذا الإله الواحد والطاعة لهذا الإله الواحد - فهذا هو الإسلام - ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف ..

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر أرسل إلى الناس كافة، رسولا خاتم النبيين برسالة «للإنسان» لا لمجموعة من الأناسي في بيئة خاصة، في زمان خاص، في ظروف خاصة .. رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور ولا ينالها التغيير: «فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» .. وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها ويتحور بتغير الزمان والمكان وتضع لها الأحكام التفصيلية والقوانين الجزئية فيما لا يتطور ولا يتحور بتغير الزمان والمكان .. وكذلك كانت هذه الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة «الإنسان» منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات، لكي تستمر، وتنمو، وتتطور، وتتجدد حول هذا المحور وداخل هذا الإطار .. وقال الله - سبحانه - للذين آمنوا: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» ..

فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معا .. فهذا هو الدين .. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أن بهذا الدين - بمعناه هذا - نقضا يستدعي الإكمال. ولا قصورا يستدعي الإضافة. ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير .. وإلا فما هو بمؤمن وما هو بمقر بصدق الله وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين! إن شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، هي شريعة كل زمان، لأنها - بشهادة الله - شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان لا لجماعة من بني الإنسان، في جيل من الأجيال، في مكان من الأمكنة، كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي. والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان دون أن تخرج عليه، إلا أن تخرج من إطار الإيمان! والله الذي خلق «الإنسان» ويعلم من خلق هو الذي رضي له هذا الدين المحتوي على هذه الشريعة. فلا يقول: إن شريعة الأُمس ليست شريعة اليوم، إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بمحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان! ويقف المؤمن ثانيا: أمام إتمام نعمة الله على المؤمنين، بإكمال هذا الدين وهي النعمة التامة الضخمة الهائلة.

النعمة التي تمثل مولد «الإنسان» في الحقيقة، كما تمثل نشأته واكتماله. «فالإنسان» لا وجود له قبل أن يعرف إلهه كما يعرفه هذا الدين له. وقبل أن يعرف الوجود الذي يعيش فيه كما يعرفه له هذا

الدين. وقبل أن يعرف نفسه ودوره في هذا الوجود وكرامته على ربه، كما يعرف ذلك كله من دينه الذي رضيه له ربه.

و«الإنسان» لا وجود له قبل أن يتحرر من عبادة العبيد بعبادة الله وحده وقبل أن ينال المساواة الحقيقية بأن تكون شريعته من صنع الله وبسلطانه لا من صنع أحد ولا بسلطانه. إن معرفة «الإنسان» بهذه الحقائق الكبرى كما صورها هذا الدين هي بدء مولد «الإنسان».. إنه بدون هذه المعرفة على هذا المستوي يمكن أن يكون «حيوانا» أو أن يكون «مشروع إنسان» في طريقه إلى التكوين! ولكنه لا يكون «الإنسان» في أكمل صورة للإنسان، إلا بمعرفة هذه الحقائق الكبيرة كما صورها القرآن..

والمسافة بعيدة بعيدة بين هذه الصورة، وسائر الصور التي اصطنعها البشر في كل زمان!^{١٦١} وإن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية، لهو الذي يحقق «للإنسان» «إنسانيته» كاملة.. يحققها له وهو يخرج بالتصور الاعتقادي، في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات، إلى دائرة «التصور» الإنساني، الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات. عالم الشهادة وعالم الغيب.. عالم المادة وعالم ما وراء المادة.. وينقذه من ضيق الحس الحيواني المحدود!^{١٦٢} ويحققها له وهو يخرج بتوحيد الله، من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده، والتساوي والتحرر والاستعلاء أمام كل من عداه. فيلبي الله وحده يتجه بالعبادة، ومن الله وحده يتلقى المنهج والشريعة والنظام، وعلى الله وحده يتوكل ومنه وحده يخاف^{١٦٣}.. ويحققها له، بالمنهج الرباني، حين يرفع اهتماماته ويهذب نوازعه، ويجمع طاقته للخير والبناء والارتقاء، والاستعلاء على نوازع الحيوان، ولذائد البهيمة وانطلاق الأنعام!^{١٦٤} ولا يدرك حقيقة نعمة الله في هذا الدين، ولا يقدرها قدرها، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ومن لم يذق ويلاتها - والجاهلية في كل زمان وفي كل مكان هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله - فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها.. ويلاتها في التصور والاعتقاد، وويلاتها في واقع الحياة.. هو الذي يحس ويشعر، ويرى ويعلم، ويدرك ويتذوق حقيقة نعمة الله في هذا الدين الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى، وويلات الحيرة

١٦١ - تراجع المقدمة ص ١١ - ص ١٨ وكتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)
١٦٢ - تراجع تفسير سورة الفاتحة ص ٢١ - ص ٢٣ وتفسير مطلع سورة البقرة: ص ٣٩ - ص ٤٠ الجزء الأول من الضلال. (السيد رحمه الله)

١٦٣ - تراجع كتاب «هذا الدين» ص ١٥ - ص ٢٠. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)
١٦٤ - تراجع تفسير قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً» الجزء الثاني من الضلال: ص ٢٠٦ - ص ٢١١. (السيد رحمه الله)

والتمزق، وويلات الضياع والخواء، في معتقدات الجاهلية وتصوراتها في كل زمان وفي كل مكان.. هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.^{١٦٥}

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى، وويلات التخبط والاضطراب، وويلات التفريط والإفراط في كل أنظمة الحياة الجاهلية، هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام.^{١٦٦}

ولقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون ويدركون ويتذوقون هذه الكلمات. لأن مدلولاتها كانت متمثلة في حياتهم، في ذات الجيل الذي خوطب بهذا القرآن..

كانوا قد ذاقوا الجاهلية.. ذاقوا تصوراتها الاعتقادية. وذاقوا أوضاعها الاجتماعيّة. وذاقوا أخلاقها الفردية والجماعية. وبلوا من هذا كله ما يدركون معه حقيقة نعمة الله عليهم بهذا الدين وحقيقة فضل الله عليهم ومنته بالإسلام.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية وسارهم في الطريق الصاعد، إلى القمة السامقة - كما فصلنا ذلك في مستهل سورة النساء^{١٦٧} - فإذا هم على القمة ينظرون من عل إلى سائر أمم الأرض من حولهم نظرهم إلى ماضيهم في جاهليتهم كذلك.

كان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التصورات الاعتقادية حول ربوبية الأصنام، والملائكة، والجن، والكواكب، والأسلاف وسائر هذه الأساطير الساذجة والخرافات السخيفة لينقلهم إلى أفق التوحيد. إلى أفق الإيمان بإله واحد، قادر قاهر، رحيم ودود، سميع بصير، عليم خبير. عادل كامل. قريب مجيب. لا واسطة بينه وبين أحد والكل له عباد، والكل له عبيد.. ومن ثم حررهم من سلطان الكهانة، ومن سلطان الرياسة، يوم حررهم من سلطان الوهم والخرافة..

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في الأوضاع الاجتماعيّة. من الفوارق الطبقيّة ومن العادات الزرية ومن الاستبداد الذي كان يزاوله كل من تهيأ له قدر من السلطان (لا كما هو سائد خطأ من أن الحياة العربية كانت تمثل الديمقراطية!).

«فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه في عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها في الجنوب إلى أقصاها في الشمال. وما كان الشاعر النجاشي إلا قادحا مبالغا في القدح حين استضعف مهجوه، لأن:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

^{١٦٥} - يراجع فصل: «تبه وركام» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{١٦٦} - يراجع فصل: «تخبط واضطراب» في كتاب: «الإسلام ومشكلات الحضارة». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

^{١٦٧} - يراجع مقدمة الحديث عن سورة النساء في الجزء الرابع من الظلال من هذه الطبعة ص ٥٥٤ - ص ٥٧١ (السيد رحمه الله)

«وما كان حجر بن الحارث إلا ملكا عربيا حين سام بني أسد أن يستعبدهم بالعصا، وتوسل إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول: أنت المملك فيهم وهم العبيد إلى القيامة ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة» وكان عمر بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

«وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

«وقد قيل عن عزة كليب وائل: إنه سمي بذلك لأنه كان يرمي الكليب حيث يعجبه الصيد، فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه. وقيل: «لا حر بوادي عوف» لأنه من عزته كان لا يأوي بواديه من يملك حرية في جواره. فكلهم أحرار في حكم العبيد..»^{١٦٨}

وكان الإسلام قد التقطهم من سفح الجاهلية في التقاليد والعادات والأخلاق والصلوات الاجتماعية.. كان قد التقطهم من سفح البنت الموءودة، والمرأة المنكودة، والخمر والقمار والعلاقات الجنسية الفوضوية، والتبرج والاختلاط مع احتقار المرأة ومهانتها، والثارات والغارات والنهب والسلب، مع تفرق الكلمة وضعف الحيلة أمام أي هجوم خارجي جدي، كالذي حدث في عام الفيل من هجوم الأحباش على الكعبة، وتخاذل وخذلان القبائل كلها، هذه القبائل التي كان بأسها بينها شديدا!^{١٦٩}

وكان الإسلام قد أنشأ منهم أمة تطل من القمة السامقة على البشرية كلها في السفح، في كل جانب من جوانب الحياة. في جيل واحد. عرف السفح و عرف القمة. عرف الجاهلية و عرف الإسلام. ومن ثم كانوا يتذوقون ويدركون معنى قول الله لهم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» ..

ويقف المؤمن ثالثا: أمام ارتضاء الله الإسلام دينا للذين آمنوا .. يقف أمام رعاية الله - سبحانه - وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه .. وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها، حتى ليختار لها منهج حياتها ..

وإن هذه الكلمات الهائلة لتلقي على عاتق هذه الأمة عبئا ثقيلا، يكافئ هذه الرعاية الجليلة .. أستغفر الله .. فما يكافئ هذه الرعاية الجليلة من الملك الجليل شيء تملك هذه الأمة بكل أجيالها أن تقدمه .. وإنما هو جهد الطاقة في شكر النعمة، ومعرفة المنعم .. وإنما هو إدراك الواجب ثم القيام بما يستطاع منه، وطلب المغفرة والتجاوز عن التقصير والقصور فيه.

إن ارتضاء الله الإسلام دينا لهذه الأمة، ليقضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار. ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار .. وإلا فما أنكد وما أحق من يهمل -

^{١٦٨} - من كتاب: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» للأستاذ العقاد ص ١٥٠ ص ١٥١ (السيد رحمه الله)

^{١٦٩} - يراجع تفسير سورة الفيل في الجزء الثلاثين من الظلال وكذلك الجزء الرابع من ص ٥٠١ - ص ٥١٣. (السيد رحمه الله)

بله أن يرفض - ما رضيه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله! .. وإنها - إذن - الجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء، ولا يترك صاحبها يمضي ناجيا أبدا وقد رفض ما ارتضاه له الله .. ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام ديناً لهم، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين .. فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه .. واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله .. فلن يتركهم الله أبدا ولن يمهلهم أبدا، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون! ^{١٧٠}



^{١٧٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢١٥)

٣٠. وجوب الطهارة قبل الصلاة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) } واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور (٧) } سورة المائدة

في هذه الآية بيّن الله تعالى لعباده المؤمنين شروط الوضوء والتيمم، ويأمر المؤمنين بالوضوء إذا قاموا إلى الصلاة وهم محدثون (ويستحب الوضوء عند كل صلاة). والوضوء هو غسل الوجه، وغسل اليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس كله أو بعضه، وغسل الرجلين إلى الكعبين. ويقول تعالى للمؤمنين: إذا كنتم جنباً فاغسلوا، وإذا كنتم مرضى لا تستطيعون مس الماء للوضوء والاعتسال، أو كنتم على سفر، ولم يبيسر لكم الماء، وإذا أحدثتم (جاء أحد منكم من الغائط)، أو باشرتم النساء، ولم تجدوا ماءً لتغتسلوا وتتوضؤوا فتيمموا ما صعد على سطح الأرض من تراب طاهر (طيب) فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه، والله يريد أن ييسر الأمر عليكم، ولا يخرجكم في أمور دينكم، ولكنه يريد أن يطهركم، وأن يتم نعمته عليكم، فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الروح، ليعبدكم بذلك لدوام شكره على نعمه عليكم، وعلى ما يسره لكم .

وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين فأصبحتم بفضل الله إخواناً متحابين، وتذكروا العهد الذي عاهدكم به، حين بايعتم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره (أي المحبوب والمكره)، والعسر واليسر، حين قلتم سمعنا ما أمرتنا به، وما نهيتنا عنه، وأطعناك فيه فلا نعصيك في معروف، وكل ما جئتنا به فهو معروف. واتقوا الله فلا تنقضوا عهده، ولا تخالفوا ما أمركم به، وما نهاكم عنه، إن الله لا يخفي عليه شيء مما أضمره كل واحد منكم ممن أخذ عليهم الميثاق من الوفاء به، أو عدم الوفاء به، وما تنطوي عليه السرائر من الإخلاص والرياء. ^{١٧١}

إن الحديث عن الصلاة والطهارة إلى جانب الحديث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء. وإن ذكر حكم الطهارة إلى جانب أحكام الصيد والإحرام والتعامل مع الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام ..

^{١٧١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

إن هذا لا يجيء اتفاقاً ومصادفةً لمجرد السرد، ولا يجيء كذلك بعيداً عن جو السياق وأهدافه.. إنما هو يجيء في موضعه من السياق، ولحكيمته في نظم القرآن ..

إنها - أولاً - لفتة إلى لون آخر من الطيبات.. طيبات الروح الخالصة.. إلى جانب طيبات الطعام والنساء.. لون يجد فيه قلب المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع. إنه متاع اللقاء مع الله، في جو من الطهر والخشوع والنفاء.. فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج ارتقى إلى متاع الطهارة والصلاة استكمالاً لألوان المتاع الطيبة في حياة الإنسان.. والتي بها يتكامل وجود «الإنسان».

ثم اللفتة الثانية.. إن أحكام الطهارة والصلاة كأحكام الطعام والنكاح كأحكام الصيد في الحل والحرمة كأحكام التعامل مع الناس في السلم والحرب... كبقية الأحكام التالية في السورة... كلها عبادة لله. وكلها دين الله. فلا انفصام في هذا الدين بين ما اصطُحح أخيراً - في الفقه - على تسميته «بأحكام العبادات»، وما اصطُحح على تسميته «بأحكام المعاملات» ..

هذه التفرقة - التي اصطنعتها «الفقه» حسب مقتضيات «التصنيف» و«التبويب» - لا وجود لها في أصل المنهج الرباني، ولا في أصل الشريعة الإسلامية.. إن هذا المنهج يتألف من هذه وتلك على السواء. وحكم هذه كحكم تلك في أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه وليست هذه بأولى من تلك في الطاعة والاتباع. لا، بل إن أحد الشطرين لا يقوم بغير الآخر. والدين لا يستقيم إلا بتحققهما في حياة الجماعة المسلمة على السواء. كلها «عقود» من التي أمر الله المؤمنين في شأنها بالوفاء. وكلها «عبادات» يؤديها المسلم بنية القربى إلى الله. وكلها «إسلام» وإقرار من المسلم بعبوديته لله.

ليس هنالك «عبادات» وحدها و«معاملات» وحدها.. إلا في «التصنيف الفقهي».. وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا الاصطلاحي.. كلها «عبادات» و«فرائض» و«عقود» مع الله. والإحلال بشيء منها إحلال بعقد الإيمان مع الله^{١٧٢}!

وهذه هي اللفتة التي يشير إليها النسق القرآني وهو يوالي عرض هذه الأحكام المتنوعة في السياق: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...» ..

إن الصلاة لقاء مع الله، ووقوف بين يديه - سبحانه - ودعاء مرفوع إليه، ونجوى وإسرار. فلا بد لهذا الموقف من استعداد. لا بد من تطهر جسدي يصاحبه تهيؤ روحي. ومن هنا كان الوضوء - فيما نحسب والعلم لله - وهذه هي فرائضه المنصوص عليها في هذه الآية: غسل الوجه. وغسل الأيدي إلى المرافق. ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين.. وحول هذه الفرائض خلافات فقهية يسيرة.. أهمها هل هذه الفرائض على الترتيب الذي ذكرت به؟ أم هي تجزئ على غير ترتيب؟ قولان ..

هذا في الحدث الأصغر.. أما الجنابة - سواء بالمباشرة أو الاحتلام - فتوجب الاغتسال ..

^{١٧٢} - يراجع فصل: «الشمول» في كتاب: «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

ولما فرغ من بيان فرائض الوضوء، والغسل، أخذ في بيان حكم التيمم. وذلك في الحالات الآتية :

حالة عدم وجود الماء للمحدث على الإطلاق ..

وحالة المريض المحدث حدثا أصغر يقتضي الوضوء، أو حدثا أكبر يقتضي الغسل والماء يؤذيه ..

وحالة المسافر المحدث حدثا أصغر أو أكبر ..

وقد عبر عن الحدث الأصغر بقوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» .. والغائط مكان منخفض كانوا يقضون حاجتهم فيه .. والمجيء من الغائط كناية عن قضاء الحاجة تبولا أو تبرزا.

وعبر عن الحدث الأكبر بقوله: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» .. لأن هذا التعبير الرقيق يكفي في الكناية عن المباشرة .. ففي هذه الحالات لا يقرب المحدث - حدثا أصغر أو أكبر - الصلاة، حتى يتيمم .. فيقصد صعيدا طيبا .. أي شيئا من جنس الأرض طاهرا - يعبر عن الطهارة بالطيبة - ولو كان ترابا على ظهر الدابة، أو الحائط. فيضرب بكفيه، ثم يفضهما، ثم يمسح بهما وجهه، ثم يمسح بهما يديه إلى المرفقين .. ضربة للوجه واليدين. أو ضربتين .. قولان .. وهناك خلافات فقهية حول المقصود بقوله تعالى: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» .. أهو مجرد الملامسة؟ أم هي المباشرة؟

وهل كل ملامسة بشهوة ولذة أم بغير شهوة ولذة؟ خلاف .. كذلك هل المرض بإطلاقه يميز التيمم؟ أم المرض الذي يؤذيه الماء؟ خلاف .. ثم .. هل برودة الماء من غير مرض وخوف المرض والأذى يميز التيمم .. الأرحح نعم .. وفي ختام الآية يجيء هذا التعقيب: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ..

والتطهر حالة واجبة للقاء الله - كما أسلفنا - وهو يتم في الوضوء والغسل جسما وروحا. فأما في التيمم فيتم الشطر الأخير منه ويجزئ في التطهر عند عدم وجود الماء، أو عند ما يكون هناك ضرر في استعمال الماء. ذلك أن الله - سبحانه - لا يريد أن يعنت الناس، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف. إنما يريد أن يطهرهم، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها .. فهو الرفق والفضل والواقعية في هذا المنهج اليسير القويم.

وتقودنا حكمة الوضوء والغسل والتيمم التي كشف النص عنها هنا: «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ..

تقودنا إلى تلك الوحدة التي يحققها الإسلام في الشعائر والشرائع على السواء. فليس الوضوء والغسل مجرد تنظيف للجسد، ليقول متفلسفة هذه الأيام: إننا لسنا في حاجة إلى هذه الإجراءات، كما كان العرب البدائيون! لأننا نستحم وننظف أعضائنا بحكم الحضارة!

إنما هي محاولة مزدوجة لتوحيد نظافة الجسم وطهارة الروح في عمل واحد وفي عبادة واحدة يتوجه بها المؤمن إلى ربه. وجانب التطهر الروحي أقوى. لأنه عند تعذر استخدام الماء، يستعاض بالتيمم، الذي لا يحقق إلا هذا الشطر الأقوى .. وذلك كله فضلا على أن هذا الدين منهج عام ليواجهه جميع

الحالات، وجميع البيئات، وجميع الأطوار، بنظام واحد ثابت، فتتحقق حكمته في جميع الحالات والبيئات والأطوار في صورة من الصور، بمعنى من المعاني ولا تبطل هذه الحكمة أو تتخلف في أية حال.

فلنحاول أن نتفهم أسرار هذه العقيدة قبل أن نفتي فيها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. ولنحاول أن نكون أكثر أدبا مع الله فيما نعلم وفيما لا نعلم على السواء^{١٧٣}.

كذلك يقودنا الحديث عن التيمم للصلاة عند تعذر الطهارة بالوضوء أو الغسل أو ضررها إلى لفظة أخرى عن الصلاة ذاتها. عن حرص المنهج الإسلامي على إقامة الصلاة وإزالة كل عائق يمنع منها.. فهذا الحكم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى كالصلاة عند الخوف والصلاة في حالة المرض من قعود

أو من استلقاء حسب الإمكان ..

كل هذه الأحكام تكشف عن الحرص البالغ على إقامة الصلاة وتبين إلى أي حد يعتمد المنهج على هذه العبادة لتحقيق أغراضه التربوية في النفس البشرية. إذ يجعل من لقاء الله والوقوف بين يديه وسيلة عميقة الأثر، لا يفرط فيها في أدق الظروف وأخرجها ولا يجعل عقبة من العقبات تحول بين المسلم وبين هذا الوقوف وهذا اللقاء.. لقاء العبد بربه.. وعدم انقطاعه عنه لسبب من الأسباب.. إنها نداوة القلب، واسترواح الظل، وبشاشة اللقاء..^{١٧٤}



^{١٧٣} - كذلك الحال في الزكاة والضرائب المالية. فهذه غير تلك، ولا تعني غناءها ..

^{١٧٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٢٩)

٣١. وجوب العدل بالشهادة وغيرها

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) } سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَكُنْ هَمَّكُمْ وَدَابُّكُمْ التَّزَامَ الْحَقِّ فِي أَنْفُسِكُمْ (بِدُونِ اعْتِدَاءٍ عَلَىٰ أَحَدٍ)، وَفِي غَيْرِكُمْ (بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَحَدَهُ، لَا لِأَجْلِ إِرْضَاءِ النَّاسِ، وَاكْتِسَابِ السُّمْعَةِ الْحَسَنَةِ عِنْدَهُمْ)، وَكُونُوا شُهَدَاءَ بِالْعَدْلِ (الْقِسْطِ)، دُونَ مُحَابَاةِ لِمَشْهُودٍ لَهُ، وَلَا لِمَشْهُودٍ عَلَيْهِ، فَالْعَدْلُ مِيزَانُ الْحُقُوقِ، وَمَتَى وَقَعَ الْجَوْرُ فِي أُمَّةٍ، زَالَتِ الثَّقَةُ مِنْ نُفُوسِ النَّاسِ، وَانْتَشَرَتِ الْمَفَاسِدُ، وَتَقَطَّعَتْ رَوَابِطُ الْمُجْتَمَعِ. وَلَا تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتُكُمْ الشَّدِيدَةَ لِقَوْمٍ، وَبُعْضُكُمْ لَهُمْ عَلَى عَدَمِ الْعَدْلِ فِي أَمْرِ الشَّهَادَةِ لَهُمْ بِحَقِّهِمْ إِذَا كَانُوا أَصْحَابَ حَقٍّ، أَوْ عَلَى عَدَمِ الْحُكْمِ لَهُمْ بِذَلِكَ، فَالْمُؤْمِنُ يُؤْتِرُ الْعَدْلَ عَلَى الْجَوْرِ وَالْمُحَابَاةِ. ثُمَّ يُؤَكِّدُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ السَّابِقَ بِضُرُورَةِ إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالْقِسْطِ فَيَقُولُ: اَعْدِلُوا لِأَنَّ الْعَدْلَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى اللَّهِ، وَأَبْعَدُ عَنْ سَخَطِهِ، وَاتَّقُوا سَخَطَ اللَّهِ وَعِقَابَهُ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، وَاحْذَرُوا أَنْ يُجَازِيَكُمْ بِالْعَدْلِ عَلَى تَرْكِكُمْ الْقِيَامَ بِالْعَدْلِ .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَيُكْتَبُ عَلَيْهِ وَرُسُلُهُ. وَعَمِلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَرْضَاهَا رَبُّهُمْ (مِثْلَ الْعَدْلِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمُرَاعَاةِ جَانِبِ اللَّهِ فِي أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِي رَوَابِطِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ)، بِأَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيُثَبِّتُهُمْ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الْجِزَاءُ الْمُضَاعَفُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً مِنْ لَدُنْهُ. ^{١٧٥}

لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام، على الاعتداء. وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل.. وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق. فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده تتجاوز به إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلمي ينتهي عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبعوضين المشنئين! والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة. فيقدم له بما يعين عليه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ...»

^{١٧٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٧٨، بترقيم الشاملة آليا)

ويعقب عليه بما يعين عليه أيضا: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» ..
إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع الله. حين تقوم
لله، متجردة عن كل ما عداه. وحين تستشعر تقواه، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور.
وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق، ويثبتها عليه.
وما غير القيام لله، والتعامل معه مباشرة، والتجرد من كل اعتبار آخر، بملك أن يستوي بهذه النفس
على هذا المرتقى.

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوقين، كما يكفله لهم هذا
الدين حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا لله في هذا الأمر وأن يتعاملوا معه، متجردين عن كل اعتبار .
وبهذه المقومات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير الذي يتكفل نظامه للناس جميعا -
معتنقيه وغير معتنقيه - أن يتمتعوا في ظلّه بالعدل وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه، يتعاملون
فيها مع ربهم، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن ..

وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية: مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة وأدت تكاليفها هذه يوم استقامت على الإسلام. ولم تكن هذه في
حياتها مجرد وصايا، ولا مجرد مثل عليا، ولكنها كانت واقعا من الواقع في حياتها اليومية، واقعا لم تشهد
البشرية مثله من قبل ولا من بعد، ولم تعرفه في هذا المستوي إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة .. والأمثلة
التي وعها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة. تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية، قد
استحالت في حياة هذه الأمة منهجا في عالم الواقع يؤدي ببساطة، ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة
.. إنها لم تكن مثلا عليا خيالية، ولا نماذج كذلك فردية. إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن
هناك طريقا آخر سواه.

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها - بما فيها جاهلية
العصور الحديثة - ندرك المدى المتطاوّل بين منهج يصنعه الله للبشر، ومنهج يصنعها الناس
للناس. ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة.

إن الناس قد يعرفون المبادئ ويهتفون بها .. ولكن هذا شيء، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر ..
وهذه المبادئ التي يهتف بها الناس للناس طبيعي، ألا تتحقق في عالم الواقع .. فليس المهم أن يدعى
الناس إلى المبادئ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها .. المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة .. المهم
هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر .. المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة
كدهم وكدهم لتحقيق هذه المبادئ ..

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادئ التي تدعو إليها، هو سلطان الدين المستمد من سلطان الله، فما يقوله
فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر؟ وماذا يملك للناس حين يعودون

إليه بكـدحهم وكـدهم في تحقيق هذه المبادئ؟ يهتف ألف هاتف بالعدل. وبالتطهر. وبالتحرر. وبالتسامي. وبالسماحة. وبالحب. وبالتضحية. وبالإيثار... ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس ولا يفرض نفسه على القلوب. لأنه دعاء ما أنزل الله به من سلطان! ليس المهم هو الكلام.. ولكن المهم من وراء هذا الكلام! ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادئ والمثل والشعارات - مجردة من سلطان الله - ولكن ما أثرها؟ إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم. تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور. فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس. فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر! ثم إن قيمة هذه «الوصايا» في الدين، أنها تتكامل مع «الإجراءات» لتكيف الحياة. فهو لا يلقيها مجردة في الهواء.. فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا وإلى مجرد شعائر فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان..

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه. ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات!.. وهذا هو «الدين» في المفهوم الإسلامي دون سواه.. الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة. وحين تحقق «الدين». بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء.. وحين تحول «الدين» إلى وصايا على المنابر وإلى شعائر في المساجد وتخلي عن نظام الحياة.. لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة!^{١٧٦}



^{١٧٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٣٣)

٣٢. وجوب ذكر نعم الله علينا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } (١١) سورة المائدة
وفي هذه الآية تذكير للمؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم إذ دفع الشرّ والمكروه عن نبيهم ﷺ وعَنَهُمْ، حينما هم قَوْمٌ أَنْ يَمْدُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَيْهِمْ بِصُنُوفِ الشَّرِّ وَالْإِيذَاءِ، فَكَفَّ اللَّهُ تَعَالَى بِلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا تَنْفِيذَ مَا هَمُّوا بِهِ .

ويأمر الله تعالى المؤمنين بأن يتقوه، وهو تعالى الذي أراهم قدرته على أعدائهم وقت ضعف المؤمنين، وقوة أعدائهم، ويأمرهم بأن يتوكلوا عليه وحده، بعد أن أراهم عنايته بمن يتوكلون عليه^{١٧٧} .
قال الطبري: " وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك ، قول من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به وبرسوله ، التي أنعم بها عليهم في استنفاذه نبيهم محمداً ﷺ ، مما كانت يهود بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم نبي الله ﷺ في الدية التي كان تحمّلها عن قتيلى عمرو بن أمية وإبما قلنا ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك ، لأن الله عقب ذكر ذلك برمي اليهود بصنائعها وبيع أفعالها وحياتها ربها وأنبياؤها. ثم أمر نبيه ﷺ بالعفو عنهم والصّفح عن عظيم جهلهم ، فكان معلوماً بذلك أنه ﷺ لم يؤمر بالعفو عنهم والصّفح عقيب قوله: { إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ } [المائدة: ١١] ومن غيرهم كان يسط الأيدي إليهم ، لأنه لو كان الذين هموا بسط الأيدي إليهم غيرهم لكان حرياً أن يكون الأمر بالعفو والصّفح عنهم لا عمّن لم يجز لهم بذلك ذكر ، وكان الوصف بالخيانة في وصفهم في هذا الموضع لا في وصف من لم يجز لخيانته ذكر ، ففي ذلك ما ينبئ عن صحة ما قضينا له بالصحة من التأويلات في ذلك دون ما خالفه^{١٧٨}

وأيا ما كان الحادث، فإن عبرته في هذا المقام هي المنشودة في المنهج التربوي الفريد، وهي إمامة الغيظ والشنآن لهؤلاء القوم في صدور المسلمين. كي يفيئوا إلى الهدوء والطمأنينة وهم يرون أن الله هو راعيهم وكالهم.

وفي ظل الهدوء والطمأنينة يصبح ضبط النفس، وسماحة القلب، وإقامة العدل ميسورة. ويستحيي المسلمون أن لا يفوا بميثاقهم مع الله وهو يرعاهم ويكلوهم، ويكف الأيدي المبسوطة إليهم.

^{١٧٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٦٨١، بترقيم الشاملة آليا)

^{١٧٨} - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٣٣ / ٨)

ولا ننس أن نقف وقفة قصيرة أمام التعبير القرآني المصور: «إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ» .. في مقام: إذ هم قوم أن ييطشوا بكم ويعتدوا عليكم فحماكم الله منهم ..
إن صورة و«حركة» بسط الأيدي وكفها أكثر حيوية من ذلك التعبير المعنوي الآخر .. والتعبير القرآني يتبع طريقة الصورة والحركة. لأن هذه الطريقة تطلق الشحنة الكاملة في التعبير كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى، مصاحبا للواقعة الحسية التي يعبر عنها مبرزاً لها في صورتها الحية المتحركة .. وتلك طريقة القرآن^{١٧٩}.



^{١٧٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٣٦)

٣٣. وجوب تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

(٣٥) سورة المائدة

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ حَقًّا وَصِدْقًا، وَاتَّقَاءِ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ، وَذَلِكَ بِعَدَمِ مُخَالَفَةِ شَرْعِهِ، وَالانْتِكَافِ عَنْ إِثْبَانِ مَحَارِمِهِ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ، وَبِأَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، وَبِالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ). ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِجِهَادِ أَعْدَائِهِمْ، وَأَعْدَاءِ اللَّهِ، الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ. وَرَغَّبَهُمْ تَعَالَى فِي الْجِهَادِ، بِأَنْ أَبَانَ لَهُمْ مَا أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَزِيلِ الثَّوَابِ، وَكَرِيمِ الْمَنْزِلَةِ، فَلَعَلَّهُمْ، إِنْ قَامُوا بِأَمْرِ رَبِّهِمْ، أَنْ يُفْلِحُوا بِالْفَوْزِ بِرِضَى اللَّهِ وَجَنَّتِهِ .

(وَيَشْمَلُ الْجِهَادُ كُلَّ جَهْدٍ فِي الدَّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ، وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَى التَّزَامِهِ، كَمَا يَشْمَلُ جِهَادَ النَّفْسِ بِكِفِّهَا عَنِ أَهْوَائِهَا، وَحَمْلِهَا عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ)^{١٨٠}

وقال ابن كثير: " يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَهِيَ إِذَا قُرِنَتْ بِالطَّاعَةِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْانْتِكَافَ عَنِ الْمَحَارِمِ وَتَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا: { وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيِ الْقُرْبَةِ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ [وَعَطَاءٌ] وَأَبُو وَائِلٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَثِيرٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيِ تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ. وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ } [الْإِسْرَاءِ: ٥٧] وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ لَاءِ الْأَيْمَةِ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُفَسِّرِينَ فِيهِ وَأَنْشَدَ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَيْهِ قَوْلَ الشَّاعِرِ

إِذَا غَفَلَ الْوَأَشُونَ عُدْنَا لَوْصَلْنَا ... وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ ...

وَالْوَسِيلَةُ: هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ، وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا: عَلِمٌ عَلَى أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمْكِنَةِ الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ " .^{١٨١}

^{١٨٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٠٥، بترقيم الشاملة آليا)

^{١٨١} - صحيح البخاري (١/ ١٢٦) (٦١٤)

[ش (الدعوة التامة) المراد ألفاظ الأذان يدعى بها إلى عبادة الله تعالى ووصفت بالتمام وهو الكمال لأنها دعوة التوحيد المحكمة التي لا يدخلها نقص بشرك أو نسخ أو تغيير أو تبديل. (الوسيلة) ما يتقرب به إلى غيره. (الفضيلة) المرتبة الزائدة على سائر الخلاق ووالمراد هنا منزلة في الجنة لا تكن إلا لعبد واحد من عباد الله عز وجل. (وعدته) أي بقوله تعالى { عسى أن يعينك ربك مقاما محمودا } / الإسراء ٧٩ / . (حلت) استحققت. (شفاعتي) أي أن أشفع له بدخول الجنة أو رفع درجاته حسبما يليق به]

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»^{١٨٢}

وَقَوْلُهُ: {وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، النَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنَ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ فِي الْغُرْفِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ الْأَمْنَةِ، الْحَسَنَةِ مَنَاطِرُهَا، الطَّيِّبَةِ مَسَاكِنُهَا، الَّتِي مَنْ سَكَنَهَا يَنْعَمُ لَا يَبْئَسُ، وَيَحْيَا لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى تِبَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ.^{١٨٣}

إن هذا المنهج المتكامل يأخذ النفس البشرية من أقطارها جميعا ويخاطب الكينونة البشرية من مداخلها جميعا ويلمس أوتارها الحية كلها وهو يدفعها إلى الطاعة ويصدها عن المعصية .. إن الهدف الأول للمنهج هو تقويم النفس البشرية وكفها عن الانحراف. والعقوبة وسيلة من الوسائل الكثيرة. وليست العقوبة غاية، كما أنها ليست الوسيلة الوحيدة. وهنا نرى أنه يبدأ هذا الشوط بنبي ابن آدم - بكل ما فيه من موحيات - ثم يثني بالعقوبة التي تخلع القلوب. ثم يعقب بالدعوة إلى تقوى الله وخشيته والخوف من عقابه. ومع الدعوة التصوير الرعيب للعقاب .. «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ» ..

فالخوف ينبغي أن يكون من الله. فهذا هو الخوف اللائق بكرامة الإنسان. أما الخوف من السيف والسوط فهو منزلة هابطة. لا تحتاج إليها إلا النفوس الهابطة .. والخوف من الله أولى وأكرم وأزكى .. على أن تقوى الله هي التي تصاحب الضمير في السر والعلن وهي التي تكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس، ولا تتناولها يد القانون. وما يمكن أن يقوم القانون وحده - مع ضرورته - بدون التقوى لأن ما يفلت من يد القانون حينئذ أضعاف أضعاف ما تناله. ولا صلاح لنفس، ولا صلاح لمجتمع يقوم على القانون وحده بلا رقابة غيبية وراعه، وبلا سلطة إلهية يتقيها الضمير.

«وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ» .. اتقوا الله واطلبوا إليه الوسيلة وتلمسوا ما يصلكم به من الأسباب .. وفي رواية عن ابن عباس: ابتغوا إليه الوسيلة أي ابتغوا إليه الحاجة. والبشر حين يشعرون بحاجتهم إلى الله وحين يطلبون عنده حاجتهم يكونون في الوضع الصحيح للعبودية أمام الربوبية ويكونون - بهذا - في

^{١٨٢} - صحيح مسلم (١/ ٢٨٨) ١١ - (٣٨٤) وتفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٠٣)

[ش (الوسيلة) قد فسرها صلى الله عليه وسلم بأنها منزلة في الجنة قال أهل اللغة الوسيلة المنزلة عند الملك (أنا هو) خير كان وقع موقع إياه هذا على تقدير أن يكون أنا تأكيدا للضمير المستتر في أكون ويحتمل أن يكون أنا مبتدأ وهو خبره والجملة خبر أكون (حلت) أي وجبت وقيل نالته]

^{١٨٣} - تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٠٣)

أصلح أوضاعهم وأقرها إلى الفلاح. وكلا التفسيرين يصلح للعبارة ويؤدي إلى صلاح القلب، وحياة الضمير، وينتهي إلى الفلاح المرجو. «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ..

وعلى الجانب الآخر مشهد الكفار، الذين لا يتقون الله ولا يتغون إليه الوسيلة ولا يفلحون .. وهو مشهد شاخص متحرك لا يعبر عنه السياق القرآني في أوصاف وتقريرات، ولكن في حركات وانفعالات .. على طريقة القرآن في رسم مشاهد القيامة وفي أداء معظم الأغراض: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ» ..

إن أقصى ما يتصوره الخيال على أساس الافتراض: هو أن يكون للذين كفروا كل ما في الأرض جميعا. ولكن السياق يفترض لهم ما هو فوق الخيال في عالم الافتراض. فيفرض أن لهم ما في الأرض جميعا، ومثله معه ويصورهم يحاولون الافتداء بهذا وذلك، لينجوا به من عذاب يوم القيامة. ويرسم مشاهدهم وهم يحاولون الخروج من النار. ثم عجزهم عن بلوغ الهدف، وبقاءهم في العذاب الأليم المقيم ..

إنه مشهد مجسم ذو مناظر وحركات متواليات .. منظرهم ومعهم ما في الأرض ومثله معه .. ومنظرهم وهم يعرضونه ليفتدوا به. ومنظرهم وهم محيبيو الطلب غير مقبولي الرجاء .. ومنظرهم وهم يدخلون النار .. ومنظرهم وهم يحاولون الخروج منها .. ومنظرهم وهم يرغمون على البقاء. ويسدل الستار، ويتركهم مقيمين هناك^{١٨٤} !.



١٨٤ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٢٦٥)

٣٤. تحريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) } سورة المائدة

يَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَاتَّخَاذِهِمْ حُلَفَاءَ لَهُمْ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ مَنْ يَتَّخِذُهُمْ نُصْرَاءَ وَحُلَفَاءَ وَأَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهُوَ مِنْهُمْ فِي التَّحَرُّبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ. وَمَنْ يَتَوَلَّى أَعْدَاءَ اللَّهِ فَهُوَ ظَالِمٌ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِيهِ إِلَى الْخَيْرِ. وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ .

وَإِذْ كَانَتْ وَلَايَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا الظَّالِمُونَ فَإِنَّكَ تَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ (مَرَضٌ) يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ، وَإِلَى مُوَادَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَيَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَفِي مُوَالَاتِهِمْ، أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَهْرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ (تُصِيبُنَا دَائِرَةٌ) فَتَكُونُ لَهُمْ أَيْدٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ حِينَئِذٍ. فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَهُ بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُحَقِّقَ لَهُمُ الْفَتْحَ وَالْعَلْبَةَ، أَوْ يُتِمَّ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِهِ كَفَرَضِ الْجَزِيَّةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيُصْبِحَ الَّذِينَ وَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ نَادِمِينَ عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مُوَالَاةِ هَؤُلَاءِ تَحْسِبًا لِمَا لَمْ يَقَعْ، وَلَمْ يَنْفَعَهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَخْذُورًا .

لَمَّا تَجَأَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يُوَالُونَهُمْ وَيُوَادُّونَهُمْ، افْتَضَحَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَتَسْتَرُونَ، لَا يَدْرِي أَحَدٌ كَيْفَ حَالُهُمْ، فَتَعَجَّبَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهُمْ، كَيْفَ كَانُوا يَظْهَرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُعَاذُونَهُمْ وَيُسَاعِدُونَهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمُ الْيَهُودَ، فَلَمَّا جَدَّ الْجِدُّ أَظْهَرُوا مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ مُوَالَاتِهِمْ وَمُمَالَاتِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَلَمَّا اسْتَبَانَ حَالُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: لَقَدْ هَلَكْتَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ وَزَكَاةٍ وَجِهَادٍ، وَخَسِرُوا بِذَلِكَ مَا كَانُوا يَرْجُونَ مِنْ الثَّوَابِ

١٨٥ .

وهكذا تقرر تلك القاعدة الأصلية الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان. ولم يعد هناك مجال للجمع بين «الإسلام» وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة

المختارة. والذين يدعون صفة الإسلام، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة، إما أنهم لا يعرفون الإسلام وإما أنهم يرفضونه. والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا! وندع هذه القاعدة - وقد صارت واضحة تماما - لننظر في جوانب من حكمة الله في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص «الإنسان» التي تفرقه من عالم البهيمة لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكيونته عن تركيب البهيمة وكيونتها - وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنسانا في هذه الصورة - وحتى أشد الملحدن إلحادا وأكثر الماديين مادية، قد انتبهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان^{١٨٦}.

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة - في المجتمع الإنساني الذي يبلغ ذروة الحضارة الإنسانية - هي آصرة التجمع. لأنها العنصر الذي يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم. ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان مع البهائم! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة، وسياج الحظيرة! ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة .. فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة. وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة!

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم .. هو عنصر الاختيار والإرادة، فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد وبذلك يقرر نوع المجتمع الذي يريد أن يعيش فيه مختارا ونوع المنهج الاعتقادي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والخلقي الذي يريد - بكامل حريته - أن يتمذهب به ويعيش ..

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه. كما لا يملك أن يقرر الأرض التي يجب أن يولد فيها، ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها .. إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية! .. إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأي إنما هي تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره! فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معا - أو حتى في الدنيا وحدها - بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضا لم يكن مختارا ولا مريدا وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص مقوماتها وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له من سائر الخلائق! ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية، والمحافظة على الكرامة التي وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص يجعل الإسلام

^{١٨٦} - من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة! (السيد رحمه الله)

العقيدة - التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد - هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية. وينبغي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية، التي لا يدله فيها، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته.

ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة - وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى - أن ينشئ مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي لا يصدهم عنه صاد، ولا يقوم في وجوههم حاجز، ولا تقف دونه حدود مصطنعة، خارجة عن خصائص الإنسان العليا. وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية، وتجتمع في صعيد واحد، لتنشئ «حضارة إنسانية» تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ولا تغلق دون كفاية واحدة، بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض ..

«ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية وإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها، دون أوامر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة، والحدود الإقليمية السخيفة!

ولإبراز «خصائص الإنسان» في هذا التجمع وتمييزها وإعلائها، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان .. كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت، وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة. وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة، تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان. «لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق: العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإفريقي ... إلى آخر الأقوام والأجناس .. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائما «إسلامية» ولم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائما «عقدية».

«ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة، وبآصرة الحب. وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة. فبدلوا جميعا أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق برهم الواحد، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق. وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع

آخر على مدار التاريخ! «لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا. فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة، ولغات متعددة، وألوانا متعددة، وأمزجة متعددة. ولكن هذا كله لم يقيم على «آصرة إنسانية» ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة.. لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى. ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي.

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى.. تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا.. ولكنه كان كالتجمع الروماني، الذي هو وريثه! تجمعا قوميا استغلاليا، يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية.. ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها.. الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما، والإمبراطورية الفرنسية.. كلها في ذلك المستوي الهابط البشع المقيت! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون.

ولكنها لم تقمه على قاعدة «إنسانية» عامة، إنما أقامته على القاعدة «الطبقية». فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم.. هذا تجمع على قاعدة طبقة «الأشراف» وذلك تجمع على قاعدة طبقة «الصعاليك» (البروليتريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني.. فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها. باعتبار أن «المطالب الأساسية» للإنسان هي «الطعام والمسكن والجنس» - وهي مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام!!

«لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلانها في بناء المجتمع الإنساني.. وما يزال متفردا.. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر، يقوم على أية قاعدة أخرى، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة.. إلى آخر هذا التن السخيف، هم أعداء «الإنسان» حقا! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق»^{١٨٧}..

ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته وهم الذين يقول الله تعالى فيهم: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».. لم يفتهم أن يدركوا أن

^{١٨٧} - مقتطفات من فصل: «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» من كتاب: «معالم في الطريق». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين، وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس ..

ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .. لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد، أصناما تعبد من دون الله، اسمها تارة «الوطن» واسمها تارة «القوم» واسمها تارة «الجنس». وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم «الشعبوية» وتارة باسم «الجنسية الطورانية» وتارة باسم «القومية العربية» وتارة بأسماء شتى، تحملها جبهات شتى، تتصارع فيما بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة، المنظم بأحكام الشريعة ... إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية، وتحت الإيجاعات الخبيثة المسمومة وإلى أن أصبحت تلك «الأصنام» مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه! أو خائنا لمصالح بلده!!! وأخبت المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ .. كان هو المعسكر اليهودي الخبيث، الذي جرب سلاح «القومية» في تحطيم التجمع المسيحي، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية .. وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود! وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي - بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي .. ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله. كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي. وما يزالون.

حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ليقوم التجمع الإسلامي من جديد، على أساسه المتين الفريد ..

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم. ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم. يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد، وألا تتعدد «المقدسات»! ويجب أن يكون هناك شعار واحد، وألا تتعدد «الشعارات» ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمنتجعات ..

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية! إن الوثنية يمكن أن تتمثل في صور شتى كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صوراً متعددة وآلهة أساطير يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أيًا كانت أسماءها. وأيًا كانت مراسمها.

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان.. وما إليها.. يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها. وهو يدعوهم إلى الله وحده، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه!

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري.. أمة المسلمين من أتباع الرسل - كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون..

وعند ما أراد الله أن يعرف المسلمين بآمتهم التي تجمعهم على مدار القرون، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل - كل في زمانه - وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».. ولم يقل للعرب: إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء! ولا قال لليهود: إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء! ولا قال لسلمان الفارسي: إن أمتك هي فارس! ولا لصهيب الرومي: إن أمتك هي الرومان! ولا لبلال الحبشي: إن أمتك هي الحبشة! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش: إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب، وإسماعيل وإدريس وذي الكفل وذي النون، وزكريا ويحيى، ومريم.. كما جاء في سورة الأنبياء: (آيات: ٤٨ - ٩١). هذه هي أمة «المسلمين» في تعريف الله سبحانه.. فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه. ولكن ليقبل: إنه ليس من المسلمين!

أما نحن الذين أسلمنا لله، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها لنا الله. والله يقص الحق وهو خير الفاصلين.. وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح في هذه القضية الأساسية في هذا الدين^{١٨٨}

ويحسن أن نبين أولا معنى الولاية التي ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى.. إنها تعني التناصر والتحالف معهم. ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم. فبعيد جدا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر، الذي كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأوصار، ومن قيام هذا الولاية بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. بعد ما تبين عدم إمكان قيام الولاية والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود في المدينة..

^{١٨٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٢٤)

وهذا المعنى معروف محدد في التعبيرات القرآنية. وقد جاء في صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين في المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام. فقال الله سبحانه: «مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا».. وطبيعي أن المقصود هنا ليس الولاية في الدين. فالمسلم ولي المسلم في الدين على كل حال. إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون. فهي التي لا تقوم بين المسلمين في دار الإسلام والمسلمين الذين لم يهاجروا إليهم.. وهذا اللون من الولاية هو الذي تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال، بعد ما كان قائما بينهم أول العهد في المدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنها يحتلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، بوصفه حركة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع في الأرض، وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم فسوقهم عن منهج الله، وتدخل في معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذي تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منسئة..

وهؤلاء الذين تحتلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقي بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه مكفولي الحقوق، وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقسمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم. وأنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة. وأنهم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقارير الحاسمة.

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه منهي عن الولاء لهم. بمعنى التناصر والتحالف معهم.

وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاته بعضهم لبعض في حربه والكيد له..

وسداجة أية سداجة وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدون! فهم مع الكفار والملحدون، إذا كانت المعركة مع المسلمين!!!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعا أهل

دين! - ناسين تعليم القرآن كله وناسين تعليم التاريخ كله. فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: «هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً».. وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعا وردءا. وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا العرب المسلمين في فلسطين، وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية! وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان.. في الحبشة والصومال واريتريا والجزائر، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية، في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند، وفي كل مكان! ثم يظهر بيننا من يظن - في بعد كامل عن قرارات القرآن الحازمة - أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية الإلحادية عن الدين! إن هؤلاء لا يقرأون القرآن. وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاة الذي يحذر منه القرآن.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابيه تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذي لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعي الوحيد! وندع هؤلاء في إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآني، لنعي نحن هذا التوجيه القرآني الصريح: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ.. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».. هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة في المدينة - ولكنه في الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة.. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: «الَّذِينَ آمَنُوا».. ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين في المدينة وبعض أهل الكتاب - وبخاصة اليهود - فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة.. وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخي والاقتصادي والاجتماعي في المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدين وأهله بكل صنوف الكيد التي عدتها وكشفتها النصوص القرآنية الكثيرة والتي سبق استعراض بعضها في الأجزاء الخمسة الماضية من هذه الظلال والتي يتولى هذا الدرس وصف بعضها كذلك في هذه النصوص.

ونزل القرآن لبيث الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة. ولينشئ في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ولا يقف تحت رايتها الخاصة. المفاصلة التي لا تنهي السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم

دائما. ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا.. الوعي
والمفاصلة اللذان لا بد منهما للمسلم في كل أرض وفي كل جيل.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ.. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ». بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أي أرض ولا في أي تاريخ.. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذه القولة الصادقة.. لقد ولي بعضهم بعضا في حرب محمد - ﷺ - والجماعة المسلمة في المدينة. وولي بعضهم بعضا في كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ.. ولم تحتل هذه القاعدة مرة واحدة ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، في صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الاسمية على هذا النحو.. بعضهم أولياء بعض.. ليست مجرد تعبير! إنما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل! ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها.. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم. والفرد الذي يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من الصف ويخلع عن نفسه صفة هذا الصف «الإسلام» وينضم إلى الصف الآخر. لأن هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ».. وكان ظالما لنفسه ولدين الله وللجماعة المسلمة.. وبسبب من ظلمه هذا يدخله الله في زمرة اليهود والنصارى الذين أعطاهم ولاءه. ولا يهديه إلى الحق ولا يرده إلى الصف المسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».. لقد كان هذا تحذيرا عنيفا للجماعة المسلمة في المدينة. ولكنه تحذير ليس مبالغا فيه. فهو عنيف. نعم ولكنه يمثل الحقيقة الواقعة. فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى - وبعضهم أولياء بعض - ثم يبقى له إسلامه وإيمانه، وتبقى له عضويته في الصف المسلم، الذي يتولى الله ورسوله والذين آمنوا.. فهذا مفرق الطريق..

وما يمكن أن يتميع حسم المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام وبينه وبين كل من يرفع راية غير راية الإسلام ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف - أول ما تستهدف - إقامة نظام واقعي في الأرض فريد يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى..

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم، الذي لا أرجحة فيه ولا تردد، بأن دينه هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس - بعد رسالة محمد - ﷺ - وبأن منهجه الذي كلفه الله أن يقيم الحياة عليه، منهج متفرد لا نظير له بين سائر المناهج ولا يمكن الاستغناء عنه. بمنهج آخر ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه ولا يعفيه الله ولا يغفر له ولا يقبله إلا إذا هو بذل جهد طاقته في إقامة هذا المنهج بكل جوانبه: الاعتقادية والاجتماعية لم يأل في ذلك جهدا، ولم يقبل من منهجه بدिला - ولا في جزء منه

صغير - ولم يخلط بينه وبين أي منهج آخر في تصور اعتقادي، ولا في نظام اجتماعي، ولا في أحكام
تشريعية، إلا ما استبقاه الله في هذا المنهج من شرائع من قبلنا من أهل الكتاب ...
إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذي يدفعه للاضطلاع بعبء
النهوض بتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس في وجه العقبات الشاقة، والتكاليف المضنية، والمقاومة
العنيدة، والكيد الناصب، والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان .. وإلا فما العناء في أمر
يعني عنه غيره - مما هو قائم في الأرض من جاهلية .. سواء كانت هذه الجاهلية ممثلة في وثنية
الشرك، أو في انحراف أهل الكتاب، أو في الإلحاد السافر .. بل ما العناء في إقامة المنهج الإسلامي، إذا
كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أو غيرهم قليلة يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟
إن الذين يحاولون تميع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان
السماوية، يخطئون فهم معنى الأديان كما يخطئون فهم معنى التسامح. فالدين هو الدين الأخير وحده
عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي
.. إنهم يحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق
منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي
ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» .. «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ
مِنْهُ» .. «وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» .. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ .. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» .. وفي القرآن كلمة الفصل
.. ولا على المسلم من تميع المتميعين وتميعهم لهذا اليقين! ويصور السياق القرآني تلك الحالة التي
كانت واقعة والتي يتزل القرآن من أجلها بهذا التحذير: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ
فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» .. روى ابن جرير عن عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ عُبَادَةَ بْنُ
الصَّامِتِ مِنْ بَنِي الْحَرِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَوَالِيٍّ مِنْ يَهُودَ
كَثِيرٍ عَدَدَهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
أَبِي: إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ، لَأَبْرَأُ مِنْ وَلَايَةِ مَوَالِيٍّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: يَا
أَبَا الْحُبَابِ مَا بَخَلْتَ بِهِ مِنْ وَلَايَةِ يَهُودَ عَلَى عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ إِلَيْكَ دُونَهُ " قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ. فَأَنْزَلَ
اللَّهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى قَوْلِهِ: فَتَرَى الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ۗ ۱۸۹ ...

وعن الزهري، قال: لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من يهود: آمِنُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ
بِیَوْمٍ مِثْلِ یَوْمِ بَدْرٍ. فَقَالَ مَالِكُ بْنُ صَيْفٍ: غَرَّكُمْ أَنْ أَصَبْتُمْ رَهْطًا مِنْ قُرَيْشٍ لَأَعْلَمَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ، أَمَا

١٨٩ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (١١٠٥١) وفيه انقطاع

لَوْ أَسْرَرْنَا الْعَزِيمَةَ أَنْ نَسْتَجْمِعَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَدٌ أَنْ تُقَاتِلُونَا ، فَقَالَ عِبَادَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ أَوْلِيَاءِي مِنَ الْيَهُودِ كَانَتْ شَدِيدَةً أَنْفُسُهُمْ كَثِيرًا سِلَاحُهُمْ شَدِيدَةً شَوْكَتُهُمْ ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ مِنْ وَلَايَتِهِمْ ، وَلَا مَوْلَى لِي إِلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي لَكْنِي: لَكِنِّي لَا أَبْرَأُ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ ، إِنِّي رَجُلٌ لَا بُدَّ لِي مِنْهُمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَا أَبَا حُبَابَ ، أَرَأَيْتُ الَّذِي نَفَسْتَ بِهِ مِنْ وَلَاءِ يَهُودَ عَلَى عِبَادَةِ ، فَهُوَ لَكَ دُونَهُ " قَالَ: إِذْنُ أَقْبَلُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَى أَنْ بَلَغَ إِلَيَّ قَوْلُهُ: وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ " ١٩٠ ..

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي. وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أحسن في موالي. قال: فأعرض عنه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: "أرسلني". وغضب رسول الله ﷺ حتى رُمي لوجهه ظللاً ثم قال: "ويحك أرسلني". قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: "هم لك." " ١٩١ ..

وقال محمد بن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف بن الخزرج، له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

١٩٠ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (١١٠٥٢) ضعيف جدا

١٩١ - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٨) ط، المغرب. صحيح مرسل

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) [المائدة: ٥١ - ٥٦] ١٩٢ ..

وعن أسامة بن زيد، قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوذ، فقال له النبي ﷺ: قد كنت أنهلك عن حب يهود فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة، فمات. ١٩٣

فهذه الأخبار في مجموعها تشير إلى تلك الحالة التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والمتخلفة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام وكذلك عن التصورات التي لم تكن قد حسمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الجماعة المسلمة واليهود والتي لا يمكن أن تقوم.. غير أن الذي يلفت النظر أنها كلها تتحدث عن اليهود، ولم يجر ذكر في الوقائع للنصارى.. ولكن النص يجمع اليهود والنصارى.. ذلك أنه بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة وأوضاع دائمة بين الجماعة المسلمة وسائر الجماعات الأخرى، سواء من أهل الكتاب أو من المشركين (كما سيحيى في سياق هذا الدرس).. ومع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في حملتها في العهد النبوي، ومع إشارة القرآن الكريم في موضع آخر من السورة إلى هذا الاختلاف في قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى.. إلخ».. مع هذا الاختلاف الذي كان يومذاك، فإن النص هنا يسوي بين اليهود والنصارى - كما يسوي النص القادم بينهم جميعا وبين الكفار.. فيما يختص بقضية المخالفة والولاء. ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة هي: أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة.. ويستوي بعد ذلك كل الفرق في هذا الأمر.. مهما اختلفت مواقفهم من المسلمين في بعض الظروف..

على أن الله - سبحانه - وهو يضع للجماعة المسلمة هذه القاعدة العامة الحازمة الصارمة، كان علمه يتناول الزمان كله، لا تلك الفترة الخاصة من حياة رسول الله ﷺ - وملابساتها الموقوتة.. وقد أظهر التاريخ الواقع فيما بعد أن عداة النصارى لهذا الدين وللجماعة المسلمة في معظم بقاع الأرض لم يكن أقل من عداة اليهود.. وإذا نحن استثنينا موقف نصارى العرب ونصارى مصر في حسن استقبال الإسلام، فإننا نجد الرقعة النصرانية في الغرب، قد حملت للإسلام في تاريخها كله منذ أن احتكت به من العداوة والضغن، وشتت عليه من الحرب والكيد، ما لا يفترق عن حرب اليهود وكيدهم في أي زمان! حتى الحبشة التي أحسن عاهلها استقبال المهاجرين المسلمين واستقبال الإسلام، عادت فإذا هي أشد حربا على الإسلام والمسلمين من كل أحد لا يجاريها في هذا إلا اليهود..

١٩٢ - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٣ / ١٣٤) وسيرة ابن إسحاق برقم (٤٩٩) ط، المغرب. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام

(٤٩/٢) وتفسير الطبري (١٠/٣٩٦، ٣٩٧) صحيح مرسل

١٩٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٢٨٠) (٢١٧٥٨) ٢٢١٠١ - صحيح

وكان الله - سبحانه - يعلم الأمر كله. فوضع للمسلم هذه القاعدة العامة. بغض النظر عن واقع الفترة التي كان هذا القرآن يتزل فيها وملاساتها الموقوتة! وبغض النظر عما يقع مثلها في بعض الأحيان هنا وهناك إلى آخر الزمان.

وما يزال الإسلام والذين يتصفون به - ولو أنهم ليسوا من الإسلام في شيء - يلقون من عنق الحرب المشوبة عليهم وعلى عقيدتهم من اليهود والنصارى في كل مكان على سطح الأرض، ما يصدق قول الله تعالى: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».. وما يحتم أن يتدرع المسلمون الواعون بنصيحة ربهم لهم. بل بأمره الجازم، ونهيه القاطع وقضائه الحاسم في المفاصلة الكاملة بين أولياء الله ورسوله، وكل معسكر آخر لا يرفع راية الله ورسوله ..

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء - وهو التناصر - بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة .. ولا حتى أمام الإلحاد مثلا - كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! - وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إن بعض من لا يقرأون القرآن، ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخدوعين أيضا .. يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذن أن يقف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد. لأن الإلحاد ينكر الدين كله، ويحارب التدين على الإطلاق ..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام. ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة، وحركة بهذه العقيدة، لإقامة النظام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد .. الدين هو الإسلام .. وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام .. لأن الله - سبحانه - يقول هذا. يقول: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» .. ويقول: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» .. وبعد رسالة محمد - ﷺ - لم يعد هناك دين يرضاه الله ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام» .. في صورته التي جاء بها محمد - ﷺ - وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل. كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته ..

ووجود يهود ونصارى - من أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ - ليس معناه أن الله يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي .. لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير .. أما بعد بعثته فلا دين - في التصور الإسلامي وفي حس المسلم - إلا الإسلام .. وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل ..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام.. لأنه «لا إكراه في الدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين»..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «دين» هو الإسلام.. وهناك «لا دين» هو غير الإسلام.. ثم يكون هذا اللادين.. عقيدة أصلها سماوي ولكنها محرفة، أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنياتها. أو إلحادا ينكر الأديان.. تختلف فيما بينها كلها. ولكنها تختلف كلها مع الإسلام. ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم - كما سبق - ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن - على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته، وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشرقة تحرم - وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة.. فإن حسن المعاملة وجواز النكاح، ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ - هو دين يقبله الله ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد! إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعاً، لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً. ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام، وكبر عليهم أن يدعوا إليه، جابههم القرآن الكريم بأن الله يدعوهم إلى الإسلام، فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدون والوثنيين سواء. وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام. لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه. فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه، هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب - بعد بعثة محمد - ﷺ - هو دين يقبله الله.. ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام!.. إنه لا يكون مكلفاً بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين. وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقرر هذه البديهية، فإنه لا يكون منطقياً مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض، مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية. كما أنها قضية تنظيمية حركية! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحاً بهذا البيان الذي أسلفناه، وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك.. فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج الله في الحياة - وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام كما جاء به محمد - ﷺ - بكل

تفصيلات وجوانب هذا المنهج، وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة .. فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام ديناً ومنهجاً ونظاماً وشرعية ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخرى - إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام - إذ الإسلام لا يعترف بمهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحاً - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» ..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام .. ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام .. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي .. ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام، أو لا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه، كما نص الله في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه! .. إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء ..

ولقد كان اعتذار عبد الله بن أبي بن سلول، وهو من الذين في قلوبهم مرض، عن مسارعة واجتهاده في الولاء لليهود، والاستمسك بحلفه معها، هي قوله: إنني رجل أخشى الدوائر! إني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة، وأن تنزل بنا الضائقة .. وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان

فالولي هو الله والناصر هو الله والاستنصار بغيره ضلالة، كما أنه عبث لا ثمرة له .. ولكن حجة ابن سلول، هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب، لا يدرك حقيقة الإيمان .. وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت من ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا. لأنه قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف به، حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد الله بن أبي بن سلول!

إنهما فهجان مختلفان، ناشتان عن تصورين مختلفين، وعن شعورين متباينين، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان!

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم .. يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذي يفصل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق: «فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ». وعندئذ - عند الفتح - سواء كان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجيء أمر الله - يندم أولئك الذين في قلوبهم مرض، على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى وعلى النفاق الذي انكشف أمره، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران!

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ!» ..

ولقد جاء الله بالفتح يوما، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات. ونحن على وعد من الله قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بعروة الله وحده وكلما أخلصنا الولاء لله وحده. وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا. وكلما تحركنا في المعركة على هدى الله وتوجيهه. فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا ..^{١٩٤}



^{١٩٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٠٢)

٣٥. تحريم الردة عن الدين

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) } إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعَبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنُتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) } سورة المائدة

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَيَقُولُ إِنَّ الَّذِينَ يَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْتَبْدِلُ بِهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً، وَأَقْوَمُ سَبِيلًا، يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ: الْعِزَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَضُّعُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَرُدُّهُمْ رَادٌّ عَنْ إِذَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَبِيرًا، وَاللَّهُ وَاسِعٌ الْفَضْلُ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ، وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إِيَّاهُ .

(وَقِيلَ إِنَّ هَذِهِ آيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ النَّاسَ سَيَرْتَدُّونَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ عَصَبَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، سَيَقُومُونَ بِمُحَارَبَةِ الْمُتَرَدِّينَ، وَأَنََّّهُمْ سَيَثْبُتُونَ فِي حَرْبِهِمْ حَتَّى يُتِمَّ اللَّهُ نُصْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ) .

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيُسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَهُمْ دَائِمُونَ الرُّكُوعِ لِلَّهِ .

وَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِمَوَالَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ هُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ مَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبِ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَلَا يُغْلَبُ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ اللَّهُ^{١٩٥} .

إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا - على هذه الصورة. وفي هذا المقام - ينصرف - ابتداء - إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام. وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم، منسلخا من الجماعة المسلمة منضمنا إليهم: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» .. وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول .. يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق، وهو منصب على النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار، يجمع بينهم على هذا النحو، الذي يفيد أن موالاة الكفار سواء، وأن تفرقة الإسلام

^{١٩٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٢٤، بترقيم الشاملة آليا)

في المعاملة بين أهل الكتاب والكفار، لا تتعلق بقضية الولاء، إنما هي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء ..

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ. ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» ..

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض، وتمكين سلطانه في حياة البشر، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم، وتنفيذ شريعته في أفضيتهم وأحوالهم، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة .. إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته. فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة .. فهو وذاك. والله غني عنه - وعن العالمين. والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم.

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا، صورة واضحة السمات قوية الملامح، وضيئة جذابة حيية للقلوب: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» ..

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم .. الحب .. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق لرائق البشوش .. هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبده من عبده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الله - سبحانه - بصفاته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكيئوته كلها .. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي .. الذي يعرف من هو الله .. من هو صانع هذا الكون الهائل، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير! من هو في عظمته. ومن هو في قدرته. ومن هو في تفرد. ومن هو في ملكوته .. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب .. والعبد من صنع يديه - سبحانه - وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر والباطن. وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدر كها كذلك إلا من ذاقها .. وإذا كان حب الله لعبده من عبده أمرا هائلا عظيما، وفضلا غامرا جزيلا، فإن إنعام الله على العبد بمدايته لحيته وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيهه .. هو إنعام هائل عظيم .. وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب الله لعبده من عبده أمرا فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين .. وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين - وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في

سجلهم الطويل - ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد، وهي تقول^{١٩٦}:

فليتك تحلو والحياة مريرة... و ليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر... وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين... وكل الذي فوق التراب تراب
وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد، والحب من العبد للمنعم المتفضل، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الوجود، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلاً في ذلك العبد المحب المحبوب ..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربّه بهذا الرباط العجيب الحبيب.. وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة.. إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا».. «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ».. «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ».. «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ».. «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ».. «قُلْ: إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ».. وغيرها كثير ..

وعجبا لقوم يرون على هذا كله، ليقولوا: إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف، يصور العلاقة بين الله والإنسان علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وانقطاع... لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن الله وأقنوم الإله، فيربط بين الله والناس، في هذا الازدواج! إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لا تجفف ذلك الندى الحبيب، بين الله والعبيد، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التحريد، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه.. إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين.

وهنا - في صفة العصبية المؤمنة المختارة لهذا الدين - يرد ذلك النص العجيب: «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» ويطلق شحنته كلها في هذا الجو، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق. شاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل ..

ثم بمضي السياق يعرض بقية السمات: «أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».. وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين.. فالؤمن ذلول للمؤمن.. غير عصي عليه ولا صعب. هين لين.. ميسر مستجيب.. سمح ودود.. وهذه هي الذلة للمؤمنين.

^{١٩٦} - الأبيات نسبت لشعراء عدة انظر: جميع دواوين الشعر العربي على مر العصور - محتويات موقع أدب - (٧٧ / ٢٤٦) وجميع دواوين الشعر العربي على مر العصور - محتويات موقع أدب - (٧٩ / ١٠٤) وزهر الأكم في الأمثال والحكم - (١ / ٩٨) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - (٢ / ٦١١)

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة. إنما هي الأخوة، ترفع الحواجز، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد بذاته متحوصة متحيزة هي التي تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصابة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به.. وماذا يبقى له في نفسه دونهم، وقد اجتمعوا في الله إخوانا يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟! «أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ».. فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء.. ولهذا الخصائص هنا موضع

.. إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس. إنما هي العزة للعقيدة، والاستعلاء للرأية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين الله على دين الهوى وبغلبة قوة الله على تلك القوى وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية.. فهم الأعلون حتى وهم يهزمون في بعض المعارك، في أثناء الطريق الطويل..

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ».. فالجهاد في سبيل الله، لإقرار منهج الله في الأرض، وإعلان سلطانه على البشر، وتحكيم شريعته في الحياة، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس.. هي صفة العصابة المؤمنة التي يختارها الله ليصنع بها في الأرض ما يريد..

وهم يجاهدون في سبيل الله لا في سبيل أنفسهم ولا في سبيل قومهم ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم.. في سبيل الله. لتحقيق منهج الله، وتقرير سلطانه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق.. وليس لهم في هذا الأمر شيء، وليس لأنفسهم من هذا حظ، إنما هو لله وفي سبيل الله بلا شريك..

وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.. وفيهم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيهم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجليل، ومتعارف الجاهلية، وهم يتبعون سنة الله، ويعرضون منهج الله للحياة؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس أما من يرجع إلى موازين الله ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون. كائنا هؤلاء الناس ما كانوا وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان، وكائنة «حضارة» هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون!

إننا نحسب حسابا لما يقول الناس ولما يفعل الناس ولما يملك الناس ولما يصطلح عليه الناس ولما يتخذه الناس في واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازن.. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم.. إنه منهج الله وشريعته وحكمه.. فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون! إنه ليست

قيمة أي وضع، أو أي عرف، أو أي تقليد، أو أية قيمة .. أنه موجود وأنه واقع وأن ملايين البشر يعتقدونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم .. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي .
إنما قيمة أي وضع، وأي عرف، وأي تقليد، وأية قيمة، أن يكون لها أصل في منهج الله، الذي منه -
وحده - تستمد القيم والموازين ..

ومن هنا تجاهد العصبية المؤمنة في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المؤمنين المختارين ..
ثم إن ذلك الاختيار من الله، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين، وتلك السمات التي يجعلها
طابعهم وعنوانهم، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم، والسير على هداه في جهادهم .. ذلك كله من
فضل الله: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». يعطي عن سعة، ويعطي عن علم .. وما
أوسع هذا العطاء الذي يختار الله له من يشاء عن علم وعن تقدير.

ويجدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان ويبين لهم من يتولون: «إِنَّمَا
وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» ..
هكذا على وجه القصر الذي لا يدع مجالاً للتمحل أو التأول ولا يترك فرصة لتميع الحركة الإسلامية
أو تميع التصور ..

ولم يكن بد أن يكون الأمر كذلك! لأن المسألة في صميمها - كما قلنا - هي مسألة العقيدة. ومسألة
الحركة بهذه العقيدة. وليكون الولاء لله خالصاً، والثقة به مطلقة، وليكون الإسلام هو «الدين». وليكون
الأمر أمر مفاصلة بين الصف المسلم وسائر الصفوف التي لا تتخذ الإسلام ديناً، ولا تجعل الإسلام
منهجاً للحياة.

ولتكون للحركة الإسلامية حديثها ونظامها فلا يكون الولاء فيها لغير قيادة واحدة وراية واحدة. ولا
يكون التناصر إلا بين العصبية المؤمنة لأنه تناصر في المنهج المستمد من العقيدة ..

ولكن حتى لا يكون الإسلام مجرد عنوان، أو مجرد راية وشعار، أو مجرد كلمة تقال باللسان، أو مجرد
نسب ينتقل بالوراثة، أو مجرد وصف يلحق القاطنين في مكان! فإن السياق يذكر بعض السمات
الرئيسية للذين آمنوا: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَهُمْ رَاكِعُونَ» ..

فمن صفتهم إقامة الصلاة - لا مجرد أداء الصلاة - وإقامة الصلاة تعني أداءها أداء كاملاً، تنشأ عنه
آثارها التي يقررها قوله تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» .. والذي لا تنهاه صلاته عن
الفحشاء والمنكر، لم يقم الصلاة فلو أقامها لنتهته كما يقول الله! ومن صفتهم إيتاء الزكاة .. أي أداء
حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة، فليست الزكاة مجرد ضريبة مالية، إنما هي كذلك
عبادة. أو هي عبادة مالية. وهذه هي ميزة المنهج الإسلامي. الذي يحقق أهدافاً شتى بالفريضة
الواحدة. وليس كذلك الأنظمة الأرضية التي تحقق هدفاً وتفرض في أهداف ..

إنه لا يعني في إصلاح حال المجتمع أن يأخذ المجتمع المال ضريبة (مدنية!) أو أن يأخذ المال من الأغنياء للفقراء باسم الدولة، أو باسم الشعب، أو باسم جهة أرضية ما .. فهي في صورتها هذه قد تحقق هدفا واحدا وهو إيصال المال للمحتاجين ..

فأما الزكاة .. فتعني اسمها ومدلولها .. إنها قبل كل شيء طهارة ونماء .. إنها زكاة للضمير بكونها عبادة لله. وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه الإخوان الفقراء، بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة، كما يرجو منها نماء المال في الحياة الدنيا بالبركة وبالنظام الاقتصادي المبارك. ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي من إخوانهم الأغنياء (مع تذكر أن الأغنياء في النظام الإسلامي لا يكسبون إلا من حلال ولا يجورون على حق أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال) .. وفي النهاية تحقق هدف الضريبة المالية في هذا الجو الراضي الخير الطيب .. جو الزكاة والطهارة والنماء .. وأداء الزكاة سمة من سمات الذين آمنوا تقرر أنهم يتبعون شريعة الله في شئون الحياة فهي إقرار منهم بسلطان الله في أمرهم كله .. وهذا هو الإسلام ..

«وَهُمْ رَاكِعُونَ» .. ذلك شأنهم، كأنه الحالة الأصلية لهم .. ومن ثم لم يقف عند قوله: «يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» .. فهذه السمة الجديدة أعم وأشمل. إذ أنها ترسمهم للخاطر كأن هذا هو شأنهم الدائم. فأبرز سمة لهم هي هذه السمة، وبها يعرفون .. وما أعمق إichاءات التعبيرات القرآنية في مثل هذه المناسبات! والله يعد الذين آمنوا - في مقابل الثقة به، والالتجاء إليه، والولاء له وحده - ورسوله وللمؤمنين بالبيعة .. ومقابل المفاصلة الكاملة بينهم وبين جميع الصفوف إلا الصف الذي يتمحض لله. يعدهم النصر والغلبة:

«وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» .. وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها .. وأنها هي الولاء لله ورسوله وللمؤمنين وبعد التحذير من الولاء لليهود والنصارى واعتباره خروجاً من الصف المسلم إلى صف اليهود والنصارى، وارتداداً عن الدين .. وهنا لفظة قرآنية مطردة .. فالله - سبحانه - يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير! لا لأنه سيغلب، أو سيمكن له في الأرض فهذه ثمرات تأتي في حينها وتأتي لتحقيق قدر الله في التمكين لهذا الدين لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين .. والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم. لا شيء لذواتهم وأشخاصهم. وإنما هو قدر الله يجريه على أيديهم، ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم! فيكون لهم ثواب الجهد فيه وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين الله في الأرض، وإصلاح الأرض بهذا التمكين ..

كذلك قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم - وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة - فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة وتخطي

العقبة، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة، فيكون لهم ثواب الجهاد، وثواب التمكين لدين الله، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين.

كذلك يشي ورود هذا النص في هذا المجال، بحالة الجماعة المسلمة يومذاك، وحاجتها إلى هذه البشريات. بذكر هذه القاعدة من غلبة حزب الله.. مما يرجح ما ذهبنا إليه عن تاريخ نزول هذا القطع من السورة.

ثم تلخص لنا هذه القاعدة التي لا تتعلق بزمان ولا مكان.. فنطمئن إليها بوصفها سنة من سنن الله التي لا تتخلف. وإن خسرت العصبية المؤمنة بعض المعارك والمواقف. فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب الله هم الغالبون.. ووعد الله القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل الطريق! وأن الولاء لله ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقيق وعد الله في نهاية الطريق!

وبعد فلقد سلك المنهج القرآني في هذا السياق طرقاً متنوعة، لنهي الذين آمنوا عن تولي المخالفين لهم في عقيدتهم من أهل الكتاب والمشركين، ولتقرير هذه القاعدة الإيمانية في ضمائرهم وإحساسهم وعقولهم. مما يدل على أهمية هذه القاعدة في التصور الإسلامي وفي الحركة الإسلامية على السواء.. وقد رأينا من قبل أنه سلك في النداء الأول طريق النهي المباشر، وطريق التخويف من أن يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، فينكشف ستر المنافقين.. وسلك في النداء الثاني طريق التحذير من الردة بموالات أعداء الله ورسوله والمؤمنين وطريق التحبيب في أن يكونوا من العصبية المختارة. ممن يحبهم الله ويجبونه وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب^{١٩٧}..



^{١٩٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣١٢)

٣٦. تحريم اتخاذ الكفار أولياء

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) } سورة المائدة

يُنْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَوَالِيَةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةَ، هُزُؤًا يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَيَعْدُونَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّعِبِ، وَيَتَمَنَّوْنَ زَوَالَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَيَأْتِي بِتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ أَوْلِيَاءَ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِشَرَعِ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا. وَهَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ يَسْخَرُونَ مِنَ الْأَذَانِ، وَمِنَ الصَّلَاةِ، وَمِنَ الْعِبَادَةِ، وَيَتَّخِذُونَهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا وَسُخْرِيَّةً، لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَلَا مَعْنَى شَرَعِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةُ أَكْرَمُ شَيْءٍ وَأَفْضَلُهُ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ. ١٩٨

وهي ملابسة مثيرة لكل من له حمية المؤمن الذي لا يرى لنفسه كرامة إذا أهين دينه، وأهينت عبادته، وأهينت صلواته، واتخذ موقفه بين يدي ربه مادة للهزاء واللعب.. فكيف يقوم ولاء بين الذين آمنوا وبين أحد من هؤلاء الذين يرتكبون هذه الفعلية ويرتكبونها لنقص في عقولهم. فما يستهزئ بدين الله وعبادة المؤمنين به، إنسان سويّ العقل فالعقل - حين يصح ويستقيم - يرى في كل شيء من حوله موحيات الإيمان بالله.

وحيث يحتل وينحرف لا يرى هذه الموحيات، لأنه حينئذ تفسد العلاقات بينه وبين هذا الوجود كله. فالوجود كله يوحي بأن له إلهما يستحق العبادة والتعظيم. والعقل حين يصح ويستقيم يستشعر جمال العبادة لإله الكون وجلالها كذلك، فلا يتخذها هزوا ولعبا وهو صحيح مستقيم.

ولقد كان هذا الاستهزاء واللعب يقع من الكفار، كما كان يقع من اليهود خاصة من أهل الكتاب، في الفترة التي كان هذا القرآن يتزل فيها على قلب رسول الله - ﷺ - للجماعة المسلمة في ذلك الحين. ولم نعرف من السيرة أن هذا كان يقع من النصارى.. ولكن الله - سبحانه - كان يضع للجماعة المسلمة قاعدة تصورها ومنهجها وحياتها الدائمة. وكان الله - سبحانه - يعلم ما سيكون على مدار الزمان مع أجيال المسلمين. وها نحن أولاء رأينا ونرى أن أعداء هذا الدين وأعداء الجماعة المسلمة على مدار التاريخ أمس واليوم من الذين قالوا: إنهم نصارى كانوا أكثر عددا من اليهود ومن الكفار مجتمعين! فهؤلاء - كهؤلاء - قد ناصبوا الإسلام العداء، وترصدوه القرون تلو القرون، وحاربوه حربا لا هوادة فيها منذ أن اصطدم الإسلام بالدولة الرومانية على عهد أبي بكر

١٩٨ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٢٧، بترقيم الشاملة آليا)

وعمر - رضي الله عنهما - حتى كانت الحروب الصليبية ثم كانت «المسألة الشرقية» التي تكتلت فيها الدول الصليبية في أرجاء الأرض للإجهاز على الخلافة ثم كان الاستعمار الذي يخفي الصليبية بين أضلاعه فتبدو في فلتات لسانه ثم كان التبشير الذي مهد للاستعمار وسانده، ثم كانت وما تزال تلك الحرب المشبوبة على كل طلائع البعث الإسلامي في أي مكان في الأرض .. وكلها حملات يشترك فيها اليهود والنصارى والكفار والوثنيون ..

وهذا القرآن جاء ليكون كتاب الأمة المسلمة في حياتها إلى يوم القيامة. الكتاب الذي يبني تصورها الاعتقادي، كما يبني نظامها الاجتماعي، كما يبني خطتها الحركية .. سواء .. وها هو ذا يعلمها ألا يكون ولاؤها إلا لله ولرسوله وللمؤمنين وينهاها أن يكون ولاؤها لليهود والنصارى والكافرين. ويجزم ذلك الجزم الحاسم في هذه القضية، ويعرضها هذا العرض المنوع الأساليب.

إن هذا الدين يأمر أهله بالسماحة، وبحسن معاملة أهل الكتاب والذين قالوا: إنهم نصارى منهم خاصة ولكنه ينهاهم عن الولاء لهؤلاء جميعا .. لأن السماحة وحسن المعاملة مسألة خلق وسلوك. أما الولاء فمسألة عقيدة ومسألة تنظيم. إن الولاء هو النصر. هو التناصر بين فريق وفريق ولا تناصر بين المسلمين وأهل الكتاب - كما هو الشأن في الكفار - لأن التناصر في حياة المسلم هو - كما أسلفنا - تناصر في الدين وفي الجهاد لإقامة منهجه ونظامه في حياة الناس فقيم يكون التناصر في هذا بين المسلم وغير المسلم. وكيف يكون؟!^{١٩٩}

إنها قضية جازمة حاسمة لا تقبل التميع، ولا يقبل الله فيها إلا الجد الصارم الجد الذي يليق بالمسلم في شأن الدين ..^{١٩٩}



^{١٩٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣١٨)

٣٧. لا يجوز تحريم الحلال

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) { سورة المائدة

عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ، فَجَاءَهُ، فَقَالَ: «يَا عُثْمَانُ، أَرَعَيْتَ عَنْ سُنَّتِي»، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنْ سُنَّتِكَ أَطْلُبُ، قَالَ: «فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لَاهِلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِيُضِيفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأُفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ»^{٢٠٠}

وَعَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ خُوَيْلَةَ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الْأَوْقَصِ السُّلَمِيَّةِ وَكَانَتْ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ قَالَتْ: فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدَاذَةَ هَيْتَهَا، فَقَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ، مَا أَبَدَتْ هَيْتَةَ خُوَيْلَةَ؟» قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْرَأَةٌ لِي زَوْجٌ لَهَا يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ فَهِيَ كَمَنْ لَا زَوْجَ لَهَا، فَتَرَكَتْ نَفْسَهَا وَأَضَاعَتْهَا، قَالَتْ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ فَجَاءَهُ، فَقَالَ: «يَا عُثْمَانُ، أَرَعَيْتَ عَنْ سُنَّتِي؟» قَالَ: فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنْ سُنَّتِكَ أَطْلُبُ، قَالَ: «فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا عُثْمَانُ، فَإِنَّ لَاهِلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِيُضِيفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأُفْطِرْ، وَصَلِّ وَنَمْ»^{٢٠١}

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَرْوَاحَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنْزَوْجَ النِّسَاءِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنْزَوْجَ النِّسَاءِ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^{٢٠٢}.

وَعَنْ يُونُسَ بْنِ مَيْسَرَةَ، قَالَ: «لَيْسَتْ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلَكِنْ الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْكَ مِمَّا فِي يَدَيْكَ، وَأَنْ يَكُونَ حَالُكَ فِي الْمُصِيبَةِ وَحَالُكَ إِذَا لَمْ تُصَبِّ بِهَا سَوَاءً، وَأَنْ يَكُونَ ذَامُكَ وَمَادِحُكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً»^{٢٠٣}

^{٢٠٠} - سنن أبي داود (٤٨/٢) (١٣٦٩) صحيح

^{٢٠١} - مسند أحمد ط الرسالة (٤٣/٣٣٤) (٢٦٣٠٨) صحيح

^{٢٠٢} - صحيح مسلم (٢/١٠٢٠) - ٥ (١٤٠١)

[ش (فمن رغب عن سنتي فليس مني) معناه من تركها إعراضا عنها غير معتقد لها على ما هي عليه]

^{٢٠٣} - شعب الإيمان (١٢/٣٨٥) (٩٥٩٧) صحيح مقطوع

لقد أنزل الله تعالى هذه الآية يأمر فيها المؤمنين بالألّا يحرموا الطيبات التي أحلها الله لعباده، لأنه تعالى يحب أن يستعمل عباده نعمه فيما خلقت لأجله، وأن يشكروه على ذلك، ويكره أن يحنوا على الشريرة التي شرعت لهم فيعلوا فيها بإباحة ما حرم، أو ترك ما أحل وفرض .

ويبيح الله تعالى للمؤمنين بالحلال الطيب من الرزق الذي رزقهم، ويأمرهم بتقواه في جميع أمورهم، وباتباع طاعته ورضوانه، وترك مخالفته وعصيانه، بتحليل ما حرم، أو بتحريم ما أحل^{٢٠٤}.

إن قضية التشريع بجمليتها مرتبطة بقضية الألوهية. والحق الذي تتركز إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر، هو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم. فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يجل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء.. وهو منطوق يعترف به البشر أنفسهم. فصاحب الملك هو صاحب الحق في التصرف فيه. والخارج على هذا المبدأ البديهي معتد لا شك في اعتدائه! والذين آمنوا لا يعتدون بطبيعة الحال على الله الذي هم به مؤمنون. ولا يجتمع الاعتداء على الله والإيمان به في قلب واحد على الإطلاق! هذه هي القضية التي تعرضها هاتان الآيتان في وضوح منطقي لا يجادل فيه إلا معتد.. والله لا يحب المعتدين.. وهي قضية عامة تقرر مبدأ عاما يتعلق بحق الألوهية في رقاب العباد ويتعلق بمقتضى الإيمان بالله في سلوك المؤمنين في هذه القضية.. وتذكر بعض الروايات أن هاتين الآيتين والآية التي بعدهما - الخاصة بحكم الأيمان - قد نزلت في حادث خاص في حياة المسلمين على عهد رسول الله - ﷺ - ولكن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب. وإن كان السبب يزيد المعنى وضوحا ودقة :

روى ابن جرير عن السدي: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"، وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس، ثم قام ولم يزداهم على التخويف. فقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا عشرة، منهم علي بن أبي طالب وعثمان بن مظعون: ما خفنا إن لم نُحدث عملا! فإن النصرارى قد حرموا على أنفسهم، فنحن نحرم! فحرم بعضهم أكل اللحم والودك، وأن يأكل بالنهار، وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء. فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء، وكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه. فأتت امرأته عائشة، وكان يقال لها: "الحولاء"، فقالت لها عائشة ومن عندها من نساء النبي ﷺ: ما بالك، يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تطيبين؟ فقالت: وكيف أتطيب وأمتشط، وما وقع علي زوجي، ولا رفع عني ثوبا، منذ كذا وكذا! فجعلن يضحكن من كلامها. فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن، فقال: ما يضحكن؟ قالت: يا رسول الله، الحولاء، سألتها عن أمرها فقالت: "ما رفع عني زوجي ثوبا منذ كذا وكذا!" فأرسل إليه فدعاه فقال: ما بالك يا عثمان؟ قال: إني تركته الله لكي أتخلي للعبادة! وقص عليه

^{٢٠٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٥٧، بترقيم الشاملة آليا)

أمره. وكان عثمان قد أراد أن يجِبَّ نفسه، فقال رسول الله ﷺ: أقسمتُ عليك إلا رجعت فواقعتَ أهلك! فقال: يا رسول الله إني صائم! قال: أفطر! فأفطر، وأتى أهله. فرجعت الحولاءُ إلى عائشة قد اكتحلّت وامتشطت وتطيّبت. فضحكت عائشة، فقالت: ما بالك يا حولاء؟ فقالت: إنه أتاه أمس! فقال رسول الله ﷺ: ما بال أقوامٍ حرّموا النساء، والطعام، والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وأفطر وأصوم، وأنكح النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني! فتزلت: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا"، يقول لعثمان: لا تجبّ نفسك. فإن هذا هو الاعتداء = وأمرهم أن يكفروا أيماهم، فقال: "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان".^{٢٠٥}

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهطٍ إلى أزواج النبي ﷺ - يسألون عن عبادة النبي ﷺ - فلما أُخبروا بها كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ - وقد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم: أمّا أنا فأصلي الليل أبداً وقال الآخر: إني أصوم الدهر فلا أفطرُ وقال الآخر: أنا اعتزل النساء ولا أتزوج أبداً فجاء النبي ﷺ - ص - -- إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما إني لأخشاكم لله عزّ وجلّ وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس مني». ^{٢٠٦}

وأخرج الترمذي عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ - فقال يا رسول الله إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي فحرمت علي اللحم. فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً)^{٢٠٧} فأما الآية الخاصة بالحلف والأيمان والتي جاءت تالية في السياق: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم. واحفظوا أيمانكم. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون» ..

فالظاهر أنها نزلت لمواجهة هذه الحالة - وأمثالها - من الحلف على الامتناع عن المباح الذي آلى أولئك النفر على أنفسهم أن يمتنعوا عنه، فردهم رسول الله ﷺ - عن الامتناع عنه، وردهم القرآن الكريم عن مزاوله التحريم والتحليل بأنفسهم، فهذا ليس لهم إنما هو لله الذي آمنوا به. كما أنها تواجه كل حلف على الامتناع عن خير أو الإقدام على شر. فكل يمين يرى صاحبها أن هناك ما هو أبرّ، فعليه أن يفعل ما هو أبرّ، ويكفر عن يمينه بالكفارات المحددة في هذه الآية.

^{٢٠٥} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (١٠ / ٥١٧) (١٢٣٤٥) حسن مرسل

^{٢٠٦} - السنن الكبرى للبيهقي - المكثر - (٧ / ٧٧) (١٣٨٣٠) وصحيح البخاري - المكثر - (٥٠٦٣)

^{٢٠٧} - سنن الترمذي - المكثر - (٣٣٣١) صحيح

عن ابن عباس قال، لما نزلت: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم"، في القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم، قالوا: يا رسول الله، كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى ذكره: "لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم"، الآية. ٢٠٨.

وقد تضمن الحكم أن الله - سبحانه - لا يؤاخذ المسلمين بأيمان اللغو، التي ينطق بها اللسان دون أن يعقد لها القلب بالنية والقصد مع الحض على عدم ابتذال الأيمان بالإكثار من اللغو بها إذ أنه ينبغي أن تكون لليمين بالله حرمتها ووقارها، فلا تنطق هكذا لغوا ..

فأما اليمين المعقودة، التي وراءها قصد ونية، فإن الحنث بها يقتضي كفارة تبينها هذه الآية: «فَكَفَّارُتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ، أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ».

وطعام المساكين العشرة من «أوسط» الطعام الذي يقوم به الحالف لأهله .. و«أوسط» تحتمل أن تكون من «أحسن» أو من «متوسط» فكلاهما من معاني اللفظ. وإن كان الجمع بينهما لا يخرج عن القصد لأن «المتوسط» هو «الأحسن» فالوسط هو الأحسن في ميزان الإسلام .. أو «كسوتهم» الأقرب أن تكون كذلك من «أوسط» الكسوة .. أو «تحرير رقبة» لا ينص هنا على أنها مؤمنة .. ومن ثم يرد بشأنها خلاف فقهي ليس هذا مكانه .. «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» .. وهي الكفارة التي يعاد إليها في اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات الأخرى .. وكون هذه الأيام الثلاثة متتابعة أو غير متتابعة فيه كذلك خلاف فقهي بسبب عدم النص هنا على تتابعها. والخلافات الفقهية في هذه الفرعيات ليست من منهجنا في هذه الظلال. فمن أرادها فليطلبها في مواضعها في كتب الفقه. إذ أنها كلها تنفق على الأصل الذي يعيننا وهو أن الكفارة رد لاعتبار العقد المنقوض، وحفظ للأيمان من الاستهانة بها وهي «عقود» وقد أمر الله - سبحانه - بالوفاء بالعقود. فإذا عقد الإنسان يمينه وكان هناك ما هو أبرّ فعل الأبر وكفر عن اليمين. وإذا عقدها على غير ما هو من حقه كالتحريم والتحليل، نقضها وعليه التكفير.

ونعود بعد ذلك إلى الموضوع الأصيل الذي نزلت الآيات بسببه .. فأما من ناحية «خصوص السبب» فإن الله يبين أن ما أحله الله فهو الطيب، وما حرمه فهو الخبيث. وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله له. من وجهين: الوجه الأول أن التحريم والتحليل من خصائص الله الرازق. بما يجري فيه التحليل والتحريم من الرزق، وإلا فهو الاعتداء الذي لا يحبه الله، ولا يستقيم معه إيمان .. والوجه الثاني أن الله يحل الطيبات، فلا يحرم أحد على نفسه تلك الطيبات، التي بها صلاحه وصلاح الحياة فإن بصره بنفسه وبالحياة لن يبلغ بصر الحكيم الخبير الذي أحل هذه الطيبات. ولو كان الله يعلم فيها شرا أو

٢٠٨ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٠ / ٥٢٣] (١٢٣٥٦) ضعيف

أذى لوقاه عباده. ولو كان يعلم في الحرمان منها خيرا ما جعلها حلالا .. ولقد جاء هذا الدين ليحقق الخير والصلاح، والتوازن المطلق، والتناسق الكامل، بين طاقات الحياة البشرية جميعا، فهو لا يغفل حاجة من حاجات الفطرة البشرية ولا يكبت كذلك طاقة بناءة من طاقات الإنسان، تعمل عملا سويا، ولا تخرج عن الجادة. ومن ثم حارب الرهبانية، لأنها كبت للفطرة، وتعطيل للطاقة وتعويق عن إتمام الحياة التي أراد الله لها النماء، كما نهى عن تحريم الطيبات كلها لأنها من عوامل بناء الحياة ونموها وتجديدها .. لقد خلق الله هذه الحياة لتنمو وتتجدد، وترتقي عن طريق النمو والتجدد المحكومين. بمنهج الله. والرهبانية وتحريم الطيبات الأخرى تصطدم مع منهج الله للحياة.

لأنها تقف بها عند نقطة معينة بحجة التسامي والارتفاع. والتسامي والارتفاع داخلان في منهج الله للحياة، وفق المنهج الميسر المطابق للفطرة كما يعلمها الله. وخصوص السبب - بعد هذا - لا يقيد عموم النص. وهذا العموم يتعلق بقضية الألوهية والتشريع - كما أسلفنا - وهي قضية لا تقتصر على الحلال والحرام في المآكل والمشرب والمناكح. إنما هو أمر حق التشريع لأي شأن من شؤون الحياة .. ونحن نكرر هذا المعنى ونؤكد أنه لأن طول عزلة الإسلام عن أن يحكم الحياة - كما هو شأنه وحقيقته - قد جعل معاني العبارة تتقلص ظلالمها عن مدى الحقيقة التي تعنيها في القرآن الكريم وفي هذا الدين. ولقد جعلت كلمة «الحلال» وكلمة «الحرام» يتقلص ظلهما في حس الناس، حتى عاد لا يتجاوز ذبيحة تذبح، أو طعاما يؤكل، أو شرابا يشرب، أو لباسا يلبس، أو نكاحا يعقد .. فهذه هي الشؤون التي عاد الناس يستفتون فيها الإسلام ليروا: حلال هي أم حرام! فأما الأمور العامة والشؤون الكبيرة فهم يستفتون في شأنها النظريات والدساتير والقوانين التي استبدلت بشريعة الله! فالنظام الاجتماعي بجملمته، والنظام السياسي بجملمته، والنظام الدولي بجملمته وكافة اختصاصات الله في الأرض وفي حياة الناس، لم تعد مما يستفتى فيه الإسلام! والإسلام منهج للحياة كلها. من اتبعه كله فهو مؤمن وفي دين الله. ومن اتبع غيره ولو في حكم واحد فقد رفض الإيمان واعتدى على ألوهية الله، وخرج من دين الله. مهما أعلن أنه يحترم العقيدة وأنه مسلم. فاتباعه شريعة غير شريعة الله، يكذب زعمه ويدمغه بالخروج من دين الله. وهذه هي القضية الكلية التي تعنيها هذه النصوص القرآنية، وتجعلها قضية الإيمان بالله، أو الاعتداء على الله .. وهذا هو مدى النصوص القرآنية. وهو المدى اللائق بجديفة هذا الدين وجديفة هذا القرآن، وجديفة معنى الألوهية ومعنى الإيمان ...^{٢٠٩}



^{٢٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٧١)

٣٨. تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) } سورة المائدة

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ تَعَاطِي الْخَمْرِ وَلَعِبِ الْقِمَارِ (الْمَيْسِر)، وَعَنْ ذَبْحِ الْقَرَايِينِ عِنْدَ الْأَنْصَابِ، (وَهِيَ حِجَارَةٌ كَانَتْ تُحِيطُ بِالْكَعْبَةِ)، كَمَا يَنْهَاهُمْ عَنِ الْاسْتِقْسَامِ بِالْأَزْلَامِ (وَالْأَزْلَامُ ثَلَاثَةُ قِدَاحٍ أَوْ سِهَامٍ يُجِيلُونَهَا ثُمَّ يُلْقَوْنَهَا، وَقَدْ كُتِبَ عَلَى أَحَدِهَا (أَفْعَلُ)، وَعَلَى الْآخَرِ (لَا تَفْعَلُ)، وَالثَّلَاثُ عُقْلٌ مِنَ الْكِتَابَةِ. فَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ (أَفْعَلُ) فَعَلْ. وَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ (لَا تَفْعَلُ) لَمْ يَفْعَلْ. وَإِذَا خَرَجَ السَّهْمُ الْعُقْلُ مِنَ الْكِتَابَةِ أَعَادَ الْاسْتِقْسَامَ .

وَيَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ إِنَّ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتُ: الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ. إِنَّمَا هِيَ شَرٌّ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ (رِجْسٌ) فَاجْتَنِبُوا هَذَا الرَّجْسَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَتَفُوزُونَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ .

إِنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ لَكُمْ شُرْبَ الْخَمْرِ، وَلَعِبَ الْمَيْسِرِ، لِيُعَادِيَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَيَعُضَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَيَتَشَتَّتَ أَمْرُكُمْ بَعْدَ أَنْ أَلْفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِالْإِيمَانِ، وَجَمَعَ بِأَخْوَةِ الْإِسْلَامِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَصْرِفَكُمْ بِالسُّكْرِ وَالِاسْتِنْعَالِ بِالْمَيْسِرِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الَّذِي بِهِ صَلَاحُ أَمْرِكُمْ، فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَاتِكُمْ، وَعَنْ الصَّلَاةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْكُمْ، تَرْكِيَةً لِنَفْسِكُمْ، وَتَطْهِيرًا لِقُلُوبِكُمْ .

وَالْخَمْرُ تُفْقِدُ الْإِنْسَانَ عَقْلَهُ الَّذِي يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ الْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ، وَعَنْ تَوْجِيهِ الْأَقْوَالِ الشَّائِنَةِ إِلَى النَّاسِ، فَإِذَا شَرِبَهَا الْإِنْسَانُ أَقْدَمَ عَلَى مَا لَا يُقْدَمُ عَلَيْهِ وَهُوَ صَاحٍ مَتَمَالِكٌ قَوَاهُ فَيُسِيءُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ، وَيُؤْذِيهِمْ فَيُؤْذِي ذَلِكَ إِلَى الشَّحْنَاءِ وَالْبَغْضَاءِ .

وَالْمَيْسِرُ يُثِيرُ الْبَغْضَاءَ وَالشَّحْنَاءَ بَيْنَ اللَّاعِبِينَ وَالْحَاضِرِينَ، وَكَثِيرًا مَا يُفْرِطُ الْمُقَامِرُ فِي حُقُوقِ الْوَالِدِينَ وَالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ، حَتَّى يُوشِكُ أَنْ يَمِقَّتَهُ كُلُّ وَاحِدٍ .

ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَنْتَهُوا عَنْ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ لِيُفَوِّتُوا عَلَى إِبْلِيسَ غَرَضَهُ .

يَأْمُرُ نَالَهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ اجْتِنَابِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ سَائِرِ الْحَرَمَاتِ، وَبِطَاعَةِ رَسُولِهِ فِيمَا بَيَّنَّهُ لَهُمْ مِنْ شَرَعِ اللَّهِ، وَفِيمَا يَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ، وَيُحَدِّرُهُمْ مِنَ الْعِصْيَانِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ. ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ إِنْ تَوَلَّوْا عَنِ الْإِيمَانِ، وَأَصْرَوْا عَلَى الْمُخَالَفَةِ، وَالْإِعْتِدَاءِ عَلَى حُرْمَاتِ

اللَّهِ، وَعَلَى تَجَاوُزِ شَرِّهِ الْكَرِيمِ، فَإِنَّ الْحُجَّةَ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ، وَالرَّسُولُ قَامَ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ مِنَ الْإِبْلَاحِ وَالْإِنذَارِ وَالِدَّعْوَةِ، وَإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ فَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا .

حِينَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَحْرِيمَ الْخَمْرِ تَسَاءَلَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ حَالِ مَنْ شَرِبُوا الْخَمْرَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَبَيَّنَّ لَهُمْ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ، وَلَا إِثْمَ، فِيمَا أَكَلُوا أَوْ شَرِبُوا مِنَ الْخَمْرِ، أَوْ أَكَلُوا وَشَرِبُوا، مِمَّا لَمْ يَكُنْ مُحْرَمًا ثُمَّ حُرِّمَ، إِذَا مَا اتَّقَوْا اللَّهَ، وَآمَنُوا بِمَا كَانَ قَدْ نَزَلَ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ شُرِعَتْ، كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، ثُمَّ اتَّقَوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ عِنْدَ الْعِلْمِ بِهِ، وَآمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ، ثُمَّ اسْتَمَرُّوا عَلَى التَّقْوَى، وَأَحْسَنُوا أَعْمَالَهُمْ، فَأَتَوْا بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَتَمَّمُوا نَقْصَ فَرَائِضِهَا بِنَوَافِلِ الطَّاعَاتِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، فَلَا يُبْقِي فِي قُلُوبِهِمْ أَثْرًا مِنَ الْآثَارِ السَّيِّئَةِ، الَّتِي وَصَفَ بِهَا الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ، مِنَ الْإِيقَاعِ فِي الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ .^{٢١٠}

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية، ومن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي. وكانت كلها حزمة واحدة ذات ارتباط عميق في مزاولتها، وفي كونها من سمات ذلك المجتمع وتقاليدِهِ.. فلقد كانوا يشربون الخمر في إسراف، ويجعلونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها ويتكاثرون ويديرون عليها فخرهم في الشعر ومدحهم كذلك! وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء منها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس ومن يلوذون بها ويلتفون حولها! وكانت هذه الذبائح تنحر على الأنصاب وهي أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها (كما كانت تذبح عليها الذبائح التي تقدم للآلهة أي لكهنتها!).. وفي ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية التي تشبهها كان يجري الميسر عن طريق الأزلام. وهي قدام كانوا يستقسمون بها الذبيحة، فيأخذ كل منهم نصيبه منها بحسب قدحه. فالذي قدحه (المعلَى) يأخذ النصيب الأوفر، وهكذا حتى يكون من لا نصيب لقدحه. وقد يكون هو صاحب الذبيحة فيخسرهما كلها! وهكذا يبدو تشابك العادات والتقاليد الاجتماعية ويبدو جريانها كذلك وفق حال الجاهلية وتصوراتها الاعتقادية .

ولم يبدأ المنهج الإسلامي في معالجة هذه التقاليد في أول الأمر، لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع. حاشا للمنهج الرباني أن يفعلها! إنما بدأ الإسلام من عقدة النفس البشرية الأولى. عقدة العقيدة. بدأ باجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره وإقامة التصور الإسلامي الصحيح. إقامته من أعماق القاعدة المرتكزة إلى الفطرة.. يبين للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية وهداهم إلى الإله الحق. وحين عرفوا إلههم الحق

^{٢١٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٦٠، بترقيم الشاملة آليا)

بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم هذا الإله الحق وما يكرهه. وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا! أو يطيعوا أمرا ولا نهيا وما كانوا ليقنعوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهي وبذلت لهم النصيحة.. إن عقدة الفطرة البشرية هي عقدة العقيدة وما لم تنعقد هذه العقدة أولا فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعي.. إن مفتاح الفطرة البشرية هاهنا. وما لم تفتح بمفتاحها فستظل سراديبها مغلقة ودروبها ملتوية، وكلما كشف منها زقاق انبهت أزقة وكلما ضاء منها جانب أظلمت جوانب، وكلما حلت منها عقدة تعقدت عقد، وكلما فتح منها درب سدت دروب ومسالك.. إلى ما لا نهاية..

لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها، من هذه الرذائل والانحرافات.. إنما بدأ من العقيدة.. بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله.. وطالت فترة إنشاء لا إله إلا الله هذه في الزمن حتى بلغت نحو ثلاثة عشر عاما، لم يكن فيها غاية إلا هذه الغاية! تعريف الناس بإلههم الحق وتعييدهم له وتطويعهم لسultanه.. حتى إذا خلصت نفوسهم لله وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيرة إلا ما يختاره الله.. عندئذ بدأت التكاليف - بما فيها الشعائر التعبدية - وعندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والأخلاقية والسلوكية.. بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيع العباد بلا جدال. لأنهم لا يعلمون لهم خيرة فيما يأمر الله به أو ينهى عنه أيا كان! أو بتعبير آخر: لقد بدأت الأوامر والنواهي بعد «الإسلام».. بعد الاستسلام.. بعد أن لم يعد للمسلم في نفسه شيء.. بعد أن لم يعد يفكر في أن يكون له إلى جانب أمر الله رأي أو اختيار.. أو كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه: «ماذا خسر العالم بالخطايا المسلمين» تحت عنوان: «انخلت العقدة الكبرى»:

«.. انخلت العقدة الكبرى.. عقدة الشرك والكفر.. فانخلت العقد كلها وجاهدتهم رسول الله - ﷺ - جهاده الأول، فلم ينجح إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهي وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى، فكان النصر حليفه في كل معركة. وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة، لا يشاققون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهي. حدثوا الرسول عما اختنوا أنفسهم وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد.. نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدمة وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة»^{٢١١}.

^{٢١١} - ص ٨٧ - ٨٨ من الطبعة الرابعة. (السيد رحمه الله)

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ يَوْمَ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخُ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ. فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي فَقَالَ أَخْرُجْ فَأَنْظُرْ فَخَرَجْتُ فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ - قَالَ - فَجَرَّتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ أَخْرُجْ فَاهْرِقْهَا. فَهَرَقْتُهَا فَقَالُوا أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ قُتِلَ فُلَانٌ قُتِلَ فُلَانٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ - قَالَ فَلَا أَدْرِي هُوَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ٢١٢

ومع هذا فلم يكن تحريم الخمر وما يتصل بها من الميسر أمراً مفاجئاً.. فلقد سبقت هذا التحريم القاطع مراحل وخطوات في علاج هذه التقاليد الاجتماعية المتغلغلة، المتلبسة بعبادات النفوس ومألوفاتها، والمتلبسة كذلك ببعض الجوانب الاقتصادية وملايساتها.

لقد كانت هذه هي المرحلة الثالثة أو الرابعة في علاج مشكلة الخمر في المنهج الإسلامي :

كانت المرحلة الأولى مرحلة إطلاق سهم في الاتجاه حين قال الله سبحانه في سورة النحل المكية: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا..» فكانت أول ما يطرق حس المسلم من وضع السكر (وهو المخمر) في مقابل الرزق الحسن.. فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر.

ثم كانت الثانية بتحريك الوجدان الديني عن طريق المنطق التشريعي في نفوس المسلمين حين نزلت التي في سورة البقرة: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ. قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا».. وفي هذا إيجاء بأن تركهما هو الأولى ما دام الإثم أكبر من النفع. إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع ولكن حله أو حرمة إنما تركز على غلبة الضرر أو النفع.

ثم كانت الثالثة بكسر عادة الشراب، وإيقاع التنافر بينها وبين فريضة الصلاة حين نزلت التي في النساء :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ».. والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة. وفي هذا تضيق لفرص المزاولة العملية لعادة الشراب - وخاصة عادة الصبح في الصباح والغبوق بعد العصر أو المغرب كما كانت عادة الجاهليين - وفيه كسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي. وفيه - وهو أمر له وزنه في نفس المسلم - ذلك التناقض بين الوفاء بفريضة الصلاة في مواعيدها والوفاء بعادة الشراب في مواعيدها!

ثم كانت هذه الرابعة الحاسمة والأخيرة، وقد تهيأت النفوس لها تهيؤاً كاملاً فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية والإذعان: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي

٢١٢ - صحيح مسلم - المكثر [١٣/ ٢٠٢] (٥٢٤٦) الفضيخ: شراب يتخذ من البسر

الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ}، قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَى: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكَرَانَ فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيِّنًا شَافِيًا، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا... (أخرجه أصحاب السنن) ٢١٣.

ولما نزلت آيات التحريم هذه، في سنة ثلاث بعد وقعة أحد، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة: «ألا أيها القوم. إن الخمر قد حرمت». .. فمن كان في يده كأس حطمها ومن كان في فمه جرعة مجها، وشقت زقاق الخمر وكسرت قنانيه. .. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمرا! والآن ننظر في صياغة النص القرآني والمنهج الذي يتجلى فيه منهج التربية والتوجيه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ».

إنه يبدأ بالنداء المألوف في هذا القطع: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» .. لاستحاشة قلوب المؤمنين من جهة ولتذكيرهم بمقتضى هذا الإيمان من الالتزام والطاعة من جهة أخرى ..

يلي هذا النداء الموحى تقرير حاسم على سبيل القصر والحصر: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» .. فهي دنسة لا ينطبق عليها وصف «الطيبات» التي أحلها الله. وهي من عمل الشيطان. والشيطان عدو الإنسان القديم ويكفي أن يعلم المؤمن أن شيئا ما من عمل الشيطان لينفر منه حسه، وتشمئز منه نفسه، ويجفل منه كيانه، ويبعد عنه من خوف ويتقيه! وفي هذه اللحظة يصدر النهي مصحوبا كذلك بالإطماع في الفلاح - وهي لمسة أخرى من لمسات الإيحاء النفسي العميق: «فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ..

ثم يستمر السياق في كشف خطة الشيطان من وراء هذا الرجس: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ...» ..

بهذا ينكشف لضمير المسلم هدف الشيطان، وغاية كيد، وثمره رجسه .. إنها إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم - في الخمر والميسر - كما أنها هي صد «الذين آمنوا» عن ذكر الله وعن الصلاة

٢١٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ١٨٩) (٣٧٨) وسنن أبي داود - المكثر - (٣٦٧٢) صحيح

لعل آية النحل هي التي أثار قلقل عمر - رضي الله عنه - ورغبته في بيان شفاء. وقد كان عمر - كما حكى عن نفسه - رجل خمر في الجاهلية. مما يدل على تغلغل هذه العادة في المجتمع الجاهلي .. (السيد رحمه الله)

..ويا لها إذن من مكيدة! وهذه الأهداف التي يريد بها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته.فما يحتاج الإنسان إلى طول بحث حتى يرى أن الشيطان يوقع العداوة والبغضاء - في الخمر والميسر - بين الناس.فالخمر بما تفقد من الوعي وبما تثير من عرامة اللحم والدم،وبما تهيج من نزوات ودفعات.والميسر الذي يصاحبها وتصاحبه بما يتركه في النفوس من خسارات وأحقاد إذ المقهور لا بد أن يحقد على قامره الذي يستولي على ماله أمام عينيه،ويذهب به غانما وصاحبه مقهور مقهور .. إن من طبيعة هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء،مهما جمعت بين القرناء في مجالات من العريضة والانطلاق اللذين يخيّل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة! وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة،فلا يحتاجان إلى نظر ..فالخمر تنسي،والميسر يلهي،وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين وعالم المقامر كعالم السكر لا يتعدى الموائد والأقداح والقдах! وهكذا عند ما تبلغ هذه الإشارة إلى هدف الشيطان من هذا الرجس غايتها من إيقاظ قلوب «الذين آمنوا» وتحفزها،يجيء السؤال الذي لا جواب له عندئذ إلا جواب عمر رضي الله عنه وهو يسمع :

«فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟» فيجيب لتوه:«انتهينا.انتهينا» ..

ولكن السياق يمضي بعد ذلك يوقع إيقاعه الكبير:« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا.فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» ..

إنها القاعدة التي يرجع إليها الأمر كله:طاعة الله وطاعة الرسول ..الإسلام ..الذي لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله وللرسول ..والحذر من المخالفة،والتهديد الملفوف:«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» ..وقد بلغ وبيّن،فتحدت التبعة على المخالفين،بعد البلاغ المبين ..

إنه التهديد القاصم،في هذا الأسلوب الملفوف،الذي ترتعد له فرائص المؤمنين! ..إنهم حين يعصون ولا يطيعون لا يضررون أحدا إلا أنفسهم.لقد بلغ الرسول - ﷺ - وأدى ولقد نفض يديه من أمرهم إذن فما هو بمسؤول عنهم،وما هو بدافع عنهم عذابا - وقد عصوه ولم يطيعوه - ولقد صار أمرهم كله إلى الله سبحانه.وهو القادر على مجازاة العصاة المتولين! إنه المنهج الرباني يطرق القلوب،فتفتح له مغاليقها،وتتكشف له فيها المسالك والدروب ..

ولعله يحسن هنا أن نبين ما هي الخمر التي نزل فيها هذا النهي :

أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - قال « كُلُّ مُخَمَّرٍ خَمْرٌ وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بُخِسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا

عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَفِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ». قِيلَ وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ وَمَنْ سَقَاهُ صَغِيرًا لَا يَعْرِفُ حَلَالَهُ مِنْ حَرَامِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ » ٢١٤ ..
 وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَخْطُبُ عَلَى مَنبَرِ الْمَدِينَةِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ يَوْمَ نَزَلَ، وَهِيَ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ؛ مِنَ الْعَنْبِ، وَالتَّمْرِ، وَالْعَسَلِ، وَالْحِنْطَةِ، وَالشَّعِيرِ، وَالْخَمْرِ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ. ٢١٥.

فدل هذا وذلك على أن الخمر تشمل كل مخمر يحدث السكر .. وأنه ليس مقصورا على نوع بعينه.
 وأن كل ما أسكر فهو حرام.

إن غيبوبة السكر - بأي مسكر - تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولا بالله في كل لحظة، مراقبا لله في كل خطوة. ثم ليكون بهذه اليقظة عاملا إيجابيا في نماء الحياة وتجديدها، وفي صيانتها من الضعف والفساد، وفي حماية نفسه وماله وعرضه، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها ونظامها من كل اعتداء. والفرد المسلم ليس متروكا لذاته وللذاته فعليه في كل لحظة تكاليف تستوجب اليقظة الدائمة. تكاليف لربه، وتكاليف لنفسه، وتكاليف لأهله، وتكاليف للجماعة المسلمة التي يعيش فيها، وتكاليف للإنسانية كلها ليدعوها ويهديها. وهو مطالب باليقظة الدائمة لينهض بهذه التكاليف. وحتى حين يستمتع بالطيبات فإن الإسلام يحتم عليه أن يكون يقظا لهذا المتاع، فلا يصبح عبدا لشهوة أو لذة. إنما يسيطر دائما على رغباته فيليبها تلبية المالك لأمره .. وغيبوبة السكر لا تتفق في شيء مع هذا الاتجاه.

ثم إن هذه الغيبوبة في حقيقتها إن هي إلا هروب من واقع الحياة في فترة من الفترات وجنوح إلى التصورات التي تثيرها النشوة أو الخمار. والإسلام ينكر على الإنسان هذا الطريق ويريد من الناس أن يروا الحقائق، وأن يواجهوها، ويعيشوا فيها، ويصرفوا حياتهم وفقها، ولا يقيموا هذه الحياة على تصورات وأوهام .. إن مواجهة الحقائق هي محك العزيمة والإرادة أما الهروب منها إلى تصورات

٢١٤ - سنن أبي داود - المكثر [٣/ ٣٦٨] (٣٦٨٢) صحيح

٢١٥ - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبله [١٢/ ١٧٠] (٢٤٢٢٤) صحيح

فَهَذَا تَوْقِيفٌ فِي الْخَمْرِ أَنَّهَا مِنْ غَيْرِ عَنْبٍ وَفِيهِ بَيَانُ الِاشْتِقَاقِ وَأَنَّهُ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْخَمْرِ وَهُوَ كُلُّ مَا وَارَى مِنْ نَخْلِ وَغَيْرِهِ فَقِيلَ: خَمْرٌ؛ لِأَنَّهَا تَسْتُرُ الْعَقْلَ وَمِنْهُ فَلَانَ مَخْمُورٌ يُقَالُ هَذَا فِيمَا كَانَ مِنْ عَصِيرِ الْعَنْبِ وَغَيْرِهِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا مَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوَقِعَ بَيْنَهُمْ فِيهِ الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ وَيَصُدُّ بِهِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَالْقَلِيلُ مِنْ هَذَا وَمِنْ هَذَا وَاحِدٌ فَهَذَا أَصَحُّ مَا قِيلَ فِي اِشْتِقَاقِهَا وَأَجْلُهُ إِسْنَادًا قَالَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمَنبَرِ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ فَأَمَّا سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ الْخَمْرُ خَمْرًا؛ لِأَنَّهَا صَعِدَتْ صَفْوُهَا وَرَسَبَ كَدْرُهَا قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَاشْتِقَاقٌ هَذَا أَيْضًا عَلَى أَنَّ الصَّفْوَةَ سَتْرُ الْكَدْرِ وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ: سُمِّيَتْ خَمْرًا؛ لِأَنَّهَا تُخَمَّرُ أَيُّ: تُعْطَى وَسُمِّيَ نَبِيذًا؛ لِأَنَّهُ يُنْبَذُ وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَ النَّبِيذُ أَيْضًا يُخَمَّرُ وَمِمَّا يُشْبَهُ مَا تَقَدَّمَ " . النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ لِلنَّحَّاسِ (٨٠)

وأوهام فهو طريق التحلل، ووهن العزيمة، وتداوب الإرادة. والإسلام يجعل في حسابه دائما تربية الإرادة، وإطلاقها من قيود العادة القاهرة.. الإدمان..

وهذا الاعتبار كاف وحده من وجهة النظر الإسلامية لتحريم الخمر وتحريم سائر المخدرات.. وهي رجس من عمل الشيطان.. مفسد لحياة الإنسان. وقد اختلف الفقهاء في اعتبار ذات الخمر نجسة كبقية النجاسات الحسية. أو في اعتبار شربها هو المحرم.

والأول قول الجمهور والثاني قول ربيعة والليث بن سعد والمزني صاحب الشافعي وبعض المتأخرين من البغداديين.. وحسبنا هذا القدر في سياق الظلال.

وقد حدث أنه لما نزلت هذه الآيات، وذكر فيها تحريم الخمر، ووصفت بأهما رجس من عمل الشيطان أن انطلقت في المجتمع المسلم صيحتان متحدتان في الصيغة، مختلفتان في الباعث والهدف. قال بعض المتحرجين من الصحابة: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر.. أو قالوا: فما بال قوم قتلوا في أحد وهي في بطونهم (أي قبل تحريمها).

وقال بعض المشككين الذين يهدفون إلى البلبلة والحيرة.. هذا القول أو ما يشبهه يريدون أن ينشروا في النفوس قلة الثقة في أسباب التشريع، أو الشعور بضياح إيمان من ماتوا والخمر لم تحرم وهي رجس من عمل الشيطان، ماتوا والرجس في بطونهم! عندئذ نزلت هذه الآية: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».. نزلت لتقرر أولا أن ما لم يحرم لا يحرم وأن التحريم يبدأ من النص لا قبله وأنه لا يحرم بأثر رجعي فلا عقوبة إلا بنص سواء في الدنيا أو في الآخرة لأن النص هو الذي ينشئ الحكم.. والذين ماتوا والخمر في بطونهم، وهي لم تحرم بعد، ليس عليهم جناح فإنهم لم يتناولوا محرما ولم يرتكبوا معصية^{٢١٦}.. لقد كانوا يخافون الله ويعملون الصالحات ويراقبون الله ويعلمون أنه مطلع على نواياهم وأعمالهم.. ومن كانت هذه حاله لا يتناول محرما ولا يرتكب معصية.

٢١٦ - عن البراء، قال: مات ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريمها، قال ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [المائدة]. صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٢/ ١٧٢] (٥٣٥٠)

وعن أنس - رضى الله عنه - كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ - مناديا يُنادى «ألا إن الخمر قد حُرِّمتُ» - قال فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها، فخرجتُ فهرقتها، فخرت في سلك المدينة فقال بعضهم القوم قد قتل قومٌ وهى في بطونهم. فأنزل الله (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) الآية " صحيح البخارى - المكثر [٩/ ١٣٧] (٢٤٦٤) وصحيح مسلم - المكثر [١٣/ ٢٠٢] (٥٢٤٦) الفضيخ: شراب يتخذ من البسر

ولا نريد أن ندخل بهذه المناسبة في الجدل الذي أثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس: هل هو ناشئ عن أمر الشارع - سبحانه - بتحريمها، أم إنه ناشئ عن صفة ملازمة للخمر في ذاتها. وهل المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها، أم إن هذه الصفة تلزمها من التحريم.. فهو جدل عقيم في نظرنا وغريب على الحس الإسلامي!.. والله حين يحرم شيئاً يعلم - سبحانه - لم حرمه. سواء ذكر سبب التحريم أو لم يذكر. وسواء كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم، أو لعلّة تتعلق بمن يتناوله من ناحية ذاته، أو من ناحية مصلحة الجماعة ..

فإنّ الله سبحانه هو الذي يعلم الأمر كله والطاعة لأمره واجبة، والجدل بعد ذلك لا يمثل حاجة واقعية. والواقعية هي طابع هذا المنهج الرباني .. ولا يقولون أحد: إذا كان التحريم لصفة ثابتة في المحرم فكيف أبيع إذن قبل تحريمه!! فلا بد أن لله - سبحانه - حكمة في تركه فترة بلا تحريم. ومرد الأمر كله إلى الله. وهذا مقتضى ألوهيته - سبحانه - واستحسان الإنسان أو استقباحه ليس هو الحكم في الأمر وما يراه علة قد لا يكون هو العلة. والأدب مع الله يقتضي تلقي أحكامه بالقبول والتنفيذ، سواء عرفت حكمتها أو علتها أم ظلت خافية .. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

إن العمل بشريعة الله يجب أن يقوم ابتداءً على العبودية .. على الطاعة لله إظهاراً للعبودية له سبحانه. فهذا هو الإسلام - بمعنى الاستسلام .. وبعد الطاعة يجوز للعقل البشري أن يتلمس حكمة الله - بقدر ما يستطيع - فيما أمر الله به أو نهى عنه - سواء بين الله حكمته أم لم يبينها، وسواء أدركها العقل البشري أم لم يدركها - فالحكم في استحسان شريعة الله في أمر من الأمور ليس هو الإنسان! إنما الحكم هو الله. فإذا أمر الله أو نهى فقد انتهى الجدل ولزم الأمر أو النهي .. فأما إذا ترك الحكم للعقل البشري فمعنى ذلك أن الناس هم المرجع الأخير في شرع الله .. فأين مكان الألوهية إذن وأين مكان العبودية؟

ونخلص من هذا إلى تركيب الآية ودلالة هذا التركيب: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» .. ولم أجد في أقوال المفسرين ما تستريح إليه النفس في صياغة العبارة القرآنية على هذا النحو وتكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح، ومرة مع الإيمان، ومرة مع الإحسان .. كذلك لم أجد في تفسيره لهذا التكرار في الطبعة الأولى من هذه الطلّال ما تستريح إليه نفسي الآن .. وأحسن ما قرأت - وإن كان لا يبلغ من حسي مبلغ الارتياح - هو ما قاله ابن جرير الطبري: «الاتقاء الأول هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل. والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل» .. وكان الذي ذكرته في الطبعة الأولى في هذا الموضوع هو: «إنه توكيد عن طريق التفصيل بعد الإجمال.

فقد أجمل التقوى والإيمان والعمل الصالح في الأولى. ثم جعل التقوى مرة مع الإيمان في الثانية، ومرة مع الإحسان - وهو العمل الصالح - في الثالثة.. ذلك التوكيد مقصود هنا للتكساء على هذا المعنى. ولإبراز ذلك القانون الثابت في تقدير الأعمال بما يصاحبها من شعور باطني. فالتقوى.. تلك الحساسية المرهفة برقابة الله، والاتصال به في كل لحظة. والإيمان بالله والتصديق بأوامره ونواهيهِ، والعمل الصالح الذي هو الترجمة الظاهرة للعقيدة المستكنة. والترابط بين العقيدة الباطنة والعمل المعبر عنها.. هذه هي مناط الحكم، لا الظواهر والأشكال.. وهذه القاعدة تحتاج إلى التوكيد والتكرار والبيان».^{٢١٧}

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزِنِي الزَّانِي حِينَ يَزِنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهَبُ نَهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^{٢١٨}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزِنِي الزَّانِي حِينَ يَزِنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ»^{٢١٩}

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حِينَ أُسْرِي بِي لَقِيتُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ - فَإِذَا رَجُلٌ - حَسْبُهُ قَالَ - مُضْطَرَبٌ، رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَعَةَ»، قَالَ: «وَلَقِيتُ عِيسَى - فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ - فَإِذَا رُبْعَةٌ أَحْمَرٌ، كَأَنَّهَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ» - يَعْنِي حَمَامًا - قَالَ: «وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدَهُ بِهِ»، قَالَ: " فَآتَيْتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِي الْآخَرَ خَمْرٌ، فَفِيلَ لِي: خُذْ أَيُّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبْنَ، فَشَرِبْتُهُ، فَقَالَ: هُدَيْتَ الْفِطْرَةَ - أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ - أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ عَوَتْ أُمَّتُكَ " ^{٢٢٠}.

^{٢١٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ١ - ت - علي بن نايف الشجود (ص: ١٣٧٨)

^{٢١٨} - صحيح مسلم (١/ ٧٦) - ١٠٠ - (٥٧)

[ش (لا يزني الزاني وهو مؤمن الخ) هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان (نبهة) النهبة هي ما ينهبه (ذات شرف) معناه ذات قدر عظيم وقيل ذات استشراف يستشرف الناس لها ناظرين إليها رافعين أبصارهم]

^{٢١٩} - صحيح مسلم (١/ ٧٧) - ١٠٤ - (٥٧)

[ش (والتوبة معروضة بعد) قد أجمع العلماء على قبول التوبة ما لم يغرغر وللتوبة ثلاثة أركان أن يقلع عن المعصية ويندم على فعلها ويعزم أن لا يعود إليها]

^{٢٢٠} - صحيح مسلم (١/ ١٥٤) - ٢٧٢ - (١٦٨)

[ش (مضطرب) هو مفتعل من الضرب صرح به ابن الأثير في النهاية (رجل الرأس) أي رجل الشعر وسيأتي معناه قريباً (إذا رُبعة أحمر كأنما خرج من ديماس) أما الرُبعة فيقال رجل رُبعة ومربع أي بين الطويل والقصير وأما الديماس فقال الجوهري في صحاحه في هذا الحديث قوله خرج من ديماس يعني في نضارته وكثرة ماء وجهه كأنه خرج من كن لأنه قال في وصفه كأن رأسه يقطر ماء]

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْرِضُ بِالْخَمْرِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ سَيُنزِلُ فِيهَا أَمْرًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيَتَّفِعْ بِهِ»، قَالَ: فَمَا لَبِثْنَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَ، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا يَشْرَبُ، وَلَا يَبِيعُ»، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ النَّاسُ بِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ فَسَفَكُوهَا^{٢٢١}.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخَنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفْنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبَحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: «لَا، هُوَ حَرَامٌ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهَا، ثُمَّ بَاعُوهَا فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»^{٢٢٢}.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَمْرِ عَشْرَةَ: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَأَكَلَ ثَمَنَهَا، وَالْمُشْتَرِيَ لَهَا، وَالْمُشْتَرَاةَ لَهُ"^{٢٢٣}.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ جَلَدَ فِي الْخَمْرِ بِالْجَرِيدِ، وَالنَّعَالِ»، ثُمَّ جَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ، وَدَنَا النَّاسُ مِنَ الرَّيْفِ وَالْقُرَى، قَالَ: «مَا تَرَوْنَ فِي جِلْدِ الْخَمْرِ؟» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا كَأَخْفِ الْحُدُودِ، قَالَ: «فَجَلَدَ عُمَرُ ثَمَانِينَ»^{٢٢٤}.



^{٢٢١} - صحيح مسلم (٣/١٢٠٥) ٦٧ - (١٥٧٨) [ش (فسفكوها) أي أراقوها]

^{٢٢٢} - صحيح مسلم (٣/١٢٠٧) ٧١ - (١٥٨١) [ش (أجملوه) يقال أجمل الشحم وجمله أي أذابه]

^{٢٢٣} - سنن الترمذي ت شاكر (٣/٥٨١) (١٢٩٥) صحيح لغيره

^{٢٢٤} - صحيح مسلم (٣/١٣٣١) ٣٦ - (١٧٠٦)

[ش (ودنا الناس من الريف والقرى) الريف المواضع التي فيها المياه أو هي قرية منها ومعناه لما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتحت الشام والعراق وسكن الناس في الريف ومواقع الخصب وسعة العيش وكثرة الأعناب والثمار - أكثروا من شرب الخمر فزاد عمر في حد الخمر تغليظا عليهم وزجرا لهم عنها (أرى أن يجعلها) يعني العقوبة التي هي حد الخمر وقوله أخف الحدود يعني المنصوص عليها في القرآن وهي حد السرقة بقطع اليد وحد الزنى جلد مائة وحد القذف ثمانون فاجعلها ثمانين كأخف هذه الحدود]

٣٩. ابتلاء المحرم ببحر أو عمرة بالصيد

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلُوَكُمْ اللَّهُ بَشِيءً مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٩٤) سورة المائدة
يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى: بِأَنَّهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ (يَبْلُوهُمْ) فِي حَالَةِ إِحْرَامِهِمْ، بِأَن يَجْعَلَ صِعَارَ حَيَوَانَاتِ الصَّيْدِ وَضِعَافِهَا فِي مُتَنَاولِ أَيْدِيهِمْ، لَوْ شَاءُوا وَتَنَاولُوهَا بِأَيْدِيهِمْ، كَمَا أَنَّهُ سَيَخْتَبِرُهُمْ بِجَعْلِ كِبَارِ الْحَيَوَانَاتِ فِي مُتَنَاولِ رِمَاحِهِمْ، تَعْرِضُ لَهُمْ، أَوْ تَعْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ، لِيَعْلَمَ مَن يُطِيعُ اللَّهَ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، وَيَمْتَنِعُ عَنِ الصَّيْدِ مَا دَامَ مُحْرِمًا فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ هَذَا التَّحْذِيرِ مِنَ اللَّهِ، وَقَتَلَ الصَّيْدَ أَوْ أَكَلَ لَحْمَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ، فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الْآخِرَةِ لِمُخَالَفَتِهِ شَرَعَ اللَّهُ .^{٢٢٥}

إنه صيد سهل، يسوقه الله إليهم. صيد تناله أيديهم من قريب، وتناله رماحهم بلا مشقة. ولقد حكي أن الله ساق لهم هذا الصيد حتى لكان يطوف بخيامهم ومنازلهم من قريب! .. إنه الإغراء الذي يكون فيه الابتلاء .. إنه ذات الإغراء الذي عمزت بنو إسرائيل من قبل عن الصمود له، حين ألحوا على نبيهم موسى - عليه السلام - أن يجعل الله لهم يوماً للراحة والصلاة لا يشتغلون فيه بشيء من شئون المعاش. فجعل لهم السبت.

ثم ساق إليهم صيد البحر يجيئهم قاصدا الشاطئ متعرضا لأنظارهم في يوم السبت. فإذا لم يكن السبت اختفى، شأن السمك في الماء. فلم يطبقوا الوفاء بعهودهم مع الله وراحوا - في جبلة اليهود المعروفة - يجتالون على الله فيحوطون على السمك يوم السبت ولا يصيدونه حتى إذا كان الصباح التالي عادوا فأمسكوه من التحويلة! وذلك الذي وجهه الله - سبحانه - رسوله - ﷺ - لأن يواجههم ويفضحهم به في قوله تعالى: «وَسْتَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ، إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ. كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» .. هذا الابتلاء بعينه ابتلى به الله الأمة المسلمة، فنجحت حيث أخفقت يهود .. وكان هذا مصداق قول الله سبحانه في هذه الأمة: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ» ..

ولقد نجحت هذه الأمة في مواطن كثيرة حيث أخفق بنو إسرائيل. ومن نزع الله الخلافة في الأرض من بني إسرائيل وائتمن عليها هذه الأمة. ومكن لها في الأرض ما لم يمكن لأمة قبلها. إذ أن منهج الله لم يتمثل تمثلا كاملا في نظام واقعي يحكم الحياة. كلها كما تمثل في خلافة الأمة المسلمة .. ذلك يوم أن كانت مسلمة. يوم أن كانت تعلم أن الإسلام هو أن يتمثل دين الله وشريعته في حياة البشر. وتعلم أنها

^{٢٢٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

هي المؤمنة على هذه الأمانة الضخمة وأنها هي الوصية على البشرية لتقيم فيها منهج الله، وتقوم عليه بأمانة الله.

ولقد كان هذا الاختبار بالصيد السهل في أثناء فترة الإحرام أحد الاختبارات التي اجتازتها هذه الأمة بنجاح. وكانت عناية الله - سبحانه - بتربية هذه الأمة بمثل هذه الاختبارات من مظاهر رعايته واصطفائه. ولقد كشف الله للذين آمنوا في هذا الحادث عن حكمة الابتلاء: «لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ».. إن مخافة الله بالغيب هي قاعدة هذه العقيدة في ضمير المسلم. القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء العقيدة، وبناء السلوك، وتناط بها أمانة الخلافة في الأرض. بمنهج الله القويم ..

إن الناس لا يرون الله ولكنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون .. إنه تعالى بالنسبة لهم غيب، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه. إن استقرار هذه الحقيقة الهائلة - حقيقة الإيمان بالله بالغيب ومخافته - والاستغناء عن رؤية الحس والمشاهدة والشعور بهذا الغيب شعورا يوازي - بل يرجح - الشهادة حتى ليؤدي المؤمن شهادة: بأن لا إله إلا الله. وهو لم ير الله .. إن استقرار هذه الحقيقة على هذا النحو يعبر عن نقلة ضخمة في ارتقاء الكائن البشري، وانطلاق طاقاته الفطرية، واستخدام أجهزته المركوزة في تكوينه الفطري على الوجه الأكمل وابتعاده - بمقدار هذا الارتقاء - عن عالم البهيمية التي لا تعرف الغيب - بالمستوى الذي تمياً له الإنسان - بينما يعبر انغلاق روحه عن رؤية ما وراء الحس، وانكماش إحساسه في دائرة المحسوس، عن تعطل أجهزة الالتقاط والاتصال الراقية فيه وانتكاسه إلى المستوي الحيواني في الحس «المادي»! ومن ثم يجعلها الله سبحانه حكمة لهذا الابتلاء ويكشف للذين آمنوا عن هذه الحكمة كي تحتشد نفوسهم لتحقيقها ..

والله سبحانه يعلم علماً لدنياً من يخافه بالغيب. ولكنه - سبحانه - لا يحاسب الناس على ما يعلمه عنهم علماً. لدنيا. إنما يحاسبهم على ما يقع منهم فيعلمه الله - سبحانه - علم وقوع .. «فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .. فقد أخبر بالابتلاء، وعرف حكمة تعرضه له، وحذر من الوقوع فيه وبذلت له كل أسباب النجاح فيه ..

فإذا هو اعتدى - بعد ذلك - كان العذاب الأليم جزاء حقاً وعدلاً وقد اختار بنفسه هذا الجزاء واستحقه فعلاً. ٢٢٦



٢٢٦ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٨٤)

٤٠. تحريم قتل صيد البر للمحرم بحج أو عمرة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدِيًّا بِأَلْفِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَّسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذِي قُوَّةٍ وَبِأَلِّ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) } سورة المائدة.

حَرَّمَ اللَّهُ صَيْدَ الْبَرِّ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ، وَنَهَى الْمُؤْمِنُ عَنْ تَنَاوُلِهِ فِيهِ، وَمَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا، وَهُوَ مُحْرَمٌ، يَجِبُ عَلَيْهِ جَزَاءٌ مِنْ مِثْلِ الْحَيَوَانَ الَّذِي قَتَلَهُ (إِنْ كَانَ لِلْحَيَوَانَ مِثْلٌ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْأَيْفَةِ)، يَحْكُمُ بِهِ رَجُلَانِ عَادِلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (وَقَدْ حَكَمَ بَعْضُهُمْ بِنَحْرِ تَيْسٍ فِي حِزَاءٍ عَنْ قَتْلِ ظَبْيٍ)، وَعَلَى مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْمِثْلِ الَّذِي سَيَذْبَحُهُ إِلَى الْكَعْبَةِ، لِيَكُونَ هَدِيًّا لَهَا، فَيَذْبَحُ هُنَاكَ، وَيُوزَعُ لِحَمِّهِ عَلَى فَقَرَاءِ أَهْلِ الْحَرَمِ. فَإِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرِمُ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ فَيُخَيَّرُ الْمُحْرِمُ بَيْنَ أُمُورٍ:

أ - أَنْ يُقَوِّمَ الصَّيْدَ الْمَقْتُولَ، وَيُقَوِّمَ مِثْلَهُ مِنَ النَّعْمِ، لَوْ كَانَ مَوْجُودًا، فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَمَّ فِيهِ الصَّيْدُ، أَوْ فِي أَقْرَبِ مَكَانٍ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَشْتَرِي الْمُحْرِمُ الْمُخَالَفَ بِثَمَنِهِ طَعَامًا فَيَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى فَقَرَاءِ الْحَرَمِ .
ب - أَوْ يُطْعِمُ مَسَاكِينَ. وَيَخْتَلَفُ عَدْدُهُمْ بِحَسَبِ أَهْمِيَّةِ الصَّيْدِ الْمَقْتُولِ: فَقِيلَ إِنْ مَنْ قَتَلَ ظَبْيًا فَعَلَيْهِ ذَبْحُ شَاةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. وَإِذَا قَتَلَ نَعَامَةً أَوْ حِمَارًا وَحَشٍ، فَعَلَيْهِ ذَبْحُ بَدَنَةٍ (نَاقَةٍ أَوْ بَعِيرٍ)، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَطْعَمَ ثَلَاثِينَ مَسْكِينًا. ج - وَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يُطْعِمُ بِهِ الْمَسَاكِينَ صَامَ أَيَّامًا عَنْ ذَلِكَ .
وَتَتَرَاوَحُ مُدَّةُ الصَّوْمِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فِي قَتْلِ ظَبْيٍ، إِلَى ثَلَاثِينَ يَوْمًا، فِي قَتْلِ نَعَامَةٍ أَوْ حِمَارٍ وَحَشٍ. يَصُومُ يَوْمًا عَنْ إِطْعَامِ كُلِّ مَسْكِينٍ (.

وَيَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّهُ أَوْجَبَ الْكَفَّارَةَ لِذِي قُوَّةٍ الْمُتَجَاوِزِ الْعُقُوبَةَ عَنِ الْفِعْلِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ (وَبِأَلِّ أَمْرِهِ) .

وَقَدْ أَلْحَقَتِ السُّنَّةُ قَتْلَ الصَّيْدِ خَطَأً بِقَتْلِهِ عَمْدًا، فِي وُجُوبِ الْكَفَّارَةِ. وَلَكِنْ دُونَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْمُخْطِئِ إِثْمٌ .

وَقَدْ عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا سَلَفَ مِنْ قَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالَةِ الْإِحْرَامِ، الَّذِي تَمَّ قَبْلَ هَذَا التَّحْرِيمِ، وَقَبْلَ بُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ لِلنَّاسِ. وَمَنْ عَادَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَى فِعْلِ ذَلِكَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ مَنِيعُ الْجَانِبِ. قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْتَقِمَ مِمَّنْ عَصَاهُ . ٢٢٧

٢٢٧ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٦٥، بترقيم الشاملة آليا)

إن النهي ينصب على قتل المحرم للصيد عمدا. فأما إذا قتله خطأ فلا إثم عليه ولا كفارة.. فإذا كان القتل عمدا فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله. فالغزالة مثلا تجزئ فيها نعجة أو عترة. والأيل تجزئ فيه بقرة. والنعامة والزرافة وما إليها تجزئ فيها بدنة.. والأرنب والقط وأمثالهما يجزئ فيه أرنب. وما لا مقابل له من البهيمة يجزئ عنه ما يوازي قيمته ..

ويتولى الحكم في هذه الكفارة اثنان من المسلمين ذوا عدل. فإذا حكما بذبح بهيمة أطلقت هديا حتى تبلغ الكعبة، تذبح هناك وتطعم للمساكين. أما إذا لم توجد بهيمة فللحكّمين أن يحكما بكفارة طعام مساكين بما يساوي ثمن البهيمة أو ثمن الصيد (خلاف فقهي). فإذا لم يجد صاحب الكفارة صام ما يعادل هذه الكفارة. مقدرا ثمن الصيد أو البهيمة، ومجزأ على عدد المساكين الذين يطعمهم هذا الثمن وصيام يوم مقابل إطعام كل مسكين .. أما كم يبلغ ثمن إطعام مسكين فهو موضع خلاف فقهي. ولكنه يتبع الأمكنة والأزمنة والأحوال.

وينص السياق القرآني على حكمة هذه الكفارة: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» ..

ففي الكفارة معنى العقوبة، لأن الذنب هنا محل بجرمة يشدد فيها الإسلام تشديدا كبيرا: لذلك يعقب عليها بالعفو عما سلف والتهديد بانتقام الله ممن لا يكف: «عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ». فإذا اعتر قاتل الصيد بقوته وقدرته على نيل هذا الصيد، الذي أراد الله له الأمان في مثابة الأمان، فالله هو العزيز القوي القادر على الانتقام! ذلك شأن صيد البر. فأما صيد البحر فهو حلال في الحل والإحرام: «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ» ..

فحيوان البحر حلال صيده وحلال أكله للمحرم ولغير المحرم سواء.. ولما ذكر حل صيد البحر وطعامه، عاد فذكر حرمة صيد البر للمحرم: «وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا» .. والذي عليه الإجماع هو حرمة صيد البر للمحرم. ولكن هناك خلاف حول تناول المحرم له إذا صاد غير المحرم. كما أن هناك خلافا حول المعنى بالصيد. وهل هو خاص بالحيوان الذي يصاد عادة. أم النهي شامل لكل حيوان، ولو لم يكن مما يصاد ومما لا يطلق عليه لفظ الصيد.

ويحتتم هذا التحليل وهذا التحريم باستجاشة مشاعر التقوى في الضمير والتذكير بالحشر إلى الله والحساب: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» .. وبعد. ففيم هذه الحرمات؟

إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر في زحمة الصراع.. إنها الكعبة الحرام، والأشهر الحرام، تقدم في وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس.. بين الرغائب والمطامع والشهوات والضرورات.. فتحل الطمأنينة محل الخوف، ويحل السلام محل الخصام، وترف أجنحة من الحب والإحياء والأمن والسلام. وتدرج النفس البشرية في واقعها العملي - لا في عالم المثل والنظريات - على هذه المشاعر وهذه المعاني فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حاملة، تعز على التحقيق في واقع الحياة: «جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ

الْحَرَامَ، قِيَامًا لِلنَّاسِ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ. ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» ..

لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان والطير والحيوان والحشرات بالأمن في البيت الحرام. وفي فترة الإحرام بالنسبة للمحرم حتى وهو لم يبلغ الحرم. كما جعل الأشهر الحرم الأربعة التي لا يجوز فيها القتل ولا القتال وهي ذو القعدة وذو الحجة والحرم ثم رجب .. ولقد ألقى الله في قلوب العرب - حتى في جاهليتهم - حرمة هذه الأشهر. فكانوا لا يروعون فيها نفسا، ولا يطلبون فيها دما، ولا يتوقعون فيها تارا، حتى كان الرجل يلقي قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه، فكانت مجالا آمنا للسياحة والضرب في الأرض وابتغاء الرزق .. جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة - بيت الله الحرام - أن تكون مثابة أمن وسلام. تقيم الناس وتقيهم الخوف والفرع. كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن في الزمان كالكعبة منطقة أمن في المكان. ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان والمكان، فجعله حقا للهدي - وهو النعم - الذي يطلق ليلبلغ الكعبة في الحج والعمرة فلا يمسه أحد في الطريق بسوء. كما جعله لمن يتقلد من شجر الحرم، معلنا احتماؤه بالبيت العتيق.

لقد جعل الله هذه الحرمات منذ بناء هذا البيت على أيدي إبراهيم وإسماعيل وجعله مثابة للناس وأمنا، حتى لقد امتن الله به على المشركين أنفسهم إذ كان بيت الله بينهم مثابة لهم وأمنا، والناس من حولهم يتخطفون، وهم فيه وبه آمنون، ثم هم - بعد ذلك - لا يشكرون الله ولا يفرّدونه بالعبادة في بيت التوحيد ويقولون للرسول - ﷺ - «إذ يدعوهم إلى التوحيد: إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا. فحكى الله قولهم هذا وجبههم بحقيقة الأمن والمخافة: «وَقَالُوا: إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا. أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا؟ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وفي الصحيحين عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ، يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ: إِنْ هَذَا الْبَلَدَ حَرَامًا، حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ، حَرَمَهُ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَا أَحَلَّ لِأَحَدٍ فِيهِ الْقَتْلَ غَيْرِي، وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي فِيهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَمَا أَحَلَّ لِي فِيهِ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ، فَهُوَ حَرَامٌ حَرَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَلَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهُ إِلَّا لِمَعْرُوفٍ، قَالَ: فَقَالَ الْعَبَّاسُ: وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ، قَدْ عَلِمَ الَّذِي لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، إِلَّا الْإِذْخَرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لِلْقُبُورِ وَالْبُيُوتِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِلَّا الْإِذْخَرَ ۲۲۸.

٢٢٨ - مسند أحمد (عالم الكتب) [١/ ٦٨٢] (٢٣٥٣) وأخرجه البخاري (١٥٨٧) و (١٨٣٤) و (٣١٨٩)، ومسلم (١٣٥٣) بنحوه

ولم يستثن من الأحياء مما يجوز قتله في الحرم وللمحرم إلا الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور لحديث عائشة - رضى الله عنها - عن النبي - ﷺ - قال « حَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ الْفَأْرَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْحُدَيْبَا، وَالْغُرَابُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ »^{٢٢٩}

وعن عائشة، قالت: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَتْلِ حَمْسِ فَوَاسِقٍ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحِدَاةُ، وَالْغُرَابُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ.^{٢٣٠}

وفي صحيح مسلم عن زيد بن جبير قال سأل رجل ابن عمر ما يقتل الرجل من الدواب وهو محرم قال حدثتني إحدى نسوة النبي - ﷺ - أنه كان يأمر بقتل الكلب العقور والفأرة والعقرب والحدايا والغراب والحية. قال وفي الصلاة أيضا.^{٢٣١}

كذلك حرمت المدينة عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال قال علي - رضى الله عنه ما عندنا كتاب نقرأه إلا كتاب الله، غير هذه الصحيفة. قال فأخرجها فإذا فيها أشياء من الجراحات وأسنان الإبل. قال وفيها المدينة حرم ما بين غير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، ومن والى قوما بغير إذن مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل.^{٢٣٢}

وفي الصحيح عن عباد بن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله - ﷺ - قال « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإنى دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة »^{٢٣٣}.

وبعد، فإنها ليست منطقة الأمان في الزمان والمكان وحدهما. وليس رواق الأمان الذي يشمل الحيوان والإنسان وحدهما.. إنما هي كذلك منطقة الأمان في الضمير البشري.. ذلك المصطرع المترامي الأطراف في أغوار النفس البشرية.. هذا المصطرع الذي يثور ويفور فيطغى بشواظه وبدخانته على المكان والزمان، وعلى الإنسان والحيوان!..

^{٢٢٩} - صحيح البخارى- المكثر [١١/ ٤٦٨] (٣٣١٤) وصحيح مسلم- المكثر [٧/ ٤٥٥] (٢٩٢٠) العقور: كل سبع يجرح ويقتل

ويقترس

^{٢٣٠} - صحيح ابن حبان- ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٢/ ٤٤٨] (٥٦٣٢) صحيح

^{٢٣١} - صحيح مسلم- المكثر [٧/ ٤٦٣] (٢٩٢٨) وقد ذكره مختصرا

العقور: العضوض، فعول بمعنى فاعل، وهو من أبنية المبالغة، والمراد به: كل سبع عاقر كالكلب، والأسد والنمر ونحوها.

^{٢٣٢} - صحيح البخارى- المكثر [٢٢/ ٢٥٢] (٦٧٥٥) - أخفر: نقض العهد

^{٢٣٣} - صحيح مسلم- المكثر [٨/ ٤٩٠] (٣٣٧٩)

إنها منطقة السلام والسماحة في ذلك المصطرع، حتى ليتخرج الحرم أن يمد يده إلى الطير والحيوان. وهما - في غير هذه المنطقة - حل للإنسان. ولكنهما هنا في المثابة الآمنة. في الفترة الآمنة. في النفس الآمنة .. إنها منطقة المرانة والتدريب للنفس البشرية لتصفو وترق وترف فتتصل بالملأ الأعلى وتتهياً للتعامل مع الملأ الأعلى ..

ألا ما أحوج البشرية المفزعة الوجلة، المتطاحنة المتصارعة .. إلى منطقة الأمان، التي جعلها الله للناس في هذا الدين، وبينها للناس في هذا القرآن! «ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .. تعقيب عجيب في هذا الموضوع ولكنه مفهوم! إن الله يشرع هذه الشريعة، ويقيم هذه المثابة، ليعلم الناس أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم .. ليعلموا أنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكونات نفوسهم وهتاف أرواحهم. وأنه يقرر شرائعه لتلبية الطبائع والحاجات، والاستجابة للأشواق والمكونات .. فإذا أحست قلوب الناس رحمة الله في شريعته وتذوقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم العميقة علموا أن الله يعلم ما في السماوات والأرض وأن الله بكل شيء عليم.

إن هذا الدين عجيب في توافيه الكامل مع ضرورات الفطرة البشرية وأشواقها جميعاً وفي تلييته لحاجات الحياة البشرية جميعاً .. إن تصميمه يطابق تصميمها وتكوينه يطابق تكوينها. وحين ينشرح صدر لهذا الدين فإنه يجد فيه من الجمال والتجاوب والأنس والراحة ما لا يعرفه إلا من ذاق! ^{٢٣٤}



^{٢٣٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٨٥)

٤١. تحريم السؤال عما لا يعيننا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن نَسَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) } قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) } سورة المائدة

يُؤدِّبُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَنْهَاهُمْ عَنَ أَنْ يَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ لَا فَاِنَّدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهَا، وَعَنِ التَّنْقِيبِ عَنَ خَفَايَاهَا، لِأَنَّهَا إِن ظَهَرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ رَبَّمَا سَاءَتْ لَهُمْ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا .

وَيَقُولُ تَعَالَى: إِذَا سَأَلْتُمْ عَنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا، حِينَ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ فِي شَأْنِهَا أَوْ حُكْمِهَا، أَوْ لِأَجْلِ فَهَمِّ مَا نَزَلَ إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يُبْدِيهِ لَكُمْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ .

وَقِيلَ إِنَّ الْمَقْصُودَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: { لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ } هُوَ لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا، فَلَعَلَّهُ يَنْزِلُ بِسَبَبِ سُّؤَالِكُمْ تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ .

لَقَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْمُنْهَى عَنْهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ فَأُجِيبُوا عَنْهَا، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا فَأَصْبَحُوا بِسَبَبِهَا كَافِرِينَ، لِأَنَّهَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا، وَلَمْ يَتَّبِعُوهَا .^{٢٣٥}

كان بعضهم يكثر على رسول الله - ﷺ - من السؤال عن أشياء لم يتزل فيها أمر أو نهي. أو يلحف في طلب تفصيل أمور أجمالها القرآن، وجعل الله في إجمالها سعة للناس. أو في الاستفسار عن أمور لا ضرورة لكشفها فإن كشفها قد يؤدي السائل عنها أو يؤدي غيره من المسلمين.

وروي أنه لما نزلت آية الحج سأل سائل: أفي كل عام؟ فكره رسول الله - ﷺ - هذا السؤال لأن النص على الحج جاء مجملاً: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» والحج مرة يجزي. فأما السؤال عنه أفي كل عام فهو تفسير له بالصعب الذي لم يفرضه الله.

وفي حديث مرسل رواه الترمذي والدارقطني عن علي، قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: { وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا }، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أفي كل عام؟ فسكت، فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت، قال: ثُمَّ قَالُوا: أفي كل عام؟ فقال: لَا، وَلَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ } إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^{٢٣٦} ..

وأخرجه الدارقطني أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ " فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ أَعَادَهَا، فَقَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ، لَوَجِبَتْ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ وَجِبَتْ مَا أَطَعْتُمُوهَا، وَلَوْ تَرَكْتُمُوهَا لَكَفَرْتُمْ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا

^{٢٣٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٧١، بترقيم الشاملة آليا)

^{٢٣٦} - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٣٢٩) (٩٠٥) وسنن الترمذي - المكثر - (٨١٩) وسنن الدارقطني - المكثر - (٢٧٣٥)

وفيه انقطاع وله شواهد تحسنه

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ { [المائدة: ١٠١] . ثُمَّ قَالَ ﷺ: " إِنَّمَا هِيَ
مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ " ٢٣٧ ..

وفي حديث أخرجه مسلم عن الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ -
خَرَجَ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى الظُّهْرَ فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَذَكَرَ السَّاعَةَ، وَذَكَرَ أَنَّ بَيْنَ يَدَيْهَا
أُمُورًا عَظِيمًا ثُمَّ قَالَ « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا
أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ، مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا » . قَالَ أَنَسٌ فَأَكْثَرَ النَّاسُ الْبُكَاءَ، وَأَكْثَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنْ
يَقُولَ « سَلُونِي » . فَقَالَ أَنَسٌ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ أَيْنَ مَدَخَلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « النَّارُ » . فَقَامَ عَبْدُ
اللَّهِ بْنُ حُدَافَةَ فَقَالَ مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « أَبُوكَ حُدَافَةُ » . قَالَ ثُمَّ أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ « سَلُونِي
سَلُونِي » . فَبَرَكَ عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ - ﷺ - رَسُولًا . قَالَ
فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حِينَ قَالَ عُمَرُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ
عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَنْفَا فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ وَأَنَا أُصَلِّي، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ » ٢٣٨
وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ سَأَلَ النَّبِيَّ - ﷺ - عَنْ أَشْيَاءٍ كَرِهَهَا، فَلَمَّا أُكْتِرَ عَلَيْهِ غَضِبَ، ثُمَّ قَالَ
لِلنَّاسِ « سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ » . قَالَ رَجُلٌ مَنْ أَبِي قَالَ « أَبُوكَ حُدَافَةُ » . فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ مَنْ أَبِي يَا
رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ « أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ » . فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَتُوبُ
إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ٢٣٩ .

قال ابن عبد البر: عبد الله بن حذافة أسلم قديما، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وشهد
بدرًا، وكانت فيه دعاة! وكان رسول الله - ﷺ - أرسله إلى كسرى بكتاب رسول الله - ﷺ - ولما
قال: من أبي يا رسول الله؟ قال «أبوك حذافة» قالت أمه: ما سمعت بابن أعق منك. أأمنت أن تكون
أملك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟! فقال: والله لو ألحقني بعبد أسود
للحقت به ٢٤٠ ..

وفي رواية لابن جرير عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمراً وجهه! حتى جلس
على المنبر، فقام إليه رجل فقال: أين أبي؟ قال: في النار، فقام آخر فقال: من أبي؟ قال: أبوك حذافة! فقام
عمر بن الخطاب فقال: رضىنا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً، إنا يا رسول الله

٢٣٧ - سنن الدارقطني - المكثر - (٢٧٣٩) وأخبار مكة للفاكهي - (١ / ٣٧٠) (٧٧٥) صحيح لغيره

٢٣٨ - صحيح البخارى - المكثر - (٧٢٩٤) وصحيح مسلم - المكثر - (٦٢٧٠)

٢٣٩ - صحيح البخارى - المكثر - (٩٢)

٢٤٠ - تفسير القرطبي - دار عالم الكتب، الرياض [٦ / ٣٣٠]

حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله يعلم من آباؤنا! قال: فسكن غضبه، ونزلت: "يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم".^{٢٤١}.

وقال القرطبي: "وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام؛ وهو قول سعيد بن جبير؛ وقال: ألا ترى أن بعده: {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ} قلت: وفي الصحيح والمسند كفاية. ويحتمل أن تكون الآية نزلت جوابا للجميع، فيكون السؤال قريبا بعضه من بعض. والله أعلم."^{٢٤٢}

ومجموعة هذه الروايات وغيرها تعطي صورة عن نوع هذه الأسئلة التي نهى الله الذين آمنوا أن يسألوها

لقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب، ولا ليشرع شريعة فحسب. ولكن كذلك ليربي أمة، وينشئ مجتمعا، وليكون الأفراد وينشئهم على منهج عقلي وخلقي من صنعه.. وهو هنا يعلمهم أدب السؤال، وحدود البحث، ومنهج المعرفة.. وما دام الله - سبحانه - هو الذي ينزل هذه الشريعة، ويخبر بالغيب، فمن الأدب أن يترك العبيد لحكمته تفصيل تلك الشريعة أو إجمالها وأن يتركوا له كذلك كشف هذا الغيب أو ستره.

وأن يقفوا هم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها العليم الخبير. لا ليشددوا على أنفسهم بتنصيب النصوص، والجري وراء الاحتمالات والفروض. كذلك لا يجرون وراء الغيب يحاولون الكشف عما لم يكشف الله منه وما هم بباليغيه. والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم، فهو يشرع لهم في حدود طاقاتهم، ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم. وهناك أمور تركها الله مجملة أو مجهلة ولا ضير على الناس في تركها هكذا كما أرادها الله.

ولكن السؤال - في عهد النبوة وفترة تنزل القرآن - قد يجعل الإجابة عنها متعينة فتسوء بعضهم، وتشق عليهم كلهم وعلى من يجيء بعدهم.

لذلك نهى الله الذين آمنوا أن يسألوا عن أشياء يسوؤهم الكشف عنها وأنذرهم بأنهم سيجابون عنها إذا سألوا في فترة الوحي في حياة رسول الله ﷺ - وسترتب عليهم تكاليف عفا الله عنها فتركها ولم يفرضها: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم. وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم.. عفا الله عنها..». أي لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها وترك فرضها أو تفصيلها ليكون في الإجمال سعة.. كأمره بالحج مثلا.. أو تركه ذكرها أصلا..

^{٢٤١} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (١١ / ١٠٣) (١٢٨٠٢) صحيح

^{٢٤٢} - تفسير القرطبي - موافق للمطبوع - (٦ / ٣٣١)

ثم ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم - من أهل الكتاب - ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالسؤال عن التكاليف والأحكام. فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها. ولو سكتوا وأخذوا الأمور باليسر الذي شاءه الله لعباده ما شدد عليهم، وما احتملوا تبعه التقصير والكفران.

ولقد رأينا في سورة البقرة كيف أن بني إسرائيل حينما أمرهم الله أن يذبحوا بقرة، بلا شروط ولا قيود، كانت تجزيهم فيها بقرة أية بقرة .. أخذوا يسألون عن أوصافها ويدققون في تفاصيل هذه الأوصاف. وفي كل مرة كان يشدد عليهم. ولو تركوا السؤال ليسروا على أنفسهم. وكذلك كان شأنهم في السبب الذي طلبوه ثم لم يطيقوه! ..

ولقد كان هذا شأنهم دائما حتى حرم الله عليهم أشياء كثيرة تربية لهم وعقوبة! وفي الصحيح عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا ». فقال رجل أكل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله - ﷺ - « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ - ثُمَّ قَالَ - ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ ». ٢٤٣.

وفي الحديث الصحيح عن أبي ثعلبة رضي الله عنه قال: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحدد حدودا فلا تعتدوها ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رخصت لكم ليس بنسيان فلا تبحثوا عنها. ٢٤٤ ..

وفي صحيح مسلم عن عامر بن سعد عن أبيه قال قال رسول الله - ﷺ - « إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » ٢٤٥ . ولعل مجموعة هذه الأحاديث - إلى جانب النصوص القرآنية - ترسم منهج الإسلام في المعرفة .. إن المعرفة في الإسلام إنما تطلب لمواجهة حاجة واقعة وفي حدود هذه الحاجة الواقعة .. فالغيب وما وراءه تصان الطاقة البشرية أن تنفق في استجلائه واستكناهاه، لأن معرفته لا تواجه حاجة واقعية في حياة البشرية.

وحسب القلب البشري أن يؤمن بهذا الغيب كما وصفه العليم به. فأما حين يتجاوز الإيمان به إلى البحث عن كنهه فإنه لا يصل إلى شيء أبدا، لأنه ليس مزودا بالمقدرة على استكناهاه إلا في الحدود التي كشف الله عنها .. فهو جهد ضائع. فوق أنه ضرب في التيه بلا دليل، يؤدي إلى الضلال البعيد.

٢٤٣ - صحيح مسلم - المكثر [٨ / ٤٢٠] (٣٣٢١)

٢٤٤ - السنن الكبرى للبيهقي - المكثر [١٠ / ١٢] (٢٠٢١٧) صحيح ومثله لا يقال بالرأي

٢٤٥ - صحيح مسلم - المكثر [١٥ / ٣٩٧] (٦٢٦٥)

وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأفضية التي تتطلب هذه الأحكام .. وهذا هو منهج الإسلام ..

ففي طوال العهد المكي لم يتزل حكم شرعي تنفيذي - وإن تزلت الأوامر والنواهي عن أشياء وأعمال - ولكن الأحكام التنفيذية كالحُدود والتعازير والكفارات لم تتزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولى تنفيذ هذه الأحكام.

ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه فلم يكونوا يفتون في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل وفي حدود القضية المعروضة دون تفصيل للنصوص، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني:

وعن حماد بن يزيد المنقريّ حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يَوْمًا إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَلْعَنُ مَنْ سَأَلَ عَمَّا لَمْ يَكُنْ. ذكره الدارمي في مسنده ٢٤٦ ..

وعن الزهريّ قَالَ: بَلَّغْنَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنِ الْأَمْرِ: أَكَانَ هَذَا؟ فَإِنْ قَالُوا نَعَمْ قَدْ كَانَ حَدَّثَ فِيهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ وَالَّذِي يَرَى، وَإِنْ قَالُوا لَمْ يَكُنْ قَالَ: فَذَرُوهُ حَتَّى يَكُونَ ٢٤٧ .

وروى الدارمي عن ابن عباس قال: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا كَانُوا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - مَا سَأَلُوهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثِ عَشْرَةِ مَسْأَلَةٍ حَتَّى قُبِضَ، كُلُّهُنَّ فِي الْقُرْآنِ مِنْهُنَّ (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ) (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ) قَالَ: مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ إِلَّا عَمَّا يَنْفَعُهُمْ ٢٤٨ .

وعن ابن عباس، قَالَ: مَا رَأَيْتُ قَوْمًا كَانُوا خَيْرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا سَأَلُوهُ إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةِ عَشْرَةِ مَسْأَلَةٍ حَتَّى قُبِضَ، كُلُّهُنَّ فِي الْقُرْآنِ، مِنْهُنَّ "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ" [البقرة آية ٢١٧] وَ "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ" [البقرة آية ٢١٩] وَ "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى" [البقرة آية ٢٢٠] وَ "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ" [البقرة آية ٢٢٢] وَ "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ" [الأنفال آية ١] وَ "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ" [البقرة آية ٢١٥] مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ إِلَّا عَمَّا يَنْفَعُهُمْ، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْمَلَكُوتِ، وَإِنْ مَا بَيْنَ الْحَجَرِ إِلَى الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ لِقُبُورًا مِنْ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ. وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا آذَاهُ قَوْمُهُ خَرَجَ هُوَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَعَبَدَ اللَّهُ فِيهَا حَتَّى يَمُوتَ. ٢٤٩

٢٤٦ - سنن الدارمي - المكثر [١/ ١٤٢] (١٢٣) حسن

٢٤٧ - سنن الدارمي - المكثر [١/ ١٤٣] (١٢٤) فيه انقطاع

٢٤٨ - سنن الدارمي - المكثر [١/ ١٤٦] (١٢٧) حسن

٢٤٩ - المعجم الكبير للطبراني [١٠/ ١٤٥] (١٢١٢١) حسن وهو زيادة مني

قال مالك: أدركت أهله هذا البلد وما عندهم علم غير الكتاب والسنة، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ^{٢٥٠} وقال القرطبي في سياق تفسيره للآية: روى مسلم عن الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَمَعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^{٢٥١}.

قال كثير من العلماء: المراد بقوله "وكثرة السؤال" التكثر من السؤال في المسائل الفقهية تنطعا، وتكلفا فيما لم يترل، والأغلوطن وتشقيق المولدات، وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكليف، ويقولون: إذا نزلت النازلة وفق المسؤول لها.^{٢٥٢} ..

إنه منهج واقعي جاد. يواجه وقائع الحياة بالأحكام، المشتقة لها من أصول شريعة الله، مواجهة عملية واقعية.. مواجهة تقدر المشكلة بحجمها وشكلها وظروفها كاملة وملايساتها، ثم تقضي فيها بالحكم الذي يقابلها ويعطيها ويشملها وينطبق عليها انطباقا كاملا دقيقا ..

فأما الاستفتاء عن مسائل لم تقع، فهو استفتاء عن فرض غير محدد. وما دام غير واقع فإن تحديده غير مستطاع. والفتوى عليه حينئذ لا تطابقه لأنه فرض غير محدد. والسؤال والجواب عندئذ يحملان معنى الاستهتار بجدية الشريعة كما يحملان مخالفة للمنهج الإسلامي القويم.

ومثله الاستفتاء عن أحكام شريعة الله في أرض لا تقام فيها شريعة الله، والفتوى على هذا الأساس! .. إن شريعة الله لا تستفتى إلا ليطبق حكمها وينفذ.. فإذا كان المستفتى والمفتي كلاهما يعلمان أنهما في أرض لا تقيم شريعة الله ولا تعترف بسلطان الله في الأرض وفي نظام المجتمع وفي حياة الناس.. أي لا تعترف بألوهية الله في هذه الأرض ولا تخضع لحكمه ولا تدين لسلطانه.. فما استفتاء المستفتى؟ وما فتوى المفتي؟ إنهما - كليهما - يرخسان شريعة الله، ويستهران بها شاعرين أو غير شاعرين سواء! ومثله تلك الدراسات النظرية المجردة لفقهاء الفروع وأحكامها في الجوانب غير المطبقة.. إنها دراسة للتلهية! مجرد الإيهام بأن لهذا الفقه مكانا في هذه الأرض التي تدرسه في معاهدها ولا تطبقه في محاكمها! وهو إيهام يبيء بالإثم من يشارك فيه، ليخدر مشاعر الناس بهذا الإيهام! إن هذا الدين جد. وقد جاء ليحكم الحياة. جاء ليعبد الناس لله وحده، وينتزع من المعتصين لسلطان الله هذا السلطان، فيرد الأمر كله إلى شريعة الله، لا إلى شرع أحد سواه.. وجاءت هذه الشريعة لتحكم الحياة كلها ولتواجه بأحكام الله حاجات الحياة الواقعية وقضاياها، ولتدلي بحكم الله في الواقعة حين تقع بقدر حجمها وشكلها وملايساتها.

^{٢٥٠} - تفسير القرطبي - دار عالم الكتب، الرياض [٦/ ٣٣٢]

^{٢٥١} - صحيح البخارى - المکتز [٩/ ٣٣] (٢٤٠٨) وصحيح مسلم - المکتز [١١/ ٣٩٠] (٤٥٨٠)

^{٢٥٢} - تفسير القرطبي - دار عالم الكتب، الرياض [٦/ ٣٣١]

ولم يجيء هذا الدين ليكون مجرد شارة أو شعار. ولا لتكون شريعته موضوع دراسة نظرية لا علاقة لها بواقع الحياة. ولا لتعيش مع الفروض التي لم تقع، وتضع لهذه الفروض الطائفة أحكاما فقهية في الهواء! هذا هو جد الإسلام. وهذا هو منهج الإسلام. فمن شاء من «علماء» هذا الدين أن يتبع منهجه بهذا الجدل فيطلب تحكيم شريعة الله في واقع الحياة. أو على الأقل فليسكت عن الفتوى والقذف بالأحكام في الهواء!^{٢٥٣}



^{٢٥٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط-١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ١٣٩١)

٤٢. لا يضر المؤمنين ضلال الكافرين إذا بذلوا الوسع في هدايتهم فأبوا

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (١٠٥) سورة المائدة .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصْلِحُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَنْ يَفْعَلُوا الْخَيْرَ جَهْدَ طَاقَتِهِمْ، لِيَتَّقَرَّبُوا بِذَلِكَ إِلَى اللَّهِ. وَيُخَبِّرُهُمْ تَعَالَى أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ وَأَمْرَهُ مِنْهُمْ، فَلَا يَضُرُّهُ فَسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ، سِوَاءَ أَكَانَ قَرِيبًا أَوْ بَعِيدًا، " وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: بَلِ اتَّيَمَّرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شَحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ عَنكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرِ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَحْرُ حَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ كَعَمَلِكُمْ " (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ) .

فَالْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا إِذَا أَصْلَحَ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِإِصْلَاحِ غَيْرِهِ، بَأَنَّ يَأْمُرَهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَهَذَا فَرَضٌ لَا هَوَادَةَ فِيهِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفَرِيضَةُ تَسْقُطُ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ فَسَادًا لَا يُرْجَى مَعَهُ تَأْثِيرُ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ .^{٢٥٤}

إنه التميز والمفاصلة بينهم وبين من عداهم. ثم إنه التضامن والتواصي فيما بينهم بوصفهم أمة واحدة.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» ..

أنتم وحدة منفصلون عن سواكم، متضامنون متكافلون فيما بينكم. فعليكم أنفسكم .. عليكم أنفسكم فزكوها وطهروها وعليكم جماعتكم فالتزموها وراعوها ولا عليكم أن يضل غيركم إذا أنتم اهتديتم. فأنتم وحدة منفصلة عن عداكم وأنتم أمة متضامنة فيما بينها بعضكم أولياء بعض، ولا ولاء لكم ولا ارتباط بسواكم.

إن هذه الآية الواحدة تقرر مبادئ أساسية في طبيعة الأمة المسلمة، وفي طبيعة علاقتها بالأمم الأخرى.

إن الأمة المسلمة هي حزب الله. ومن عداها من الأمم فهم حزب الشيطان. ومن ثم لا يقوم بينها وبين الأمم الأخرى ولاء ولا تضامن، لأنه لا اشتراك في عقيدة ومن ثم لا اشتراك في هدف أو وسيلة ولا اشتراك في تبعة أو جزاء.

وعلى الأمة المسلمة أن تتضامن فيما بينها وأن تتناصح وتتواصى، وأن تهتدي بهدي الله الذي جعل منها أمة مستقلة منفصلة عن الأمم غيرها .. ثم لا يضيرها بعد ذلك شيئاً أن يضل الناس حولها ما دامت هي قائمة على الهدى.

^{٢٥٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

ولكن ليس معنى هذا أن تتخلى الأمة المسلمة عن تكاليفها في دعوة الناس كلهم إلى الهدى. والهدى هو دينها هي وشريعتها ونظامها. فإذا هي أقامت نظامها في الأرض بقي عليها أن تدعو الناس كافة، وأن تحاول هدايتهم، وبقي عليها أن تباشر القوامة على الناس كافة لتقييم العدل بينهم ولتحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم ..

إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولاً، ثم في الأرض جميعاً. وأول المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته. وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه .. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولاً وعلى البشرية كلها أخيراً.

وليس الغرض من بيان حدود التبعة في الآية كما فهم بعضهم قديماً - وكما يمكن أن يفهم بعضهم حديثاً - أن المؤمن الفرد غير مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إذا اهتدى هو بذاته - ولا أن الأمة المسلمة غير مكلفة إقامة شريعة الله في الأرض - إذا هي اهتدت بذاتها - وضل الناس من حولها.

إن هذه الآية لا تسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في كفاح الشر، ومقاومة الضلال ومحاربة الطغيان - وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله واغتصاب سلطانه وتعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم.

ولقد روى أصحاب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَا وَضَعَهَا اللَّهُ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ، لَا يُضْرَبُ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [المائدة:]، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ، يُوشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ. ٢٥٥ .

وهكذا صحح الخليفة الأول - رضوان الله عليه - ما ترامى إلى وهم بعض الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة. ونحن اليوم أخرج إلى هذا التصحيح، لأن القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صارت أشق. فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويريجهم من عنت الجهاد وبلائه! وكلا والله! إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهاد وجهاد. ولا يصلح إلا بعمل وكفاح. ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ولتقرير ألوهية الله في الأرض، ولرد المعتصبين لسلطان الله عما اغتصبوه من هذا السلطان، وإقامة شريعة الله في حياة الناس، وإقامة الناس عليها .. لا بد من جهد بالحسن حين يكون الضالون أفراداً ضالين، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة. وبالقوة حين تكون

٢٥٥ - المسند الجامع [١١٥١/ ٩] (٧١٣٥) وصحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١/ ٥٤٠] (٣٠٥) صحيح

القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى وتعطل دين الله أن يوجد، وتعوق شريعة الله أن تقوم.

وبعد ذلك - لا قبله - تسقط التبعة عن الذين آمنوا، وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه: «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»^{٢٥٦}.



^{٢٥٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٤٠٠)

٤٣. الأمر بالوصية قبل الموت

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَجَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) } سورة المائدة

قِيلَ إِنَّ حُكْمَ هَذِهِ الْآيَةِ مَنْسُوخٌ. وَلَكِنَّ الْأَكْثَرِيَّةَ مُتَّفِقَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ مُحْكَمٌ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَتَضَمَّنُ حُكْمَ مَنْ تُوْفِي وَلَيْسَ عِنْدَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ - وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، وَالنَّاسُ كُفْرًا، وَالْأَرْضُ أَرْضَ حَرْبٍ - وَكَانَ النَّاسُ يَتَوَارَثُونَ بِالْوَصِيَّةِ، ثُمَّ نُسِخَتْ الْوَصِيَّةُ، وَفُرِضَتِ الْفَرَائِضُ، وَعَمِلَ النَّاسُ بِهَا . وَقَدْ أَضَافَ اللَّهُ تَعَالَى الشَّهَادَةَ لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ تَكْرِيمًا لَهَا وَتَعْظِيمًا .

فَإِذَا ظَهَرَ أَنَّ الشَّاهِدَيْنِ قَدْ خَانَ الْأَمَانَةَ، أَوْ غَلَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمَوْصَىٰ بِهِ إِلَيْهِمَا، فَلْيَقِمِ اثْنَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلتَّرَكَةِ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلَىٰ مَنْ يَرِثُ ذَلِكَ الْمَالِ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ بِالْقَبُولِ وَالتَّصْدِيقِ مِنْ شَهَادَةِ الشَّاهِدَيْنِ الْآخَرَيْنِ، وَإِنْ قَوْلُنَا إِنَّهُمَا خَانَ أَحَقُّ بِالْقَبُولِ، وَأَصْحٌ مِنْ شَهَادَتِهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ، وَمَا اعْتَدَيْنَا فِيهَا قَلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْحَيَاةِ، وَإِنْ كُنَّا كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا وَافْتَرَيْنَا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .^{٢٥٧}

وبيان هذا الحكم الذي تضمنته الآيات الثلاث: أن على من يحس بدنو أجله، ويريد أن يوصي لأهله بما يحضره من المال، أن يستحضر شاهدين عدلين من المسلمين إن كان في الحضر، ويسلمهما ما يريد أن يسلمه لأهله غير الحاضرين. فأما إذا كان ضاربا في الأرض، ولم يجد مسلمين يشهدهما ويسلمهما ما معه، فيحوز أن يكون الشاهدان من غير المسلمين.

فإن ارتاب المسلمون - أو ارتاب أهل الميت - في صدق ما يبلغه الشاهدان وفي أمانتهما في أداء ما استحفظا عليه، فإنهم يوقفونهما بعد أدائهما للصلاة - حسب عقيدتهما - ليحلفا بالله، أنهما لا يتوخيان بالحلف مصلحة لهما ولا لأحد آخر، ولو كان ذا قربي، ولا يكتمان شيئا مما استحفظا عليه .. وإلا كانا من الآثمين .. وبذلك تنفذ شهادتهما.

فإذا ظهر بعد ذلك أنهما ارتكبا إثم الشهادة الكاذبة واليمين الكاذبة والخيانة للأمانة. قام أولى اثنين من أهل الميت بوراثته، من الذين وقع عليهم هذا الإثم، بالحلف بالله، أن شهادتهما أحق من شهادة

^{٢٥٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٧٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

الشاهدين الأولين. وأهما لم يعتديا بتقريرهما هذه الحقيقة. وبذلك تبطل شهادة الأولين، وتنفذ الشهادة الثانية.

ثم يقول النص: إن هذه الإجراءات أضمن في أداء الشهادة بالحق أو الخوف من رد أيمان الشاهدين الأولين، مما يحملهما على تحري الحق. «ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا، أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ». وينتهي إلى دعوة الجميع إلى تقوى الله، ومراقبته وخشيته، والطاعة لأوامره، لأن الله لا يهدي من يفسقون عن طريقه، إلى خير ولا إلى هدى: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» ..

قال القرطبي في تفسيره عن سبب نزول هذه الآيات الثلاث^{٢٥٨}: «... ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات الثلاث نزلت بسبب تميم الداري، وعدي بن بداء روى البخاري والدارقطني عن ابن عباس قال كَانَ عَدِيٌّ وَتَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَخْتَلِفَانِ إِلَى مَكَّةَ فَخَرَجَ مَعَهُمَا فَتَى مِنْ بَنِي سَهْمٍ فَتَوَفَّى بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا فَدَفَعَا بَتْرِكَتَهُ إِلَى أَهْلِهِ وَحَبَسَا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ فَاسْتَحْلَفَهُمَا النَّبِيُّ - ﷺ - بِيَمِينِهِ مَا كُنْتُمَا وَلَا أَطْلَعْتُمَا ثُمَّ وَجَدَ الْجَامَ بِمَكَّةَ فَقَالُوا اشْتَرَيْنَاهُ مِنْ عَدِيٍّ وَتَمِيمٍ فَجَاءَ رَجُلَانِ مِنْ وَرَثَةِ السَّهْمِيِّ فَحَلَفَا إِنَّ هَذَا الْجَامَ لِلْسَّهْمِيِّ وَ(لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدنا) وأخذوا الْجَامَ وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. ٢٥٩

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قَالَ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ مَعَ تَمِيمِ الدَّارِيِّ وَعَدِيٍّ بْنِ بَدَاءٍ فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بَتْرِكَتَهُ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا مِنْ ذَهَبٍ، فَأَحْلَفَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -، ثُمَّ وَجَدَ الْجَامَ بِمَكَّةَ فَقَالُوا ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ. فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، فَحَلَفَا لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا، وَإِنَّ الْجَامَ لِصَاحِبِهِمْ. قَالَ وَفِيهِمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ) ٢٦٠ .

وواضح أن لطبيعة المجتمع الذي نزلت هذه الأحكام لتنظيمه دخلا في شكل الإجراءات. وربما في طبيعة هذه الإجراءات. فالإشهاد والائتمان على هذا النحو، ثم الحلف بالله في مجتمع بعد الصلاة. لاستجاشة الوجدان الديني، والتخرج كذلك من الفضيحة في المجتمع عند ظهور الكذب والخيانة .. كلها تشي بسمات مجتمع خاص. تفي بمجاراته وملابساته هذه الإجراءات.

ولقد تملك المجتمعات اليوم وسائل أخرى للإثبات، وأشكالا أخرى من الإجراءات، كالكتابة والتسجيل والإيداع في المصارف .. وما إليها .. ولكن. أو فقد هذا النص قدرته على العمل في المجتمعات البشرية؟

^{٢٥٨} - تفسير القرطبي - دار عالم الكتب، الرياض [٦ / ٣٤٦]

^{٢٥٩} - سنن الدارقطني - المکتز [١٠ / ١٨٤] (٤٣٩٧) صحيح لغیره - الجام: الكأس = المخوص: عليه صفائح الذهب مثل حوص النخل

^{٢٦٠} - صحيح البخارى - المکتز [١٠ / ١٦٨] (٢٧٨٠)

الجام: الكأس = المخوص: عليه صفائح الذهب مثل حوص النخل

إننا كثيرا ما نخدع بيئة معينة، فنظن أن بعض التشريعات وبعض الإجراءات قد فقدت فاعليتها، ولم تعد لها ضرورة، وأنها من مخلفات مجتمعات مضى زمنها! لأن البشرية استجدت وسائل أخرى! أجل كثيرا ما نخدع فننسى أن هذا الدين جاء للبشرية جميعا، في كل أقطارها، وفي كل أعصارها.

وأن كثرة ضخمة من هذه البشرية اليوم ما تزال بدائية أو متدرجة من البداوة. وأنها في حاجة إلى أحكام وإجراءات تواكب حاجاتها في جميع أشكالها وأطوارها، وأنها تجد في هذا الدين ما يلي هذه الحاجات في كل حالة. وأنها حين ترتقي من طور إلى طور تجد في هذا الدين كفايتها كذلك بنفس النسبة وتجد في شريعته ما يلي حاجاتها الحاضرة، ثم يرتقي بها إلى تلبية حاجاتها المتطورة.. وأن هذه معجزة هذا الدين ومعجزة شريعته وآية أنه من عند الله، وأنها من اختياره سبحانه.

على أننا نخدع كذلك مرة أخرى حين ننسى الضرورات التي يقع فيها الأفراد من البيئات التي تجاوزت هذه الأطوار والتي يسعفهم فيها يسر هذه الشريعة وشمولها، ووسائل هذا الدين المعدة للعمل في كل بيئة وفي كل حالة. في البدو والحضر. في الصحراء والغابة. لأنه دين البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها

وتلك أيضا إحدى معجزاته الكبرى. إننا نخدع حين نتصور أننا - نحن البشر - أبصر بالخلق من رب الخلق.. فتردنا الوقائع إلى التواضع! وما أولانا أن نتذكر قبل أن تصدمنا الأحداث. وأن نعرف أدب البشر في حق خالق البشر.. أدب العبيد في حق رب العبيد.. لو كنا نتذكر ونعرف، ونثوب..^{٢٦١}



^{٢٦١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٤٠٢)

٤٤. تحريم الفرار من الزحف

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } سورة الأنفال

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَبِمُوجَّهَةِ الْكَافِرِينَ بِقُلُوبِ مُؤْمِنَةٍ، وَيَحْتَثُّهُمْ عَلَى عَدَمِ الْفِرَارِ وَتَوَلِّيَةِ الظُّهُورِ لِلْأَعْدَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْكَافِرُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدَدًا، لِأَنَّ الْفِرَارَ يُحْدِثُ الْوَهْنَ فِي الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُقَاتِلِ .

وَلَكِنَّهُ تَعَالَى سَمَحَ لِلْمُقَاتِلِ بِحُرِّيَّةِ الْحَرَكَةِ أَثْنَاءَ الْمَعْرَكَةِ، كَأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَكَانٍ فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، لِنُصْرَةِ فَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ لِسَدِّ ثَغْرَةٍ نَفَذَ مِنْهَا الْعَدُوُّ، فَالْمُهْمُّ هُوَ أَنْ يَكُونَ هَدَفُ الْمُقَاتِلِ الْمُسْلِمِ النَّصْرَ أَوْ الشَّهَادَةَ، وَإِطَاعَةَ أَمْرِ الْقِيَادَةِ. أَمَّا الَّذِينَ يَتْرُكُونَ الْمَعْرَكَةَ فِرَارًا وَهَرَبًا مِنَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .^{٢٦٢}

ويبدو في التعبير القرآني شدة في التحذير وتغليظ في العقوبة وتهديد بغضب من الله ومأوى في النار: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ. وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ - إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ - فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ..

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا واجهتم الذين كفروا «زحفا» أي متدائنين متقاربين متواجهين فلا تفروا عنهم، إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب، حيث تختارون موقعا أحسن، أو تدبرون خطة أحكم أو أن يكون ذلك انضماما إلى فئدة أخرى من المسلمين، أو إلى قواعد المسلمين، لتعاودوا القتال .. وأن من تولى، وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب: غضبا من الله ومأوى في جهنم ..

وقد وردت بعض الأقوال في اعتبار هذا الحكم خاصا بأهل بدر، أو بالقتال الذي يكون رسول الله - ﷺ - حاضره. ولكن الجمهور على أنها عامة، وأن التولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات. كما روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ. ..^{٢٦٣}

وقد أورد الجصاص في «أحكام القرآن» تفصيلا لا بأس من الإلمام به قال^{٢٦٤} :

^{٢٦٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٦، بترقيم الشاملة آليا)

^{٢٦٣} - صحيح البخاري - المكثر [١٠/ ١٤٢] (٢٧٦٦) ، وصحيح مسلم - المكثر [١/ ٣٢٣] (٢٧٢) ، وصحيح ابن حبان [١٢/ ٣٧١]

(٥٥٦١)

^{٢٦٤} - أحكام القرآن (الجصاص) ج ٥، ص: ٣٨٠

« قال الله تعالى: «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ» روى أبو نضرة عن أبي سعيد أن ذلك إنما كان يوم بدر. قال أبو نضرة لأنهم لو انحازوا يومئذ لانحازوا إلى المشركين، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم .. وهذا الذي قاله أبو نضرة ليس بسديد، لأنه قد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار، ولم يأمرهم النبي عليه السلام بالخروج، ولم يكونوا يرون أنه يكون قتال، وإنما ظنوا أنها العير، فخرج رسول الله - ﷺ - فيمن خف معه. فقول أبي نضرة إنه لم يكن هناك مسلم غيرهم وإهم لو انحازوا، انحازوا إلى المشركين، غلط لما وصفنا .. وقد قيل: إنه لم يكن جائزاً لهم الانحياز يومئذ لأنهم كانوا مع رسول الله - ﷺ - ولم يكن الانحياز جائزاً لهم عنه، قال الله تعالى: «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرعبوا بأنفسهم عن نفسه»: فلم يكن يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم - ﷺ - وينصرفوا عنه ويسلموه، وإن كان الله قد تكفل بنصره وعصمه من الناس، كما قال الله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» وكان ذلك فرضاً عليهم، قلت أعداؤهم أو كثروا، وأيضا فإن النبي - ﷺ - كان فئة المسلمين يومئذ، ومن كان بمنحاز عن القتال وإنما كان يجوز له الانحياز على شرط أن يكون انحيازه إلى فئة، وكان النبي - ﷺ - فئتهم يومئذ، ولم تكن فئة غيره. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، وَكُنْتُ فِي مَنْ حَاصَ فَعَلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الرَّحْفِ، وَبُؤْنَا بِالْعُضْبِ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ، وَإِلَّا ذَهَبْنَا فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ فَخَرَجَ، فَقَالَ: مَنْ الْقَوْمُ؟ قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ، قَالَ: لَا بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ، أَنَا فَتِكُمْ وَأَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ قَالَ: فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَلْنَا يَدَهُ ٢٦٥ .

فمن كان بالبعد من النبي - ﷺ - إذا انحاز عن الكفار وإنما كان يجوز له الانحياز إلى فئة النبي - ﷺ - وإذا كان معهم في القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون إليه، فلم يكن يجوز لهم الفرار. وقال الحسن في قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ» قال: شددت على أهل بدر. وقال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا» وذلك لأنهم فروا عن النبي - ﷺ - وكذلك يوم حنين فروا عن النبي - ﷺ - فعاقبهم الله على ذلك في قوله تعالى: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ» ..

فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبي - ﷺ - قل العدو أو كثر، إذا لم يجد الله فيه شيئا .. وقال الله تعالى في آية أخرى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» وهذا - والله أعلم - في الحال التي لم يكن النبي - ﷺ - حاضرا معهم، فكان على العشرين أن يقاتلوا المائتين لا يهربوا

٢٦٥ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٢/ ٣٨٦] (٥٣٨٤) حسن

عنهم، فإذا كان عدد العدو أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين فيهم نصرة لمعاودة القتال، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله» فروي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فكتب عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة - فقال سفيان غير مرة أن لا يفرَّ عشرون من مائتين - ثم نزلت (الآن خفف الله عنكم) الآية، فكتب أن لا يفرَّ مائة من مائتين - زاد سفيان مرة - نزلت (حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون)^{٢٦٦}.

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرَّ واحدٌ من عشرة، فجاء التخفيف فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين). قال فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.^{٢٦٧}

^{٢٦٦} - صحيح البخارى - المكثر [٢٥٧/ ١٥] (٤٦٥٢)

^{٢٦٧} - صحيح البخارى - المكثر [٢٥٩/ ١٥] (٤٦٥٣) - وذكره السيد رحمه الله مختصراً

وعن ابن عباس، قال: "إن فر رجل من رجلين فقد فر، وإن فر من ثلاثة فلم يفر" ٢٦٨ - قال الشيخ يعني بقوله: فقد فر: الفرار من الزحف بالآية، والذي في الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار، فإن زاد عدد الكفار على اثنين فجائز حينئذ للواحد التحيز إلى فئة من المسلمين فيها نصرة، فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم فهو من أهل الوعيد المذكور في قوله تعالى: «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقد بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» عن ابن عمر، قال: كنت في جيش، فحاص الناس حصصاً، فكنت فيمن حاص فقلنا: قد يؤنا من الله بغضب فلو تَحِينَا فلم يرنا أحد، ثم قلنا: لو أتينا المدينة فتزودنا منها، فأتينا المدينة، فقلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، لعل لنا توبة، فلما خرج إلى صلاة الغداة، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون، قال: "بل أنتم الكرارون، أنا فئة كل مسلم" ٢٦٩.

٢٦٨ - تفسیر سنن سعید بن منصور (٩٤٨) صحيح

قال الطحاوي: "وحدنا فرض الله قد كان على عباده أن لا يفر عشرون صابرون من مائتين بقوله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: ٦٥] الآية، فكان الفرض عليهم في ذلك أن لا يفر قوم من عشرة أمثالهم، ثم خفف الله ذلك عليهم رحمة لهم فأقول: { الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا } [الأنفال: ٦٦] الآية، فعاد الفرض عليهم في ذلك أن لا يفرؤا من مثليهم، وكان ذلك مطلقاً في قليل العدد وفي كثيره، ثم خص الله تعالى على لسان رسول الله عليه السلام الثاني عشر ألفاً كما خصها به أن لا تفر مما فوقها من الأعداء، وأخبر على لسان نبيه ﷺ أنهم لن يؤتوا من قلة وهكذا كان محمد بن الحسن ذهب إليه في كتاب سيره الكبير، وقال به فيه ولم يحك فيه خلافاً بينه وبين أحد من أصحابه، وهكذا كان غير واحد من أهل العلم حمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذا المعنى بعينه منهم ابن شبرمة عبد الله الضبي، فعن ابن عباس: "إن فر رجل من رجلين فقد فر، وإن فر من ثلاثة فلم يفر" قال سفيان فحدثت به ابن شبرمة فقال: هكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان هذا أيضاً مطلقاً عند ابن شبرمة في الأعداد كلها، وقد روي عن مالك في ذلك ما يدل على أن مذهبه كان فيه على مثل ما في حديث ابن عباس الذي روينا من المخالفة بسنن الثاني عشر ألفاً، وبين ما دونها من الأعداد كما سمعت محمد بن عيسى بن فليح بن سليمان الخزازي أبا عبد الله يذكر أن العمري العابد، وهو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب جاء إلى مالك فقال له: يا أبا عبد الله قد نرى هذه الأحكام التي قد بدلت أقيسنا مع ذلك التخلف عن مجاهدة من بدلها، فقال له مالك: إن كان معك اثنا عشر ألفاً مثلك لم يسعك التخلف عن ذلك، وإن لم يكن معك هذا العدد من أمثالك فأنت في سعة من التخلف عن ذلك، وكان هذا الجواب من مالك أحسن جواب، وإني أخذته عندنا، والله أعلم من قول النبي ﷺ في حديث ابن عباس الذي روينا: "ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قلة"، وبالله التوفيق". شرح مشكل الآثار [٤٧/ ٢]

وعن ابن جرير، قال: قلت لعطاء: ما الفرار من الزحف؟ قال: الفرار غير المتحرف للقتال، ولا المتحيز إلى الفئة. قول الله: قلنت: أرأيت إن فر إنسان من غير زحف في مرماه في قتال، أو من أناس في حصن؟ قال: لا بأس، إنما ذلك في الزحف، قال الله: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً، ثم خفف عنهم فقال: الآن خفف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين فإن لقي رجل رجلاً أو رجلين ففر منه أو منهما فهي كبيرة، وإن لقي ثلاثة رجال ففر منهم فلا بأس من أجل الرجلين. قلت لعطاء: أنسخت الآن خفف الله عنكم، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين؟ فقد فر أناس يوم أحد. قال: إن المشركين يومئذ أضعافهم، ويوم بدر أو أحد أكثر، لا تعلمها نسخت. قال: وعامة من مع النبي عليه السلام يومئذ غير مؤمنين "السير لأبي إسحاق الفزاري" (١١٥) صحيح

٢٦٩ - شعب الإيمان [٦/ ١٥٨] (٤٠٠٢) حسن لغيره

وكذلك قال عمر بن الخطاب. رضي الله عنه، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية الجوس، فقال عمر: لو انحاز إليّ كنت له فئمة. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر، وفي رواية أبي عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبو عبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فتكتكم^{٢٧٠}.

ولم يعنفهم.. وهذا الحكم عندنا (يعني عند الحنفية) ثابت، ما لم يبلغ عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا لا يجوز لهم أن ينهزموا عن مثلهم إلا متحرفين لقتال، وهو أن يصيروا من موضع إلى غيره مكايدين لعدوهم، ونحو ذلك، مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم. فإذا بلغوا اثني عشر ألفا فإن محمد بن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من عدوهم، وإن كثر عددهم، ولم يذكر خلافا بين أصحابنا فيه (يعني الحنفية) واحتج بحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله - ﷺ - : « خَيْرُ الْأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمَائَةٌ وَخَيْرُ الْجِيُوشِ أَرْبَعَةٌ آلَافٌ وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَّةٍ »^{٢٧١}..

وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: " خَيْرُ الْأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمَائَةٌ، وَخَيْرُ الْجِيُوشِ أَرْبَعَةٌ آلَافٍ. قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا غَلَبَ قَوْمٌ قَطُّ، بَلَّغُوا أَنْتِي عَشَرَ أَلْفًا إِذَا اجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ. »^{٢٧٢}

وذكر الطحاوي أن مالكا سئل، فقيل له: أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكمه بغيره؟ فقال مالك: إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك لم يسعك التخلف، وإلا فأنت في سعة من التخلف.. وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر. وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن. والذي روي عن النبي - ﷺ - في اثني عشر ألفا فهو أصل في هذا الباب، وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله ﷺ « إذا اجتمعت كلمتهم ». وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم.. اهـ^{٢٧٣}

كذلك أورد «ابن العربي» في «أحكام القرآن» تعقيبا على الخلاف في المقصود بهذا الحكم قال^{٢٧٤} :

«اختلف الناس: هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر، أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة؟»
« فروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في هذه الآية " وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبْرَهُ قَالَ : نَزَلَتْ فِينَا يَوْمَ بَدْرٍ " ^{٢٧٥} لم يكن لهم فئمة إلا رسول الله، وبه قال نافع، والحسن، وقتادة، ويزيد بن حبيب، والضحاك.

^{٢٧٠} - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٢٧ / ٤]

^{٢٧١} - السنن الكبرى للبيهقي - حيدر آباد [١٥٦ / ٩] وسنن الدارمي - المكتز [٣٩٤ / ٧] (٢٤٩٤) صحيح لغيره

^{٢٧٢} - الفوائد لتمام - مكتبة الرشد - الرياض [٩٠ / ٢] (١٠٩٧) حسن

^{٢٧٣} - أحكام القرآن (الخصاص)، ج ٤، ص: ٢٢٨

^{٢٧٤} - تفسير القرطبي - موافق للمطبوع [٣٨١ / ٧] وأحكام القرآن لابن العربي [١٠٢ / ٤]

^{٢٧٥} - المُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ (٣٢٢٠) صحيح

«ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة وإنما شد من شد بخصوص ذلك يوم بدر بقوله: «ومن يولهم يومئذ دبره» فظن قوم أن ذلك إشارة إلى يوم بدر. وليس به. وإنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف.

«والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال، وانقضاء الحرب، وذهاب اليوم بما فيه. وقد ثبت عن النبي - ﷺ - حسبا قدمناه في الحديث الصحيح أن الكبائر كذا... وعدّ الفرار يوم الزحف. وهذا نص في المسألة يرفع الخلاف، ويبين الحكم، وقد نبهنا على النكتة التي وقع الإشكال فيها لمن وقع باختصاصه بيوم بدر»^{٢٧٦}..

ونحن نأخذ بهذا الذي ذكره ابن العربي من رأي «ابن عباس وسائر العلماء».. ذلك أن التولي يوم الزحف على إطلاقه يستحق هذا التشديد لضخامة آثاره الحركية من ناحية ولمسأسه بأصل الاعتقاد من ناحية..

إن قلب المؤمن ينبغي أن يكون راسخا ثابتا لا تمزقه في الأرض قوة، وهو موصول بقوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده.. وإذا جاز أن تنال هذا القلب هزة - وهو يواجه الخطر - فإن هذه الهزة لا يجوز أن تبلغ أن تكون هزيمة وفرارا. والآجال بيد الله، فما يجوز أن يولي المؤمن خوفا على الحياة. وليس في هذا تكليف للنفس فوق طاقتها. فالمؤمن إنسان يواجه عدوه إنسانا. فهما من هذه الناحية يقفان على أرض واحدة. ثم يمتاز المؤمن بأنه موصول بالقوة الكبرى التي لا غالب لها. ثم إنه إلى الله إن كان حيا، وإلى الله إن كتبت له الشهادة. فهو في كل حالة أقوى من خصمه الذي يواجهه وهو يشاق الله ورسوله.. ومن ثم هذا الحكم القاطع: «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ - إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ - فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

ولا بد أن نقف هنا عند التعبير ذاته، وما فيه من إيماءات عجيبة: «فلا تولوهم الأدبار».. «ومن يولهم يومئذ دبره».. فهو تعبير عن الهزيمة في صورتها الحسية، مع التقبيح والتشنيع، والتعريض بإعطاء الأدبار للأعداء!.. ثم: «فقد باء بغضب من الله».. فالمهزوم مولّ ومعه «غضب من الله» يذهب به إلى مأواه: «ومأواه جهنّم وبئس المصير»..

وهكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالته في رسم الجو العام وتثير في الوجدان شعور الاستقباح والاستنكار للتولي يوم الزحف والفرار.



^{٢٧٦} - أحكام القرآن لابن العربي [٤ / ٧١]

٤٥. وجوب طاعة الله ورسوله

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) } سورة الأنفال

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِإِطَاعَةِ اللَّهِ، وَإِطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَبِالاسْتِجَابَةِ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ مُخَالَفَتِهِ، وَتَرْكِ طَاعَتِهِ، وَرَفْضِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى الْجِهَادِ، لِأَنََّّهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَمُؤَالَاتِهِ وَنَصْرِهِ، وَيَعْقِلُونَهُ .

وَلَا تَكُونُوا كَالْمُنَافِقِينَ وَكَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا مَا قُلْتُمْ يَا مُحَمَّدُ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَسْمَعُوا شَيْئًا، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، فَكَانُوا كَغَيْرِ السَّامِعِينَ (وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، هُمْ شَرُّ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ، وَأَسْوَأُهَا لِأَنََّّهُمْ صَمٌّ لَا يَسْمَعُونَ بِأَذَانِهِمْ، وَبُكْمٌ عَنِ فَهْمِ الْحَقِّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَهُ، وَكُلُّ الدَّوَابِّ مُطِيعَةٌ لِخَالِقِهَا، أَمَّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ فَكَفَرُوا، فَهُمْ شَرُّ مِنَ الدَّوَابِّ .

الدَّوَابِّ - كُلُّ مَا دَبَّ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ وَقَلِمَا تُسْتَعْمَلُ لِلْإِنْسَانِ، وَاسْتِعْمَالُهَا هُنَا لِلْمُشْرِكِينَ نَوْعٌ مِنَ التَّخْفِيرِ لِشَأْنِهِمْ .

إِنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا تَفْهَمُ فَهْمًا صَاحِحًا، وَكَيْسَ لَهُمْ رَعْبَةٌ فِي عَمَلِ خَيْرٍ صَالِحٍ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ فِيهِمْ اسْتِعْدَادًا لِلْإِيمَانِ وَالْإِهْتِدَاءِ بِنُورِ النُّبُوَّةِ لِأَسْمَعَهُمْ وَأَفْهَمَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَسْمَعَهُمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا عَنِ الْقَبُولِ قَصْدًا وَعِنَادًا، وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنْهُ ٢٧٧ .

إن الھتاف هنا للذین آمنوا لیطیعوا اللہ ورسولہ، ولا یتولوا عنہ وهم یسمعون آیاتہ وکلماتہ .. إن هذا الھتاف هنا إنما یجیء بعد جمیع مقدماتہ الموحیة .. یجیء بعد استعراض أحداث المعركة وبعد رؤیة ید اللہ فیھا، وتدیبرہ وتقديرہ، وعونه ومدده وبعد توكید أن اللہ مع المؤمنین، وأن اللہ موھن كید الكافرين. فما یبقی بعد ذلك كلہ مجال لغير السمع والطاعة للہ والرسول. وإن التولي عن الرسول وأوامره بعد هذا كلہ لیبدو مستنكرا قبیحا لا یقدم علیہ إنسان له قلب یتدبر وعقل یتفكر .. ومن هنا یجیء ذكر الدواب فی موضعه المناسب! ولفظ «الدواب» یشمل الناس فیما یشمل، فهم یدبون علی الأرض، ولكن استعماله یكثر فی الدواب من الأنعام، فیلقی ظلہ بمجرد إطلاقه ویخلع علی «الصم البكم الذین لا یعقلون» صورة البھیمة فی الحس والخیال! وإھم كذلك! إھم لدواب بهذا الظل. بل هم شر

٢٧٧ - أیسر التفاسیر لأسعد حومد (ص: ١١٨١، بترقیم الشاملة ألیا)

الدواب! فالبهائم لها آذان ولكنها لا تسمع إلا كلمات مبهمه ولها لسان ولكنها لا تنطق أصواتا مفهومة. إلا أن البهائم مهتدية بفطرتها فيما يتعلق بشؤون حياتها الضرورية.

أما هؤلاء الدواب فهم موكولون إلى إدراكهم الذي لا ينتفعون به. فهم شر الدواب قطعاً! «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» ..

«وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ» .. أي لأسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه آذانهم .. ولكنه - سبحانه - لم يعلم فيهم خيراً ولا رغبة في الهدى فقد أفسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقي والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما أغلقوا هم من قلوبهم، وما أفسدوا هم من فطرتهم. ولو جعلهم الله يدركون بعقولهم حقيقة ما يدعون إليه، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا .. «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» ... لأن العقل قد يدرك، ولكن القلب المطموس لا يستجيب. فحتى لو أسمعهم الله سماع الفهم لتولوا هم عن الاستجابة. والاستجابة هي السماع الصحيح. وكم من ناس تفهم عقولهم ولكن قلوبهم مطموسة لا تستجيب!^{٢٧٨}



^{٢٧٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٢٩)

٤٦. وجوب الاستجابة لله وللرسول

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) } وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) } سورة الأنفال

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِجَابَةِ إِلَى دَعْوَتِهِ تَعَالَى، وَإِلَى دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِإِبْلَاغِهَا إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهَا تُزَكِّي نُفُوسَهُمْ وَتُطَهِّرُهَا، وَتُحْيِيهَا بِالْإِيمَانِ، وَتَرْفَعُهَا إِلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ فَتَحْظَى بِرِضَا اللَّهِ، ثُمَّ يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ يُوجِّهُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ، فَيَمِيتُ الْإِحْسَاسَ وَالْوَجْدَانَ وَالْإِدْرَاكَ فِيهِ، فَتَشَلُّ الْإِرَادَةُ، وَيَفْقِدُ الْإِنْسَانُ سَيِّطَرَتَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ، فَلَا تَعُودُ تَنْفَعُ فِيهِ الْمَوَاعِظُ وَالْعِبَرُ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا تَرَدَّوْا فِيهِ، إِذَا اتَّجَّهُوا إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ .

ثُمَّ يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَيَجْزِيَهُمْ عَلَيْهَا بِمَا يَسْتَحِقُّونَ .
يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَقُوعِ الْبَلَاءِ وَالْفِتَنِ بَيْنَهُمْ إِذَا لَمْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ دِينِهِمْ وَحِمَاةَتِهِمْ فِي الْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالتَّهْيِي عَنِ الْمُنْكَرِ، وَفِي الضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَفِي التَّنْصِيحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَفِي إِطَاعَةِ أَوْلِي الْأَمْرِ. وَيُنَبِّهُهُمْ تَعَالَى إِلَى أَنَّ الْعِقَابَ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِالْأُمَّمِ الْمُقْصِرَةِ بِالْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا لَا يُصِيبُ السَّيِّئَ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يُعْمُ بِهِ الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْأُمَّمِ الَّتِي تُخَالِفُ سُنَّتَهُ وَهَدَى دِينَهُ، وَتُقْصِرُ فِي دَرِّ الْفِتَنِ، وَفِي التَّعَاوُنِ عَلَى دَفْعِهَا، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا .^{٢٧٩}

إن رسول الله - ﷺ - إنما يدعوهم إلى ما يحييهم .. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة ..

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والاحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء ..

ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر «الإنسان» وتكرمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب، ولا طبقة في أمة، ولا جنس في جنس، ولا قوم في قوم .. ولكنهم ينطلقون كلهم أحرارا متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد.

^{٢٧٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٨٥، بترقيم الشاملة آليا)

ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق هذه الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء.

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدهم ومنهجهم، والثقة بدينهم وبرهم، والانطلاق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» بجملته وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله، فاستلبها منه الطغاة! ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، لتقرير ألوهية الله سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله - سبحانه - وحاكميته وسلطانه حتى يفيتوا إلى حاكمية الله وحده وعندئذ يكون الدين كله لله. حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة.

ذلك مجمل ما يدعوهم إليه الرسول - ﷺ - وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة.

إن هذا الدين منهج حياة كاملة، لا مجرد عقيدة مستسرة. منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وترقى. ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها. وفي كل مجالاتها ودلالاتها. والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».. استجيبوا له طائعين مختارين وإن كان الله - سبحانه - قادرا على قهركم على الهدى لو أراد: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ».. ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة.. «يحول بين المرء وقلبه» فيفصل بينه وبين قلبه ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقبله كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقا يتمثلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزلق والهواتف والهواجس. والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته..

ولقد كان رسول الله - ﷺ - وهو رسول الله المعصوم يُكْتَرُ أَنْ يَقُولَ: " يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ تَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ أَوْ أَصْحَابِهِ: أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ قَالَ: إِنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا " ٢٨٠ ..

فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟! إنها صورة تمز القلب حقا ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظرا إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار وهو لا يملك

منه شيئاً، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير! صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ..

ليقول لهم: إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى - لو كان يريد - وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة، ولكنه - سبحانه - يكرمكم فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر وعن إرادة تعلقو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان .. أمانة الهداية المختارة وأمانة الخلافة الواعية، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة.

«وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» .. فقلوبكم بين يديه. وأنتم بعد ذلك محشورون إليه. فما لكم منه مفر. لا في دنيا ولا في آخرة. وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور، لا استجابة العبد المقهور.

ثم يمحذروهم القعود عن الجهاد، وعن تلبية دعوة الحياة، والتراخي في تغيير المنكر في أية صورة كان :

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

والفتنة: الابتلاء أو البلاء .. والجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره - وأظلم الظلم نبذ شريعة الله ومنهجه للحياة - ولا تقف في وجه الظالمين ولا تأخذ الطريق على المفسدين .. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين .. فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلا على أن يروا دين الله لا يتبع بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها!) وهم ساكتون. ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم صالحون طيبون! ولما كانت مقاومة الظلم تكلف الناس التكاليف في الأنفس والأموال فقد عاد القرآن يذكر العصبية المسلمة - التي كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة - بما كان من ضعفها وقلة عددها، وبما كان من الأذى الذي ينالها، والخوف الذي يظللها .. وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقا طيبا .. فلا تقعد إذن عن الحياة التي يدعوها إليها رسول الله. ولا عن تكاليف هذه الحياة، التي أعزها بها الله، وأعطاهها وحماها: «وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» .. اذكروا هذا لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في كل صورته وأشكاله .. اذكروا أيام الضعف والخوف، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال المشركين، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون .. ثم انظروا كيف صرتم بعد الدعوة المحيية التي انقلبت بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين. يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم لشكره فتؤجروا على شكركم لفضله! ويرسم التعبير مشهدا حيا للقلّة والضعف والقلق والخوف: «تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» ..

وهو مشهد التربص الوجل، والترقب الفرع، حتى لتكاد العين تبصر بالسّمات الخائفة، والحركات المفزعة، والعيون الزائغة .. والأيدي تمتد للتخطف والقلّة المسلمة في ارتقاب وتوجس! ومن هذا المشهد

المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع الكريم، في ظل الله الذي آواهم إلى حماه: «فَأَوَّاكُمْ، وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» ..
وفي ظل توجيه الله لهم ليشكروا فيؤجروا: «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ..

فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية .. صوت الرسول الأمين الكريم .. ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه وهذا المشهد وذلك معروضان عليه، ولكل منهما إيقاعه وإحماؤه؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك .. كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم .. ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق ..

والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين، ولا تذوقت المذاقين .. ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك. ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قوله تعالى: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» .. فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول الله وأن تترقب في يقين وثقة، موعود الله للعصبة المسلمة، موعوده الذي حققه للعصبة الأولى، ووعده بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه، وتصبر على تكاليفه .. وأن تنتظر قوله تعالى: «فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» .. وهي إنما تتعامل مع وعد الله الصادق - لا مع ظواهر الواقع الخادع - ووعده الله هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع!^{٢٨١}



^{٢٨١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٠)

٤٧. تحريمُ خيانة الله والرسول

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَعَلِمُوا أَنَّهَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) } سورة الأنفال
 نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَبِي لُبَابَةَ حِينَ بَعَثَهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ، فَاسْتَشَارَ الْيَهُودَ أَبَا لُبَابَةَ - وَكَانَ حَلِيفًا لَهُمْ - فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالنُّزُولِ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، أَيَّ أَنَّهُ الذَّبْحُ. ثُمَّ شَعَرَ أَنَّهُ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةِ الْمَسْجِدِ تِسْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَذُوقُ طَعَامًا حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَطْلَقَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. (وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى قُرَيْشٍ مَعَ امْرَأَةٍ يُعَلِّمُهَا فِيهَا بِأَنَّ الرَّسُولَ تَحَهَّزَ لِعَزْوِهِمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ). وَالْآيَةُ عَامَّةٌ .

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ لَا يَخُونُوا اللَّهَ بِارْتِكَابِ الذُّنُوبِ، وَأَنْ يَخُونُوا رَسُولَهُ بِتَرْكِ سُنَّتهِ، وَارْتِكَابِ مَعْصِيَتِهِ، وَأَنْ لَا يَخُونُوا أَمَانَاتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ الَّتِي اتَّيَمَّنَ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَيْهَا: يَعْنِي الْفَرَائِضَ، وَهِيَ تَشْمَلُ أَمَانَةَ الْإِنْسَانِ نَحْوَ النَّاسِ فِي تَعَامُلِهِ مَعَهُمْ: كَالْمَكِّيَّاتِ وَالْمِيزَانِ، وَأَدَاءِ الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ، وَكَيْفَانِ السَّرِّ. إلخ. فَالْأَمَانَةُ وَاحِدَةٌ وَلَا تَبْعِيضَ فِيهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَسَاوِيءَ الْخِيَانَةِ، وَسُوءَ عَاقِبَتِهَا .

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاكُمْ الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ لِيَخْتَبِرَ إِيْمَانَكُمْ، وَلِيَرَى هَلْ تَشْكُرُونَ رَبَّكُمْ عَلَيْهَا، وَتُطِيعُونَهُ فِيهَا، أَمْ تَشْتَعْلُونَ بِهَا عَنْهُ، وَتَعْتَاضُونَ بِهَا مِنْهُ؟ وَثَوَابُ اللَّهِ وَعَطَاؤُهُ وَجَنَائِزُهُ خَيْرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، فَالْأَوْلَادُ قَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ عَدُوًّا لَكُمْ، وَهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا يُعْتُونَ عَنِ الْإِنْسَانِ شَيْئًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَذَلِكَ اللَّهُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ الَّذِي يُعْنِي الْإِنْسَانَ عَنِ الْمَالِ وَالْوَالِدِ. ^{٢٨٢}

إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول. فالقضية الأولى في هذا الدين هي قضية: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». قضية إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والأخذ في هذا بما بلغه محمد - ﷺ - وحده.. والبشرية في تاريخها كله لم تكن تجحد الله البتة ولكنها إنما كانت تشرك معه آلهة أخرى. أحيانا قليلة في الاعتقاد والعبادة. وأحيانا كثيرة في الحاكمية والسلطان - وهذا هو غالب الشرك ومعظمه - ومن ثم كانت القضية الأولى لهذا الدين ليست هي حمل الناس على الاعتقاد بالألوهية لله. ولكن حملهم على إفراده - سبحانه - بالألوهية، وشهادة أن لا إله إلا الله، أي إفراده بالحاكمية في حياتهم الأرضية - كما أنهم مقرّون بحاكميته في نظام الكون - تحقيقا لقول الله

٢٨٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٨٨، بترقيم الشاملة آليا)

تعالى: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ» .. كذلك كانت هي حملهم على أن الرسول هو وحده المبلغ عن الله ومن ثم الالتزام بكل ما يبلغهم إياه ..

هذه هي قضية هذا الدين - اعتقادا لتقريره في الضمير، وحركة لتقريره في الحياة - ومن هنا كان التخلي عنها خيانة لله والرسول يحذر الله منها العصابة المسلمة التي آمنت به وأعلنت هذا الإيمان فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعي والنهوض بتكاليف هذا الجهاد في الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذرنا خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله - ﷺ - على الإسلام. فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعيات. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله وذلك يرد الناس إلى العبودية لربهم الحق ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانته من الطغيان والاعتداء وتأمين الحق والعدل للناس جميعا وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله ..

وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خاها وخاس بعهد الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله.

وكل أولئك في حاجة إلى التضحية والصبر والاحتمال وإلى الاستعلاء على فتنة الأموال والأولاد، وإلى التطلع إلى ما عند الله من الأجر العظيم، المدخر لعباده الأمناء على أماناته، الصابرين المؤثرين المضحين: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» ..

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية، مما يعلم خالقها من تركيبها الخفي، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن، وعلى المنحنيات والدروب والمسالك! وهو - سبحانه - يعلم مواطن الضعف في هذه الكينونة. ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها .. ومن هنا ينبها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد .. لقد وهبها الله للناس ليلوهم بها ويفتنهم فيها. فهي من زينة الحياة الدنيا التي تكون موضع امتحان وابتلاء ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه .. أيشكر عليها ويؤدي حق النعمة فيها؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟: «وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» .. فالفتنة لا تكون بالشدة وبالحرمان وحدهما .. إنما كذلك تكون بالرخاء وبالعطاء أيضا! ومن الرخاء العطاء هذه الأموال والأولاد ..

هذا هو التنبيه الأول: «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» ..

فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عوناً له على الحذر واليقظة والاحتياط أن يستغرق وينسى ويخفق في الامتحان والفتنة.

ثم لا يدعه الله بلا عون منه ولا عوض.. فقد يضعف عن الأداء - بعد الانتباه - لثقل التضحية
وضخامة التكليف وبخاصة في موطن الضعف في الأموال والأولاد! إنما يلوح له بما هو خير
وأبقى، ليستعين به على الفتنة ويتقوى: «وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»..
إنه - سبحانه - هو الذي وهب الأموال والأولاد.. وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلي على فتنة
الأموال والأولاد، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد.. وهذا هو العون والمدد
للإنسان الضعيف، الذي يعلم خالقه مواطن الضعف فيه: «وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا»..
إنه منهج متكامل في الاعتقاد والتصوير، والتربية والتوجيه، والفرص والتكليف. منهج الله الذي يعلم لأنه
هو الذي خلق: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟»^{٢٨٣}.



^{٢٨٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٣)

٤٨. من اتقى الله جعل له فرقاناً

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } (٢٩) سورة الأنفال
يُخْبِرُ تَعَالَى النَّاسَ أَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا بِهِ وَاتَّقُوا، فَاتَّبَعُوا أَوْامِرَهُ، وَانْتَهَوْا عَنْ زَوَاجِرِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فَرَجًا، وَمِنْ ضَيْقِهِمْ مَخْرَجًا، وَجَعَلَ لَهُمْ نُورًا وَهَدًى (فُرْقَانًا) يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَعَفَّرَ ذُنُوبَهُمْ، وَاللَّهُ عَظِيمُ الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ، جَزِيلُ الثَّوَابِ، يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْكَثِيرِ. ٢٨٤

هذا هو الزاد، وهذه هي عدة الطريق.. زاد التقوى التي تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيلة والتوقي. وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق ودروبه على مد البصر فلا تغبسه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة الصحيحة.. ثم هو زاد المغفرة للخطايا. الزاد المطمئن الذي يسكب الهدوء والقرار.. وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفذ الأزواد وتقصّر الأعمال.

إنها حقيقة: أن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا يكشف له منرجات الطريق. ولكن هذه الحقيقة - ككل حقائق العقيدة - لا يعرفها إلا من ذاقها فعلا! إن الوصف لا ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يدوقها! إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل والطرق تظل متشابكة في النظر والفكر والباطل يظل متلبسا بالحق عند مفارق الطريق! وتظل الحججة تفحم ولكن لا تقنع. وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل. ويظل الجدل عبثا والمناقشة جهدا ضائعا.. ذلك ما لم تكن هي التقوى.. فإذا كانت استنار العقل، ووضح الحق، وتكشف الطريق، واطمأن القلب، واستراح الضمير، واستقرت القدم وثبتت على الطريق! إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة.. إن هناك اصطلاحا من الفطرة على الحق الذي فطرت عليه والذي خلقت به السماوات والأرض.. ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة.. الهوى هو الذي ينشر الغبش، ويحجب الرؤية، ويعمي المسالك، ويخفي الدروب.. والهوى لا تدفعه الحججة إنما تدفعه التقوى.. تدفعه مخافة الله، ومراقبته في السر والعلن.. ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة، ويرفع اللبس، ويكشف الطريق. وهو أمر لا يقدر بثمن.. ولكن فضل الله العظيم يضيف إليه تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب. ثم يضيف إليهما «الْفَضْلُ الْعَظِيمُ»..

ألا إنه العطاء العميم الذي لا يعطيه إلا الرب «الكريم» ذو الفضل العظيم! ٢٨٥



٢٨٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٩٠، بترقيم الشاملة آليا)

٢٨٥ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٥)

٤٩. عوامل النصر والهزيمة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) } سورة الأنفال .

يَحُثُّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، لِتَقْوَى قُلُوبِهِمْ، وَتَثَبَتِ نَفُوسُهُمْ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْفَوْزِ وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ بِالْفَلَاحِ وَبِرِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى فِي الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ، وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ، وَبِالذَّلِّ الْجُهْدِ فِي الْقِتَالِ، وَبِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا لِتَطْمَئِنُّ النَّفُوسُ وَتَهْدَأَ، وَيُزِيلَهَا الْخَوْفُ وَالتَّرْدُّدُ وَالْقَلَقُ، كَمَا أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَالتَّزَامِ أَوْامِرِهِ، إِنْجَاحًا لِلخُطَّةِ الْعَامَّةِ لِلجَيْشِ فِي الْمَعْرَكَةِ. ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْأَلَا بِنْتَازَعُوا، وَلَا يَخْتَلِفُوا، لِأَنَّ فِي التَّنَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ الْفِشْلَ وَالخُذْلَانَ وَضِيَاعَ مَا حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعْرَكَةِ { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } . ثُمَّ يُكْرِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّزَامِ الصَّبْرِ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَنْ تَمْتَلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَالتَّزَامِ أَوْامِرِهِمَا، وَلَا تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطْرًا بِمَا أَوْثُوا مِنَ النِّعْمَةِ، وَمُرَاةَ النَّاسِ لِيُعْجِبُوا بِهِمْ، وَيُثِنُّوا عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى وَالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ. وَهُمْ إِنْ مَا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِمُ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْعِ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَالْحَدِّ مِنْ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَذْكُرُ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ إِذْ زَيْنَ الشَّيْطَانُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ أَعْمَالَهُمْ بوسوسته، وَإِذْ حَسَنَ فِي أَعْيُنِهِمْ مَا جَاؤُوا لَهُ، وَمَا هَمُّوا بِهِ، وَأَطْمَعَهُمْ بِأَنَّهُمْ مَنْصُورُونَ، وَأَنَّهُمْ لَا غَالِبَ لَهُمْ مِنَ النَّاسِ، وَطَمَأْنَنَهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْتُوا فِي دِيَارِهِمْ أَثْنَاءَ غَيْبَتِهِمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ، لِأَنَّهُ جَارٌ لَهُمْ وَمُجِيرٌ، فَلَمَّا اتَّقَى الْمُسْلِمُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَرَأَى الشَّيْطَانُ مَلَائِكَةَ اللَّهِ يَحْمُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَّى هَارِبًا { نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ }، وَقَالَ لِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ: إِنَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا يَرُونَ، إِنَّهُ يَرَى الْمَلَائِكَةَ يَنْصُرُونَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ

مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ وَسَطَوْتِهِ، مَا لَا يَعْلَمُهُ أَوْلِيَاؤُهُ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَخَافُ اللَّهَ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ تَعَالَى شَدِيدُ الْعِقَابِ .^{٢٨٦}

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو. والاتصال بالله بالذكر. والطاعة لله والرسول. وتجنب النزاع والشقاق. والصبر على تكاليف المعركة. والحذر من البطر والرئاء والبغي ..
فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما. وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينيين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟! وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصابة المؤمنة، وحكاها عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.
ومما حكاها القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عند ما استسلمت قلوبهم للإيمان فجاءة، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغوي، قولهم: «وَمَا تَنْقُمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ..

ومما حكاها كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَنَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» ..
ومما حكاها عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: «وَكَايُنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَنَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» .
ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصابة المسلمة فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوا. وقد حكى الله - فيما بعد - عن العصابة التي أصابها القرح في «أحد» فلما دعيت إلى الخروج ثاني يوم، كان هذا التعليم حاضرا في نفوسها: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ..

إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى: إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب والثقة بالله الذي ينصر أوليائه .. وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي .. كما أنه توكيد لهذا

^{٢٨٦} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٦، بترقيم الشاملة آليا)

الواجب - واجب ذكر الله - في أخرج الساعات وأشد المواقف .. وكلها إحياءات ذات قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني .

وأما طاعة الله ورسوله، فلن يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» .. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصبر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة، والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء! .. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة .. إنه من عمليات «الضبط» التي لا بد منها في المعركة .. إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنشق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً .. والمسافة كبيرة كبيرة ..

وأما الصبر. فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة .. أية معركة .. في ميدان النفس أم في ميدان القتال. «وَأَصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح ..

ويبقى التعليم الأخير: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

يبقى هذا التعليم ليحمي العصبية المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في غير ما أرادها .. والعصبية المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر، وتقرير عبودية العباد لله وحده. وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده، والتي تزاول الألوهية في الأرض. بمزاولتها للحاكمية - بغير إذن الله وشرعه - وتخرج لإعلان تحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل عبودية لغير الله، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته.

وتخرج لحماية حرمان الناس وكراماتهم وحررياتهم، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر. وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد وفي إقامة منهجه في الحياة وفي إعلاء كلمته في الأرض وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه .. حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل الله ..

ولقد كانت صورة الخروج بطرا ورتاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصابة المسلمة يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشا التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبرياتها تحاد الله ورسوله: وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة .. وكان الله سبحانه يذكر العصابة المسلمة بشيء حاضر له وقعه وله إيحاءه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

والبطر والمرااة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها في قولة أبي جهل، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عَيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عَيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلِّ عَامٍ - فَتَقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَتَنْحَرُ الْجُزُرَ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَاْمَضُوا .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عَيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عَيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلِّ عَامٍ - فَتَقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَتَنْحَرُ الْجُزُرَ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَاْمَضُوا .

وَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ بْنُ عَمْرٍو بْنِ وَهْبِ الثَّقَفِيِّ، وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي زُهْرَةَ وَهُمْ بِالْجُحْفَةِ يَا بَنِي زُهْرَةَ قَدْ نَجَّى اللَّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَخَلَّصَ لَكُمْ صَاحِبِكُمْ مَخْرَمَةَ بَنِ نَوْفَلٍ وَإِنَّمَا نَفَرْتُمْ لَتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ فَاجْعَلُوا لِي جُبْنَهَا وَارْجِعُوا، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ ضَيْعَةٍ لَا مَا يَقُولُ هَذَا، يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ. فَارْجِعُوا، فَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهْرِيُّ وَاحِدٌ أَطَاعُوهُ وَكَانَ فِيهِمْ مُطَاعًا. وَلَمْ يَكُنْ بَقِيٍّ مِنْ قُرَيْشٍ بَطْنٌ إِلَّا وَقَدْ نَفَرَ مِنْهُمْ نَاسٌ إِلَّا بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَارْجَعَتْ بَنُو زُهْرَةَ مَعَ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ، فَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مِنْ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ أَحَدٌ، وَمَشَى الْقَوْمُ. وَكَانَ بَيْنَ طَالِبِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - وَكَانَ فِي الْقَوْمِ - وَبَيْنَ بَعْضِ قُرَيْشٍ مُحَاوَرَةً فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْنَا يَا بَنِي هَاشِمٍ وَإِنْ خَرَجْتُمْ مَعَنَا، أَنْ هَوَاكُمْ لَمَعَ مُحَمَّدٌ. فَارْجَعَ طَالِبٌ إِلَى مَكَّةَ مَعَ مَنْ رَجَعَ. وَقَالَ طَالِبُ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ

لَا هُمْ إِلَّا يَعْزُونَ طَالِبٌ... فِي عَصَبَةِ مُحَالِفٍ مُحَارِبٍ

فِي مَقْنَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ... فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ
وَلْيَكُنِ الْمَعْلُوبُ غَيْرَ الْعَالِبِ...^{٢٨٧}

وصحت فراسة أبي سفيان، وأصاب محمد - ﷺ - النفير وذل المشركون بالبطر والبغي والرياء والصد عن سبيل الله وكانت بدر قاصمة الظهر لهم: «وَاللَّهِ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» .. لا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوتهم شيء، وهو محيط بهم وبما يعملون.

ويميضي السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذي نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار: «وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ، وَقَالَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ. فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ، وَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

ولقد وردت في هذه الآية والحادث الذي تشير إليه عدة آثار ليس من بينها حديث عن رسول الله - ﷺ - إلا ما رواه مالك في الموطأ عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن طلحة بن عبد الله بن كرزب: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلَا أَذْحَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أُعِظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِمَّا يَرَى مِنْ تَنْزِيلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الَّذِي رَأَى مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ؟، قَالَ: " رَأَى جِبْرِيلَ يَزِعُ الْمَلَائِكَةَ ". يَعْنِي: يَرُدُّ " ٢٨٨ ..

وعن طلحة بن عبد الله بن كرزب: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ، وَلَا أَذْحَرُ، وَلَا أَحْقَرُ، وَلَا أُعِظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِمَّا يَرَى مِنْ تَنْزِيلِ الرَّحْمَةِ وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ " ٢٨٩

وفي هذا الأثر عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، وهو ضعيف الحديث، والخبر مرسل.

فأما سائر الآثار فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - من طريق علي بن أبي طلحة وطريق ابن جريح. وعن عروة بن الزبير من طريق ابن إسحاق. وعن قتادة من طريق سعيد بن جبير. وعن الحسن وعن محمد بن كعب. وهذه أمثلة منها من رواية ابن جرير الطبري عن ابن عباس، في قوله عز وجل: وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ عَيْرُ أَهْلِ مَكَّةَ تُرِيدُ الشَّامَ، فَبَلَغَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ، فَخَرَجُوا وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُونَ الْعَيْرَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ مَكَّةَ فَأَسْرَعُوا السَّيْرَ إِلَيْهَا لِكَيْلَا يَغْلِبَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَسَبَقَتِ الْعَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَكَانُوا أَنْ يَلْقُوا الْعَيْرَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ، وَأَيْسَرُ شَوْكَةً، وَأَحْضَرُ مَعْنَمًا، فَلَمَّا سَبَقَتِ الْعَيْرُ وَفَاتَتْ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ يُرِيدُ الْقَوْمَ، فَكَرِهَ الْقَوْمَ مَسِيرَهُمْ لِشَوْكَةِ الْقَوْمِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ رَمْلَةٌ دَعَصَةٌ، فَأَصَابَ الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ شَدِيدٌ، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِهِمُ الْعَيْظَ يُوسُوسُهُمْ: تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَقَدْ غَلَبَكُمْ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاءِ وَأَنْتُمْ كَذَا، فَأَمَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا شَدِيدًا، فَشَرِبَ الْمُسْلِمُونَ وَتَطَهَّرُوا، فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَنْهُمْ رِجْزَ

٢٨٨ - شعب الإيمان [٥ / ٤٩٨] (٣٧٧٥) صحيح مرسل وعبد العزيز قد تويع كما في الرواية الثانية فلا يجوز رده

٢٨٩ - شعب الإيمان [٥ / ٤٩٨] (٣٧٧٥) صحيح مرسل

الشَّيْطَانِ، وَصَارَ الرَّمْلُ كَدًّا - ذَكَرَ كَلِمَةً أَخْبَرَ أَنَّهُ أَصَابَهُ الْمَطَرُ - وَمَشَى النَّاسُ عَلَيْهِ وَالِدَّوَابُّ فَسَارُوا إِلَى الْقَوْمِ، وَمَدَّ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْفِمْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَمْسِمَائَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُجَنَّبَةً، وَمِيكَائِيلُ فِي حَمْسِمَائَةٍ مُجَنَّبَةٍ، وَجَاءَ إِبْلِيسُ فِي جُنْدٍ مِنَ الشَّيَاطِينِ، مَعَهُ رَايَةٌ فِي صُورَةِ رِجَالٍ مِنْ بَنِي مُدَلِّجٍ، وَالشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلْمُشْرِكِينَ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ، فَلَمَّا اصْطَفَى الْقَوْمُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ أَوْلَانَا بِالْحَقِّ فَانصُرْهُ، وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: " يَا رَبُّ، إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعِصَابَةُ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا "، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: خُذْ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ فَرَمَى بِهَا وَجُوهَهُمْ، فَمَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا أَصَابَ عَيْنَيْهِ وَمِنْخَرِيهِ وَفَمَهُ تُرَابٌ مِنْ تِلْكَ الْقَبْضَةِ. فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى إِبْلِيسَ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَكَانَتْ يَدُهُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، انْتَرَعَ إِبْلِيسُ يَدَهُ ثُمَّ وَلَّى مُدْبِرًا وَسَبَّعْتُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا سُرَاقَةَ، أَلَمْ تَزْعُمِ أَنَّكَ لَنَا جَارٌ؟ قَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ، وَذَلِكَ حِينَ رَأَى الْمَلَائِكَةَ " ٢٩٠.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ، ثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُوْمَانَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: " لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشٌ الْمَسِيرَ ذَكَرَتْ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَنِي بَكْرِ يَعْنِي مِنَ الْحَرْبِ فَكَادَ ذَلِكَ أَنْ يُشَبِّطَهُمْ، فَتَبَدَّى لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ جُعْشَمِ الْمُدَلِّجِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ بَنِي كِنَانَةَ، فَقَالَ: أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ كِنَانَةٌ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ، فَخَرَجُوا سِرَاعًا " ٢٩١.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: " لَمَّا أَجْمَعَتْ قُرَيْشٌ عَلَى السَّيْرِ، قَالُوا: إِنَّمَا نَتَخَوَّفُ مِنْ بَنِي بَكْرِ. فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ: أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي بَكْرِ، وَلَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ " فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ: وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ وَحِينَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ خُرُوجَهُمْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لِحَرْبِكُمْ وَقِتَالِكُمْ، وَحَسَنَ ذَلِكَ لَهُمْ، وَحَثَّهُمْ عَلَيْكُمْ وَقَالَ لَهُمْ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاطْمَئِنُّوا وَأَبْشِرُوا، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ مِنْ كِنَانَةَ أَنْ تَأْتِيَكُمْ مِنْ وَرَائِكُمْ فَتَغْيِرَكُمْ أُجِيرُكُمْ وَأَمْنَعُكُمْ مِنْهُمْ، وَلَا تَخَافُوهُمْ، وَاجْعَلُوا جَدَّكُمْ وَبِأَسْكُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفَتَنَاتِ يَقُولُ: فَلَمَّا تَرَاخَفَتْ جُنُودُ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُ الشَّيْطَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ يَقُولُ: رَجَعَ الْقَهْقَرَى عَلَى قَفَاهُ هَارِبًا، يُقَالُ مِنْهُ: نَكَصَ يَنْكُصُ وَيَنْكُصُ نُكُوصًا، وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ: هُمْ يَضْرِبُونَ حَبِيكَ الْبَيْضِ إِذْ لَحِقُوا لَا يَنْكُصُونَ إِذَا مَا اسْتَلْحِمُوا وَحَمُوا

٢٩٠ - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ << بَابُ النِّقَاءِ الْجَمْعِيِّ وَنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ >> (٩٣٦) حَسَنٌ

٢٩١ - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ << سُورَةُ الْأَنْفَالِ >> الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

<< (١٤٨٥١) حَسَنٌ مَرْسَلٌ

وَقَالَ لِلْمُشْرِكِينَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ يَعْنِي: أَنَّهُ يَرَى الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللَّهُ مَدَدًا
لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا يَرَوْنَهُمْ إِنِّي أَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ، وَكَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ" ٢٩٢
وَعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: " وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ إِلَى قَوْلِهِ: شَدِيدُ الْعِقَابِ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ
تَنْزِلَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ، فَرَعَمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَدُ لَهُ بِالْمَلَائِكَةِ، وَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، إِنِّي أَخَافُ
اللَّهَ. وَكَذَبَ وَاللَّهُ عَدُوُّ اللَّهِ، مَا بِهِ مَخَافَةُ اللَّهِ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّ لَا قُوَّةَ لَهُ وَلَا مَنَعَةَ لَهُ، وَتِلْكَ عَادَةُ عَدُوِّ اللَّهِ
لِمَنْ أَطَاعَهُ وَاسْتَعَاذَ بِهِ، حَتَّى إِذَا التَّقَى الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ أَسْلَمَهُمْ شَرَّ مَسْلَمٍ وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ " ٢٩٣ ..
وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن
أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

ونحن - على منهجنا في هذه الظلال - لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآني أو
حديث نبوي صحيح متواتر^{٢٩٤}. فهي من أمور الاعتقاد التي لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته. ولكننا
في الوقت ذاته لا نقف موقف الإنكار والرفض ..

وفي هذا الحادث نص قرآني يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم، وشجعهم على الخروج
بإعلان إجارتهم لهم ونصرته إياهم وأنه بعد ذلك - لما تراءى الجمعان أي رأى أحدهما الآخر -
«نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب»
.. فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، ولم يوف بعهدده معهم ..

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، والتي قال لهم بها: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني
جار لكم. والتي نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك ..

الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها. ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في
أمره إلا في حدود النص المسلم. والنص هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث ..

فإلى هنا ينتهي اجتهادنا. ولا نميل إلى المنهج الذي تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير من
محاولة تأويل كل أمر غيبي من هذا القبيل تأويلاً معيناً ينفي الحركة الحسية عن هذه العوالم. وذلك
كقول الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية: « وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ
مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ أَي: وَاذْكَرُ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ، إِذْ زَيْنَ الشَّيْطَانُ لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ
أَعْمَالَهُمْ بَوَسْوَسَتِهِ، وَقَالَ لَهُمْ بِمَا أَلْقَاهُ فِي هَوَاجِسِهِمْ: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ، لَا أَتْبَاعَ مُحَمَّدٍ

٢٩٢ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري << سورة الأنفال >> القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
<< (١٤٨٥٨) حسن مرسل

٢٩٣ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري << سورة الأنفال >> القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
<< (١٤٨٥٣) حسن مرسل

٢٩٤ - لكن هذا الخبر ورد من طرق متعددة يقوي بعضها البعض، فيصلح للحجية

الضُّعْفَاءَ، وَلَا غَيْرَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، فَأَنْتُمْ أَعَزُّ نَفَرًا وَأَكْثَرُ نَفِيرًا، وَأَعْظَمُ بَأْسًا، وَإِنِّي مَعَ هَذَا - أَوْ
وَالْحَالِ أَنِّي - جَارٌ لَكُمْ. قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: وَأَوْهَمَهُمْ أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ إِيَّاهُ فِيمَا يَطْنُونَ أَنَّهَا قُرْبَاتٌ
مُجِيرٌ لَهُمْ حَتَّى قَالُوا: اللَّهُمَّ انصُرْ أَهْدَى الْفِتْنَيْنِ وَأَفْضَلَ الدِّينَيْنِ اهـ .

فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ أَيَّ فَلَمَّا قَرَّبَ كَلِمًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُقَاتِلَيْنِ مِنَ الْآخِرِ، وَصَارَ
بِحَيْثُ يَرَاهُ وَيَعْرِفُ حَالَهُ، وَقَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَيَصْطَلِي نَارَ الْقِتَالِ مَعَهُ، نَكَصَ أَيَّ: رَجَعَ
الْقَهْقَرَى، وَتَوَلَّى إِلَى الْوَرَاءِ وَهُوَ جِهَةُ الْعَقْبَيْنِ (أَيَّ مُؤَخَّرِي الرَّجْلَيْنِ) وَأَخْطَأَ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ: إِنَّ
الْمُرَادَ بِالتَّرَائِي التَّلَاقِي، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ كَفَّ عَنْ تَزْيِينِهِ لَهُمْ وَتَعْرِيرِهِ إِيَّاهُمْ، فَخَرَجَ الْكَلَامُ مَخْرَجَ التَّمْثِيلِ
بِتَشْبِيهِهِ وَسُوسَتِهِ بِمَا ذُكِرَ بِحَالِ الْمُقْبِلِ عَلَى الشَّيْءِ، وَتَرَكَهَا بِحَالِ مَنْ يَنْكُصُ عَنْهُ، وَيُوَلِّيه ذُبْرَهُ ثُمَّ زَادَ
عَلَى هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْهُمْ، وَتَرَكَهُ هُمْ وَشَأْنَهُمْ، وَهُوَ: وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا
تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ أَيَّ: تَبَرَّأْتُ مِنْهُمْ وَخَافَ عَلَيْهِمْ، وَأَيْسَ مِنْ حَالِهِمْ لَمَّا رَأَى إِمْدَادَ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ
بِالْمَلَائِكَةِ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ كَلَامِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَأْنَفًا .

تَفْسِيرُ الْآيَةِ بوسوسة الشيطان وإغوائه للمُشْرِكِينَ، وَتَعْرِيرِهِ بِهِمْ قَبْلَ تَقَابُلِ الصُّفُوفِ، وَتَرَائِي الرُّحُوفِ
وَبِتَخْلِيهِ عَنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَخَرَجَهُ عُلَمَاءُ النَّبِيَانِ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ كَالزَّمَخْشَرِيِّ وَالْبَيْضَاوِيِّ بِنَحْوِ مِمَّا ذَكَرْنَا، وَهُوَ
لَا يَخْلُو مَنْ تَكَلَّفَ فِي الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ لَمَّا نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ تَبَرَّأْتُ مِنْهُمْ، وَقَالَ مَا قَالَ
فِي نَفْسِهِ لَا لَهُمْ، وَمِثْلُ هَذَا الْخِطَابِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى سَمَاعِ الْمُخَاطَبِينَ لَهُ حَتَّى فِي خِطَابِ النَّاسِ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: كَمِثْلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ (٥٩: ١٦) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيَتِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ
الْمُشْرِكِينَ، وَأَلْفَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ. فَلَمَّا التَّقْوَا، وَنَظَرَ الشَّيْطَانُ
إِلَى إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ: نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ قَالَ: رَجَعَ مُدْبِرًا، وَقَالَ: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ - الْآيَةُ وَمِثْلُهُ قَالَ
الْحَسَنُ .

أَقُولُ: مَعْنَى هَذَا أَنَّ جُنْدَ الشَّيْطَانِ الْخَبِيثِ كَانُوا مُنْبَتِينَ فِي الْمُشْرِكِينَ يُوسُوسُونَ لَهُمْ بِمَلَابَسَتِهِمْ
لَأَرْوَاهُمْ الْخَبِيثَةَ مَا يُعْرِيهُمْ وَيَعْرِهَهُمْ، كَمَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ مُنْبَتِينَ فِي الْمُؤْمِنِينَ يُلْهِمُونَهُمْ بِمَلَابَسَتِهِمْ
لَأَرْوَاهُمْ الطَّيِّبَةَ مَا يُثَبِّتُونَ بِهِ قُلُوبَهُمْ، وَيَزِيدُهُمْ ثِقَةً بِوَعْدِ اللَّهِ بِنَصْرِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ (٨: ١٢) إلخ. فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ، وَأَوْشَكَ أَنْ يَتَلَحَّمَا فَرَّ الشَّيْطَانُ
بِجُنُودِهِ مِنْ بَيْنِ الْمُشْرِكِينَ. لِئَلَّا تَصِلَ إِلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ الْمَلَابِسَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهَمَّا ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ، وَلَوْ
اجْتَمَعَا لَقَضَى أَقْوَاهُمْ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى أضعفهما، فَخَوَفُ الشَّيْطَانِ إِتْمَا كَانَ مِنْ إِخْرَاقِ الْمَلَائِكَةِ
لِجُنُودِهِ لَا عَلَى الْمُشْرِكِينَ، كَمَا يُقْدَفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَعُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي مَوَاضِعٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْعَوَالِمَ الرُّوحِيَّةَ الْخَفِيَّةَ كَعَوَالِمِ الْعَنَاصِرِ الْمَادِيَّةِ مِنْهَا الْمُؤْتَلَفُ وَالْمُخْتَلَفُ، وَمِنْهَا مَا يَتَّحِدُ بِغَيْرِهِ فَيَتَأَلَّفُ مِنْهُمَا حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ كَحَقِيقَةِ الْمَاءِ وَالْهَوَاءِ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّحِدُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي حَيْزٍ وَاحِدٍ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ (٢٤:٢٦) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا (٦:١١٢) «...»^{٢٩٥}.

وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابس لأرواح المؤمنين وقد جزم في موضع آخر بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» - وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابس لأرواح المشركين.. هو منهج تلك المدرسة بجملتها.. ومثله تفسير «الطير الأبايل» بأنها ميكروبات الجدرى! في تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عم.. هذا كله مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمر غيبية حيث لا ضرورة لهذا التأويل، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها^{٢٩٦}.. وكل ما ينبغي هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة.. وهو المنهج الذي اتخذناه فعلا^{٢٩٧}..

وبعد، فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورتاء الناس ويصدون عن سبيل الله، ويشجعهم على الخروج، ثم يتركهم لمصيرهم البائس... كان المنافقون والذين في قلوبهم ضعف يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون وهم يرونها تواجه جحافل المشركين، وهي قليلة العدد ضعيفة العدة ويرون - بقلوبهم المدخولة ونظرهم إلى الظواهر المادية الخادعة - أن المؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة، مخدوعين بدينهم، ظانين أنه ينصرهم أو يقيهم: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ»..

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قيل: إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام في مكة - ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمئن قلوبهم - خرجوا مع النفير مزعزين، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة! والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة فهم يرون ظواهر الأمور، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله، والتوكل عليه، واستصغار شأن الجموع والقوى التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله تمنحها القوة الحقيقية.. فلا حرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم، مغرورين

^{٢٩٥} - تفسير المنار [٢٥/ ١٠]

^{٢٩٦} - قلت: لا يجوز التأويل إلا عند تعذر الحقيقة وهي غير متعذرة هنا، وإنما فعل هؤلاء ذلك من باب تقليد الغرب في إنكار الغيبات وهو منهج بعيد عن الإسلام جملة وتفصيلا.

^{٢٩٧} - يراجع تفسيرنا لسورة الفيل وتعقبنا على تفسير الشيخ محمد عبده لها في الجزء الثلاثين من الظلال. (السيد رحمه الله)

بدينهم، وارين موارد التهلكة بتعرضهم لبحافل المشركين التي يرونها! إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان.

ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر.. فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئاً وراءه والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من «الواقع» الحقيقي! الواقع الذي يشمل جميع القوى، ويوازن بينها موازنة صحيحة: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»..

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرحح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان. وقولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض، عن العصبية المسلمة يوم بدر: «غر هؤلاء دينهم».. هي قولة المنافقين والذين في قلوبهم مرض كلما رأوا العصبية المسلمة تتعرض لبحافل الطاغوت في عنفوانه وعدتها الأساسية التي تملكها هي هذا الدين وهي هذه العقيدة الدافعة الدافقة وهي الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمان الله وهي التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه.

إن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبية المسلمة تصارع بحافل الطاغوت، وفي نفوسهم سخرية من هذه العصبية التي تتصدى للخطر، وتستخف بالخطر! وفي نفوسهم عجب كذلك ودهشة في اقتحام العصبية المسلمة للمكاره الظاهرة، وللأخطار الواضحة.. إنهم هم لا يعرفون مبرراً لهذا التهور - كما يسمونه - وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة!.. إنهم يحسبون الحياة كلها - بما فيها الدين والعقيدة - صفقة في سوق التجارة. إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى!.. إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان.. إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائماً فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين: النصر والغلب، أو الشهادة والجنة.. ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله.. وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض! والعصبية المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأن ترى بنور الله وهداه، وألا تتعاطمها قوى الطاغوت الظاهرة، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله، وأن تلقي بالها دائماً إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».... وصدق الله العظيم..^{٢٩٨}



^{٢٩٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٦٦)

٥٠. تحريم اتخاذ الآباء وغيرهم أولياء إذا استحبوا الكفر على الإيمان

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) } سورة التوبة

بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهُ، وَبَرَاءَةَ رَسُولِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَذَنَهُمْ بِبَدْلِ عَهْدِهِمْ، بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا عَهْدَ لَهُمْ، عَزَّ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَبَرَّمَ مِنْهُ ضِعْفَاءُ الْإِيمَانِ، وَكَانَ مَوْضِعَ الضَّعْفِ نُصْرَةَ الْقَرَابَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ فَضْلَ الْإِيمَانِ وَالْمُهْجَرَةِ وَالْجِهَادِ لَا يَحَقِّقُ، وَلَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِتَرْكِ وَلَايَةِ الْكَافِرِينَ، وَإِثَارِ حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، عَلَى حُبِّ الْوَالِدِ وَالْوَالِدِ وَالْأَخِ وَالْعَشِيرَةِ، فَنَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مَوْلَاةِ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ. وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى، وَعَدَّ مَنْ يَتَوَلَّى الْكُفْرَارَ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءً أَوْ إِخْوَانًا، مِنَ الظَّالِمِينَ. (وَكَثِيرًا مَا عَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْكُفْرِ بِالظُّلْمِ وَمَثَلِ بَيْنَهُمَا)

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِتَوَعُّدِ مَنْ آثَرَ حُبَّ الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ وَالتَّجَارَةَ وَالْأَمْوَالَ وَالْمَسَاكِينَ... عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمَرَ اللَّهُ فِيهِمْ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنِكَالَهُ بِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَتِهِ سِوَاءَ السَّبِيلِ^{٢٩٩}.

إن هذه العقيدة لا تحمل لها في القلب شريكا فيما تجرد لها، وإما انسلاخ منها. وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهب ويزهده في طيبات الحياة.. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي الحركة والدافعة. فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة، على أن يكون مستعدا لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفروق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض. فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والزوج والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمسكن ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق - في غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب، باعتبار ه لونا من ألوان الشكر لله الذي أنعم بها ليعتقد بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

^{٢٩٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ - إِنَّ اسْتَحْبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ - ..»
وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة. وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله. فله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة. «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»
.. و«الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين. فولاية الأهل والقوم - إن استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطعم الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .. وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضيق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد .. وهو - بعد هذا كله - «الجهاد في سبيل الله» مجرداً من الصيت والذكر والظهور. مجرداً من المباهاة، والفخر والخيلاء. مجرداً من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه. وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب ..

«قُلْ: إِنَّ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ .. فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ...»
ألا إنها لشاقة. ألا وإنما لكبيرة. ولكنها هي ذاك .. وإلا: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»
وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» ..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة المسلمة، والدولة المسلمة. فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله. وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها .. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقله اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. فإذا غلبتها ثقله الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك.^{٣٠٠}



^{٣٠٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢١٩١)

٥١. تحريم دخول المشركين المسجد الحرام

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُعِينِكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (٢٨) سورة التوبة
أمر الله تعالى عباده المؤمنين بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، والطواف بالكعبة، بعد نزول هذه الآية، (وقد نزلت هذه الآية في العام التاسع للهجرة) لأنهم قذرون، قليلو النظافة (نجس)، لذلك أمر رسول الله أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان .

يقول الله تعالى للمؤمنين: إذا خفتكم بوار تجارتكم، وقلة أرزاقكم، بسبب انقطاع مجيء المشركين إلى مكة، فسوف يعينكم الله من فضله عن ذلك، وسيعوض عليكم أفضل من ذلك بفضله وكرمه إن شاء، والله عليم بما فيه الخير والمصلحة، حكيم فيما يشرعه ويقرره .^{٣٠١}

إنما المشركون نجس. يجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم. فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها. إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتحجيم.^{٣٠٢}

«نَجَسٌ». فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» .. وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصب النهي على مجرد القرب منه، ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور! ولكن الموسم الاقتصادي الذي ينتظره أهل مكة والتجارة التي يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة ورحلة الشتاء والصيف التي تكاد تقوم عليها الحياة... إنها كلها ستعرض للضياع. بمنع المشركين من الحج وإعلان الجهاد العام على المشركين كافة .. نعم! ولكنها العقيدة. والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة! وبعد ذلك، فالله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُعِينِكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ» ..

وحين يشاء الله يستبدل أسبابا بأسباب وحين يشاء يغلق بابا ويفتح الأبواب ..

«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .. يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة، وعن تقدير وحساب ..

لقد كان المنهج القرآني يعمل، في المجتمع المسلم الذي نشأ من الفتح والذي لم تكن مستوياته الإيمانية قد تناسقت بعد ..

^{٣٠١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٠٢} - يراجع فصل «التخييل الحسي والتجسيم» في كتاب: «التصوير الفني في القرآن». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

وكما أننا نلمح من خلال السياق في هذا المقطع ما كان يعتور هذا المجتمع من ثغرات. فكذلك نلمح عمل المنهج القرآني في سد هذه الثغرات. ونلمح الجهد الطويل المبذول لتربية هذه الأمة بهذا المنهج القرآني الفريد.

إن القمة التي كان المنهج القرآني ينقل خطى هذه الأمة لتبلغ إليها، هي قمة التجرد لله، والخلوص لدينه.

وقمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أوامر القربى وكل لذائذ الحياة. وكان هذا يتم من خلال ما يبثه المنهج القرآني من وعي لحقيقة الفوارق والفواصل بين منهج الله الذي يجعل الناس كلهم عبيدا لله وحده، ومنهج الجاهلية الذي يجعل الناس أربابا بعضهم لبعض.. وهما منهجان لا يلتقيان.. ولا يتعايشان..

وبدون هذا الفقه الضروري لطبيعة هذا الدين وحقيقته، وطبيعة الجاهلية وحقيقتها لا يملك إنسان أن يقوم الأحكام الإسلامية، التي تقرر قواعد المعاملات والعلاقات بين المعسكر المسلم وسائر المعسكرات.^{٣٠٣}



^{٣٠٣} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢١٩٦)

٥٢. التحذير من التشبه بالأخبار والرهبان

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدُّونَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)
يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ
فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) } سورة التوبة

يُحذِرُ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ، وَعِبَادِ الضَّلَالَةِ، وَيَقُولُ: إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى، يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بِصُورٍ وَطَرِيقٍ مُّخْتَلِفَةٍ، وَيَسْتَعْلُونَ رِئَاسَتَهُمُ الدِّينِيَّةَ فِي سَبِيلِ
تَحْقِيقِ ذَلِكَ، وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ اسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالَتِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، طَمَعًا فِي أَنْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ
الرِّئَاسَاتُ، وَأَخَذُوا يُصَدُّونَ النَّاسَ وَيَصْرِفُونَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ دِينُ الْحَقِّ، وَيُلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ، وَيُمَوِّهُونَ عَلَى اتِّبَاعِهِمْ مِنَ الْجَهْلَةِ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَوْ أَقْرَأُوا بِصِدْقِ
مُحَمَّدٍ، وَصِحَّةِ دِينِهِ، لَتَوَجَّحَ عَلَيْهِمْ مُتَابِعَتُهُ، فَيَبْطُلُ حُكْمُهُمْ، وَتَزُولُ مَكَائِنُهُمْ، وَتَنْقَطِعُ مَوَارِدُهُمْ، وَمَصَادِرُ
رِزْقِهِمُ الْعَرِيضَةُ .

وَفِي الْحَقِيقَةِ إِنَّهُمْ دُعَاةٌ إِلَى النَّارِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ، وَيُهَدَّدُ اللهُ تَعَالَى مَنْ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ (أَيْ يَكْدِسُونَ الْأَمْوَالَ)، وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَفِي الْجِهَادِ لِنُصْرَةِ دِينِ اللهِ، وَفِي
الْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِهِ وَمَصَالِحِهِمْ، وَيَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْمَقْصُودُ بِالْكَنْزِ هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَيُّ مَالٍ أَدَّيْتَ زَكَاتَهُ، فَلَيْسَ بِكَنْزٍ، وَإِنْ كَانَ مَدْفُونًا فِي الْأَرْضِ، وَأَيُّ مَالٍ لَمْ
تُؤَدَّ زَكَاتُهُ هُوَ كَنْزٌ يُكْوَى بِهِ صَاحِبُهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .

يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّ الْمَالَ الَّذِي لَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ سَيُحْمَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَتُكْوَى بِهِ جِبَاهُ
أَصْحَابِهِ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ، وَسَيُقَالُ لَهُمْ تَبْكَيْتَا وَتَقْرَبَيْتَا: هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَلَمْ تُؤَدُّوا مِنْهُ حَقَّ
الهِ، وَهَذَا مَا حَبَّأْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا طَعْمَهُ الْآنَ عَذَابًا أَلِيمًا .^{٣٠٤}

وَفِي الْآيَةِ الْأُولَى اسْتَطْرَادَ فِي بَيَانِ دَوْرِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ
اللَّهِ، فَاتَّبَعُوهُمْ فِيمَا يَشْرَعُونَ لَهُمْ مِنَ الْمَعَامَلَاتِ وَمِنَ الْعِبَادَاتِ سِوَاءِ. فَهَؤُلَاءِ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ يَجْعَلُونَ
مِنْ أَنفُسِهِمْ وَيَجْعَلُهُمْ قَوْمَهُمْ أَرْبَابًا تَتَّبَعُ وَتَطَاعُ وَهُمْ فِيمَا يَشْرَعُونَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَيُصَدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَأَكْلُ أَمْوَالَ النَّاسِ كَانَ يَتِمُّ فِي صُورٍ شَتَّى وَمَا يَزَالُ:

^{٣٠٤} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملك المال أو السلطان. ومنها ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا وغفرانه - بالسلطان المخول للكنيسة في زعمهم - لتلك الخطايا! ومنها الربا - وهو أوسع أبوابها وأبشعها - وغيرها كثير.

كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق وقد كان الرهبان والأساقفة والكرادلة والبابوات يجمعون مئات الملايين في الحروب الصليبية، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله.

ولا بد أن نلاحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهي في قول الله تعالى في ذلك.

«إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ..». للاحتراز من الحكم على القليل منها الذي لا يزال هذه الخطيئة. ولا بد من أفراد في أية جماعة من الناس فيهم بقية خير .. ولا يظلم ربك أحدا ..

والكثير من الأحبار والرهبان يكترون هذه الأموال التي يأكلونها بالباطل. وقد شهد تاريخ هؤلاء الناس أموالاً ضخمة تنتهي إلى أيدي رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة. وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاة! والسياق القرآني يصور عذابهم في الآخرة بما كثر، وعذاب كل من يكثر الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله، في مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروعة: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، تَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ» ..

إن رسم المشهد هكذا في تفصيل وعرض مشهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة، ليظلم المشهد في الخيال والحس .. وهي إطالة مقصودة: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» .. ويسكت السياق: وتنتهي الآية على هذا الإجمال والإهمام في العذاب ..

ثم يأخذ في التفصيل بعد الإجمال: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ». وينتظر السامع عملية الإحماء! ثم ها هي ذي حميت واحمرت. وها هي ذي معدة مهيأة. فليبدأ العذاب الأليم ... ها هي ذي الجباه تكوى ... لقد انتهت عملية الكي في الجباه، فليداروا على الجنوب ... ها هي ذي الجنوب تكوى ... لقد انتهت هذه فليداروا على الظهر ... ها هي ذي الظهر تكوى ... لقد انتهى هذا اللون من العذاب فليتبعة الترديل والتأنيب: «هَذَا مَا كَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ» ..

هذا هو بذاته الذي كترتموه للذة، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب! «فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ»! ذوقوه بذاته، فهو الذي تذوقون منه مسه للجنوب والظهر والجباه! ألا إنه لمشهد مفزع مروع، يعرض في تفصيل وتطويل وأناة! وهو يعرض أولاً لتصوير مصائر الكثير من الأحبار

والرهبان .. ثم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها في سبيل الله .. والسياق يمهّد لغزوة العسرة كذلك حينذاك!

وبعد. فلا بد أن نقف هنا وقفة قصيرة للتعقيب. نبرز فيها دلالة هذا البيان الرباني لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقيدة ومن دين ومن خلق ومن سلوك - وذلك بالإضافة إلى الإشارات التي أوردناها خلال الفقرات السابقة.

إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيء من دين الله، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين في شركهم، الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرتهم .. ذلك أن نفوس المسلمين لا تنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلا حين يتجلى لها تماما وجه الجاهلية! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب (ومن يزعمون أنهم على شيء من دين الله من أمثالهم، كالشأن في الغالبية العظمى ممن يدعون أنفسهم اليوم «مسلمين») ولقد احتاج الانطلاق الكامل لمواجهة المشركين كثيرا من البيان في هذه السورة، نظرا للملايسات التي شرحناها في التقديم لهذه السورة وفي التقديم للمقطع الأول منها كذلك. حيث قال الله - سبحانه - للمؤمنين: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ، إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

«أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ، وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ، وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ..

«ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجدَ الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ».

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».... إلخ... إلخ...

وإذا كان الانطلاق لمجاهدة المشركين قد اقتضى كل هذه الحملة - وأمرهم ظاهر - نظرا لتلك الملايسات التي كانت قائمة في التكوين العضوي للمجتمع المسلم في تلك الفترة .. فقد كان الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب في حاجة إلى حملة أشد وأعمق. تستهدف - أول ما تستهدف - تعرية أهل الكتاب هؤلاء من تلك «اللافتة» الشكلية التي لم تعد وراءها حقيقة وتظهرهم على حقيقتهم الواقعية .. مشركين كالمشركين .. كفارا كالكفار .. محاربيين لله ولدينه الحق كأمثالهم من المشركين الكافرين

..ضلالا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .. في مثل هذه النصوص القاطعة الصريحة: « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ، حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ: عِزِّيُّ بْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ. قَاتِلْهُمْ اللَّهُ! أَتَى يُؤْفَكُونَ؟ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ. يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ. وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... الخ » ..

وذلك بالإضافة إلى التقارير القرآنية الحاسمة - في السور المكية والمدنية على السواء - عن حقيقة ما انتهى إليه أمر أهل الكتاب من الشرك والكفر والخروج من دين الله الذي جاءهم به أنبياءهم من قبل فضلا على وفتتهم من رسالة الله الأخيرة، التي على أساس موقفهم منها يتحدد وصفهم بالكفر أو بالإيمان.

فلقد سبق أن ووجه أهل الكتاب بأهم ليسوا على شيء من دين الله أصلا في قوله تعالى: « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ .. وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ». (المائدة: ٦٨).

كذلك سبق وصفهم بالكفر، وضمهم إلى المشركين في هذه الصفة .. يهودا ونصارى .. أو مجتمعين في صفة «أهل الكتاب» في مثل قوله تعالى: « وَقَالَتِ الْيَهُودُ: يَدُ اللَّهِ مَعْلُولَةٌ! غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا. بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ... » (المائدة: ٦٤).

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... » (المائدة: ٧٢) « لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ... » (المائدة: ٧٣) « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » .. « البينة: ١ » ..

وغيرها كثير، أثبتنا بعضه فيما تقدم، والقرآن الكريم - مكّيّه ومدنيّه - حافل بمثل هذه التقارير. وإذا كانت الأحكام القرآنية قد جعلت لأهل الكتاب بعض الامتيازات في التعامل عن المشركين. وذلك كإحلال طعامهم للمسلمين، وإجازة الزواج بالمحصنات (أي العفيفات) من نسائهم .. فإن ذلك لم يكن مبنيا على أساس أنهم على شيء من دين الله الحق ولكن كان مراعى فيه - والله أعلم - أن لهم أصلا من دين وكتاب - وإن كانوا لا يقيمونه - فمن الممكن محاكمتهم إلى هذا الأصل الذي يدعون أنهم عليه! فهم في هذا يفترون عن المشركين الوثنيين الذين لا كتاب لهم لأنه

ليس لهم من أصل يردون إليه ويمكن محاكمتهم له .. أما تقريرات القرآن عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب من عقيدة ودين، فهي صريحة وحاسمة في أنهم ليسوا على شيء من دين الله بعد ما تركوا كتبهم ودينهم إلى ذلك الذي صنعه لهم أحبارهم ورهبانهم ومجامعهم وكنائسهم! وفي قول الله - سبحانه - فصل الخطاب في هذا الموضوع! والمهم الآن أن نبرز دلالة هذا البيان الرباني لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من العقيدة والدين ..

إن هذه «اللافتة» المضللة التي ليس وراءها شيء من الحقيقة، تحول دون الانطلاق الإسلامي الكامل لمواجهة «الجاهلية». فتحتتم - إذن - إزالة هذه اللافتة وتعريتهم من ظلها الخادع وكشفهم على حقيقتهم الواقعة .. ولا نغفل الملابس التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك - والتي أشرنا إليها من قبل - سواء منها ما يختص بالتكوين العضوي لهذا المجتمع يومها، وما يختص بظروف الغزوة ذاتها في الحر والعسرة! وما يختص كذلك بالتهيب من لقاء الروم بسبب ما كان لهم في نفوس العرب - قبل الإسلام - من هيبة وسمعة ومخافة! .. ولكن الأعمق من هذا كله هو ما يجيك في النفس المسلمة، عند الأمر بقتال أهل الكتاب على هذا النحو الشامل .. وهم أهل كتاب!!!

وأعداء هذا الدين، الراصدون لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية، وبتاريخ الحركة الإسلامية، على السواء .. وهم من أجل ذلك حريصون - كل الحرص - على رفع «لافتة إسلامية» على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يعدونها وقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعا. ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقي لمواجهة «الجاهلية» الحقيقة القابضة وراء تلك اللافتة الكاذبة! لقد أخطأوا - مضطرين - مرة أو مرات في إعلان حقيقة بعض الأوضاع والحركات وفي الكشف عن الوجه الكالح للجاهلية المنقضة على الإسلام فيها .. وأقرب مثال لذلك حركة «أتاتورك» اللإسلامية الكافرة في تركيا .. وكان وجه الاضطرار فيها هو حاجتهم الملحة إلى إلغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامي تحت راية العقيدة. ذلك المظهر الذي كان يتمثل في قيام «الخلافة» .. وهو - وإن كان مجرد مظهر - كان آخر عروة تنقض قبل نقض عروة الصلاة!

فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَتُنْتَقِضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةَ عُرْوَةً، فَكَلَّمَا انْتَقِضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالتِّي تَلِيهَا، فَأَوْلُّهُنَّ نَقْضًا: الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ^{٣٠٥}.

وعن أبي عبد الله الفيلسطيني، قال: سمعتُ حذيفةَ بنَ اليمانِ، يقولُ: لَتُنْتَقِضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةَ عُرْوَةً، وَلَتُرَكَّبَنَّ سُنَنَ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ حَدْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، لَأُتْخَطُّونَ طَرِيقَهُمْ، وَلَا يُخْطَأُ بِكُمْ، حَتَّى يَكُونَ أَوَّلَ نَقْضِكُمْ مِنْ عُرَى الْإِيمَانِ الْأَمَانَةُ، وَآخِرِهَا الصَّلَاةُ وَحَتَّى يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَقْوَامٌ

^{٣٠٥} - صحيح ابن حبان [١١١/ ١٥] (٦٧١٥) صحيح

يَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا أَصْبَحَ فِينَا مُنَافِقٌ وَلَا كَافِرٌ ، وَإِنَّا أَوْلِيَاءُ اللَّهِ حَقًّا حَقًّا ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ خُرُوجِ الدَّجَالِ ، حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُلْحِقَهُمْ بِهِ ^{٣٠٦}

ولكن أولئك الأعداء الواعين - من أهل الكتاب والملحدين الذين لا يجتمعون إلا حين تكون المعركة مع هذا الدين! - لم يكادوا يتجاوزون منطقة الاضطرار في الكشف عن الوجهة اللاإسلامية الكافرة في حركة «أتاتورك» حتى عادوا يحرصون بشدة على ستر الأوضاع التالفة المماثلة لحركة «أتاتورك» في وجهتها الدينية، بستر الإسلام ويحرصون على رفع تلك اللافتة الخادعة على تلك الأوضاع - وهي أشد خطرا على الإسلام من حركة أتاتورك السافرة - ويفتنون افتنانا في ستر حقيقة هذه الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها اقتصاديا وسياسيا وفكريا ويهيئون لها أسباب الحماية بأقلام مخابراتهم وبأدوات إعلامهم العالمية وبكل ما يملكونه من قوة وحيلة وخبرة ويتعاون أهل الكتاب والملحدون على تقديم المعونات المتنوعة لها لتؤدي لهم هذه المهمة التي لم تنته منها الحروب الصليبية قديما ولا حديثا يوم كانت هذه الحروب الصليبية معركة سافرة بين الإسلام وأعدائه المكشوفين الظاهرين! والسذج ممن يدعون أنفسهم «مسلمين» يخدعون في هذه اللافتة ..ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض! فيتخرجون من إنزالها عن «الجاهلية» القائمة تحتها، ويتخرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة ..صفة الشرك والكفر الصريحة ..

ويتخرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة لا تخرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة! بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطيرة لحركات البعث الإسلامي كما تقوم حاجزا دون الوعي الحقيقي، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تنصدي لسحق الجذور الباقية لهذا الدين ^{٣٠٧}.

هؤلاء السذج - من الدعاة إلى الإسلام - أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين، الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين! إن هذا الدين يغلب دائما عند ما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصابة المؤمنة - في أي زمان وفي أي مكان

^{٣٠٦} - السنن الواردة في الفتن للداني << باب ما جاء في فقد الأمانة والصلاة >> (٢٧٤) وتمذيب الآثار للطبري [٧١/ (٢٠٠٢ و ٢٠٠٣) حسن لغيره

العروة: ما يستمسك به ويعتصم من الدين وأحكامه وشرائعه = الحيض: جمع الحائض وهي التي يتزل الدم من رحمها في أيام معلومة من كل شهر = حدو الشيء: في موازاته ومقابلته ومساواته = القذة بالقذة: المراد أنهم يسرون على هنج واحد ولا يختلفان ويتبع بعضهم بعضا

^{٣٠٧} - راجع كتاب: «جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

- والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون بقدر ما يكمن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون، يتخرجون في غير تخرج ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة! إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض، أن يتلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا! وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من رذائلها الزائف وإظهارها على حقيقتها.. شركا وكفرا.. ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة. بل كيما ينتبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم - وهي الحقيقة التي انتهى إليها حال أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير - عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم، ليغير الله ما بهم من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون! وكل تخرج في غير موضعه وكل الخداع بالأشكال والظواهر واللافتات هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأية حركة إسلامية في الأرض جميعا وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكربهم الذي أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات بعد ما انكشفت حركة «أتاتورك» في التاريخ الحديث وباتت عاجزة عن المضي خطوة واحدة بعد إلغاء آخر مظهر من مظاهر التجمع الإسلامي على أساس العقيدة. نظرا لانكشاف وجهتها هذا الانكشاف الصريح.. مما دعا كاتبنا صليبا شديدا المكر عميق الخبث مثل «ولفرد كانتول سميث» في كتابه: «الإسلام في التاريخ الحديث» إلى محاولة تغطية حركة أتاتورك مرة أخرى، ونفي الإلحاد عنها، واعتبارها أعظم وأصح حركة بعث «إسلامي» (كذا) في التاريخ الحديث!!!^{٣٠٨}



^{٣٠٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٥٤)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) } سورة التوبة

يُعَاتِبُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزْوَةٍ تَبُوكَ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، وَكَانَ الْوَقْتُ حَارًّا قَائِظًا، فَيَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ: مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَكَاسَلْتُمْ وَتَبَاطَأْتُمْ، وَمَلْتُمْ إِلَى الدَّعَةِ وَالْإِقَامَةِ فِي الظِّلِّ وَطِيبِ الثَّمَارِ؟ أَفَعَلْتُمْ ذَلِكَ رِضًا مِنْكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟ وَمَا قِيَمَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا مَتَاعُهَا إِلَّا قَلِيلٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، إِذْ يَنْتَظِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَجَنَّاتٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَإِذَا لَمْ تَنْفِرُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ تَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْجِهَادِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا، بِزَوَالِ النِّعْمَةِ وَغَيْرِهَا عَنْكُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا يَصْعَبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ بِكُمْ، يَخْفُونَ لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ، وَيُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَضُرُّ اللَّهَ، لِأَنَّهُ الْعَنِيُّ عَنِ الْعِبَادِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ .

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرَ، فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِيَابِ الْغَارِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ جَزَعًا: لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَأَانَا. فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: مَا ظَنُّكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ تَالِثُهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ طَمَآنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَيَّدَهُ بِالْمَلَائِكَةِ تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الشُّرْكِ وَأَهْلَهُ السُّفْلَى، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ فِي انتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ، وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لَا يُضَامُ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ .

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ، وَالخُرُوجِ جَمِيعًا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالزَّمَهُمْ بِالخُرُوجِ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، فَقَالَ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا، وَأَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَرُكْبَانًا وَمُسَافِرًا وَأَقْوِيَاءَ وَضَعْفَاءَ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ لَا عِزَّ

لِلْأُمَّمِ، وَلَا سِيَادَةَ إِلَّا بِالْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ، وَفِيهِ أَيْضاً خَيْرُهُمْ فِي الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا سَعَادَةَ لِمَنْ لَمْ يَنْصُرِ الْحَقَّ، وَيُقِمِ الْعَدْلَ بِاتِّبَاعِ الْهُدَى وَالْعَمَلِ بِشَرَعِ اللَّهِ .

وَقَدْ نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى { لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ }^{٣٠٩}

إِذَا تَقَلَّتْ الْأَرْضُ، وَمَطَامِعُ الْأَرْضِ، وَتَصَوَّرَاتُ الْأَرْضِ.. ثِقَلَةُ الْخَوْفِ عَلَى الْحَيَاةِ، وَالْخَوْفِ عَلَى الْمَالِ، وَالْخَوْفِ عَلَى اللَّذَائِذِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَتَاعِ.. ثِقَلَةُ الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ.. ثِقَلَةُ الْذَاتِ الْفَانِيَةِ وَالْأَجْلِ الْمَحْدُودِ وَالْهَدَفِ الْقَرِيبِ.. ثِقَلَةُ اللَّحْمِ وَالْدَمِ وَالتَّرَابِ.. وَالتَّعْبِيرُ يَلْقَى كُلَّ هَذِهِ الظَّلَالِ بِجَرَسِ الْفَاطِظَةِ: «أَتَاقَلْتُمْ»^{٣١٠}. وَهِيَ بِجَرَسِهَا تَمَثِّلُ الْجِسْمَ الْمُسْتَرْخِي الثَّقِيلَ، يَرْفَعُهُ الرَّافِعُونَ فِي جَهْدٍ فَيَسْقُطُ مِنْهُمْ فِي ثِقَلٍ! وَيَلْقِيهَا بِمَعْنَى الْفَاطِظَةِ: «أَتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ».. وَمَا لَهَا مِنْ جَاذِبِيَّةٍ تَشُدُّ إِلَى أَسْفَلٍ وَتَقَاوِمُ رَفْرَفَةَ الْأُرُوحِ وَأَنْطِلَاقِ الْأَشْوَاقِ.

إِنَّ النَّفْرَةَ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْطِلَاقٌ مِنْ قَيْدِ الْأَرْضِ، وَارْتِفَاعٌ عَلَى ثِقَلَةِ اللَّحْمِ وَالْدَمِ وَتَحْقِيقٌ لِلْمَعْنَى الْعُلُويِّ فِي الْإِنْسَانِ، وَتَغْلِيْبٌ لِعَنْصَرِ الشُّوقِ الْمَجْنَحِ فِي كِيَانِهِ عَلَى عَنْصَرِ الْقَيْدِ وَالضَّرُورَةِ وَتَطَّلُعٌ إِلَى الْخُلُودِ الْمَمْتَدِّ، وَخِلَاصٌ مِنَ الْفَنَاءِ الْمَحْدُودِ: «أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ».

وَمَا يَجْهَمُ ذُو عَقِيدَةٍ فِي اللَّهِ عَنِ النَّفْرَةِ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، إِلَّا وَفِي هَذِهِ الْعَقِيدَةِ دَخَلَ، وَفِي إِيمَانِ صَاحِبِهَا بِهَا وَهِيَ. لِذَلِكَ يَقُولُ الرَّسُولُ - ﷺ - «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَحْدِثْ نَفْسَهُ بَغْزًا مَاتَ عَلَى شَعْبَةٍ مِنْ شَعْبِ النِّفَاقِ». فَالنِّفَاقُ - وَهُوَ دَخَلَ فِي الْعَقِيدَةِ يَعْقُوقُهَا عَنِ الصِّحَّةِ وَالْكَمَالِ - هُوَ الَّذِي يَقْعُدُ بِمَنْ يَزْعَمُ أَنَّهُ عَلَى عَقِيدَةٍ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَشِيَّةَ الْمَوْتِ أَوْ الْفَقْرِ، وَالْأَجَالَ بِيَدِ اللَّهِ، وَالرِّزْقَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ.

وَمَنْ ثَمَّ يَتَوَجَّهُ الْخُطَابُ إِلَيْهِمْ بِالتَّهْدِيدِ: «إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»..

وَالْخُطَابُ لِقَوْمٍ مَعِينِينَ فِي مَوْقِفٍ مَعِينٍ. وَلَكِنَّهُ عَامٌ فِي مَدْلُولِهِ لِكُلِّ ذَوِي عَقِيدَةٍ فِي اللَّهِ. وَالْعَذَابُ الَّذِي يَتَهَدَّدُ بِهِمْ لَيْسَ عَذَابُ الْآخِرَةِ وَحْدَهُ، فَهُوَ كَذَلِكَ عَذَابُ الدُّنْيَا. عَذَابُ الذَّلَّةِ الَّتِي تَصِيبُ الْقَاعِدِينَ عَنِ الْجِهَادِ وَالْكَفَّاحِ، وَالْغَلْبَةُ عَلَيْهِمْ لِلْأَعْدَاءِ، وَالْحَرَمَانُ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَاسْتِغْلَالُهَا لِلْمَعَادِينِ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِمْ يَخْسِرُونَ مِنَ النُّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ أَوْضَاعًا مَا يَخْسِرُونَ فِي الْكُفَّاحِ وَالْجِهَادِ وَيَقْدُمُونَ عَلَى مَذْبَحِ الذَّلَّةِ

^{٣٠٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٤، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣١٠} - هذه قرأة حفص وهي أبلغ تصويرا من القراءات التي ورد فيها: «تتاقلتم».. (السيد رحمه الله)

أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء. وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها
الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء ..

«وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» .. يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله :
«وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا» .. ولا يقام لكم وزن، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب! «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ» .. لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قوما غيركم، ويغفلكم من التقدير والحساب! إن
الاستعلاء على ثقله الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم. فهو حياة بالمعنى
العلوي للحياة: وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف لإعدام للوجود الإنساني الكريم. فهو فناء في
ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان. وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة:

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا
ولاء، والنصر من عند الله يؤتیه من يشاء: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، ثَانِيًا
أُتِينِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ. إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ
تَرَوْهَا، وَجَعَلَ الْكَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق، لا تملك لها دفعا، ولا
تطبيق عليها صبرا، فائتمرت به، وقررت أن تتخلص منه فأطلعته الله على ما ائتمرت، وأوحى إليه
بالخروج، فخرج وحيدا إلا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته
ظاهرة. والسياق يرسم مشهد الرسول - ﷺ - وصاحبه: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ». والقوم على إثرهما
يتعقبون، والصديق - رضي الله عنه - يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما
فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. والرسول -
ﷺ - وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: «يا أبا بكر ما ظنك
بأثنين الله ثالثهما؟».

فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي الْغَارِ: وَقَالَ مَرَّةً: وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ
نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِأَتَيْنِ اللَّهَ ثَالِثَهُمَا^{٣١١}.

ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها في جانب، والرسول - ﷺ - مع صاحبه منها مجرد؟ كان
النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس. وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار: «وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى».

وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة: «وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» ..

وقد قرئ «وكلمة الله» بالنصب. ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى. لأنها تعطي معنى التقرير.

٣١١ - أخرجه الشيخان وغيرهما المسند الجامع [١١٦٨/ ٩] (٧١٤١) ومسند أحمد (عالم الكتب) [١/ ٧٦] (١١)

فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلا، بدون تصيير متعلق بجاذبة معينة. والله «عزيز» لا يذل أولياؤه «حكيم» يقدر النصر في حينه لمن يستحقه.

ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولكلمته والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتشاقلون ويتباطأون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل!

وفي ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة، لا يعوقهم معوق. ولا يقعد بهم طارئ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الآخرة: «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» ..

انفروا في كل حال، وجاهدوا بالنفوس والأموال، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات. «ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير، فنفروا والعوائق في طريقهم، والأعداء حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعداء. ففتح الله عليهم القلوب والأرضين، وأعز بهم كلمة الله، وأعزهم بكلمة الله، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتح.

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ سُورَةَ بَرَاءَةَ حَتَّى بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ: أَرَأَا اسْتَنْفَرْنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا، بَنِي جَهْزُونِي. قَالُوا: يَا أَبَانَا، قَدْ غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَغَزَوْتَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَنَحْنُ نَعَزُّو عَنْكَ. فَأَبَى " فَجَهَّزُوهُ فَعَزَا الْبَحْرَ فَمَاتَ فِي الْبَحْرِ فَلَمْ يَجِدُوا جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَّعَبْ " ٣١٢ .

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ " قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا قَالَ: أَيُّ بَنِي، مَا أَرَى رَبَّنَا إِلَّا يَسْتَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا، يَا بَنِي جَهْزُونِي جَهْزُونِي، وَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَدْ غَزَوْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَنَحْنُ نَعَزُّو عَنْكَ، قَالَ: لَأَجْهَزُونِي، فَعَزَا الْبَحْرَ فَتَوَفَّى، وَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَدَفِنُوهُ فِيهَا وَلَمْ يَتَّعَبْ " ٣١٣

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَرَأَ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَأَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " قَالَ: "أَرَى رَبَّنَا يَسْتَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا، جَهْزُونِي بَنِي، قَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَدْ غَزَوْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَغَزَوْتَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَاتَ، وَغَزَوْتَ مَعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ، فَنَحْنُ نَعَزُّو عَنْكَ، فَأَبَى فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَمَاتَ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ، فَلَمْ يَتَّعَبْ فَدَفِنُوهُ فِيهَا " ٣١٤ .

٣١٢ - الْأَحَادُ وَالْمَنَانِي لِأَبِي عَاصِمٍ << أَبُو طَلْحَةَ زَيْدُ بْنُ سَهْلٍ >> (١٦٧٥) صحيح

٣١٣ - مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ << بَابُ الرَّأْيِ >> (٢٥٢٥) صحيح - زيادة مني

٣١٤ - تفسير ابن أبي حاتم [٢٦٦/٧] (١٠٣٩٣) صحيح

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَيْسَرَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو رَاشِدٍ الْحَبْرَانِيُّ، قَالَ: وَافَيْتُ الْمَقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ جَالِسًا عَلَيَّ تَأْبُوتٍ مِنْ تَوَابِيَتِ الصِّيَارِفَةِ يُرِيدُ الْعَزْوَ، فَقُلْتُ: لَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: أَبَتْ عَلَيْنَا سُورَةُ الْبُحُوثِ " أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا " يَعْنِي: سُورَةَ التَّوْبَةِ وَرُويَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِكرَمَةَ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَالْحَسَنِ، وَشَمْرِ بْنِ عَطِيَّةَ، وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَالشَّعْبِيِّ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، قَالُوا: شُبَّانًا وَكُهُولًا^{٣١٥}.

وعن حبان بن زيد الشرعي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليًا على حمص قبل الأفسوس، إلى الجراجمة، فلقيت شيخًا كبيرًا همًّا، قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت عليه فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك! قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالًا من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده فيبتليه، إنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله.^{٣١٦}

وتمثل هذا الجدل في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتمت تلك الحارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة.^{٣١٧}



^{٣١٥} - تفسير ابن أبي حاتم [٢٦٦/ ٧] (١٠٣٩٤) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٦٨/ ١٤] (١٦٧٥٦) صحيح

^{٣١٦} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٦٤/ ١٤] (١٦٧٤٥) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [١٥٧/ ٤] حسن

" الجراجمة "، نبط الشام، ويقال: هم قوم من العجم بالجزيرة. " الهم " (بكسر الهماء): الشيخ الكبير الفاني البالي.

^{٣١٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٦٧)

٥٤. الأمر بتقوى الله ومتابعة الصادقين

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) } سورة التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَرَاقِبُوهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَوَأَجْبَاتِهِ، وَاجْتَنَابِ نَوَاهِيهِ، وَاصْدُقُوا وَالزُّمُوا الصَّادِقِينَ تَكُونُوا أَهْلَهُ، وَتَنَجُّوا مِنَ الْمَهَالِكِ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا مِنْ أُمُورِكُمْ وَمَخْرَجًا .
يُعَاتِبُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ، عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنْ نَبِيِّهِمْ، وَإِيثارِهِمْ أَنفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَيَخْصُّ بِالْعِتَابِ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ نَقَصُوا أَنفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، لِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ عَطَشٌ وَلَا تَعَبٌ وَلَا مَجَاعَةٌ (مَخْمَصَةٌ)، وَلَا يَنْزِلُونَ مَنْزِلًا يُرْهِبُ الْكُفَّارَ، وَيَغِيظُهُمْ، وَلَا يُحَقِّقُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ظَفْرًا وَغَلْبَةً.. إِلَّا كُتِبَ اللَّهُ لَهُمْ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ، ثَوَابٌ عَمَلِ صَالِحِ جَزِيلٍ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

وَلَا يُنْفِقُ هُوَ لِأَهْلِ الْعُرَاةِ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا فِي سَبِيلِهِمْ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ، وَسُجِّلَ فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ جَزَاءً أَحْسَنَ مِنْ جَزَائِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ الْجَلِيلَةِ فِي غَيْرِ الْجِهَادِ، فَالتَّفَقُّهُ الصَّغِيرَةُ فِي الْجِهَادِ كَالتَّفَقُّهُ الْكَبِيرَةِ فِي غَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَبْرَاتِ .
الْجِهَادُ فَرَضٌ كِفَايَةٌ إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ. وَلَكِنْ إِذَا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُ لَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ إِلَّا أَهْلَ الْأَعْدَارِ. وَحِينَ مَا نَزَلَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَاتُ فِي التَّشْدِيدِ عَلَى الْمُتَخَلِّفِينَ، قَالُوا: لَا يَتَخَلَّفُ مِنَّا أَحَدٌ عَنْ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَبَدًا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَبَقِيَ الرَّسُولُ وَحْدَهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. وَفِيهَا يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَنْفِرُوا جَمِيعًا، لِيَبْقَى قُرْبَ رَسُولِ اللَّهِ أَنْاسٌ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ، حَتَّى إِذَا عَادَ الْعُرَاةُ إِلَى أَهْلِهِمْ أَعْلَمُوهُمْ بِمَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي غَيْبَتِهِمْ، وَبِمَا اسْتَجَدَّ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَتَعَلِيمَاتِ الرَّسُولِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا عَلَى عِلْمٍ بِأُمُورِ دِينِهِمْ .^{٣١٨}

٣١٨ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٥٥، بترقيم الشاملة آليا)

إن أهل المدينة هم الذين تبنا هذه الدعوة وهذه الحركة، فهم أهلها الأقربون. وهم بها ولها. وهم الذين آووا رسول الله - ﷺ - وبايعوه وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين في مجتمع الجزيرة كله. وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة .. فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه .. وحين يخرج رسول الله - ﷺ - في الحر أو البرد. في الشدة أو الرخاء. في اليسر أو العسر. ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها، فإنه لا يحق لأهل المدينة، أصحاب الدعوة، ومن حولهم من الأعراب، وهم قرييون من شخص رسول الله - ﷺ - ولا عذر لهم في ألا يكونوا قد علموا، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ.

من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين، الذين لم يتخلفوا، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف، ولم يتزلزل إيمانهم في العسرة ولم يتزعزع .. وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». ثم يمضي السياق بعد هذا اللفتاف مستنكرا مبدأ التخلف عن رسول الله: «مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ، وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ». وفي التعبير تأنيب خفي. فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله - ﷺ - بأوجع من أن يقال عنه: إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، وهو معه، وهو صاحبه! وإنما لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل. فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله في سبيل هذه الدعوة وهو يزعم أنه صاحب دعوة وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ!

إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من رسول الله - فضلا على الأمر الصادر من الله - ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه!

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، وَلَا يَفْطَعُونَ وَادِيًا، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»

إنه على الظمأ جزاء، وعلى النصب جزاء، وعلى الجوع جزاء. وعلى كل موطن قدم يغيب الكفار جزاء. وعلى كل نيل من العدو جزاء. يكتب به للمجاهد عمل صالح، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجرا.

وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر. وعلى الخطوات لقطع الوادي أجر .. أجر كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة. ألا والله، إن الله ليجزل لنا العطاء. وإنما والله للسماحة في الأجر والسخاء. وإنه لما يجحل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله - ﷺ - من الشدة والأواء. في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء، وعليها بعده أمناء!

ويبدو أن تتزل القرآن في هذه السورة بالنكير على المتخلفين والتنديد بالتخلف وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب قد جعل الناس يتزاحمون في المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله - ﷺ - وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة. مما اقتضى بيان حدود النفي العام - في الوقت المناسب للبيان من الناحية الواقعية - فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد، وقد بلغ من عددهم - بعد تخلف المتخلفين في تبوك - نحو من ثلاثين ألفاً، الأمر الذي لم يتهياً من قبل في غزوة من غزوات المسلمين. وقد آن أن تتوزع الجهود في الجهاد وفي عمارة الأرض وفي التجارة وفي غيرها من شؤون الحياة التي تقوم بها أمة ناشئة وهي تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة، وعن حاجات المجتمع القبلي الأولية.. ونزلت الآية التالية تبين هذه الحدود في جلاء: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً، فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» ..

ولقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية، وتحديد الفرقة التي تتفقه في الدين وتندر قومها إذا رجعت إليهم.. والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة. ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون - لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفي والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة وتندر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة ..

والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه - وله أصل من تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما - ومن تفسير الحسن البصري، واختيار ابن جرير، وقول لابن كثير - أن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه بما يتكشف لهم من أسرار ومعانيه وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به. أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ولا فقهوا فقههم ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله - ﷺ - والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه.

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة، هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين! ولكن هذا وهم، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين.. إن الحركة هي قوام هذا الدين ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس، وتغليبهم على الجاهلية، بالحركة العملية.

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه مهما تفرغوا لدراسته في الكتب - دراسة باردة! - وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق! إن فقه هذا

الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة. ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة. والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاما فقهية «بجدون» بما الفقه الإسلامي أو «يطورونه» - كما يقول المستشرقون من الصليبيين! - وهم يعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد، ورددتهم إلى العبودية لله وحده، بتحكيم شريعة الله وحدها وطرده شرائع الطواغيت ..

هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين! إن الفقه الإسلامي وليد الحركة الإسلامية.. فقد وجد الدين أولا ثم وجد الفقه. وليس العكس هو الصحيح.. وجدت الدينونة لله وحده، ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده.. والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه.. ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعلا وفق المبادئ الكلية في الشريعة - إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة - وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده، واستيحاء شريعته وحدها، تحقيقا لهذه الدينونة، جدد له أفضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية في حياته.. وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية، وبدأ نمو الفقه الإسلامي.. الحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه، والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه. ولم يكن قط فقها مستنبطا من الأوراق الباردة، بعيدا عن حرارة الحياة الواقعة!.. من أجل ذلك كان الفقهاء متفقيين في الدين، يجيء فقهم للدين من تحركهم به، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حي، يعيش بهذا الدين، ويجاهد في سبيله، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة.

فأما اليوم.. «فماذا»؟! أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته لله وحده والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته والذي رفض بالفعل شرعية أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد؟

لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه، إلى محاولة تنمية الفقه الإسلامي أو «تجديده» أو «تطويره»! في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعته الوحيدة التي بها تعيش. ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده وتقرير مبدأ أن لا حاكمية إلا لله، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمدا من شريعته وحدها تحقيقا لتلك الدينونة ..

إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنمية الفقه الإسلامي أو «تجديده» أو «تطويره» في مجتمع لا يتعامل بهذا الفقه ولا يقيم عليه حياته. كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقه في هذا الدين وهو قاعد، يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة، ويستنبط الفقه من قوالب الفقه الجامدة! ..

إن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا في مجرى الحياة الدافق وإلا مع الحركة بهذا الدين في عالم الواقع. إن الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم والمجتمع المسلم أنشأ «الفقه الإسلامي».. ولا بد من هذا الترتيب.. لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من الدينونة لله وحده، مصمم على تنفيذ شريعته وحدها. ثم بعد ذلك - لا قبله - ينشأ فقه إسلامي مفصل على قد المجتمع الذي ينشأ، وليس «جاهزا» معدا من قبل! ذلك أن كل حكم فقهي هو - بطبيعته - تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة، ذات حجم معين، وشكل معين، وملابس معينة. وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة، داخل الإطار الإسلامي لا بعيدا عنه، وتحدد حجمها وشكلها وملابسها ومن ثم «يفصل» لها حكم مباشر على «قدها».. فأما تلك الأحكام «الجاهزة» في بطون الكتب فقد «فصلت» من قبل لحالات معينة في أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شريعة الله فعلا. ولم تكن وقتها «جاهزة» باردة! كانت وقتها حية مليئة بالحياة وعليها اليوم أن «نفصل» مثلها للحالات الجديدة.. ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذي يقرر ألا يدين لغير الله في شرائعه وألا يفصل حكما شرعيا إلا من شريعة الله دون سواها.

وفي هذا يكون الجهد الجاد المثمر، اللائق بجدية هذا الدين. وفي هذا يكون الجهاد الذي يفتح البصائر ويمكن من التفقه في الدين حقا.. وغير هذا لا يكون إلا هزلا ترفضه طبيعة هذا الدين وإلا هروبا من واجب الجهاد الحقيقي تحت التستر بستار «تجديد الفقه الإسلامي» أو «تطويره»!.. هروب خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير وطلب المغفرة من الله على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين!^{٣١٩}



^{٣١٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٦٢)

٥٥. وجوب البدء قتال الأقرب لنا من الكفار

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } (١٢٣) سورة التوبة

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّرِيقَ الْأَمْتَلَّ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدُؤُوا بِقِتَالِ الْأَقْرَبِ فَلِأَقْرَبِ مِنْهُمْ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ، وَبِذَلِكَ لَا يَبْقَى مَحَالٌ لِأَنْ يُؤْخَذَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ قَبْلِ أَعْدَائِهِمْ، إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلْفَ أَعْدَائِهِمْ، وَلِهَذَا بَدَأَ الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي حَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ الْعَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِعَزْوِ الرُّومِ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ. وَهَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعِتَاةِ الْفَجَّارِ وَهَكَذَا .

وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشْدَاءَ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً وَخَشُونَةً فِي الْقِتَالِ، لِيُدْخِلُوا الْوَهْنَ إِلَى نَفْسِهِمْ، وَنُفُوسِ مَنْ خَلْفَهُمْ. وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشْدَاءَ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ. وَيُخْبِرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُبْتَلِيهِمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ ٣٢٠ .

فأما خطة الحركة الجهادية التي تشير إليها الآية في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» ..

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون «دار الإسلام» ويجاورونها، مرحلة فمرحلة. فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم. ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس، فلم يتركوا وراءهم جيوبا ووحدات الرقعة الإسلامية، ووصلت حدودها، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، متماسكة الأطراف .. ثم لم يأتمها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت، أو على أساس القوميات! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون. وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام «أمة واحدة» في «دار الإسلام» المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهيبضة إلا أن تشوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة وإلا أن تتبع خطى رسول الله - ﷺ - وتدرج أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين.

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

٣٢٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٥٩، بترقيم الشاملة آليا)

فجدد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار. لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم .. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير، الذي يجعل «الانطلاق» بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد، وليس هو مجرد «الدفاع» كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة.

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن .. أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيادا من النصوص المرحلية السابقة فيقيده بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء! والنص القرآني بذاته مطلق، وهو النص الأخير! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام، أن يكون دقيقا في كل موضع وألا يحيل في موضع على موضع بل يتخير اللفظ المحدد ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص. إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص.

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر، وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب، أن فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك^{٣٢١}.

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام، وعن أحكام الجهاد في الإسلام، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام، يتعاضمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام! وأن يكون الله - سبحانه - قد أمر الذين آمنوا أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار! .. يتعاضمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا، فيروحوون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة! إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاضمهم على هذا النحو ..

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في «سبيل الله» .. جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المعتصبة لسُلطان الله .. جهاد لتحرير «الإنسان» من العبودية لغير الله، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد .. «حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» .. وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله. إنما هو جهاد لتغليب الله على مناهج العبيد! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله في الأرض .. ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في «الأرض» كلها، لتحرير «الإنسان» كله. بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها .. فكلها «أرض» يسكنها «الإنسان» وكلها فيها طواغيت تعبد

^{٣٢١} - ص ١٥٦٤ - ١٥٨٣ و ص ١٥٩٨ - ١٦٠٦ و ص ١٦٠٩ - ١٦٢٠ و ص ١٦٣٠ - الجزء العاشر. (السيد رحمه الله)

العباد للعباد! وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعاً أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم.. إنها في هذا الوضع لا تستساغ! وهي فعلاً لا تستساغ!.. لولا أن الأمر ليس كذلك. وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية. فليس لواحد منها أن يقول:

إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية لبيطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعاً من ذلة العبودية للعباد ويرفع البشر جميعاً إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك! ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاضمهم لأنهم يواجهون هجوماً صليبياً منظماً لئما ما كرا حبيثاً يقول لهم: إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد! والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة.. لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق.. إن الإسلام يقوم على قاعدة: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي».. ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهداً ولما إذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ»؟.. إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد.. بل لأمر مناقض تماماً للإكراه على العقيدة.. إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد!.. لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد يواجه دائماً طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد. ويواجه دائماً أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل.. وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله ..

ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة، ويدمر هذه القوى التي تحميها.. ثم ماذا؟.. ثم يترك الناس - بعد ذلك - أحراراً حقا في اختيار العقيدة التي يريدونها. إن شاءوا دخلوا في الإسلام، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات، وكانوا إخواناً في الدين للسابقين في الإسلام! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية، إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمرضى كالمسلمين سواء بسواء.

إن الإسلام لم يكره فرداً على تغيير عقيدته كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبذب وتقتل وتبيد شعوباً بأسرها - كشعب الأندلس قديماً وشعب زنجبار حديثاً - لتكرههم على التنصر. وأحياناً لا تقبل منهم حتى التنصر، فتبيدهم مجرد أنهم مسلمون.. وأحياناً مجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية.. وقد ذهب مثلاً اثنا عشر ألفاً من نصارى مصر ضحايا بصر بشعة إذ

أحرقوا أحياء على نار المشاعل لجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانثاق الروح القدس من الآب فقط، أو من الآب والابن معا! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية.. إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية! وأخيرا فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تمول المهزومين روحيا في هذا الزمان وتتعاظمهم لأنهم يصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهمهم الأمر.. وهو يهول فعلا!.. فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين، وهم شعوب مغلوبة على أمرها أو قليلة الحيلة عموما! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله؟! إنه لأمر لا يتصور عقلا.. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلا! ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر؟ وفي أي ظرف؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين، ونظمت على أساسه. وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله ببيعة صدق، فنصرها الله يوما بعد يوم، وغزوة بعد غزوة، ومرحلة بعد مرحلة.. وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمدا - ﷺ - ليدعو الناس - في جاهليتهم - إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فجاهد والقتل التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة. وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة.. وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول.. ثم يصلوا - يوم أن يصلوا - إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله.. ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغناء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء والذي تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية. ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية: لا إله إلا الله. ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا، ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد في الأرض إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله.. إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين، وهم في مثل ما هم فيه من الهزال! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت!

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق. وحفظ ما في متون الكتب. والتعامل مع النصوص في غير حركة، لا يؤهل لفقه هذا الدين، ولم يكن مؤهلا له في يوم من الأيام! وأخيرا فإن الظروف التي نزل فيها قول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»..

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم.. وهم أهل كتاب.. ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملية، بما في عقيدتهم من انحراف، وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد..

وهذه لفظة لا بد من الوقوف عندها لفقها منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب، المنحرفين عن كتابهم، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم! .. وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه، في أي زمان وفي أي مكان! ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة، وعقب على هذا الأمر بقوله: «أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ..

ولهذا التعقيب دلالة .. فالتقوى هنا .. التقوى التي يحب الله أهلها .. هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار وتقاتلهم في «غلظة» أي بلا هوادة ولا تميم ولا تراجع .. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعاً أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يجاربوا وحدهم - وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب! إنه قتال يسبقه إعلان، وتخيير بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال .. ويسبقه نبد العهد إن كان هناك عهد - في حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها).

وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله - ﷺ -:

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: اعْزُوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَاتْلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اعْزُوا وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَعْدُرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ، أَوْ خِلَالَ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَحَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، اذْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَحَابُوكَ إِلَيْهِ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ اذْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّمُهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَحَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حَصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّكَ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ نُخِفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ

تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِنْ حَاصِرَتْ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا. ٣٢٢

وعن ابن عمر، قال: ووجدت امرأة مقتولة في بعض معازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء ٣٢٣.

وعن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، قال: إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن أطعوا لذلك، فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقراتهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فأياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله عز وجل حجاب. ٣٢٤

وعن رجل من جهينة قال قال رسول الله ﷺ - « لعلكم تقاتلون قومًا فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم فيصلحونكم على صلح فلا تصيبوا منهم شيئًا فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم » ٣٢٥.

وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه وكان من أصحابه، يقول: إن رسول الله ﷺ نزل بخيبر ومعه من معه من أصحابه، وأن صاحب خيبر كان رجلًا باردًا منكرًا، فأقبل إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، ألكم أن تدبخوا حمرنا، وتأكلوا ثمرتنا، وتدخلوا بيوتنا، وتضربوا نساءنا؟ فعضب رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن عوف، اركب فرسك، فأذن في الناس أن الجنة لا تحل إلا لمن شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن اجتمعوا إلى الصلاة قال: فاجتمعنا له، فصلى النبي ﷺ، ثم قال: إن الله عز وجل لم يحل لكم بيوت المكاتبين إلا بإذن، ولا تأكلوا أموالهم، ولا تضربوا نساءهم، أم حسب امرؤ منكم وقد شبع حتى بطن وهو متكئ على أريكته، لا يظن الله عز وجل حرم شيئًا إلا ما في القرآن، ألا إنني قد حدثت ووعظت بأشياء هي مثل القرآن أو أكثر، وأنه لا يحل لكم من السباع كل ذي ناب، ولا الحمر، ولا تدخلوا بيوت المكاتبين إلا بإذن، ولا تأكلوا من أموالهم شيئًا إلا ما طابوا له نفسًا، وقال: لا تضربوا، أو قال: لا تجلدوا نساءهم " ٣٢٦.

٣٢٢ - أخرجه مسلم وغيره المسند الجامع [٣/ ٤٨٤] (١٩٠٢) ومسنده أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٦٤٠] (٢٣٠٣٠) (٢٣٤١٨)

٣٢٣ - مصنف ابن أبي شيبة [١٧/ ٥٦٩] (٣٣٧٨٥ و ٣٣٧٨٤) صحيح

٣٢٤ - أخرجه الجماعة المسند الجامع [٨/ ٥٥٣] (٥٩١١) وهو حديث صحيح مشهور

٣٢٥ - سنن أبي داود - المكثر [٣/ ١٣٦] (٣٠٥٣) والمسند الجامع [١٨/ ١٣٤٧] (١٥٧٢٦) فيه جهالة

٣٢٦ - الأحاد والثاني [٢/ ٥٢٠] (١٣٣٦) وسنن أبي داود - المكثر [٣/ ١٣٥] (٣٠٥٢) وصحيح الجامع (٧٨٤٠) حسن

وعن الحسن، قال حدث الأَسودُ بنُ سَريعٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ غَزَوَاتٍ فَتَنَاوَلَ أَصْحَابُهُ الذَّرِيَّةَ بَعْدَمَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ثُمَّ تَنَاوَلُوا الذَّرِيَّةَ؟" فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسُوا أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ أَحْبَابَكُمْ أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ أَمَا إِنَّهُ لَيْسَتْ تُوَلَدُ نَسَمَةً إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ فَمَا يَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهَا لِسَانُهَا فَأَبْوَاهَا يُهَوِّدَانَهَا أَوْ يُنَصِّرَانَهَا" ٣٢٧

وعن الحسن، حَدَّثَنَا الْأَسودُ بنُ سَريعٍ وَكَانَ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَعْدِ قَالَ: وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، يَعْنِي الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ، قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ غَزَوَاتٍ، قَالَ: فَتَنَاوَلَ قَوْمٌ الذَّرِيَّةَ بَعْدَ مَا قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَلَا مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ حَتَّى تَنَاوَلُوا الذَّرِيَّةَ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَيْسَ أَبْنَاءُ الْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ حَبِيبَكُمْ أَبْنَاءَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّهَا لَيْسَتْ نَسَمَةً تُوَلَدُ إِلَّا وُلِدَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَمَا تَزَالُ عَلَيْهَا حَتَّى يُبَيِّنَ عَنْهَا لِسَانُهَا، فَأَبْوَاهَا يُهَوِّدَانَهَا وَ يُنَصِّرَانَهَا. ٣٢٨

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ الْجُنُودَ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرُو بْنَ الْعَاصِ وَشُرْحَبِيلَ ابْنَ حَسَنَةَ قَالَ لَمَّا رَكِبُوا مَشَى أَبُو بَكْرٍ مَعَ أَمْرَاءِ جُنُودِهِ يُودِعُهُمْ حَتَّى بَلَغَ نَبِيَّةَ الْوُدَاعِ فَقَالُوا يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَتَمْشِي وَنَحْنُ رُكْبَانٌ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَحْتَسِبُ خَطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ جَعَلَ يُوصِيهِمْ فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ وَلَا تَعْلُوا وَلَا تَعْدِرُوا وَلَا تَجْبُنُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَلَا تَعْصُوا مَا تُؤْمَرُونَ فَإِذَا لَقَيْتُمُ الْعَدُوَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَادْعُوهُمْ إِلَى ثَلَاثِ حِصَالٍ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُوهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَاخْتَارُوا دَارَهُمْ عَلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ فَأَخْبِرُوهُمْ أَنََّّهُمْ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنَائِمِ شَيْءٌ حَتَّى يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَادْعُوهُمْ إِلَى الْجَزَايَةِ فَإِنْ هُمْ فَعَلُوا فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ وَكُفُّوا عَنْهُمْ وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ فَقَاتِلُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَلَا تُعْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُحْرِقْنَهَا وَلَا تَعْفِرُوا بِهِمَةَ وَلَا شَجَرَةَ تُثْمِرُ وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً وَلَا تَقْتُلُوا الْوَالِدَانَ وَلَا الشُّيُوخَ وَلَا النِّسَاءَ

٣٢٧ - شرح مشكل الآثار [١٣/ ٤] (١٣٩٤) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٥٠٠/ ٣] صحيح

٣٢٨ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥٨٤/ ٥] (١٦٣٠٣) ١٦٤١٢ صحيح

وَسَتَجِدُونَ أَقْوَامًا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ فَدَعَوْهُمْ وَمَا حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ وَسَتَجِدُونَ آخَرِينَ
 اتَّخَذَ الشَّيْطَانُ فِي أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ أَفْحَاصًا فَإِذَا وَجَدْتُمْ أَوْلِيكَ فَاضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. ٣٢٩
 وَعَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَعَثَ أُمَّرَاءَ
 الْجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَشُرْحَبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ: "أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى
 اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ، وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَعْدِرُوا وَلَا
 تَجْنُبُوا وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَلَا تُعْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُحْرِقَنَّهَا وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ وَلَا
 تَهْدِمُوا بَيْعَةً ٣٣٠"

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمَّرَاءِ الْأَجْنَادِ أَنْ لَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَأَنْ تَقْتُلُوا مَنْ جَرَتْ
 عَلَيْهِ الْمَوَاسِي. ٣٣١

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، قَالَ: أَتَانَا كِتَابُ عُمَرَ: لَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلَيْدًا وَأَتَقُوا اللَّهَ فِي
 الْفَلَاحِينَ. ٣٣٢

وَعَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ بَعَثَ جُبُوشًا إِلَى الشَّامِ فَخَرَجَ يَتَّبِعُ يَزِيدَ بْنَ أَبِي
 سُفْيَانَ، فَقَالَ: إِنِّي أَوْصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ صَبِيًّا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا
 تُحْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَقْرَةً إِلَّا لِمَا كَلَلَهُ، وَلَا تُعْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تَحْرِقَنَّه وَلَا تَغْلُ، وَلَا
 تَجْنُبَنَّ. ٣٣٣

وَعَنْ مَنصُورِ بْنِ الْمُعْتَمِرِ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَقِيقُ بْنُ سَلَمَةَ الْأَسَدِيُّ، عَنِ الرَّسُولِ الَّذِي جَرَى بَيْنَ عُمَرَ بْنِ
 الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَلَمَةَ بْنِ قَيْسِ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: نَدَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ النَّاسَ مَعَ سَلَمَةَ بْنِ
 قَيْسِ الْأَشْجَعِيِّ بِالْحَرَّةِ إِلَى بَعْضِ أَهْلِ فَارِسَ، وَقَالَ: "انْطَلِقُوا بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ تُقَاتِلُونَ مَنْ
 كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا شَيْخًا هَمًّا، وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى
 الْقَوْمِ فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَهُمْ مِنْكُمْ، فَلَهُمْ مَا لَكُمْ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ أَبَوْا
 فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِلَا جِهَادٍ، فَإِنْ قَبِلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَأَعْلِمَهُمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ، فَإِنْ أَبَوْا

٣٢٩ - السنن الكبرى للبيهقي - المكثر - (٩ / ٨٥) (١٨٥٩٢) صحيح لغيره

الغلل: الخيانة والسرقة - التمثيل: جدد الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - الخصال: جمع خصلة وهي خلق في الإنسان
 يكون فضيلة أو زيلة - الفيء: ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - أبي: امتنع ورفض - الجزية: هي عبارة عن المال الذي
 يُعقد للكاتب عليه الذمة، وهي فِئلة، من الجزاء، كأنها حَزَتْ عن قتله، والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتهم لهم

٣٣٠ - شرح مشكل الآثار - (٣ / ١٤٤) صحيح لغيره

٣٣١ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح

٣٣٢ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩٢) حسن

الغلل: الخيانة والسرقة - التمثيل: جدد الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به

٣٣٣ - مصنف ابن أبي شيبة - (١٧ / ٥٧٤) (٣٣٧٩١) صحيح مرسل

فَادْعُهُمْ إِلَى الْجَزِيَّةِ، فَإِنْ قَبِلُوا فَضَعْ عَنْهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ، وَوَضَعْ فِيهِمْ حَيْشًا يُقَاتِلُ مَنْ وَرَاءَهُمْ، وَخَلِّهِمْ وَمَا وَضَعْتَ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَقَاتِلْهُمْ، فَإِنْ دَعَوْكُمْ إِلَى أَنْ تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا تُعْطُوهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَلَكِنْ أَعْطُوهُمْ ذِمَّةَ أَنْفُسِكُمْ، ثُمَّ قُولُوا لَهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا عَلَيْكُمْ فَقَاتِلْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ " فَلَمَّا قَدِمْنَا الْبِلَادَ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى كُلِّ مَا أَمَرْنَا بِهِ، فَأَبَوْا، فَلَمَّا مَسَّهُمُ الْحَصْرُ نَادَوْنَا: أَعْطُونَا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ مُحَمَّدٍ، فَقُلْنَا: لَا، وَلَكِنَّا نُعْطِيكُمْ ذِمَّةَ أَنْفُسِنَا، ثُمَّ نَفِي لَكُمْ، فَأَبَوْا، فَقَاتَلْنَاهُمْ، فَأُصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا، فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرِفَّةٍ مَا شَاءُوا، ثُمَّ إِنَّ سَلْمَةَ بِنَ قَيْسِ أَمِيرِ الْقَوْمِ دَخَلَ، فَجَعَلَ يَتَخَطَّى بُيُوتَ نَارِهِمْ، فَإِذَا بِسَفْطَيْنِ مُعَلَّقَيْنِ بِأَعْلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ: مَا هَذَانِ السَّفْطَانِ؟ فَقَالُوا: أَشْيَاءُ كَانَتْ تُعْظَمُ بِهَا الْمُلُوكُ بِيُوتِ نَارِهِمْ، فَقَالَ: أَهْبُطُوهُمَا إِلَيَّ، فَإِذَا عَلَيْهِمَا طَوَائِعُ الْمُلُوكِ بَعْدَ الْمُلُوكِ قَالَ: مَا أَحْسَبُهُمْ طَبَعُوا إِلَّا عَلَى أَمْرِ نَفْسٍ، عَلَيَّ بِالْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرَهُمْ خَبَرَ السَّفْطَيْنِ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَفْضَهُمَا بِمَحْضَرٍ مِنْكُمْ، فَفَضَّهُمَا، فَإِذَا هُمَا مَمْلُوءَانِ بِمَا لَمْ يَرَ مِثْلَهُ أَوْ قَالَ: لَمْ أَرَ مِثْلَهُ، فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، قَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَبْلَاكُمْ اللَّهُ فِي وَجْهِكُمْ هَذَا، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَطِيبُوا بِهِدَيْنِ السَّفْطَيْنِ أَنْفُسًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِحَوَائِجِهِ وَأُمُورِهِ وَمَا يَنْتَابُهُ، فَأَجَابُوهُ بِصَوْتِ رَجُلٍ وَاحِدٍ: إِنَّا نَشْهَدُ اللَّهَ أَنَّا قَدْ فَعَلْنَا، وَطَابَتْ أَنْفُسُنَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَعَانِي، فَقَالَ: قَدْ عَاهَدْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحَرَّةِ، وَمَا أَوْصَانَا، وَمَا أَتْبَعْنَا مِنْ وَصِيَّتِهِ وَأَمْرِ السَّفْطَيْنِ، وَطِيبَ أَنْفُسِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِهِمَا، فَأَتِ بِهِمَا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاصْدَفُهُ الْخَبَرَ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ بِمَا يَقُولُ لَكَ، فَقُلْتُ: مَا لِي بَدُّ مِنْ صَاحِبٍ، فَقَالَ: خُذْ بِيَدِ مَنْ أَحْبَبْتَ. فَأَخَذْتُ بِيَدِ رَجُلٍ مِنَ الْقَوْمِ، فَانْطَلَقْنَا بِالسَّفْطَيْنِ نَهْضُهُمَا حَتَّى قَدِمْنَا بِهِمَا الْمَدِينَةَ، فَاجْلَسْتُ صَاحِبِي مَعَ السَّفْطَيْنِ، وَأَنْطَلَقْتُ أُطَلِّبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِذَا بِهِ يُعَدِّي النَّاسَ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَّازٍ وَهُوَ يَقُولُ: " يَا يَرْفَأُ، ضَعْ هَاهُنَا، يَا يَرْفَأُ، ضَعْ هَاهُنَا "، فَجَلَسْتُ فِي عَرْضِ الْقَوْمِ لَا أَكُلُ شَيْئًا فَمَرَّ بِي، فَقَالَ: " أَلَا تُصِيبُ مِنَ الطَّعَامِ؟ " فَقُلْتُ: لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، فَرَأَى النَّاسَ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ يَدُورُ فِيهِمْ، فَقَالَ: " يَا يَرْفَأُ، خُذْ خُونَكَ وَقِصَاعَكَ "، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاتَّبَعْتُهُ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُ طَرِيقَ الْمَدِينَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى دَارِ قُورَاءَ عَظِيمَةَ، فَدَخَلَهَا، فَدَخَلْتُ فِي إِثْرِهِ، ثُمَّ انْتَهَى إِلَى حُجْرَةٍ مِنَ الدَّارِ فَدَخَلَهَا، فَقُمْتُ مَلِيًّا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَمَكَّنَ فِي مَجْلِسِهِ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: " وَعَلَيْكَ، فَادْخُلْ "، فَدَخَلْتُ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى وَسَادَةٍ مُرْتَفِعًا أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى نَبْدَ إِلَيَّ الَّتِي كَانَ مُرْتَفِعًا، فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ تَعْرِزُنِي، فَإِذَا حَشَوَهَا لَيْفًا، قَالَ: " يَا حَارِيَةَ، أَطْعَمِينَا "، فَجَاءَتْ بِقِصْعَةٍ فِيهَا قِدْرٌ مِنْ خُبْزِ يَابَسٍ، فَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا، مَا فِيهِ مِلْحٌ وَلَا خَلٌّ، فَقَالَ: " أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ رَاضِيَةً أَطْعَمْتَنَا أَطِيبَ مِنْ هَذَا "، فَقَالَ لِي: " ادْنُ "، فَدَنَوْتُ، قَالَ: فَذَهَبَتْ أَتَنَاوَلُ مِنْهَا قِدْرَةً، فَلَا وَاللَّهِ إِنْ اسْتِطَعْتُ أَنْ أُجِيزَهَا، فَجَعَلْتُ أَلُو كُهَا مَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ، وَمَرَّةً مِنْ ذَا الْجَانِبِ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى أَنْ أُسِيعَهَا، وَأَكَلُ أَحْسَنَ النَّاسِ إِكْلَةً، إِنْ يَتَعَلَّقُ لَهُ طَعَامٌ بِثُوبٍ أَوْ شَعْرٍ، حَتَّى رَأَيْتَهُ يَلْطَعُ جَوَانِبَ

الْقَصَّةَ، ثُمَّ قَالَ: " يَا جَارِيَّةُ، اسْقِينَا "، فَجَاءَتْ بِسَوِيْقٍ سُلَّتْ، فَقَالَ: " أَعْطِيهِ "، فَنَاولَتْنِيهِ، فَجَعَلْتُ إِذَا أَنَا حَرَكَتُهُ ثَارَتْ لَهُ قُشَارٌ، وَإِن أَنَا تَرَكْتُهُ تَنَدَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ قَدْ بَشَعْتُ ضَحْكَ، فَقَالَ: " مَا لَكَ أَرْنِيهِ إِنْ شِئْتَ "، فَنَاولْتُهُ، فَشَرِبَ حَتَّى وَضَعَ عَلَى جَبْهَتِهِ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا، وَسَقَانَا فَأَرَوَانَا، وَجَعَلَنَا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ "، فَقُلْتُ: قَدْ أَكَلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَشَبِعَ، وَشَرِبَ فَرَوَى، حَاجَتِي جَعَلَنِي اللَّهُ فَدَاكَ - قَالَ شَقِيقٌ: وَكَانَ فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ أَيَّامِي ثَلَاثَةٌ أَيْمَانٍ، هَذَا فِي مَوْضِعٍ مِنْهَا مَا قَالَ: لِلَّهِ أَبُوكَ فَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: رَسُولُ سَلْمَةَ بِنِ فَيْسَ قَالَ: فَتَاللَّهِ، لَكَأَنَّ مَا خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِهِ تَحْنُنًا عَلَيَّ، وَحُبًّا لِخَبْرِي عَمَّنْ جِئْتُ مِنْ عِنْدِهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ يَزْحَفُ إِلَيَّ: إِيهًا لِلَّهِ أَبُوكَ، كَيْفَ تَرَكْتَ سَلْمَةَ بِنَ فَيْسَ؟ كَيْفَ الْمُسْلِمُونَ؟ مَا صَنَعْتُمْ؟ كَيْفَ حَالِكُمْ؟ قُلْتُ: مَا تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاقْتَصَصْتُ عَلَيْهِ الْخَبَرَ إِلَى أَنَّهُمْ نَاصِبُونَ الْقِتَالَ، فَأُصِيبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَرْجَعَ وَبَلَغَ مِنْهُ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَتَرَحَّمَ عَلَى الرَّجُلِ طَوِيلًا، قُلْتُ: ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَحًا عَظِيمًا فَمَلَأَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْ مَتَاعٍ وَرَقِيقٍ وَرَقِيقَةٍ مَا شَاءُوا قَالَ، وَيَحْكَ كَيْفَ اللَّحْمُ بِهَا؟ فَإِنَّهَا شَجَرَةٌ الْعَرَبِ، وَلَا تَصْلُحُ الْعَرَبُ إِلَّا بِشَجَرَتِهَا، قُلْتُ: الشَّاةُ بِدَرَهْمَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: " اللَّهُ أَكْبَرُ "، ثُمَّ قَالَ: وَيَحْكَ هَلْ أُصِيبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ آخَرُ؟ قَالَ: جِئْتُ إِلَى ذِكْرِ السَّفَطِينِ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبْرَهُمَا، فَحَلَفَ الرَّسُولُ عِنْدَهَا يَمِينًا أُخْرَى، اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَكَأَنَّ مَا أُرْسِلَتْ عَلَيْهِ الْأَفَاعِي وَالْأَسَاوِدُ وَالْأَرَاقِمُ أَنْ وَتَبَّ كَمَكَانِ تَيْكَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ آخِذًا بِحَقْوَتِهِ فَقَالَ: لِلَّهِ أَبُوكَ وَعَلَامٌ يَكُونَانِ لِعُمَرَ؟ وَاللَّهِ لَيْسَتْ قَبْلَنَ الْمُسْلِمُونَ الظُّمَاءَ وَالْجُوعَ وَالْخَوْفَ فِي نُحُورِ الْعَدُوِّ، وَعُمَرُ يَعْدُو مِنْ أَهْلِهِ وَيَرُوحُ إِلَيْهِمْ يَتَّبِعُ أَفْيَاءَ الْمَدِينَةِ، أَرْجِعْ بِمَا جِئْتَ بِهِ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ أُنْدَعُ بِي وَبِصَاحِبِي فَاحْمِلْنَا قَالَ: لَا، وَلَا كَرَامَةَ لِلْآخِرِ مَا جِئْتَ بِمَا أُسْرُ بَعَهُ فَأَحْمَلْكَ، قُلْتُ: يَا لِعِبَادِ اللَّهِ أَيْتَرُكَ رَجُلٌ بَيْنَ أَرْضَيْنِ؟ قَالَ: أَمَا لَوْلَا قُتَّتْهَا يَا يَرْفَأُ انْطَلِقْ بِهِ فَاحْمِلْهُ وَصَاحِبَهُ عَلَى نَافَتَيْنِ ظَهْرَيْنِ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ، ثُمَّ انْخَسِرْ بِهِمَا حَتَّى تُخْرِجَهُمَا مِنَ الْحَرَّةِ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيَّ فَقَالَ: أَمَا لئنُ شَتَا الْمُسْلِمُونَ فِي مَشَاتِيهِمْ قَبْلَ أَنْ يُفْسَمَا بَيْنَهُمْ لِأَعْدَرِنَ مِنْكَ وَمِنْ صُويْحِبِكَ، ثُمَّ قَالَ: إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى الْبِلَادِ فَانْظُرْ أَحْوَجَ مَنْ تَرَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَادْفَعْ إِلَيْهِ النَّاقَتَيْنِ، فَأَتَيْنَاهُ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: ادْعُ لِي الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا جَاءُوا قَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ وَفَرَكَمُ بِسَفَطِيكُمْ، وَرَأَكُمْ أَحَقَّ بِهِمَا مِنْهُ، فَاقْتَسِمُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَقَالُوا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّهُ يَنْبَغِي لِهَمَّا بَصْرٌ وَتَقْوِيمٌ وَقِسْمَةٌ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَبْرَحُونَ وَأَنْتُمْ تَطْلُبُونِي مِنْهَا بِحَجَرٍ، فَعَدَّ الْقَوْمَ وَعَدَّ الْحِجَارَةَ فَرُبَّمَا طَرَحُوا إِلَى الرَّجُلِ الْحَجَرَيْنِ، وَفَلَقُوا الْحَجَرَ بَيْنَ اثْنَيْنِ " ۳۳۴

۳۳۴ - سنن سعيد بن منصور - (۶ / ۱۱) (۲۲۹۹) حسن

الغلول: الخيانة والسرقة - التمثيل: جدد الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به - أبي: امتنع ورفض - الفيء: ما يؤخذ من العدو من مال ومتاع بغير حرب - الجزية: هي عبارة عن المال الذي يُعقد للكاتب عليه الذمة، وهي فِعْلَةٌ، من الجزاء، كأنها جَزَتْ عن قتله، والجزية مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحماتها لهم - الذمة والذمام: العهد، والأمان، والضمان، والحُرْمَةُ، والحق - أبي: رفض وامتنع

وعن حيوة بن شريح: أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث أميراً أو صاهم بتقوى الله وقال عند عقدة الولاية: بسم الله وعلى عون الله وامضوا بتأييد الله والنصر ولزوم الحق والصبر، وقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ثم لا تجبنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تنكلوا عند الجهاد ولا تقتلوا امرأة ولا هرماً ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات، ولا تغلوا عند الغنائم ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم وذلك هو الفوز العظيم^{٣٣٥}

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعدائه، وفي آدابه الرفيعة، وفي الرعاية لكرامة الإنسان. وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وفي اليسر الذي يعامل به حتى أعداءه. أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة، غير المحاربين أصلاً وليست تمثيلاً بالجثث والأشلاء على طريقة المتبررين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان. وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين، واحترام بشرية المحاربين. إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميم المعركة وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالرحمة والرافة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب، بقدر ما تقتضي حالة الحرب، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل.^{٣٣٦}



- التخلل: التحرك والتنقل بين شيئين - في إثره: بعده - ملياً: وقتاً طويلاً - النبذ: الرمي والطرح - القصعة: وعاء يؤكل ويُفرد فيه وكان يتخذ من الخشب غالباً - الدنو: الاقتراب - الجارية: الأمة المملوكة أو الشابة من النساء - السويق: طعام يصنع من دقيق القمح أو الشعير يخلطه بالسمن والعسل - السُلت: ضُرب من الشعير أبيض لا قشر له، وقيل هو نوعٌ من الحنطة - إيه: هذه كلمة يراد بها الاستزادة، وهي مبنية على الكسر، فإذا وصلتْ نَوَّنتْ فقلتْ إيه حَدَّثْنَا، وإذا قلتْ إيهَا بالنصب فإئماً تأمره بالسكوت أو العكس - المتاع: كل ما يُنتَفَعُ به وَيُسْتَمْتَعُ، أو يُتَبَلَّغُ به وَيُزَوَّدُ من سلعة أو مال أو زوج أو أئاث أو ثياب أو مأكَل وغير ذلك - ويح: كلمة تُرْحَمُ وتَوَجَّعُ، تقال لمن وَقَعَ في هَلَكَةٍ لا يَسْتَجِئُهَا. وقد يقال بمعنى المدح والتعجب - الشاة: الواحدة من الغنم وقيل: الواحدة من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحُمُر الوحش - في نحر العدو: في مقابلته وقتاله - العُدُو: السير أول النهار - أْبَدَعَ بفلان: عطبت راحلته وكَلَّتْ وبقي بعيداً عن الرفاق - الإبل: الجمال والنوق ليس له مفرد من لفظه - مشاتهم: مواضعهم وأماكنهم - برح المكان: زال عنه وغادره

^{٣٣٥} - جامع الأحاديث - (٢٦ / ١٦٣) (٢٨٧٩٦) وفيه ضعف

^{٣٣٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٦٦)

٥٦. الأمر بالركوع والسجود والعبادة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) } سورة الحج

يأمر الله المؤمنين بعبادته، وبإقامة الصلاة، وبالركوع والسجود له، وبفعل الخير، لعل ذلك يوصلهم إلى الخير، لعل ذلك يوصلهم إلى الخير والفلح في الدنيا والآخرة

يأمر الله المؤمنين بالجهاد وأخلصه: بالأموال والأنفس والألْسنة، فقد اصطفى الله المؤمنين من هذه الأمة، واختارهم على من سواهم، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، ولم يضيق الله عليهم في شيء من أمور دينهم، بل وسع عليهم، في شيء من أمور دينهم، بل وسع عليهم، كما وسع في ملة إبراهيم عليهم في شيء من أمور دينهم، بل وسع عليهم، كما وسع في ملة إبراهيم عليه السلام (ونصب ملة) على تقدير الزموا ملة إبراهيم، وقد سمأهم الله تعالى بالمسلمين في شرع إبراهيم وفي الكتب المتقدمة، وفي هذا القرآن (من قبل وفي هذا). وقد جعل الله المسلمين أمة وسطاً عدولاً ليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة، لأن الناس جميعاً يعترفون بفضل المسلمين في ذلك اليوم، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم، في أن الرسل أبلغتهم رسالة أبلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه أبلغها ما أوحاه الله إليه، فليقبل المسلمون هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكر الله عليها، وأداء حق الله فيما فرضه عليهم، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة وأداؤها حقاً، ودفع الزكاة، والاعتصام بالله، والاستعانة به، والاتكال عليه، فهو مولاهم وحافظهم وناصرهم، وهو نعم المولى ونعم النصير على الأعداء^{٣٣٧}.

وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها، ويقرر مكانها الذي قدره لها، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل، متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله.

إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود. وهما ركنا الصلاة البارزان. ويكفي عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة، وحركة ظاهرة في التعبير، ترسمها مشهدا شاخصا، وهيئة منظورة. لأن التعبير على هذا النحو أوقع أثرا وأقوى استجابة للشعور^{٣٣٨}.

^{٣٣٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٥٥٢، بتقييم الشاملة آليا)

^{٣٣٨} - يراجع فصل: «طريقة القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

ويثني بالأمر العام بالعبادة. وهي أشمل من الصلاة. فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله. فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله. حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات. وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات، ولم يتحول في طبيعتها شيء، ولكن تحول القصد منها والاتجاه! ويحتم بفعل الخير عامة، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة.

يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح. فهذه هي أسباب الفلاح.. العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل. وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة، الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه.

فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة، فاستقام ضميرها واستقامت حياتها.. نهضت بالتبعية الشاقة: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».. وهو تعبير شامل جامع دقيق، يصور تكليفا ضخما، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد..

«وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».. والجهد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد.. كلها سواء.. «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».. فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباده: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ».. وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! وهو تكليف محفوف برحمة الله: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ».. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته. ملحوظ فيه تليته تلك الفطرة. وإطلاق هذه الطاقة، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء. فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم. ولا تنطلق انطلاق الحيوان العشيم!

وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية، موصول الماضي بالحاضر: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - فلم تنقطع من الأرض، ولم تفصل بينها فجوات مضیعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات قبل إبراهيم عليه السلام. وقد سمى الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين. سماها كذلك من قبل وسمها كذلك في القرآن: «هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا»..

والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك. فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات. حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد - ﷺ - وحتى سلمت إليها الأمانة، وعهد إليها بالوصاية على البشرية. فاتصل ماضيها بحاضرها. بمستقبلها كما أرادها الله: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».. فالرسول - ﷺ - يشهد على هذه الأمة، ويحدد

لنهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها. وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبياها وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة. ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج، المختار من الله.

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبقته في حياتها الواقعية. حتى إذا انحرفت عنه، وتخلت عن تكاليفه، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة. وما تزال. ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله.

هذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد.. ومن ثم يأمرها القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبَدِّلْ دِينَهُ ۚ وَلَا يَسْمَعُ لِسَئِرِ الْمُشْرِكِينَ ۚ سَخِرَ لَكُمْ فِيهِمْ ۚ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَنْقُولَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَيْنَا ۚ بَلِ لَعُنَ الْأَعْيُنُ الَّتِي سَأَلَتْهُمْ ۚ فَهُمْ لَا يَخْبِرُونَ ۗ».. فالصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزيادة. والزكاة صلة الجماعة ببعضها ببعض والتأمين

من الحاجة والفساد. والاعتصام بالله العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد. بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية التي اجتباها لها الله. وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض. والقرآن الكريم لا يغفل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها. ولكن مع حشد القوى والطاقات والزيادة الذي لا ينفد، والذي لا يملكه إلا المؤمنون بالله. فيوجهون به الحياة إلى الخير والصلاح والاستعلاء.

إن قيمة المنهج الإلهي للبشرية أنه يمضي بها قدما إلى الكمال المقدر لها في هذه الأرض ولا يكتفي بأن يقودها للذائد والمتاع وحدهما كما تقاد الأنعام.

وإن القيم الإنسانية العليا لتعتمد على كفاية الحياة المادية، ولكنها لا تقف عند هذه المداخل الأولى. وكذلك يريد الإسلام في كنف الوصاية الرشيدة، المستقيمة على منهج الله في ظل الله..^{٣٣٩}



^{٣٣٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣١٦٨)

٥٧. النهي عن اتباع خطوات الشيطان

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (٢١) سورة النور

يَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَلَّا يَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَسَالِكِهِ، وَمَا يَأْمُرُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ، وَالشَّيْطَانُ إِنَّمَا يَأْمُرُ أَوْلِيَاءَهُ بِفِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَإِشَاعَتِهَا وَارْتِكَابِ الْمُنْكَرَاتِ، فَمَنْ اتَّبَعَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ جَرَّهُ إِلَى ارْتِكَابِ هَذِهِ الْمُؤَبَقَاتِ. وَلَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ التَّوْبَةَ، وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ، وَيُزَكِّي بِهَا النَّفُوسَ وَيُطَهِّرُهَا مِنْ شَرِّهَا وَفُجُورِهَا وَدَنَسِهَا، لَمْ تَطَهَّرْ مِنْكُمْ أَحَدٌ مِنْ ذَنْبِهِ، وَلَكَانَتْ عَاقِبَتُهُ النَّكَالَ وَالْوَبَالَ، وَلَعَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِ الْعِبَادِ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمْ الْهُدَايَةَ فَيَهْدِيهِ .^{٣٤٠}

وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أحدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقا غير طريقة المشئوم! صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله!

ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية: «وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» .. وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه. وهو نموذج منفر شنيع.

وإن الإنسان لضعيف، معرض للترعات، عرضة للتلوث. إلا أن يدركه فضل الله ورحمته. حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه. «وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ» .. فنور الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكيه. ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر. والله يسمع ويعلم، فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» .. وعلى ذكر التزكية والطهارة تحيء الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض - كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب - : «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا. أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ..

^{٣٤٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٦٩٤، بترقيم الشاملة آليا)

نزلت في أبي بكر - رضي الله عنه - بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة. وقد عرف أن مسطح بن أثاثه كان ممن خاضوا فيه. وهو قريبه. وهو من فقراء المهاجرين. وكان أبو بكر - رضي الله عنه - ينفق عليه. فألى على نفسه لا ينفق مسطحاً بِنَافِعَةِ أَبَدَا.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: وَلَا يَأْتَلِ يَعْنِي: وَلَا يَحْلِفُ، أَوْ لَوْ الْفَضْلُ مِنْكُمْ يَعْنِي: فِي الْغِنَى، وَالسَّعَةِ فِي الرِّزْقِ، يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا يَعْنِي: وَيَتَجَاوَزُوا عَنْ مِسْطَحٍ، أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى مِسْطَحَ بْنِ أَثَاثَةَ فَإِنَّهُ قَرَابَةُ أَبِي بَكْرٍ ابْنُ خَالَتِهِ، لِأَنَّ مِسْطَحًا كَانَ فَقِيرًا، وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، أَلَا تُحِبُّونَ يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ، أَنْ يَعْفَرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ يَعْنِي: عَفُورٌ لِلذُّنُوبِ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: "أَمَا تُحِبُّ أَنْ يَعْفَرَ اللَّهُ لَكَ؟"، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَاعْفُ وَاصْفَحْ"، قَالَ: قَدْ عَفَوْتُ وَصَفَحْتُ لَا أَمْنَعُهُ مَعْرُوفًا بَعْدَ الْيَوْمِ" ٣٤١.

نزلت هذه الآية تذكر أبا بكر، وتذكر المؤمنين، بأنهم هم يخطئون ثم يجبون من الله أن يغفر لهم. فليأخذوا أنفسهم - بعضهم مع بعض - بهذا الذي يجبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقه، إن كانوا قد أخطأوا وأساءوا.. وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله. أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه. فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى: «أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَعْفَرَ اللَّهُ لَكُمْ؟» حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيعة.

وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله. فإذا هو يلي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: والله لا أنزعها منه أبداً. ذلك في مقابل ما حلف: والله لا أنفعه بِنَافِعَةِ أَبَدَا.

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبداً نظيفاً طاهراً زكياً مشرقاً بالنور.. ٣٤٢



٣٤١ - الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ لِلطَّبْرَانِيِّ << (١٧٩٤٢) صحيح مرسل

٣٤٢ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٣١)

٥٨. النهي عن دخول بيوت الآخرين إلا بإذن

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) } سورة النور
يُؤَدِّبُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فَيَأْمُرُهُمْ بِالْإِسْتِئْذَانِ وَبِالسَّلَامَةِ إِذَا دَخَلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِهِمْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا قَبْلَ الدُّخُولِ (يَسْتَأْذِنُوا)، وَيُسَلِّمُوا بَعْدَ الْإِسْتِئْذَانِ، وَيَتَّبِعِي أَنْ يَسْتَأْذِنُوا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِذَا أُذِنَ لَهُمْ دَخَلُوا وَإِلَّا انْصَرَفُوا، فَلَا اسْتِئْذَانَ خَيْرٌ لِلْمَسْتَأْذِنِ وَالْأَهْلِ الْبَيْتِ، فَالْبَيْتُ سَكْنٌ يَفِيءُ إِلَيْهِ النَّاسُ فَتَسْكُنُ أَرْوَاحُهُمْ، وَيَطْمَئِنُّونَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ وَحُرْمَاتِهِمْ، وَيَلْقَوْنَ عَنْهُمْ أَعْبَاءَ الْحَرَصِ وَالْحَذَرِ الْمُرْهَقَةِ لِلنَّفْسِ وَالْأَعْصَابِ، وَالْبُيُوتُ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا تَكُونُ حَرَمًا آمِنًا لَا يَسْتَبِيحُهُ أَحَدٌ إِلَّا بِعِلْمِ أَهْلِهِ وَإِذْنِهِمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُونَ هُمْ .

(وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَدْخُلُونَ بَدُونِ اسْتِئْذَانٍ) ثُمَّ يَقُولُونَ لَقَدْ دَخَلْنَا .

فَإِذَا لَمْ يَجِدُوا فِي هَذِهِ الْبُيُوتِ أَحَدًا يَأْذَنُ لَهُمْ بِالْدُّخُولِ إِلَيْهَا، كَانَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَدْخُلُوهَا، وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْبَيْتِ فِيهِ، وَلَمْ يَأْذِنُوا بِالْدُّخُولِ، كَانَ عَلَى الزَّائِرِ الْإِنْصِرَافَ، وَلَيْسَ لَهُ الدُّخُولُ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَعْضَبَ، أَوْ يَسْتَشْعَرَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِ، أَوْ التُّفْرَةَ مِنْهُ، فَلِلنَّاسِ، أَسْرَارُهُمْ وَأَعْذَارُهُمْ وَيَجِبُ أَنْ يَتْرَكَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ حَقَّ تَقْدِيرِ ظُرُوفِهِمْ. وَاللَّهُ هُوَ الْمُطَّلِعُ عَلَى خَفَايَا الْقُلُوبِ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِالذَّوَالِغِ .

وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَعْدَّةٍ لِسُكْنَى قَوْمٍ مُعَيَّنِينَ، وَلَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ، كَالْحَمَّامَاتِ، وَالْفَنَادِقِ، وَالْحَانَاتِ الْمَعْدَّةِ لِاسْتِقْبَالِ الْعَامَّةِ، فَإِذَا أُذِنَ لِلزَّائِرِ أَوَّلَ مَرَّةٍ كَفَى، وَرَقَابَتَهُ عَلَى سَرَائِرِكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، وَفِي هَذِهِ الرِّقَابَةِ ضَمَانَةٌ لِطَاعَةِ الْقُلُوبِ وَامْتِثَالِهَا لِلأَدَبِ الَّذِي يُؤَدِّبُهَا بِهِ اللَّهُ

٣٤٣

لقد جعل الله البيوت سكنا، يفىء إليها الناس فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم ويأمنون على عوراتهم وحرماهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب! والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا لا يستبيحها أحد إلا بعلم أهله وإذنه. وفي الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يجوبون أن يلحقوا عليها الناس.

٣٤٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

ذلك إلى أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع على عورات، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات، وهبئى الفرصة للغواية، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات.

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجوما، فيدخل الزائر البيت، ثم يقول: لقد دخلت! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراها عليها أحد. وكان يقع أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة، هي أو الرجل. وكان ذلك يؤذي ويجرح، ويحرم البيوت أمنها وسكيتها كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة، حين تقع العين على ما يثير.

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي. أدب الاستئذان على البيوت. والسلام على أهلها لإيناسهم، وإزالة الوحشة من نفوسهم، قبل الدخول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» ..

ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس - وهو تعبير يوحي بلطف الاستئذان، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسابه، واستعدادا لاستقباله. وهي لفظة دقيقة لطيفة، لرعاية أحوال النفوس، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ويجرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار.

وبعد الاستئذان إما أن يكون في البيوت أحد من أهلها أو لا يكون. فإن لم يكن فيها أحد فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان، لأنه لا دخول بغير إذن: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ» .. وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول وإنما هو طلب للإذن. فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك. ويجب الانصراف دون تلوؤ ولا انتظار: «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ: ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ» .. ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة. ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم، أو النفرة منكم. فللناس أسرارهم وأعدارهم. ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملايساتهم في كل حين. «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» .. فهو المطلع على خفايا القلوب وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات. فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن، فلا حرج في الدخول إليها بغير استئذان، دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ» .. «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ» .. فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم ورقابته لكم في سركم وعلايتكم. وفي هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب، وامتنانها لذلك الأدب العالي، الذي يأخذها الله به في كتابه، الذي يرسم للبشرية نهجها الكامل في كل اتجاه.

إن القرآن منهاج حياة. فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية، ويمنحها هذه العناية، لأنه يعالج الحياة كلياً وجزئياً، لينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية العليا بهذا العلاج. فالاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابة وسكناً. ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة، والضيق بالمباغنة، والتأذي بانكشاف العورات.. وهي عورات كثيرة، تعني غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة.. إنها ليست عورات البدن وحدها. إنما تضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات الأثاث، التي قد لا يجب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتحمّل وإعداد. وهي عورات المشاعر والحالات النفسية، فكم منا يجب أن يراه الناس وهو في حالة ضعف يبكي لانفعال مؤثر، أو يغضب لشأن مثير، أو يتوجع لآلم يخفيه عن الغرباء؟! وكل هذه الدقائق يراها المنهج القرآني بهذا الأدب الرفيع، أدب الاستئذان ويرعى معها تقليل فرص النظرات السانحة والالتقاءات العابرة، التي طالما أيقظت في النفوس كامن الشهوات والرغبات وطالما نشأت عنها علاقات ولقاءات، يدبرها الشيطان، ويوجهها في غفلة عن العيون الراحية، والقلوب الناصحة، هنا أو هناك! ولقد وعاهها الذين آمنوا يوم خوطبوا بها أول مرة عند نزول هذه الآيات. وبدأ بها رسول الله - عليه الصلاة والسلام.

عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: زَارَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْزِلِنَا، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ قَالَ: فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيًّا، قَالَ قَيْسٌ: فَقُلْتُ: أَلَا تَأْذَنُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: ذَرَّهُ يُكْثِرْ عَلَيْنَا مِنَ السَّلَامِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيًّا، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَتْبَعَهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ، وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَدًّا خَفِيًّا لِنُكْتَرِ عَلَيْنَا مِنَ السَّلَامِ، قَالَ: فَانصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغُسْلِ فَوْضِعٍ، فَاعْتَسَلَ، ثُمَّ نَاوَلَهُ، أَوْ قَالَ: نَاوَلُوهُ، مِلْحَفَةً مَصْبُوعَةً بِزَعْفَرَانٍ، وَوَرَسٍ فَاشْتَمَلَ بِهَا، ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: ثُمَّ أَصَابَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمَّا أَرَادَ الْانصِرَافَ قَرَّبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ حَمَارًا قَدْ وَطَأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ، فَارْكَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا قَيْسُ، اصْحَبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ قَيْسٌ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ارْكَبْ فَأَبَيْتُ، ثُمَّ قَالَ: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ قَالَ: فَانصَرَفْتُ. ٣٤٤.

وعن أنس، أو غيره، أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة، فقال: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَ سَعْدٌ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَلَمْ يُسْمِعِ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَعْدٌ ثَلَاثًا، وَلَمْ يُسْمِعْهُ فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَتْبَعَهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَةً إِلَّا هِيَ بِأُذُنِي، وَكَلَّدَتْ رَدَدَتْ عَلَيْكَ وَلَمْ أُسْمِعْكَ، أَحْبَبْتُ أَنْ أُسْتَكْتَرَ مِنْ سَلَامِكَ، وَمِنْ الْبَرَكَةِ، ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْبَيْتَ فَقَرَّبَ لَهُ زَبِيًّا، فَأَكَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: أَكَلْتُ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ. ٣٤٥.

٣٤٤ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣٣٢/ ٥] (١٥٤٧٦) ١٥٥٥٥ حسن لغيره يشهد له ما بعده

٣٤٥ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣٥٦/ ٤] (١٢٤٠٦) ١٢٤٣٣ صحيح - زيادة مني

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ بِتَلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ عَنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوْ الْأَيْسَرِ، يَقُولُ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ"، وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ يَوْمَعُدَّ عَلَيْهَا سِتُورٌ" ٣٤٦ .
 وروى أبو داود عَنْ هُزَيْلٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ - قَالَ عُثْمَانُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ - فَوَقَفَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ ﷺ - يَسْتَأْذِنُ فَقَامَ عَلَى الْبَابِ - قَالَ عُثْمَانُ مُسْتَقْبِلَ الْبَابِ - فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ - « هَكَذَا عَنَّكَ أَوْ هَكَذَا فَإِنَّمَا الْإِسْتِذَانُ مِنَ النَّظَرِ » ٣٤٧ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ عَلَيْكَ فِي بَيْتِكَ، فَحَذَفْتُهُ بِحَصَاةٍ، فَفَقَّاتَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ. ٣٤٨

وفي الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قَالَ « لَوْ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَحَذَفْتُهُ بِحَصَاةٍ فَفَقَّاتَ عَيْنَهُ مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ » ٣٤٩ .

وروى أبو عن رِبْعِيٍّ قَالَ حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ - وَهُوَ فِي بَيْتٍ فَقَالَ أَلْجُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ - لِخَادِمِهِ « اخْرُجْ إِلَيَّ هَذَا فَعَلَّمَهُ الْإِسْتِذَانَ فَقُلْ لَهُ قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ » . فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ - فَدَخَلَ. ٣٥٠ .

وقال مُجَاهِدٌ: " جَاءَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ حَاجَةٍ وَقَدْ آذَاهُ الرَّمْضَاءُ، فَأَتَى فُسْطَاطَ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَقَالَتْ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ فَأَعَادَتْ، فَأَعَادَتْ، وَهُوَ يُرَاحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ قَالَ: قُولِي ادْخُلْ قَالَتْ: ادْخُلْ فَدَخَلَ " ٣٥١

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: اسْتَأْذِنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى أُمِّي؟ فَقَالَ: « نَعَمْ ». فَقَالَ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ فَقَالَ: « اسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا ». فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا فَقَالَ: « أَتَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ». قَالَ: لَا قَالَ: « فَاسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا » ٣٥٢ .

وعن ابن جُرَيْجٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبِيعٍ يَخْبِرُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: ثَلَاثُ آيَاتٍ قَدْ جَحَدَهُنَّ النَّاسُ، قَالَ اللَّهُ: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) قَالَ: وَيَقُولُونَ: إِنْ أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَكْرَمَهُمْ شَأْنًا، قَالَ: وَالْإِذْنَ كُلَّهُ قَدْ جَحَدَهُ النَّاسُ، فَقُلْتُ لَهُ: اسْتَأْذِنَ عَلَى أَخَوَاتِي، أَيَّتَامٌ فِي حَجْرِي، مَعِيَ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ فَرَدَدْتُ عَلَى مَنْ حَضَرَنِي، فَأَبَى، قَالَ: أَتَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟ قُلْتُ: لَا قَالَ: فَاسْتَأْذِنَ، فَرَاغَتْهُ أَيْضًا، قَالَ: أَتَحِبُّ أَنْ تَطِيعَ اللَّهَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْتَأْذِنَ، فَقَالَ لِي سَعِيدُ بْنُ

٣٤٦ - شعب الإيمان [١١ / ٢٢٠] (٨٤٣٧) صحيح

٣٤٧ - سنن أبي داود - المكثر [٤ / ٥٠٩] (٥١٧٦) صحيح

٣٤٨ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣ / ٥٢٥] (٩٥٢٥) ٩٥٢١ صحيح

٣٤٩ - صحيح البخارى - المكثر [٢٢ / ٤٦٤] (٦٨٨٨) و صحيح مسلم - المكثر [١٤ / ٣٠٥] (٥٧٦٩) حذف: روى بالخصى

٣٥٠ - سنن أبي داود - المكثر [٤ / ٥١٠] (٥١٧٩) صحيح

٣٥١ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٩ / ١٤٦] (٢٣٦٦٩) صحيح

٣٥٢ - السنن الكبرى للبيهقي - المكثر [٧ / ٩٧] (١٣٩٤٢) صحيح مرسل

جُبَيْر: إنك لتردد عليه، قلت: أردت أن يرحص لي..^{٣٥٣} وجاء في الصحيح عَنْ جَابِرٍ قَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ أَوْ يَلْتَمِسُ عَشْرَاتِهِمْ. ^{٣٥٤}.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا قَالَ: أَمْهَلُوا حَتَّى تَمْتَشِطَ الشَّعْتَةُ، وَتَسْتَحِدَّ الْمَغِيْبَةُ. ^{٣٥٥}.

إلى هذا الحد من اللطف والدقة بلغ حس رسول الله ﷺ - وصحابته، بما علمهم الله من ذلك الأدب الرفيع الوضيء، المشرق بنور الله.

ونحن اليوم مسلمون، ولكن حساسيتنا بمثل هذه الدقائق قد تبدلت وغلظت. وإن الرجل ليهجم على أخيه في بيته، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار، يطرقه ويطرقة فلا ينصرف أبدا حتى يزعج أهل البيت فيفتحوا له. وقد يكون في البيت هاتف «تليفون» يملك أن يستأذن عن طريقه، قبل أن يجيء، ليؤذن له أو يعلم أن الموعد لا يناسب ولكنه يهمل هذا الطريق ليهجم في غير أوان، وعلى غير موعد. ثم لا يقبل العرف أن يرد عن البيت - وقد جاء - مهما كره أهل البيت تلك المفاجأة بلا إخطار ولا انتظار! ونحن اليوم مسلمون، ولكننا نطرق إخواننا في أية لحظة في موعد الطعام. فإن لم يقدم لنا الطعام وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئا! ونطرقهم في الليل المتأخر، فإن لم يدعونا إلى المبيت عندهم وجدنا في أنفسنا من ذلك شيئا! دون أن نقدر أذارهم في هذا وذاك! ذلك أننا لا نتأدب بأدب الإسلام ولا نجعل هوانا تبعا لما جاء به رسول الله ﷺ - إنما نحن عبيد لعرف خاطيء، ما أنزل الله به من سلطان! ونرى غيرنا ممن لم يعتنقوا الإسلام، يحافظون على تقاليد في سلوكهم تشبه ما جاء به ديننا ليكون أدبا لنا في النفس، وتقليدا من تقاليدنا في السلوك. فيعجبنا ما نراهم عليه أحيانا وتندبر به أحيانا. ولا نحاول أن نعرف ديننا الأصيل، فنفيء إليه مطمئنين. ^{٣٥٦}.



^{٣٥٣} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٩/ ١٤٨] صحيح موقوف

^{٣٥٤} - صحيح مسلم - المكثر [١٣/ ١٠] (٥٠٧٨) يطرق: يأتي

^{٣٥٥} - صحيح ابن حبان [٦/ ٤٢٩] (٢٧١٤) صحيح - تَمْتَشِطُ: تتطيب من الشعر الداخلي.

^{٣٥٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٣٦)

٥٩. وجوب الاستئذان داخل البيوت

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) } سورة النور

هذه الآية تشتمل آداب الاستئذان بين الأقارب بعضهم على بعض، فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين، بأن يستأذِنَهُمْ خَدَمُهُمْ (الذين ملكت أيمانكم) وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم في ثلاثة أحوال .

- قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ إِذْ يَكُونُ النَّاسُ نِيَامًا فِي فُرْشِهِمْ .

- وَوَقْتَ الْقِيْلُولَةِ بَعْدَ الظَّهْرِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَضَعُ ثِيَابَهُ وَيَكُونُ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَعَ أَهْلِهِ .

- وَوَقْتَ النَّوْمِ (بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ) .

فَيُؤْمَرُ الْخَدَمُ وَالْأَطْفَالُ بِالْأَلَّا يَهْجُمُوا عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ. وَقَالَ تَعَالَى إِنَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ هِيَ عَوْرَاتُ النَّاسِ. أَمَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ إِذَا دَخَلُوا لِأَتَهُمْ فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ يَطُوفُونَ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِنَّهُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ آيَاتِهِ وَأَحْكَامَهُ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ، حَكِيمٌ فِيمَا يَشْرَعُ .

فَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ فِي الْعَوْرَاتِ الثَّلَاثِ مَبْلَغَ الرَّجَالِ (الْحُلُمَ)، وَحَبَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ كَمَا يَسْتَأْذِنُ مَنْ سَبَقُوهُمْ فِي الْبُلُوغِ، مِنْ وَدِّ الرَّجُلِ وَأَقَارِبِهِ، وَكَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ مَا ذَكَرَ غَايَةَ الْبَيَانِ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا فِيهِ سَعَادَتُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ خَلْقِهِ، حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَقَدَرِهِ .^{٣٥٧}

لقد سبقت في السورة أحكام الاستئذان على البيوت. وهنا يبين أحكام الاستئذان في داخل البيوت. فالخدم من الرقيق، والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان. إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة، فهم يستأذنون فيها. هذه الأوقات هي: الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج. ووقت الظهر عند

^{٣٥٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٣١، بترقيم الشاملة آليا)

القيولة، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة. وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل ..

وسماها «عورات» لانكشاف العورات فيها. وفي هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم. وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المتزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر. بينما يقرر النفسيون اليوم - بعد تقدم العلوم النفسية - أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها.

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات. ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات. ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعا للحرص. فهم كثيرون الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة: «طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ».. وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار. فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب، الذين يجب أن يستأذنوا في كل وقت، حسب النص العام، الذي مضت به آية الاستئذان. ويعقب على الآية بقوله: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر، وما يصلحها من الآداب ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب.^{٣٥٨}



^{٣٥٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٢٦٦)

٦٠. وجوب شكر الله تعالى على نصر المسلمين يوم الأحزاب

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) } سورة الأحزاب

وَبَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِتَقْوَاهُ، وَبِعَدَمِ الْخَوْفِ مِنْ سِوَاهُ، ذَكَرَ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمٍ، وَمِنْ تَحْقِيقِ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرٍ، وَذَلِكَ حِينَمَا جَاءَتْهُمْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا كَفَّاتٍ قُدُورَهُمْ، وَاقْتَلَعَتْ حَيَامَهُمْ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مَلَائِكَةً مِنْ عِنْدِهِ - وَهُمْ جُنُودُهُ، وَلَمْ يَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ - يُوقِعُونَ الْخَوْفَ وَالرُّعْبَ وَالْخِذْلَانَ فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ، فَارْتَحَلُوا فِي لَيْلَةٍ شَتَايَةٍ شَدِيدَةٍ الْبَرْدِ، وَكَانَ اللَّهُ بَصِيرًا بِأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَصَدَقَ نَبَاتُهُمْ، فَتَوَلَّى الدِّفَاعَ عَنْهُمْ .

وَقِصَّةُ الْأَحْزَابِ كَمَا رَوَّيْهَا كُتُبُ السِّيَرَةِ كَانَتْ كَمَا يَلِي: إِنَّ نَفَرًا مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ جَاؤُوا إِلَى قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ، فِي شَوَّالٍ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ لِلْهَجْرَةِ يُحَرِّضُونَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ جَاؤُوا إِلَى قِبَائِلِ غَطَفَانَ وَقَيْسِ عَيْلَانَ وَأَسَدٍ وَحَالَفُوهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ عَلَى الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ يَدًا وَاحِدَةً، فَخَرَجَتْ هَذِهِ الْقِبَائِلُ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَلَمَّا عَلِمَ الرَّسُولُ بِمَسِيرِهِمْ إِلَيْهِ، اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ يُسَاعِدُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَنْعِ تَقَدُّمِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى دَاخِلِهَا، فَقَامَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ. وَلَمَّا وَصَلَتِ الْقِبَائِلُ الْمُتَحَالِفَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَجَدُوا الْخَنْدَقَ، فَحَاصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَتَشَبَّهَتْ مُنَاوَشَاتُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ. وَفِي أَنْثَاءِ الْحِصَارِ نَقَضَ بَنُو قُرَيْظَةَ عَهْدَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، بِمَسْعَى مِنْ حَبِيبِ بْنِ أَخْطَبِ سَيِّدِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ الَّذِينَ أَجْلَاهُمْ الرَّسُولُ إِلَى حَبِيبٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .

ثُمَّ جَاءَ نَعِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَهُوَ مِنْ غَطَفَانَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يُعَلِّمُهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَأَنَّ قَوْمَهُ لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِهِ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَأْمُرَهُ بِمَا يَرَى فِيهِ، الْمَصْلَحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ فَخَدَّلْ عَنَّا مَنْ اسْتَطَعْتَ، فَذَهَبَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَكَانَ يُخَالِطُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ قُرَيْشًا وَمَنْ مَعَهَا مِنَ الْقِبَائِلِ لَيْسَ لَهُمْ مَقَامٌ فِي الْمَدِينَةِ، وَأَنْتُمْ إِذَا مَا عَصَيْتُمْ الْحَرْبُ انْسَحَبُوا إِلَى بِلَادِهِمْ، وَتَبَقُونَ أَنْتُمْ وَحَدُكُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ، وَأَنْتُمْ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ وَحَدُكُمْ، وَالرَّأْيُ أَنْ تَطْلُبُوا رَهَائِنَ مِنْ هَذِهِ الْقِبَائِلِ الَّتِي تُحَاصِرُ الْمَدِينَةَ لِكَيْلَا يَنْسَحِبُوا وَيَتَرَجَعُوا عَنْ قِتَالِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ قَبْلَ الْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ، فَفَعَلُوا .

وَذَهَبَ إِلَى قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ وَالْقِبَائِلِ الْأُخْرَى يَقُولُ لَهُمْ إِنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ نَدِمُوا عَلَى نَقْضِ عَهْدِهِمْ مَعَ مُحَمَّدٍ، وَإِنَّهُمْ وَعَدُوهُ بَأْسُ يَسْلَمُوهُ وَجُوهُ الْقِبَائِلِ لِيَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، عَلَى أَنْ يَعُودَ الْعَهْدُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ إِلَى

مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ. فَدَبَّ الْخِلاَفُ وَالْحِذْلَانُ، وَسَادَ التَّشَكُّكُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ وَبَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَاسْتَشْعَرَ كُلُّ فَرِيقٍ الْحَذَرَ مِنَ الْآخِرِ. وَفِي لَيْلَةٍ شَتَايَةٍ هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ أَخَذَتْ تَكْفَأُ الْقُدُورَ، وَتَقْتَلِعُ الْحِيَامَ، فَنَادَى أَبُو سُفْيَانَ بِالرَّحِيلِ فِي النَّاسِ فَارْتَحَلُوا .

حِينَ جَاءَتْكُمْ الْأَحْزَابُ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي (مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ)، وَمِنْ أَسْفَلِهِ (مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ)، وَحِينَ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَاضْطَرَبَتِ الرَّؤْيَةُ مِنَ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ الَّذِي اعْتَرَى الْمُسْلِمِينَ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ الضَّبِقِ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ وَالْيَأْسِ الَّذِي اعْتَرَى الْمُسْلِمِينَ) وَنَشَطَ الْمُنَافِقُونَ يُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ، وَيُثْبِرُونَ الشُّكُوكَ بِالْإِشَاعَاتِ الْكَاذِبَةِ الْمُبْطِطَةِ الَّتِي كَانُوا يَنْشُرُونَهَا لِإِضْعَافِ ثِقَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَيَقْدِرْتَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ ضِعَافِ النُّفُوسِ وَالْإِيمَانِ أَنَّ الْأَحْزَابَ سَيَسْتَأْصِلُونَ شَأْفَةَ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ مَعْتَبُ بْنُ قُشَيْرٍ: كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَفَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا لَا يَقْدِرُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْعَائِطِ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلِصُونَ فَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَقٌّ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ، وَسَيَنْصُرُ دِينَهُ وَيُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَفِي ذَلِكَ الْحِينِ امْتَحَنَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَّصَهُمْ أَشَدَّ التَّمْحِيصِ، فَظَهَرَ الْمُخْلِصُ الرَّاسِخُ الْإِيمَانَ، مِنَ الْمُنَافِقِ الْمُتَزَلِّزِ، وَاضْطَرَبُوا اضْطِرَابًا شَدِيدًا مِنَ الْخَوْفِ الَّذِي أَصَابَهُمْ .^{٣٥٩}

إنهما صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها. وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب. من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج. ومن ثم كان الابتلاء كاملا والامتحان دقيقا. والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لا تردد فيه.

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجاته، وكل حركاته، ماثلا أمامنا كأننا نراه من خلال هذا النص القصير.

ننظر فنرى الموقف من خارجه: «إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» .. ثم ننظر فنرى أثر الموقف في النفوس: «وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» .. وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب. «وَتَطَّنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» .. ولا يفصل هذه الظنون. ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب في المشاعر والخواج، وذهابها كل مذهب، واختلاف التصورات في شتى القلوب.

^{٣٥٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٢٣، بترقيم الشاملة آليا)

ثم تزيد سمات الموقف بروزا، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا: «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا».. والهول الذي يزلزل المؤمنين لا بد أن يكون هولا مروعا رعبيا.

قال محمد بن مسلمة وغيره: كان ليلنا بالخندق نهارا وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان ابن حرب في أصحابه يوما، ويغدو خالد بن الوليد يوما، ويغدو عمرو بن العاص يوما، ويغدو هبيرة ابن أبي وهب يوما، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوما. ويغدو ضرار بن الخطاب يوما. حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفا شديدا.

ويصور حال المسلمين ما رواه المقرئ في إمتاع الأسماع. قال: ثم وافى المشركون سحرا، وعبأ رسول الله - ﷺ - أصحابه فقاتلوا يومهم إلى هوي من الليل، وما يقدر رسول الله - ﷺ - ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من موضعهم. وما قدر رسول الله - ﷺ - على صلاة ظهر ولا عصر ولا مغرب ولا عشاء فجعل أصحابه يقولون:

يا رسول الله ما صلينا! فيقول. ولا أنا والله ما صليت! حتى كشف الله المشركين، ورجع كل من الفريقين إلى منزله، وقام أسيد بن حضير في مائتين على شفير الخندق، فكرت خيل للمشركين يطلبون غرة - وعليها خالد بن الوليد - فناوشهم ساعة، فزرق وحشى الطفيل بن النعمان بن خنساء الأنصاري السلمي بمزراق، فقتله كما قتل حمزة - رضي الله عنه - بأحد. عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: شَعَلْنَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى^{٣٦٠}، صَلَاةِ الْوُسْطَى: صَلَاةُ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَيُيَوِّتُهُمْ وَأَجْوَأَهُمْ نَارًا".

وعن زر، قَالَ: أَمَرْنَا عُبَيْدَةَ أَنْ يَسْأَلَ عَلِيًّا، عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا صَلَاةُ الْفَجْرِ، حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَقُولُ: شَعَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَأَجْوَأَهُمْ نَارًا "٣٦١ ..

وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا فالتقتا - ولا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنون إلا أنهم العدو. فكانت بينهم جراحة وقتل. ثم نادوا بشعار الإسلام! «حم. لا ينصرون»^{٣٦٢} فكف بعضهم عن بعض. فقال رسول الله - ﷺ -: «جراحكم في سبيل الله ومن قتل منكم فإنه شهيد» ..

^{٣٦٠} - في حديث جابر أن رسول الله - ﷺ - إنما شغل يومئذ عن صلاة العصر. والظاهر أن ذلك تكرر. فمرة شغل عن العصر فقال ذلك الدعاء. ومرة شغل عن تلك الصلوات كلها .. (السيد رحمه الله)

^{٣٦١} - مسند أبي يعلى الموصلي مشكل [١ / ١٩٠] (٣٨٩ و ٣٩٠) صحيح

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ شَعَلْنَا الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ عَنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ فِي الْقِتَالِ مَا نَزَلَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - بِاللَّيْلِ فَأَقَامَ لِمَا نَزَلَ فِي الْقِتَالِ فَصَلَّاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهِا لَوْ قَتَلَهَا ثُمَّ أَقَامَ لِلْعَصْرِ فَصَلَّاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهِا لَوْ قَتَلَهَا ثُمَّ أَذَّنَ لِلْمَغْرِبِ فَصَلَّاهَا كَمَا كَانَ يُصَلِّيهِا لَوْ قَتَلَهَا. سنن النسائي - المكتر [٣ / ٥١] (٦٦٨) صحيح

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين، وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق، ذلك الذي كان يجيئهم من انتقاض بني قريظة عليهم من خلفهم. فلم يكونوا يأمنون في أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلة بين هذه الجموع، التي جاءت بنية استئصالهم في معركة حاسمة أخيرة. ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين في المدينة وبين الصفوف: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا»^{٣٦٣} ..

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم وهم آمنون من أن يلومهم أحد وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد. بما يقولون. فالواقع بظاهره يصدقهم في التوهين والتشكيك. وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التحمل، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مبقين ولا متحملين! ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة وموقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء.

فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان! «وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا» .. فهم يحرصون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم .. وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري. والخطر محقق والهول جامح، والظنون لا تثبت ولا تستقر! «وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ، يَقُولُونَ: إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ» .. يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو. متروكة بلا حماية.

وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة، ويجردهم من العذر والحجة: «وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ» .. ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجن والفرار: «إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» ..

وقد روي أن بني حارثة بعثت بأوس بن قيطي إلى رسول الله - ﷺ - يقولون: «إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ»، وليس دار من دور الأنصار مثل دورنا. ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأذن لنا فلنرجع إلى دورنا، فنمنع ذرارينا ونساءنا. فأذن لهم - ﷺ - فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال: يا رسول الله لا تأذن لهم. إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا .. فردهم .. فهكذا كان أولئك الذين يجبههم القرآن بأهم: «إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» ...^{٣٦٤}

^{٣٦٢} - عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا أَرَاهُمْ إِلَّا سُبَيْبَتَكُمْ فَإِنْ فَعَلُوا فَشِعَارُكُمْ حَمَّ لَا يُنْصَرُونَ. مسند أحمد

(عالم الكتب) [٥/ ٦٨٤] (١٦٦١٥) ١٦٧٣٢ صحيح

^{٣٦٣} - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد [٤/ ٣٨١]

^{٣٦٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٠١)



٦١. الإكثار من ذكر الله

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) } سورة الأحزاب
يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادَةِ بكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، فَهُوَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِمْ، لِمَا لَهُمْ فِي ذِكْرِ اللَّهِ مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ .

وَيَأْمُرُهُمْ تَعَالَى أَيْضًا بِتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بَيْنَ طَرْفِي النَّهَارِ فِي الْبُكُورِ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ، وَوَقْتُ الْأَصِيلِ، وَقْتُ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْعَمَلِ الْيَوْمِيِّ، فَيَكُونُ الذِّكْرُ فِي الصَّبَاحِ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى بَعَثِ الْإِنْسَانِ مِنْ رُقَادِهِ، وَفِي الْمَسَاءِ شُكْرًا لَهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِأَدَاءِ الْعَمَلِ، وَالْقِيَامِ بِالسَّعْيِ لِلْحُصُولِ عَلَى الرِّزْقِ .
يَحُثُّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى ذِكْرِ رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّهُ تَعَالَى يَذْكُرُهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ وَيُنْبِي عَلَيْهِمْ فِي الْمَاءِ الْأَعْلَى مِنْ عِبَادِهِ، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْكَرَامُ، وَإِنَّهُ بِرَحْمَتِهِ تَعَالَى، وَهَدَايَتِهِ، وَدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ، وَهُوَ تَعَالَى رَحِيمٌ بِالْعِبَادِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. أَمَّا رَحْمَتُهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ هَدَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَبَصَّرَهُمْ بِالطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ. وَأَمَّا رَحْمَتُهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّهُ آمَنَهُمْ مِنَ الْفِرَاقِ الْأَكْبَرِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِأَنْ يَنْقَلِبُوهُمْ بِالْبَشِيرَةِ بِالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ .
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْيِيُونَ بِالسَّلَامِ، وَهُنَاكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ حَوْلَ مَنْ الَّذِي يُحْيِيهِمْ بِالسَّلَامِ:

- يَقُولُ أَحَدُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِالسَّلَامِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَةِ أُخْرَى: { سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ } - وَيَقُولُ الْآخَرُ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الْكَرَامَ هُمُ الَّذِينَ يُحْيِيونَهُمْ بِالسَّلَامِ، إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: { وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ } - وَالْقَوْلُ الْآخَرُ يَقُولُ: إِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، يَوْمَ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } وَقَدْ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ ثَوَابًا عَظِيمًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .^{٣٦٥}

وذكر الله اتصال القلب به، والاشتغال بمراقبته وليس هو مجرد تحريك اللسان. وإقامة الصلاة ذكر الله. بل إنه وردت آثار تكاد تخصص الذكر بالصلاة:

^{٣٦٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٥٥، بترقيم الشاملة آليا)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ، قَالَا: إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ ٣٦٦ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، فَقَامَا
فَصَلَّيَا رَكَعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ٣٦٧ .

وإن كان ذكر الله أشمل من الصلاة. فهو يشمل كل صورة يتذكر فيها العبد ربه، ويتصل به قلبه.
سواء جهر بلسانه بهذا الذكر أم لم يجهر. والمقصود هو الاتصال المحرك الموحى على أية حال.
وإن القلب ليظل فارغا أو لاهيا أو حائرا حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به. فإذا هو مليء
جاد، قار، يعرف طريقه، ويعرف منهجه، ويعرف من أين وإلى أين ينقل خطاه!

ومن هنا يحض القرآن كثيرا، وتحض السنة كثيرا، على ذكر الله. ويربط القرآن بين هذا الذكر وبين
الأوقات والأحوال التي يمر بها الإنسان، لتكون الأوقات والأحوال مذكرة بذكر الله ومنبهة إلى
الاتصال به حتى لا يغفل القلب ولا ينسى: «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» ..

وفي البكرة والأصيل خاصة ما يستجيش القلوب إلى الاتصال بالله، مغير الأحوال، ومبدل الظلال وهو
باق لا يتغير ولا يتبدل، ولا يحول ولا يزول. وكل شيء سواه يتغير ويتبدل، ويدركه التحول والزوال
وإلى جانب الأمر بذكر الله وتسييحه، إشعار القلوب برحمة الله ورعايته، وعنايته بأمر الخلق وإرادة
الخير لهم وهو الغني عنهم، وهم الفقراء المحاويج، لرعايته وفضله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ
وَمَلَائِكَتُهُ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» ..

وتعالى الله، وجلت نعمته، وعظم فضله، وتضاعفت منته وهو يذكر هؤلاء العباد الضعاف المحاويج
الفانين، الذين لا حول لهم ولا قوة، ولا بقاء لهم ولا قرار. يذكرهم، ويعني بهم، ويصلي عليهم هو
وملائكته، ويذكرهم بالخير في الملاء الأعلى فيتجاوب الوجود كله بذكرهم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ
عنه - قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنِ
ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنِ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِيرٍ
تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنِ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنِ أَتَانِي يَمْسِحُ أَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً » ٣٦٨ .

٣٦٦-مصنف ابن أبي شيبة [٤/ ٤٣٩] (٦٦٧٥) صحيح

٣٦٧-صحيح ابن حبان [٦/ ٣٠٧] (٢٥٦٨) صحيح

٣٦٨-صحيح البخارى-المكث [٢٤/ ٢٤٦] (٧٤٠٥)

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَوْلُهُ حَلٌّ وَعَلَا: إِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، يُرِيدُ بِهِ: إِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ بِالدَّوَامِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ
الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ، وَجَعَلْتَهُ أَهْلًا لَهَا. ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، يُرِيدُ بِهِ: فِي مَلَكُوتِي بِقَبُولِ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ مِنْهُ مَعَ غُفْرَانٍ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الذُّنُوبِ. ثُمَّ
، قَالَ: وَإِنِ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، يُرِيدُ بِهِ: وَإِنِ ذَكَرَنِي بِلِسَانِهِ، يُرِيدُ بِهِ الْإِقْرَارَ الَّذِي هُوَ عَلَامَةُ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ لِيَعْلَمُوا
إِسْلَامَهُ. ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ، يُرِيدُ بِهِ: ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْحَنَّةِ، بِمَا أَتَى مِنَ
الْإِحْسَانِ فِي الدُّنْيَا الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ إِلَى أَنْ اسْتَوْجَبَ بِهِ التَّمَكُّنَ مِنَ الْجَنَّةِ. صحيح ابن حبان [٣/ ٩٥]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: الْكَبِيرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، قَدَفْتُهُ فِي النَّارِ، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ مِنِّي ذِرَاعًا، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ جَاءَنِي يَمْسِي، جِئْتُهُ أَهْرُولُ، وَمَنْ جَاءَنِي يَهْرُولُ، جِئْتُهُ أَسْعَى، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ. ٣٦٩

ألا إنها لعظيمة لا يكاد الإدراك يتصورها. وهو يعلم أن هذه الأرض ومن عليها وما عليها إن هي إلا ذرة صغيرة زهيدة بالقياس إلى تلك الأفلاك الهائلة. وما الأفلاك وما فيها ومن فيها إلا بعض ملك الله الذي قال له: كن. فكان!

«هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».. ونور الله واحد متصل شامل وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف. وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات، أو في الظلمات مجتمعة وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم، ويغمر أرواحهم، ويهديهم إلى فطرتهم. وهي فطرة هذا الوجود. ورحمة الله بهم وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم، هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تفتح قلوبهم للإيمان: «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا».

ذلك أمرهم في الدنيا دار العمل. فأما أمرهم في الآخرة دار الجزاء، فإن فضل الله لا يتخلى عنهم، ورحمته لا تتركهم ولهم فيها الكرامة والحفاوة والأجر الكريم: «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ، وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا».. سلام من كل خوف، ومن كل تعب، ومن كل كد.. سلام يتلقونه من الله تحمله إليهم الملائكة. وهم يدخلون عليهم من كل باب، يبلغونهم التحية العلوية. إلى جانب ما أعد لهم من أجر كريم.. فيا له من تكريم! فهذا هو ربهم الذي يشرع لهم ويختار. فمن ذا الذي يكره هذا الاختيار؟! ٣٧٠



٣٦٩- صحيح ابن حبان [٣٥/ ٢] (٣٢٨) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُ أَجَلُّ وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ، إِذْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهَذِهِ أَلْفَاظُ خَرَجَتْ مِنْ أَلْفَاظِ التَّعَارُفِ عَلَى حَسَبِ مَا يَتَعَارَفُهُ النَّاسُ مِمَّا بَيْنَهُمْ، وَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي نَفْسِهِ بِنُطْقٍ أَوْ عَمَلٍ يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ، ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مَلَكُوتِهِ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُ تَفَضُّلاً وَجُودًا، وَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ فِي مَلَأٍ مِنْ عِبَادِهِ، ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي مَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّبِينَ بِالْمَغْفِرَةِ لَهُ، وَقَبُولَ مَا أَتَى عَبْدُهُ مِنْ ذِكْرِهِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا بِقَدْرِ شِبْرٍ مِنَ الطَّاعَاتِ، كَانَ وَجُودُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنَ الرَّبِّ مِنْهُ لَهُ أَقْرَبَ بِذِرَاعٍ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَى مَوْلَاهُ جَلَّ وَعَلَا بِقَدْرِ ذِرَاعٍ مِنَ الطَّاعَاتِ كَانَتْ الْمَغْفِرَةُ مِنْهُ لَهُ أَقْرَبَ بِبَاعٍ، وَمَنْ أَتَى فِي أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ بِالسَّرْعَةِ كَالْمَسِّيِّ، أَتَتْهُ أَنْوَاعُ الْوَسَائِلِ وَوُجُودُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِالسَّرْعَةِ كَالهَرُؤَلَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ. صحيح ابن حبان [٩٤/ ٣]

٣٧٠ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٤٣)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا } (٤٩) سورة الأحزاب
النِّكَاحُ هُنَا هُوَ الْعَقْدُ. وَيَقُولُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا عَقَدْتُمْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ عَلَى النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهِنَّ، فَلَا عِدَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ (وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُئِمَّةِ)، وَلَكِنْ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُمَتِّعَ الْمَرْأَةَ مَتَاعًا حَسَنًا بِحَسَبِ حَالِهِ (عَلَى الْمُعْسِرِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُسِرِّ قَدْرُهُ) وَأَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ بَيْتِهِ إِخْرَاجًا كَرِيمًا لِأَنْفِقًا (سَرَاحًا جَمِيلًا) فِيهِئِي لَهَا الْمَرْكَبَ، وَالزَّادَ، وَيُحَسِّنْ مُعَامَلَتَهَا لِتَقَرَّ عَيْنُهَا، وَيُسِرَّ بِذَلِكَ أَهْلُهَا، وَلِيَكُونَ فِي ذَلِكَ بَعْضُ السَّلْوَى عَمَّا لَحِقَ بِهَا مِنْ أَدَى بِالطَّلَاقِ .^{٣٧١}

فالمطلقة قبل الدخول إن كان قد فرض لها مهر، فلها نصف ذلك المهر المسمى. وإن لم يذكر لها مهر فلها متاع يتبع قدرة المطلق سعة وضيقة.. وقد زاد هنا في آية الأحزاب بيان حكم العدة لهذه المطلقة وهو ما لم يذكر في آية البقرة. فقرر أن لا عدة عليها. إذ أنه لم يكن دخول بها. والعدة إنما هي استبراء للرحم من الحمل، وتأكد من أنها خالية من آثار الزواج السابق، كي لا تختلط الأنساب، ولا ينسب إلى رجل ما ليس منه، ويسلب رجل ما هو منه في رحم المطلقة. فأما في حالة عدم الدخول فالرحم بريئة، ولا عدة إذن ولا انتظار: «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا».. «فَمَتَّعُوهُنَّ» إن كان هناك مهر مسمى فينصف هذا المهر، وإن لم يكن فمتاع مطلق يتبع حالة الزوج المالية. «وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا».. لا عضل فيه ولا أذى. ولا تعنت ولا رغبة في تعويقهن عن استئناف حياة أخرى جديدة.

وهذا حكم عام جاء في سياق السورة في صدد تنظيم الحياة العامة للجماعة المسلمة.

بعد ذلك يبين الله لرسوله - ﷺ - ما يحل له من النساء، وما في ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته، بعد ما نزلت آية سورة النساء التي تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعاً: «فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعًا»..

وكان في عصمة النبي في هذا الوقت تسع نساء، تزوج بكل منهن لمعنى خاص. عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبي بكر وعمر. وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت خزيمة من المهاجرات اللواتي فقدن أزواجهن وأراد النبي - ﷺ - تكريمهن، ولم يكن ذوات جمال ولا شباب، إنما كان معنى التكريم لهن خالصاً في هذا الزواج. وزينب بنت جحش وقد علمنا قصة زواجها، وقد كان هناك تعويض لها كذلك عن طلاقها من زيد الذي زوجها رسول الله منه فلم تفلح الزيجة لأمر قضاه الله تعالى، وعرفناه في قصتها. ثم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، وصفية بنت

^{٣٧١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٦٣، بترقيم الشاملة آليا)

حيي بن أخطب. وكانتا من السبي فأعتقهما رسول الله وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى، توثيقا لعلاقته بالقبائل، وتكريما لهما، وقد أسلمتا بعد ما نزل بأهلها من الشدة. وكن قد أصبحن «أمهات المؤمنين» ولن شرف القرب من رسول الله - ﷺ - واخترن الله ورسوله والدار الآخرة بعد نزول آيتي التخيير. فكان صعبا على نفوسهن أن يفارقهن رسول الله بعد تحديد عدد النساء. وقد نظر الله إليهن، فاستثنى رسول الله - ﷺ - من ذلك القيد، وأحل له استبقاء نسائه جميعا في عصمته، وجعلهن كلهن حلالا له، ثم نزل القرآن بعد ذلك بألا يزيد عليهن أحدا، ولا يستبدل بواحدة منهن أخرى. فإنما هذه الميزة لهؤلاء اللواتي ارتبطن به وحدهن، كي لا يجر من شرف النسبة إليه، بعد ما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ..^{٣٧٢}



^{٣٧٢} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٤٨)

٦٣. تحريم دخول بيوت النبي ﷺ دون إذن

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا } (سورة الأحزاب)

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَنْ تُدْعَوْا إِلَى طَعَامٍ تَطْعَمُونَهُ غَيْرَ مُتَنْظِرِينَ إِذْرَاكَ نُضْجِهِ، (أي إذا دُعِيتُمْ إِلَى طَعَامٍ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ فَلَا تَدْخُلُوا إِلَّا إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الطَّعَامَ قَدْ تَمَّ نُضْجُهُ وَإِعْدَادُهُ) وَلَكِنْ إِذَا دَعَاكُمْ النَّبِيُّ إِلَى الدُّخُولِ فَادْخُلُوا، فَإِذَا أَكَلْتُمُ الطَّعَامَ فَانصَرَفُوا، وَلَا تَمَكَّنُوا فِيهِ لِتَبَادُلِ الْحَدِيثِ، فَذَلِكَ اللَّبْثُ، بَعْدَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، كَانَ يُؤْيِي النَّبِيَّ، وَيُنْقَلُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَحْيِي مِنْ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ ذَلِكَ، وَأَنْ يَدْعُوَكُمْ إِلَى الانصِرَافِ، وَاللَّهُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُحَسِّنَ تَرْبِيَّتَكُمْ وَتَأْدِيبَكُمْ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ الْحَقَّ لِتَعْمَلُوا بِهِ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَاخْرُجُوا، وَلَا تَقْعُدُوا لِلْحَدِيثِ. وَإِذَا طَلَبْتُمْ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا تَمْتَعُونَ بِهِ، مِنْ مَاعُونٍ، وَغَيْرِهِ، فَاطْلُبُوهُ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ بَيْتِكُمْ وَبَيْنَهُنَّ. وَذَلِكَ الدُّخُولُ بَعْدَ الاسْتِئْذَانِ، وَعَدَمُ الْبَقَاءِ بَعْدَ الطَّعَامِ لِلِاسْتِئْذَانِ بِالْحَدِيثِ، وَسُؤَالِ نِسَاءِ النَّبِيِّ الْمَتَاعَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.. كُلُّ ذَلِكَ أَطْهَرُ لِقُلُوبِ الرِّجَالِ وَقُلُوبِ النِّسَاءِ مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، وَأَبْعَدُ عَنِ الرَّيْبِ وَالشُّكُوكِ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلًا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ يُؤْذِيهِ وَيُرْجِعُهُ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يُؤْذُوهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِالتَّزْوِجِ بِنِسَائِهِ. فَيَأْذِي النَّبِيَّ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ هُوَ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يُقَدَّرُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. ٣٧٣

روى البخاري عن أنس - رضى الله عنه - قال بنى على النبي ﷺ - بزَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ بَخْبَزٍ وَلَحْمٍ فَأُرْسِلَتْ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهُ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ قَالَ ارْفَعُوا طَعَامَكُمْ، وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ - فَأَنْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ». فَقَالَتْ وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فَتَقَرَّرَى حُجْرَةَ نِسَائِهِ كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لِهِنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقْلَنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ - فَإِذَا ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ - شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ

٣٧٣ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٦٧، بترقيم الشاملة آليا)

مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَمَا أَدْرَى آخِرُهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أُسْكُفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرَخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ^{٣٧٤}.

والآية تتضمن آدابا لم تكن تعرفها الجاهلية في دخول البيوت، حتى بيت رسول الله - ﷺ - فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أصحابها - كما جاء في شرح آيات سورة النور الخاصة بالاستئذان - وربما كان هذا الحال أظهر في بيوت النبي - ﷺ - بعد أن أصبحت هذه البيوت مهبط العلم والحكمة. وكان بعضهم يدخل وحين يرى طعاما يوقد عليه يجلس في انتظار نضج هذا الطعام ليأكل بدون دعوة إلى الطعام!

وكان بعضهم يجلس بعد الطعام - سواء كان قد دعي إليه أو هجم هو عليه دون دعوة - ويأخذ في الحديث والسمر غير شاعر بما يسببه هذا من إزعاج للنبي - ﷺ - وأهله. وفي رواية أن أولئك الثلاثة الرهط الذين كانوا يسمرون كانوا يفعلون هذا وعروس النبي - زينب بنت جحش - جالسة وجهها إلى الحائط! والنبي - ﷺ - يستحي أن ينبههم إلى ثقله مقامهم عنده حياء منه، ورغبة في ألا يواجهه زواره بما يجلهم! حتى تولى الله - سبحانه - عنه الجهر بالحق «وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ».

ومما يذكر أن عمر - رضي الله عنه - بحساسيته المرهفة كان يقترح على النبي - ﷺ - الحجاب وكان يتمناه على ربه. حتى نزل القرآن الكريم مصدقا لاقتراحه مجيبا لحساسيته! من رواية للبخاري عن أنس، قال: قَالَ عُمَرُ وَأَفَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، أَوْ وَأَفَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا}، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبُرِّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ، وَبَلَّغَنِي مُعَاتَبَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَاسْتَفْرَيْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ فَجَعَلْتُ أُسْتَفْرِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، وَاللَّهِ لَئِنْ انْتَهَيْتَنَّ وَإِلَّا لَيُبَدِّلَنَّ اللَّهُ رَسُولَهُ خَيْرًا مِنْكَ، قَالَ: فَاتَيْتُ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَكُونِ أَنْتَ تَعْظُهُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ} ^{٣٧٥}.

وجاءت هذه الآية تعلم الناس ألا يدخلوا بيوت النبي بغير إذن. فإذا دعوا إلى الطعام دخلوا. فأما إذا لم يدعوا فلا يدخلون يرتقبون نضجه! ثم إذا طعموا خرجوا، ولم يبقوا بعد الطعام للسمر والأخذ بأطراف الحديث ..

وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي يجافيه الكثيرون. فإن المدعويين إلى الطعام يتخلفون بعده، بل إنهم ليتخلفون على المائدة، ويطول بهم الحديث وأهل البيت - الذين يحتفظون ببقية من أمر

^{٣٧٤}- صحيح البخارى- المكثر [٣٩/ ١٦] (٤٧٩٣) - الأسكفة: عتبة الباب

^{٣٧٥}- مسند أحمد (عالم الكتب) [١٥٢/ ١] (٢٥٠) وصحيح البخارى- المكثر [٤٤٤/ ١٤] (٤٤٨٣)

الإسلام بالاحتجاب - متأذون محتسبون، والأضياف ماضون في حديثهم وفي سمرهم لا يشعرون! وفي الأدب الإسلامي غناء وكفاء لكل حالة، لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهي القويم.

ثم تقرر الآية الحجاب بين نساء النبي - ﷺ - والرجال: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» ..

وتقرر أن هذا الحجاب أظهر لقلوب الجميع: «ذَلِكَ لِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» .. فلا يقل أحد غير ما قال الله. لا يقل أحد إن الاختلاط، وإزالة الحجب، والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أظهر للقلوب، وأعف للضمائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب وترقيق المشاعر والسلوك .. إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين. لا يقل أحد شيئاً من هذا والله يقول: «وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» .. يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات. أمهات المؤمنين. وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله - ﷺ - ممن لا تتناول إليهن وإليهم الأعناق! وحين يقول الله قولاً.

ويقول خلق من خلقه قولاً. فالقول لله - سبحانه - وكل قول آخر هراء، لا يردده إلا من يجرؤ على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الباقي الذي خلق هؤلاء العبيد! والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله، وكذب المدعين غير ما يقول الله. والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول. وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا وأقطع من كل دليل. (وأمریکا أول هذه البلاد التي أتى الاختلاط فيها أبشع الثمار) ^{٣٧٦}.

وقد ذكرت الآية أن مجيئهم للطعام منتظرين نضجه من غير دعوة وبقاءهم بعد الطعام مستأنسين للحديث .. كان يؤذي النبي فيستحيي منهم. وفي ختامها تقرر أنه ما يكون للمسلمين أن يؤذوا رسول الله. وكذلك ما يكون لهم أن يتزوجوا أزواجه من بعده وهن بمرتلة أمهاتهم. ومكانهن الخاص من رسول الله يحرم أن ينكحهن أحد من بعده، احتفاظاً بحرمة هذا البيت وجلاله وتفردته: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا أَنْ تُنْكَحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» ..

وقد ورد أن بعض المنافقين قال: إنه ينتظر أن يتزوج من عائشة! «إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا» .. وما أهول ما يكون عند الله عظيماً!

ولا يقف السياق عند هذا الإنذار الهائل، بل يستطرد إلى تهديد آخر هائل: «إِنْ تُبْذُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» .. وإذن فالله هو الذي يتولى الأمر. وهو عالم بما يبدو وما

^{٣٧٦} - راجع بتوسع فصل «سلام البيت» في كتاب: «السلام العالمي والإسلام». «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

يخفى، مطلع على كل تفكير وكل تدبير. والأمر عنده عظيم. ومن شاء فليتعرض. وإنما يتعرض لبأس الله الساحق الهائل العظيم.

وبعد الإنذار والتهديد يعود السياق إلى استثناء بعض المحارم الذين لا حرج على نساء النبي - ﷺ - في أن يظهرن عليهم: «لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ، وَلَا أَبْنَائِهِنَّ، وَلَا إِخْوَانِهِنَّ، وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ، وَلَا نِسَائِهِنَّ، وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ. وَاتَّقِينَ اللَّهَ. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا».. وهؤلاء المحارم هم الذين أبيح لنساء المسلمين عامة أن يظهرن عليهم.. ولم أستطع أن أتأكد أي الآيات كان أسبق في النزول الآية الخاصة بنساء النبي - ﷺ - هنا، أم الآية العامة لنساء المسلمين جميعا في سورة النور. والأرجح أن الأمر كان خاصا بنساء النبي - ﷺ - ثم عمم. فذلك هو الأقرب إلى طبيعة التكليف.

ولا يفوتنا أن نلاحظ هذا التوجيه إلى تقوى الله، والإشارة إلى اطلاعه على كل شيء: «وَاتَّقِينَ اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا». فالإيحاء بالتقوى ومراقبة الله يطرد في مثل هذه المواضع، لأن التقوى هي الضمان الأول والأخير، وهي الرقيب اليقظ الساهر على القلوب.^{٣٧٧}



^{٣٧٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٥١)

٦٤. الأمر بالصلاة على النبي ﷺ

قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }

(٥٦) سورة الأحزاب

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ لِيَجْتَمَعَ لَهُ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِينَ: الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ. ٣٧٨

وصلاة الله على النبي ذكره بالثناء في الملائكة الأعلى وصلاة ملائكته دعاءهم له عند الله سبحانه وتعالى. . . ويا لها من مرتبة سنية حيث تردد جنبات الوجود ثناء الله على نبيه ويشرق به الكون كله وتتجاوب به أرجاؤه. ويثبت في كيان الوجود ذلك الثناء الأزلي القديم الأبدى الباقي. وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهذا التكريم. وأين تذهب صلاة البشر وتسليمهم بعد صلاة الله العلي وتسليمه، وصلاة الملائكة في الملائكة الأعلى وتسليمهم إنما يشاء الله تشریف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته وتسليمهم إلى تسليمه وأن يصلهم عن هذا الطريق بالأفق العلوي الكريم الأزلي القديم.

وفي ظل هذا التمجيد الإلهي يبدو إيذاء الناس للنبي - ﷺ - بشعا شنيعا ملعونا قبيحا: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» . . . ويزيده بشاعة وشناعة أنه إيذاء لله من عبيده ومخالقه، وهم لا يبلغون أن يؤذوا الله. إنما هذا التعبير يصور الحساسية بإيذاء رسوله، وكأنما هو إيذاء لذاته جل وعلا. فما أقطع! وما أبشع! وما أشنع!

ويستطرد كذلك إلى إيذاء المؤمنين والمؤمنات عامة. إيذاؤهم كذبا وبهتاناً، بنسبة ما ليس فيهم إليهم من النقائص والعيوب: { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) } [الأحزاب: ٥٨]

وهذا التشديد يشي بأنه كان في المدينة يومذاك فريق يتولى هذا الكيد للمؤمنين والمؤمنات، بنشر قالة السوء عنهم، وتدمير المؤامرات لهم، وإشاعة التهم ضدهم. وهو عام في كل زمان وفي كل مكان. والمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد في كل بيئة من الأشرار المنحرفين، والمنافقين، والذين في قلوبهم مرض. والله يتولى عنهم الرد على ذلك الكيد، ويصم أعداءهم بالإثم والبهتان. وهو أصدق القائلين.. ٣٧٩



٣٧٨ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٧٠، بترقيم الشاملة آليا)

٣٧٩ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٥٣)

٦٥. النهي عن أذى الرسل

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا } (٦٩) سورة الأحزاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلٍ يَكْرَهُهُ، وَلَا بِفِعْلٍ لَا يُحِبُّهُ، وَلَا تَكُونُوا أَمْثَالَ الَّذِينَ آذَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، نَبِيَّ اللَّهِ، فَزَعَمُوا كَذِبًا وَبَاطِلًا أَنَّ فِيهِ عَيْبًا فِي جِسْمِهِ، فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا فِيهِ، بِمَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى كَذِبِهِمْ، وَافْتِرَائِهِمْ، وَكَانَ مُوسَى ذَا وَجَاهَةٍ وَكَرَامَةٍ عِنْدَ اللَّهِ. ٣٨٠

ولم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى ولكن وردت روايات تعينه. ونحن لا نرى بنا من حاجة للخوض في هذا الذي أجمله القرآن. وإنما أراد الله تحذير الذين آمنوا من كل ما يؤذي النبي - ﷺ - وقد ضرب بني إسرائيل مثلا للالتواء والانحراف في مواضع من القرآن كثيرة. فيكفي أن يشير إلى إيذائهم لنبيهم، وتحذير المسلمين من متابعتهم فيه، لينفر حس كل مؤمن من أن يكون كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضرهم القرآن مثلا صارخا للانحراف والالتواء.

وقد برأ الله موسى مما رماه به قومه، «وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا» ذا وجاهة وذا مكانة. والله مبرئ رسله من كل ما يرمون به كذبا وبهتاناً. ومحمد - ﷺ - أفضل الرسل أولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه ويوجه القرآن المؤمنين إلى تسديد القول وإحكامه والتدقيق فيه، ومعرفة هدفه واتجاهه. قبل أن يتابعوا المنافقين والمرحفين فيه وقبل أن يستمعوا في نبيهم ومرشدهم ووليهم إلى قول طائش ضال أو مغرض خبيث. ويوجههم إلى القول الصالح الذي يقود إلى العمل الصالح. فالله يرضى المسددين ويقود خطاهم ويصلح لهم أعمالهم جزاء الطاعة. فضل من كرم الله وفيضه بلا مقابل. والله يرزق من يشاء بغير حساب. ٣٨١

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم، محمد ﷺ، النبي الكريم، الرعوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كلیم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين، فلم يجرهم ما له، من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: "إنه ما يمنعه

٣٨٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٨٣، بتقييم الشاملة آليا)

٣٨١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٣٦٥٩)

من ذلك إلا أنه آدر " أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.^{٣٨٢}



^{٣٨٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٧٣)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) } سورة الأحزاب
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَقُولُوا فِي الْمُؤْمِنِينَ قَوْلًا حَقًّا لَا بَاطِلَ فِيهِ، وَلَا حَوْرَ عَنِ الصَّوَابِ .

وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَتَّقِهِ، وَيَقْبَلِ الْقَوْلَ الْمُتَّصِفَ السَّدِيدَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوقِّعُهُ إِلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ، وَيُسَدِّدُ خَطَاهُ فِي مَسِيرَتِهِ، وَيَغْفِرُ لَهُ ذُنُوبَهُ. وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَيَعْمَلُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ، وَيَنْتَهِي عَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ، فَقَدْ ظَفَرَ بِالثُّبُوتِ وَالْكَرَامَةِ يَوْمَ الْحِسَابِ { فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا } .^{٣٨٣}

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه، في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة، بما هو الأصلح. ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول السديد فقال: { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ } أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإحلال بالتقوى، والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترثب آثارها عليها. { وَيَغْفِرْ لَكُمْ } أيضاً { ذُنُوبَكُمْ } التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }^{٣٨٤}



^{٣٨٣} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٨٥، بترقيم الشاملة آليا)

^{٣٨٤} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٧٣)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) } سورة محمد

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ، وَيُعَلِّمُهُمْ بِأَنَّهُ يَنصُرُهُمْ إِذَا أَخْلَصُوا النِّيَّةَ فِي قِتَالِ أَعْدَائِهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهُمْ إِذَا نَصَرُوا دِينَ اللَّهِ نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَثَبَّتْ أَقْدَامَهُمْ فِي الْحَرْبِ وَفِي السِّبْغِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ فَحَزَبًا لَهُمْ وَشِقَاءًا، وَأَبْطَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ، وَجَعَلَهَا عَلَى غَيْرِ هُدًى وَاسْتِقَامَةٍ لِأَنَّهَا عُمَلَتْ لِلشَّيْطَانِ فَتَعَسَا لَهُمْ - فَعَتَارًا أَوْ شِقَاءًا لَهُمْ .

وَقَدْ أُنْعَسَ اللَّهُ الْكَافِرِينَ وَأَحْزَاهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ قُرْآنٍ وَأَحْكَامٍ وَشَرَعٍ وَتَكَالِيفٍ. أَفَلَمْ يَسِرْ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ فِي الْأَرْضِ لِيَرَوْا كَيْفَ عَاقَبَ اللَّهُ الْمُكْذِبِينَ مِنَ الْأُمَّةِ السَّالِفَةِ، لَقَدْ دَمَّرَ قُرَاهُمْ وَبُيُوتَهُمْ، وَأَهْلَكَ أَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، أَفَلَا يَعْتَبِرُ هَؤُلَاءِ بِمَا نَزَلَ بِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْمُكْذِبِينَ، وَيَنْتَهُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِيِّ وَالضَّلَالَةِ؟

وَكَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُكْذِبِينَ السَّابِقِينَ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، كَذَلِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِالْكَافِرِينَ، السَّائِرِينَ سِيرَتَهُمْ. وَقَدْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ وَأَطَاعُوهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُمْ وَحَافِظُهُمْ، وَلِأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْعُقُوبَةَ وَالْعَذَابَ .^{٣٨٥}

إن لله في نفوسهم أن تتجرد له، وألا تشرك به شيئاً، شركاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحرركاتها وسكناتها، وسرها وعلايتها، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة. ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة.

ونقف لحظة أمام قوله تعالى: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ».. وقوله: «إِن تَنصُرُوا اللَّهَ»..

^{٣٨٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٣١، بترقيم الشاملة آليا)

وفي كلتا الحالتين. حالة القتل. وحالة النصر. يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله. وهي لفظة بديهية، ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال. وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم. إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا. وأن تهيمن شريعته ومنهجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَيْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^{٣٨٦}.

وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحقق له وعد الله بالجنة. إلا تلك الولاية وإلا هذا الهدف. من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفظة البديهية، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على ضيعة العقيدة. لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا. العليا في النفس والضمير. والعليا في الخلق والسلوك. والعليا في الأوضاع والنظم. والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة. وما عدا هذا فليس لله. ولكن للشيطان. وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد. وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام. وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف.

وان عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف، فلا أقل من أن يخلص الدعوة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط الله ..

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا. فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام. وعد الله لا يخلفه. فإذا تخلف فترة فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت^{٣٨٧}. ذلك حين

^{٣٨٦} - صحيح مسلم - المكثر [١٢/ ٤٤٧] ٥٠٢٩

^{٣٨٧} - تراجع الظلال في سورة الحج عند قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» من ص ٢٤٢٤ إلى ص ٢٤٢٧ من جزء ١٧. (السيد رحمه الله)

يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله: ثم نقف لحظة أمام لفظة خاصة في التعبير: «يَنْصُرُكُمْ وَيُثِّبُ أَقْدَامَكُمْ» ..

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببا فيه. وهذا صحيح. ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه. فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان، وبين الحق والضلال. فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة.

للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر. وفي عدم التراخي بعده والتهاون. وكثير من النفوس يثبت على الحنة والبلاء. ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر. ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن. والعلم لله.

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ» .. وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام. فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ..

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ» .. وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشرعية ومنهج واتجاه.

وهذا هو الذي يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة. وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم، وتصادمه من داخلها، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته. وهي نفوس يلتقي بها الإنسان كثيرا في كل زمان وفي كل مكان، ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به حتى إنها لتفرع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لدعتها العقارب! وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث!

ولعلنا نشاهد في هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة! وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله، أن أحبط الله أعمالهم. وإحباط الأعمال تعبير تصويري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير. فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعا من المرعى سام. ينتهي بها إلى الموت والهلاك. وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت .. ثم انتهت إلى الهلاك والضياع! إنها صورة وحركة، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام. المنتفخة كبطون الأنعام، حين ترعى من ذلك النبت السام!^{٣٨٨}

هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة

^{٣٨٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٠٩٨)

والثبات، ويصير أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم، فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره. وأما الذين كفروا برهيم، ونصروا الباطل، فإنهم في تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان. {وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله. ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم {كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، {فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ، {فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب، فإنهم لا يلتفتون بمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم، قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فحمدوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوخيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب. {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا} فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم، {وَأَنَّ الْكَافِرِينَ} بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته {لَا مَوْلَى لَهُمْ} يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.^{٣٨٩}



^{٣٨٩} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٨٥)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } (٣٣) سورة محمد
يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِإِطَاعَةِ اللَّهِ، وَإِطَاعَةِ رَسُولِهِ فِيمَا يَأْمُرَانِهِمْ بِهِ، وَفِيمَا يَنْهَيَانِهِمْ عَنْهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
إِبْطَالِ أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ، بَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، وَفِعْلِ الْكِبَائِرِ وَالنَّفَاقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُبْطِلُ
الْحَسَنَاتِ وَتُذْهِبُهَا .^{٣٩٠}

وهذا التوجيه يوحي بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة؛ أو من تنقل
عليه بعض التكاليف، وتشق عليه بعض التضحيات، التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة
التي تقف للإسلام، وتناوشه من كل جانب؛ والتي تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربي يصعب
فصمها والتخلي عنها نهائياً كما تقتضي العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيماً عميقاً في نفوس المسلمين الصادقين، فارتعشت له قلوبهم، وخافوا أن
يقع منهم ما يبطل أعمالهم، ويذهب بحسناتهم..

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ الْمَرْوَزِيِّ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ حَدَّثَنَا أَبُو قَدَامَةَ حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ حَدَّثَنَا أَبُو
جَعْفَرِ الرَّازِيِّ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ كَانَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ
مَعَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ذَنْبٌ كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشِّرْكَ عَمَلٌ فَخَافُوا أَنْ يُبْطِلَ الذَّنْبُ الْعَمَلَ ثُمَّ رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ
عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْمُبَارَكِ أَخْبَرَنِي بَكْرُ بْنُ مَعْرُوفٍ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا مَعَشَرَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ إِلَّا مَقْبُولٌ حَتَّى
نَزَلَتْ " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ " فَقُلْنَا مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا؟
فَقُلْنَا: الْكِبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ " فَلَمَّا نَزَلَتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ فَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكِبَائِرُ
وَالْفَوَاحِشُ وَنَرَجُو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا ثُمَّ أَمَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الَّتِي هِيَ
سَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِرْتِدَادِ الَّذِي هُوَ مُبْطِلٌ لِلْأَعْمَالِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى " وَلَا
تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ " أَي بِالرَّدَّةِ .

وفي ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول .. يلتفت إلى الذين
آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» ..

^{٣٩٠} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٥٧، بترقيم الشاملة آليا)

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة أو من تنقل عليه بعض التكليف، وتشق عليه بعض التضحيات، التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تقف للإسلام، وتناوشه من كل جانب والتي تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربي يصعب فصمها والتخلي عنها نهائياً كما تقتضي العقيدة ذلك.

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفا عميقا في نفوس المسلمين الصادقين فارتعشت له قلوبهم، وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم، ويذهب بحسناتهم.. عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ذَنْبٌ، كَمَا لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرِكِ عَمَلٌ، فَنَزَلَتْ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ فَخَافُوا أَنْ يُبْطِلَ الذَّنْبُ الْعَمَلَ" ٣٩١.

وروي وعن ابن عمر قال: "كُنَّا مَعَاشِرَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَسَنَاتِنَا إِلَّا مَقْبُولًا ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ: { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ } [محمد: ٣٣] فَتَأْمَلْنَا مَا هَذَا الَّذِي يُبْطِلُ أَعْمَالَنَا ، فَقُلْنَا: الْكِبَائِرُ الْمُوجِبَاتُ وَالْفَوَاحِشُ ، حَتَّى نَزَلَتْ: { إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: ٤٨] فَلَمَّا نَزَلَتْ كَفَفْنَا عَنِ الْقَوْلِ ، وَكُنَّا نَخَافُ عَلَى مَنْ أَصَابَ الْكِبَائِرَ وَتَرَجُّو لِمَنْ لَمْ يُصِبْهَا" ٣٩٢.

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات القرآن: كيف تهتز لها وتضطرب، وكيف ترتجف منها وتخاف، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها، وكيف تتحرى أن تكون وفقها، وأن تطابق أنفسها عليها.. وبهذه الحساسية في تلقي كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز! ثم بين الله لهم في الآية التالية مصير الذين يشاققون رسول الله - ﷺ - ويخرجون عن طاعته، ثم يصرون على هذا، ويذهبون من هذه الأرض كافرين: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».. فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا وباب التوبة يظل مفتوحا للكافر وللعاصي حتى يغرغر. فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود. ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار. فأما هؤلاء فهي نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب. وأما أولئك فهي تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التي تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشئوم! ٣٩٣

٣٩١ - تَعْظِيمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ لِمُحَمَّدٍ بِنِصْرِ الْمَرْوَزِيِّ (٦٠٥) حسن مرسل

٣٩٢ - تَعْظِيمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ لِمُحَمَّدٍ بِنِصْرِ الْمَرْوَزِيِّ (٦٠٦) حسن

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَدَلَّ مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْبَدَاةِ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ آيَةِ ، أَنَّ مَنْ كَانَتْ مِنْهُ الْكِبَائِرُ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ الْحَسَنَاتُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ آيَةَ الْمَثَلَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، فَعَلِمُوا بِهَا أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، فَعَقَلُوا بِذَلِكَ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ إِذَا كَانُوا مَعَهَا لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا ، وَاللَّهُ نَسَأَهُ التَّوْفِيقَ " . شرح

مشكل الآثار [٣٨٣/ ٥] (٢١٣٧)

٣٩٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١١٦)



٦٩ . تحريم التقدم على الله ورسوله بقول أو فعل

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (١)

سورة الحجرات

يُؤَدِّبُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُعَلِّمُهُمْ أُصُولَ مُخَاطَبَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُ، وَتَوْفِيئِهِ حَقَّهُ مِنَ التَّقْوِيرِ وَالاحْتِرَامِ. فَيَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: لَا تُسْرِعُوا فِي الْقَضَاءِ فِي أَمْرٍ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ لَكُمْ فِيهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَكُونُوا تَبَعًا لِقَضَائِهِمَا وَأَمْرَهُمَا، وَلَا تَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الرَّسُولَ عَلَى الْكَلَامِ فِيهِ، وَلَا تَفْعَلُوا فِعْلًا قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهُ الرَّسُولُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ، عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ. ٣٩٤.

هَذِهِ آدَابٌ، أَدَّبَ اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يَعْمَلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّقْوِيرِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّبَجِيلِ وَالِإِعْظَامِ، فَقَالَ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ [وَاتَّقُوا اللَّهَ] }، أَي: لَا تُسْرِعُوا فِي الْأَشْيَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَي: قَبْلَهُ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ فِي حَمِيعِ الْأُمُورِ، حَتَّى يَدْخُلَ فِي عُمُومِ هَذَا الْأَدَبِ الشَّرْعِيِّ حَدِيثُ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ كَيْفَ تَقْضِي؟ " قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟». قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: " فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ؟. قَالَ: أَحْتَجِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو. قَالَ: فَضَرَبَ صَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ» ٣٩٥.

٣٩٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩٢، بترقيم الشاملة آليا)

٣٩٥ - سنن أبي داود (٣/٣٠٣) (٣٥٩٢) و سنن الدارمي (١/٢٦٧) (١٧٠) و مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/٣٤٧] (٢٢٠٠٧)

٢٢٣٥٧ وتفسير ابن كثير - دار طيبة [١/٧] وجود إسناده والمسند الجامع [١٥/٣٤٥] (١١٥٣٣) وهو حديث حسن
قال الطيبي: قوله: أَحْتَجِدُ رَأْيِي، الْمُبَالَغَةُ قَائِمَةٌ فِي حَوَهِرِ اللَّفْظِ وَبِنَاوُهُ لِلْإِنْتِعَالِ وَاللِّاعْتِمَالِ وَالسَّعْيِ وَبَدَلِ الْوُسْعِ، وَنَسْبَتُهُ إِلَى الرَّأْيِ؛ أَيْضًا تَرْبِيئَةً إِلَى الْمَعْنَى، قَالَ الرَّاعِبُ: الْجُهْدُ: وَالْجُهْدُ طَاقَةٌ وَالْمَشَقَّةُ وَاللَّاحِتْهَادُ أَخَذُ النَّفْسِ بِيَدِ الطَّاقَةِ وَتَحْمِلُ الْمَشَقَّةَ، يُقَالُ: جَهَدْتُ رَأْيِي وَاجْتَهَدْتُ؛ أُنْعَبْتُ بِالْفِكْرِ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ: لَمْ يَرِدْ بِهِ الرَّأْيُ الَّذِي يَسْتَحَقُّ لَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، أَوْ يَخْطُرُ بِبَالِهِ عَلَى غَيْرِ أَصْلٍ مِنْ كِتَابٍ، أَوْ سُنَّةٍ، بَلْ أَرَادَ رَدَّ الْقَضِيَّةِ إِلَى مَعْنَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ مِنْ طَرِيقِ الْقِيَاسِ وَفِي هَذَا إِبْتِثَاتٌ لِلْحُكْمِ بِالْقِيَاسِ، قَالَ الْمُظْهَرُ: أَيْ إِذَا وَجَدْتُ مُشَابَهَةً بَيْنَ التَّيْنِ أَنَا بَصَدَدِهَا وَبَيْنَ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي جَاءَ نَصٌّ فِيهَا مِنَ الْكِتَابِ، أَوْ السُّنَّةِ؛ حَكَمْتُ فِيهَا بِحُكْمِهِمَا؛ مِثَالُهُ: جَاءَ النَّصُّ بِتَحْرِيمِ الرِّبَا فِي الْبُرِّ وَلَمْ يَحْيِ نَصٌّ فِي الْبَطِيخِ فَاسْتَشْفَعْتُ بِالْبَطِيخِ عَلَى الْبُرِّ لَمَّا وَجَدْتُ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ عِلَّةٍ الْمُطْعُومِيَّةِ، وَقَاسَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْحِصَّ عَلَى الْبُرِّ لَمَّا وَجَدْتُ بَيْنَهُمَا مِنْ عِلَّةٍ الْكَيْلِيَّةِ... قَالَ الطَّيْبِيُّ: فِيهِ اسْتِصْوَابٌ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَأْيِهِ فِي اسْتِعْمَالِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: كُلُّ مُحْتَجِدٍ مُصِيبٌ، وَلَا ارْتِيَابَ أَنَّ الْمُحْتَجِدَ إِذَا كَدَحَ فِي التَّحْرِيِّ وَأَتَعَبَ الْفَرِيحَةَ فِي الْاسْتِنْبِاطِ؛ اسْتَحَقَّ أَجْرًا لِلذَّكَاءِ وَهَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى أَصْلِ الْجَاهِدِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ، فَلَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يُصِيبَ فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْمَسْأَلِ، أَوْ يُخْطِئَ فِيهَا؛ فَإِذَا أَصَابَ؛ ثَبَتَ لَهُ أَجْرَانِ أَحَدُهُمَا بِاعْتِبَارِ أَصْلِ الرَّأْيِ، وَالْآخَرُ بِاعْتِبَارِ الْإِصَابَةِ، وَإِذَا أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ بِاعْتِبَارِ الْأَصْلِ، وَلَا عَلَيْهِ شَيْءٌ بِاعْتِبَارِ الْخَطَأِ " مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٦/٢٤٢٨)

فَالْعَرَضُ مِنْهُ أَنَّهُ آخِرَ رَأْيِهِ وَنَظَرُهُ وَاجْتِهَادُهُ إِلَى مَا بَعْدَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَوْ قَدَّمَهُ قَبْلَ الْبَحْثِ عَنْهُمَا لَكَانَ مِنْ بَابِ التَّقْدِيمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}؛ لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْهُ: نَهَى أَنْ يَتَكَلَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ كَلَامِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَقْتَنُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَيْءٍ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ شَرَائِعِ دِينِكُمْ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} بقول ولا فعل. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} قَالَ: لَا تَدْعُوا قَبْلَ الْإِمَامِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَاسًا كَانُوا يَقُولُونَ: لَوْ أَنْزَلَ فِي كَذَا كَذَا، وَكَذَا لَوْ صُنِعَ كَذَا، فَكِرَهُ اللَّهُ ذَلِكَ، وَتَقَدَّمَ فِيهِ. {وَأَتَّقُوا اللَّهَ} أَي: فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أَي: لِأَقْوَالِكُمْ {عَلِيمٌ} بِنِّيَاتِكُمْ. سَمِيعٌ " أَي لِقَوْلِكُمْ. ٣٩٦

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله. وهو منهج في التلقي والتنفيذ. وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته.. وهو منبثق من تقوى الله، وراجع إليها. هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم.. وكل ذلك في آية واحدة قصيرة، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصلية الكبيرة.

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله - ﷺ - أن يدلي به وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمر أو حكم، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول ..

وحتى لكان رسول الله - ﷺ - يسألهم عن اليوم الذي هم فيه، والمكان الذي هم فيه، وهم يعلمونه حق العلم، فيتخرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم. خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله! عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، وَرَجُلٍ - أَفْضَلُ فِي نَفْسِي مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ -، حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَطَبْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟»، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَتْ بِالْبَلَدَةِ الْحَرَامِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفْرًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» ٣٩٧ ..

٣٩٦ - تفسير ابن كثير ت سلامة (٧/ ٣٦٤)

٣٩٧ - صحيح البخاري (٢/ ١٧٦) (١٧٤١) وصحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥) ٢٩ - (١٦٧٩)

فهذه صورة من الأدب، ومن التحرج، ومن التقوى، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء، وذلك التوجيه، وتلك الإشارة إلى التقوى، تقوى الله السميع العليم.^{٣٩٨}



[ش (أليس ذو الحجة) ذو مرفوع على أنه اسم ليس وخبرها محذوف والتقدير أليس ذو الحجة هذا الشهر. (كفاراً) تفعلون ما يفعل الكفار في ضرب رقاب المسلمين أو يكفر بعضكم بعضاً فيستبيح قتله]
^{٣٩٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٧٣)

٧٠. النهي عن رفع الصوت عند رسول الله والتأدب في خطابه

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) } سورة الحجرات

إذا نطقتُمْ وأنتم في حضرة الرسول ﷺ فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، ولا تبلعوا بها الحد الذي يبلغه صوته، لأن ذلك يدل على قلة الاحترام. وإذا كلمتموه وهو صامت فلا تبلعوا به الجهر الذي يدور بينكم، وإذا كلمتموه فلا تقولوا له: يا محمد، بل خاطبوه بالنبوة (كيا نبي الله، ويا رسول الله) مخافة أن يؤدي ذلك التهاون في توفية الرسول حقه من الاحترام، إلى الكفر وبطلان الأعمال، وأنتم لا تشعرون بذلك .

والذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وهم يتكلمون في حضرته إجلالاً واحتراماً، هم الذين ابتلى الله قلوبهم بالمحن والتكاليف الشاقة، حتى تطهرت وصفت بما كابدته من الصبر على المشاق، وهؤلاء لهم معفرة من ربهم لذنوبهم، ولهم ثواب عظيم على غضهم أصواتهم عند النبي احتراماً منهم له، وتعظيماً لقدره .

اجتمع أناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن كان نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يكن ملكاً نعش بجناحه، فجاؤوا إلى حجرة النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد. فأنزله الله تعالى هذه الآية الكريمة تاديباً لهؤلاء وأمثالهم، الذين يأتون إلى النبي، وهو في بيته مع نسائه، فينادونه بأصوات مرتفعة ليخرج إليهم .

ويقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ أَكْثَرُهُمْ جُهَالٌ بِمَا يَجِبُ لِلرَّسُولِ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالاحْتِرَامِ .
ولو أن هؤلاء الذين جاؤوك ينادونك من وراء الحجرات بأصوات مرتفعة، صبروا ولم ينادوك حتى تخرج أنت إليهم، لكان ذلك خيراً لهم عند الله، لأنهم يكتفون بذلك قد برهنوا على ما يكتفون به لك من الاحترام والتوقير .^{٣٩٩}

يا أيها الذين آمنوا.. ليقروا النبي الذي دعاهم إلى الإيمان.. أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.. ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم، وهم غير شاعرين ولا عالمين، ليتقوه!
ولقد عمل في نفوسهم ذلك النداء الحبيب، وهذا التحذير المرهوب، عمله العميق الشديد:

^{٣٩٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال كاد الخبير أن يهلكا - أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما -
 رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ - حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس
 أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر ما
 أردت إلا خلافي. قال ما أردت خلافا. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله (يا أيها الذين
 آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) الآية. قال ابن الزبير فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ - بعد هذه
 الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعنى أبا بكر^{٤٠٠}

وعن أبي بكر قال: لما نزلت هذه الآية { يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي }
 قلت: يا رسول الله والله لا أكلّمك إلا كأخي السرار^{٤٠١}.

وعن محمد بن إبراهيم، قال: لما نزلت: { إن الذين يعصون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين
 امتحن الله قلوبهم للتقوى } قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ﷺ لا أكلّمك إلا كأخي السرار حتى
 ألقى الله^{٤٠٢}.

وعن مقاتل بن حيان قال: بلغنا والله أعلم في قوله: { يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله
 ورسوله } [الحجرات: ١] يعنى بذلك في شأن القتال، وما يكون من شرائع دينهم، يقول: لا تقدموا في
 ذلك شيئا إلا بأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية، واستعمل عليهم منذر بن عمرو
 الأنصاري، [ص: ١٠٠] فذكر قصة قتل بني عامر لتلك السرية وهم أصحاب بئر معونة، ورجوع ثلاثة
 منهم إلى المدينة، وأنهم لقوا رجلين من بني سليم جاثين من عند رسول الله ﷺ فقالوا: من أنتم؟
 فاعتزبا إلى بني عامر، فقال التفر: إنا ناثرون بإخواننا فقتلوهما، فأتوا النبي ﷺ، فأخبروه الخبر، فكره
 النبي ﷺ قتلهم، فنزلت هذه الآية يقول: لا تقطعوا دونه أمرا ولا تعجلوا به وقوله: { يا أيها الذين آمنوا
 لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي } [الحجرات: ٢] نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري
 كان إذا جلس النبي ﷺ يرفع صوته إذا تكلم، فلما نزلت هذه الآية انطلق مهموما حزينا، فمكث في
 بيته أياما مخافة أن يكون قد حبط عمله، وكان سعد بن عبادة جاره، فانطلق حتى أتى النبي ﷺ
 ﷺ، فأخبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: " اذهب فأخبر ثابت بن قيس أنك لم تكن بهذه الآية، وكنت من
 أهل النار بل أنت من أهل الجنة " فأخرج إلينا فتعاهدنا، ففرح ثابت بذلك، ثم أتى النبي ﷺ، فلما
 أبصره النبي ﷺ قال: " مرحبا برجل يزعم أنه من أهل النار، بل غيرك من أهل النار، وأنت من أهل
 الجنة " فكان بعد ذلك إذا جلس إلى النبي ﷺ يخفض صوته حتى ما يكاد أن يسمع الذي
 يليه، فنزلت فيه: { إن الذين يعصون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم

^{٤٠٠} - صحيح البخاري - المكثر [١٦ / ١٤٥] (٤٨٤٥)

^{٤٠١} - مسند البزار (المطبوع باسم البحر الزخار [١ / ١٢٧] (٥٦) ضعيف - يعني كالمس!

^{٤٠٢} - مصنف ابن أبي شيبة [١٩ / ١٣٥] (٣٥٥٧٦٩) صحيح مرسل

لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ { [الحجرات: ٣] فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ . وَقَوْلُهُ: { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ { [الحجرات: ٤] فَهُمْ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ كَانُوا يُنَادُونَ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ
وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ يَا مُحَمَّدُ أَلَا تَخْرُجُ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ { [الحجرات: ٥] وَكَانَ فِيهِمْ عِيْنَةُ بَنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا
التَّفْسِيرُ: عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ أَسْطَ مِنْ هَذَا، وَبِمَعْنَاهُ ذَكَرَهُ الْكَلْبِيُّ فِيمَا رَوَاهُ عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ
عَبَّاسٍ أْتَمَّ مِنْ ذَلِكَ وَرُوِيَ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ
فَقَالَ: " وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أُكَلِّمُكَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
٤٠٣

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ: { لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ { [الحجرات: ٢]، قَالَ أَبُو بَكْرٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " لَا أُكَلِّمُكَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ " وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: "
كَانَ عُمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا حَدَّثَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَهُ كَأَخِي السَّرَّارِ لَا يَسْمَعُهُ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ " ٤٠٤
وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ {، إِلَى قَوْلِهِ { وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }، وَكَانَ تَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ
الصَّوْتِ، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَبِطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَجَلَسَ فِي
أَهْلِهِ حَزِينًا، فَتَفَقَّدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ: تَفَقَّدَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا لَكَ؟
فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ، وَأَجْهَرُ بِالْقَوْلِ حَبِطَ عَمَلِي، وَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَوْا النَّبِيَّ
ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ: لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قَالَ أَنَسُ: وَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَنَحْنُ نَعْلَمُ
أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ كَانَ فِيْنَا بَعْضُ الْإِنْكَشَافِ، فَجَاءَ تَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ
شَّمَّاسٍ، وَقَدْ تَحَنَّنَ وَكَبَسَ كَفَنَهُ، فَقَالَ: بِسْمَا تَعُوذُونَ أَفْرَانَكُمْ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. ٤٠٥ .

فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب، وذلك التحذير الرعيب وهكذا تأدبوا
في حضرة رسول الله ﷺ خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون. ولو كانوا يشعرون لتداركوا
أمرهم! ولكن هذا المتزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه!
ونوه الله بتقواهم، وغضبهم أصواتهم عند رسول الله - ﷺ - في تعبير عجيب:
«إِنَّ الَّذِينَ يَعُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى . لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» ..

٤٠٣ - شعب الإيمان [٣/ ٩٩] (١٤٣٠) صحيح مرسل

٤٠٤ - شعب الإيمان [٣/ ١٠١] (١٤٣١) صحيح لغيره

٤٠٥ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٤/ ٣٥٤] (١٢٣٩٩) ١٢٤٢٦ صحيح

فالتقوى هبة عظيمة، يختار الله لها القلوب، بعد امتحان واختبار، وبعد تخلص وتمحيص، فلا يضعها في قلب إلا وقد تمهياً لها، وقد ثبت أنه يستحقها. والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم وهياها لتلقي تلك الهبة. هبة التقوى. وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم. إنه الترغيب العميق، بعد التحذير المخيف. بما يري الله قلوب عباده المختارين، ويعدها للأمر العظيم. الذي نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور.

وقد روي عن السائب بن يزيد قال كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال اذهب فأتني بهدين. فجئته بهما. قال من أثنما - أو من أين أثنما قالاً من أهل الطائف. قال لو كنتم من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ^{٤٠٦} وعرف علماء هذه الأمة وقالوا: إنه يكره رفع الصوت عند قبره - ﷺ - كما كان يكره في حياته - عليه الصلاة والسلام - احتراماً له في كل حال.

ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله - ﷺ - في العام التاسع. الذي سمي «عام الوفود».. لمجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة، ودخولهم في الإسلام، وكانوا أعراباً جفاة، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي ﷺ المطللة على المسجد النبوي الشريف: يا محمد. اخرج لنا. فكره النبي - ﷺ - هذه الجفوة وهذا الإزعاج. فتزل قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

عن أبي مسلم البجلي، قال: سمعتُ زيد بن أرقم رضي الله عنه يقول: أتى ناسُ النبي ﷺ فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن كان نبياً فنحن نشهدُ به، وإن يكن ملكاً عشنا في جنابه. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك. فأتوا النبي ﷺ يُنادونه من حجراته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله عز وجل: { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُذُنِي فَمَدَّهَا، وَجَعَلَ يَقُولُ: لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يَا زَيْدُ، لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَكَ يَا زَيْدُ^{٤٠٧}.

وعن البراء بن عازب في قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) قَالَ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنْ ذَمِّي شَيْنٌ فَقَالَ النَّبِيُّ - ﷺ - « ذَاكَ اللَّهُ تَعَالَى »^{٤٠٨}. فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون. وكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي - ﷺ - وحرمة رسول الله القائد والمربي. ويبيّن لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم. وحب إليهم التوبة والإنابة، ورغبتهم في المغفرة والرحمة.

^{٤٠٦} - صحيح البخارى - المكثر [٢ / ٣١٦] (٤٧٠)

^{٤٠٧} - المطالب العلية بزوائد المسانيد الثمانية [١٥ / ٢٥١] (٣٧٢٢) حسن

^{٤٠٨} - سنن الترمذى - المكثر [١٢ / ٩٢] (٣٥٧٧) صحيح

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع، وتجاوزوا به شخص رسول الله - ﷺ - إلى كل أستاذ وعالم. لا يزعمونه حتى يخرج إليهم ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم.. يحكى عن أبي عبيد - العالم الزاهد الراوية الثقة - أنه قال: «ما دقت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه»^{٤٠٩}

هذا متضمن للأدب، مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، واحترامه، وإكرامه، فأمر [الله] عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين، خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم، و [أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا، حتى يقول، ولا يأمر، حتى يأمر، فإن هذا، حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته، وتفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدى، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ، على قوله، فإنه متى استبان سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنا ما كان .

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، {عَلِيمٌ} بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات .

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال .

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} وهذا أدب مع رسول الله ﷺ، في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له، صوته معه، فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يخفض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكريم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره، في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك، محذوراً، وخشية أن يجبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه، من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غضض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم، المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب (٤) وفي هذا، دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والحن، فمن لازم أمر الله، واتباع رضاه، وسارع

^{٤٠٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٧٥)

إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه
لا يصلح للتقوى.^{٤١٠}



^{٤١٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٩٩)

٧١. وجوب التثبت عند نقل الأخبار

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } (٦) سورة الحجرات

وهذا أيضاً، من الآداب التي على أولي الألباب، التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمرتلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال، بغير حق، بسبب ذلك الخير ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كذب، ولم يعمل به، ففيه دليل، على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب، مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقاً^{٤١١}.

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى المؤمنين بأن لا يتعجلوا في حسم الأمور وتصديق الأخبار التي يأتيهم بها أناس فسقة، غير مأمونين في خلقهم ودينهم وروايتهم، لأن من لا يبالي بالفسق فهو أجدر بأن لا يبالي بالكذب، ولا يتحاماه، وقد يؤدي التعجيل في تصديق الأنباء التي ينقلها الفاسق إلى إصابة أناس أبرياء بأذى، والمؤمنون يجهلون حالهم، فيكون ذلك الإيذاء سبباً لندامتهم على ما فرط منهم^{٤١٢}.

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي. وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير. وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة. فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها. ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا، أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ، فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ».. ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماها. فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها. فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء. ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق. فنصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع. فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع.

٤١١ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٠٠)

٤١٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٤٩٧، بترقيم الشاملة آليا)

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ - على صدقات بني المصطلق.

عن الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ الْخَزَاعِيِّ، قَالَ: قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ، فَدَخَلْتُ فِيهِ، وَأَقْرَرْتُ بِهِ، فَدَعَانِي إِلَى الزَّكَاةِ، فَأَقْرَرْتُ بِهَا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرْجِعْ إِلَيَّ قَوْمِي، فَأَدْعُوهُمْ إِلَيَّ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَدَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَنْ اسْتَجَابَ لِي جَمَعْتُ زَكَاتَهُ، فَيُرْسَلُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَسُولًا لِإِبَانِ كَذَا وَكَذَا لِيَأْتِيكَ مَا جَمَعْتُ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا جَمَعَ الْحَارِثُ الزَّكَاةَ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لَهُ، وَبَلَغَ الْإِبَانَ الَّذِي أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبْعَثَ إِلَيْهِ، احْتَبَسَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ، فَلَمْ يَأْتِهِ، فَظَنَّ الْحَارِثُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهِ سَخَطَةٌ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ، فَدَعَا بِسَرَوَاتِ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ وَقَّتَ لِي وَقْتًا يُرْسَلُ إِلَيَّ رَسُولُهُ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدِي مِنَ الزَّكَاةِ، وَلَيْسَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْخُلْفُ، وَلَا أَرَى حَيْسَ رَسُولِهِ إِلَّا مِنْ سَخَطَةٍ كَانَتْ، فَاذْطَلِقُوا، فَنَاتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ إِلَى الْحَارِثِ لِيَقْبِضَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِمَّا جَمَعَ مِنَ الزَّكَاةِ، فَلَمَّا أَنْ سَارَ الْوَلِيدُ حَتَّى بَلَغَ بَعْضَ الطَّرِيقِ، فَرَّقَ، فَارْجَعَ، فَاتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْحَارِثَ مَنَعَنِي الزَّكَاةَ، وَأَرَادَ قَتْلِي، فَضْرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْبَعْثَ إِلَى الْحَارِثِ، فَأَقْبَلَ الْحَارِثُ بِأَصْحَابِهِ إِذْ اسْتَقْبَلَ الْبَعْثَ وَفَصَلَ مِنْ الْمَدِينَةِ، لِقَبِيهِمُ الْحَارِثُ، فَقَالُوا: هَذَا الْحَارِثُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ، قَالَ لَهُمْ: إِلَى مَنْ بُعِثْتُمْ؟ قَالُوا: إِلَيْكَ، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَعَثَ إِلَيْكَ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ، فَزَعَمَ أَنَّكَ مَنَعْتَهُ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَهُ، قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا رَأَيْتُهُ بَتَّةً، وَلَا أَتَانِي فَلَمَّا دَخَلَ الْحَارِثُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: مَنَعْتَ الزَّكَاةَ، وَأَرَدْتَ قَتْلَ رَسُولِي؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُهُ، وَلَا أَتَانِي، وَمَا أَقْبَلْتُ إِلَّا حِينَ احْتَبَسَ عَلَيَّ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ كَانَتْ سَخَطَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَسُولِهِ. قَالَ: فَنَزَلَتْ الْحُجُرَاتُ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ، فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }، إِلَى هَذَا الْمَكَانِ: { فَضَلًّا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ٤١٣.

وعن أم سلمة، قالت: "بعث رسول الله ﷺ رجلا في صدقات بني المصطلق بعد الواقعة، فسمع بذلك القوم، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ، قال: فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، قالت: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون قال: فبلغ القوم رجوعه قال: فأتوا رسول الله ﷺ فصنفوا له حين صلى الظهر فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله بعثت إلينا رجلا مصدقا، فسررنا بذلك، وقررت به أعيننا، ثم إنه رجع من بعض الطريق، فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله ومن رسوله، فلم يزلوا يكلمونه حتى جاء بلال، وأذن

٤١٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٦/ ٣٠٠] (١٨٤٥٩) ١٨٦٥٠ وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٧/ ٣٧٠] حسن لغیره

بصلاة العصر؛ قال: ونزلت (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) .^{٤١٤}

وعن ابن عباس، قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)... الآية، قال: كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم أحد بني عمرو بن أمية، ثم أحد بني أبي معيط إلى بني المصطلق، ليأخذ منهم الصدقات، وإنه لما أتاهم الخبر فرحوا، وخرجوا لِيَتَلَقَّوْا رسول الله ﷺ، وإنه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه، رجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا، فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم، إذ أتاه الوفد، فقالوا: يا رسول الله، إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أن يكون إنما رده كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فأنزل الله عذرهم في الكتاب، فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) .^{٤١٥}

وعن قتادة، قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ)... حتى بلغ (بِجَهَالَةٍ) وهو ابن أبي معيط الوليد بن عقبة، بعثه نبي الله ﷺ مصدقا إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه، فهأهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام، فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد، وأمره أن يتشبت ولا يعجل، فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونهم؛ فلما جاءوا أخبروا خالدًا أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد، فرأى الذي يعجبه، فرجع إلى نبي الله ﷺ، فأخبره الخبر، فأنزل الله عز وجل ما تسمعون، فكان نبي الله يقول: التَّبَيُّنُ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ .^{٤١٦}

وعن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه، قال: " التَّائِي مِنَ اللَّهِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَمَا شَيْءٌ أَكْثَرُ مَعَادِيرَ مِنَ اللَّهِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْحَمْدِ " .^{٤١٧}

وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حبان. وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة. والله أعلم .^{٤١٨}

ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه

^{٤١٤} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٢ / ٢٨٦] حسن لغيره

^{٤١٥} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٢ / ٢٨٧] حسن لغيره

^{٤١٦} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٢ / ٢٨٨] صحيح مرسل

^{٤١٧} - شعب الإيمان [٦ / ٢١١] (٤٠٥٨) صحيح - زيادة مني

^{٤١٨} - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٧ / ٣٧٢]

أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعتل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحوازر فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء. وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار.

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذي نقله الوليد بن عقبة، وإشارة على النبي - ﷺ - أن يعجل بعقابهم. وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضبا لمنع الزكاة. فجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» ..

وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت. ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة فتقول السماء للأرض وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم، وتقوم خطاهم أو لا بأول، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم. ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة، ويسر أحدهم الخالجة فإذا السماء تطلع، وإذا الله - جل جلاله - ينبئ رسوله بما وقع، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع .. إنه لأمر. وإنه لنبا عظيم. وإنما لحقيقة هائلة. قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه. ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ» .. اعلموا هذا وقدره حق قدره، فهو أمر عظيم.

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله. ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحا وقوة، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله - ﷺ - لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر. وأنه لو أطاعهم فيما يعين لهم أنه خير لعنتوا وشق عليهم الأمر. فالله أعرف منهم بما هو خير لهم، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ» ..

وفي هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله، وأن يدخلوا في السلم كافة، ويستسلموا لقدر الله وتدييره، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه. ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه، وحرك قلوبهم لحيته، وكشف لهم عن جماله وفضله، وعلق أرواحهم به وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية، وكان هذا كله من رحمته وفيضه: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ. أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. فَضَلْنَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ..

واختيار الله لفريق من عباده، ليشرح صدورهم للإيمان، ويحرك قلوبهم إليه، ويزينه لهم فتفهو إليه أرواحهم، وتدرك ما فيه من جمال وخير .. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة، دونها كل فضل وكل نعمة. حتى نعمة الوجود والحياة أصلا، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى!

وسأتي قوله تعالى: «بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ» فنفضل القول إن شاء الله في هذه المنة.

والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير، وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر: الكفر والفسوق والعصيان. وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة. وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة.. وفي تقرير هذه الحقيقة إيجاء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم قبل أن يختار لهم الله. فالله يختار لهم الخير، ورسول الله - ﷺ - فيهم، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير. وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب.

وإن الإنسان ليعجل، وهو لا يدري ما وراء خطوته. وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح. «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». ولو استسلم لله، ودخل في السلم كافة، ورضي اختيار الله له، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره، وأرحم له وأعود عليه بالخير. لاستراح وسكن. ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى.. ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء^{٤١٩}.



^{٤١٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٧٨)

٧٢. تحريم السخرية بالمؤمنين ونحوها

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بِنَسِ الْإِسْمِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (١١) سورة الحجرات

يَنْهَى اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ السُّخْرِيَةِ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، وَاسْتِصْغَارِ شَأْنِهِمْ، فَقَدْ يَكُونُ الْمُسْتَهْزَأُ بِهِ أَكْرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنَ السَّاحِرِ مِنْهُ، وَالْمُحْتَقِرُ لَهُ، فَيُظَلِّمُ نَفْسَهُ بِتَحْقِيرِ مَنْ وَقَرَهُ اللهُ .
كَمَا نَهَى تَعَالَى النِّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ عَنْ أَنْ يَسْخَرْنَ مِنْ أَحْوَاتِهِنَّ الْمُؤْمِنَاتِ، فَقَدْ تَكُونُ الْمُسْتَهْزَأُ بِهَا أَكْرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنَ السَّاحِرَةِ مِنْهَا. كَمَا أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَلَّا يَعْتَابَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَبِأَنْ لَا يَعْيبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَبِأَنْ لَا يَطْعَنَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ. وَاعْتَبَرَ تَعَالَى لَمَزَ الْإِنْسَانَ أَخَاهُ كَلِمَتَهُ نَفْسَهُ، وَطَعَنَهُ أَخَاهُ كَطَعَنَهُ فِي نَفْسِهِ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ جِسْدٌ وَاحِدٌ إِنْ اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى. كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

وَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَا يَدْعُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِلِقَبٍ يَسُوؤُهُ أَوْ يَكْرَهُهُ، كَأَنْ يَقُولَ مُسْلِمٌ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا فَاجِرٌ، أَوْ يَا غَادِرٌ أَوْ يَا عَدُوَّ اللهِ أَوْ يَا مُنَافِقٌ...

وَبَسَّتِ الصِّفَةُ، وَبَسَّ الْإِسْمُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُذَكَّرُوا بِالْفُسُوقِ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِي الْإِيمَانِ. وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْ نَبْزِهِ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِلِقَبٍ يَكْرَهُهُ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْ لَمَزِهِ إِخْوَتَهُ، وَمَنْ سَخَّرِيَتَهُ مِنْهُمْ.. فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَكْسَبُوا عِقَابَ اللهِ بِعَصِيَانِهِمْ إِيَّاهُ ٤٢٠.

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس. وهي من كرامة المجموع. ولمز أي فرد هو لمز لذات النفس، لأن الجماعة كلها وحدة، كرامتها واحدة.

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا». وبيناهم أن يسخر قوم بقوم، أي رجال برجال، فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله.

وفي التعبير إيجاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد.

٤٢٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٠٢، بترقيم الشاملة آليا)

وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير. والرجل القوي من الرجل الضعيف، والرجل السوي من الرجل المؤوف. وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام. وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم. وذو العصبية من اليتيم ...

وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة، والغنية من الفقيرة .. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين! ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإيحاء، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلزمها فقد لزمها: «وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» .. واللمز: العيب. ولكن للفظه جرسا وظلا فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية! ومن السخرية واللمز التنايز بالألقاب التي يكرهها أصحابها، ويجسون فيها سخرية وعبسا. ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به - ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه. وهذا. وقد غير رسول الله - ﷺ - أسماء وألقابا كانت في الجاهلية لأصحابها، أحس فيها بحسه المرفه، وقلبه الكريم، بما يزرى بأصحابها، أو يصفهم بوصف ذميم. والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية في ميزان الله، وبعد استجاشة شعور الأخوة، بل شعور الاندماج في نفس واحدة، تستثير معنى الإيمان، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنايز: «يُسَّ السُّمُّ: الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ». فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان! وتهدد باعتبار هذا ظلما، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك: «وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» .. وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم.^{٤٢١}



^{٤٢١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٨٦)

٧٣. النهي عن اجتناب سوء الظن

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } (١٢) سورة الحجرات

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الظَّنِّ السَّيِّئِ بِإِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ ظَنَّ الْمُؤْمِنِ السَّوِّءَ إِثْمٌ، لِأَنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ فِعْلِهِ، فَإِذَا فَعَلَهُ فَهُوَ آثَمٌ. ثُمَّ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَتَجَسَّسَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، كَمَا نَهَاَهُمْ عَنْ أَنْ يَتَّبِعَ بَعْضُهُمْ عَوْرَاتِ بَعْضٍ، وَعَنْ أَنْ يَبْحَثَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنْ سَرَائِرِ أَخِيهِ، وَهُوَ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ فَضْحَهُ، وَكَشَفَ عَيْبِهِ. ثُمَّ نَهَاَهُمْ عَنْ أَنْ يَغْتَابَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَعَنْ أَنْ يَذْكُرَ أَحَدُهُمْ أَحَاهُ. مِمَّا يَكْرَهُ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَخَلْقِهِ وَخُلُقِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ وَزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ.. (كَمَا عَرَّفَ رَسُولُ اللَّهِ الْاِغْتِيَابَ) وَشَبَّهَ تَعَالَى اِغْتِيَابَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ بِأَكْلِهِ لَحْمَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُمْ إِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَكْرَهُ أَكْلَ لَحْمِ أَخِيهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ تَعَافُ ذَلِكَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَكْرَهُوا أَنْ يَغْتَابُوهُ فِي حَيَاتِهِ. وَاللَّغِيْبَةُ ثَلَاثَةٌ وَجُوهٌ:

الْغَيْبَةُ - وَهِيَ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ فِي أَخِيهِ مَا هُوَ فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ .

الْإِفْكَ - أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ .

الْبُهْتَانُ - أَنْ يَقُولَ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُهُ .

ثُمَّ حَثَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَعَلَى تَرْكِ الْغَيْبَةِ، وَمُرَاقَبَتِهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَإِذَا تَأَبَّأُوا وَانْتَهَوْا وَاسْتَعْفَرُوا رَبَّهُمْ عَمَّا فَرَطَ مِنْهُمْ، اسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ، فَتَابَ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُ تَعَالَى كَثِيرُ التَّوْبِ عَلَى عِبَادِهِ، كَثِيرُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ. ٤٢٢

فأما هذه الآية فتقيم سياجا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمان الأشخاص به وكراماتهم وحررياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب ..

وتبدأ - على نسق السورة - بذلك النداء الحبيب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» .. ثم تأمرهم باجتنباب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نمبا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك. وتعلل هذا الأمر: «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ». وما دام النهي منصبا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إيجاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلا، لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إيما! بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء، فيقع في الإثم ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخذشها ظن السوء والبراءة التي لا تلوثها

٤٢٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٥٠٣، بترقيم الشاملة آليا)

الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع. وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون! ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب. بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريئة ولا يصح الظن أساسا لمحاكمتهم. بل لا يصح أن يكون أساسا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم. عَنْ حَارِثَةَ بْنِ الثُّعْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ثَلَاثٌ لَزِمَاتٌ لَأُمَّتِي الطَّيْرَةُ، وَالْحَسَدُ، وَسُوءُ الظَّنِّ" فَقَالَ رَجُلٌ: فَمَا يُذْهِبُهُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّنْ كُنَّ فِيهِ؟ قَالَ: "إِذَا حَسَدْتَ فَاسْتَغْفِرْ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تَحَقِّقْ، وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَأَمْضِهِ" ٤٢٣ ..

وَعَنِ الْأَعْرَجِ، قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: يُؤْتَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَخْطُبَنَّ رَجُلٌ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكَحَ أَوْ يَتَرَكَ، وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلَا بَيْنَهَا وَخَالَتِهَا وَلَا تَصُومُ امْرَأَةٌ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا تَأْذَنُ فِي بَيْتِهِ وَهُوَ شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمَا تَصَدَّقْتَ بِهِ مِمَّا يَكْتَسِبُ عَلَيْهَا فَإِنَّ لَهُ نِصْفَ أُجْرَةٍ وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ إِنْاءَ صَاحِبَتِهَا لِتُنْكَحَ؛ فَإِنَّمَا شَاءَ مَا قُدِّرَ لَهَا" ٤٢٤ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: "مِنْ أَسْوَأِ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ؛ الَّذِي يَأْتِي هُوَ لَاءَ بَوَاجِهِ وَهُوَ لَاءَ بَوَاجِهِ" وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا" ٤٢٥

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم، وحررياتهم، واعتبارهم. حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه. ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم! فأى مدى من صيانة كرامة الناس وحررياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص! وأين أقصى ما تتعجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلا، وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير؟

ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باحتتاب الظنون: «وَلَا تَحَسَّسُوا» ..

٤٢٣ - الْأَحَادُ وَالْمَثَانِي لِأَبْنِ أَبِي عَاصِمٍ (١٧٣٣) حسن لغيره

الطيرة: التشاؤم بالطير، فقد كان أحدهم إذا كان له أمر فرأى طيرا طار يمنة استبشر واستمر بأمره، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وتطلق على التشاؤم مطلقا

٤٢٤ - شعب الإيمان [١٣/ ٤٧٧] (١٠٦٤١) و صحيح البخارى - المكثر [١٧/ ٢١٠] (٥١٤٣) وصحيح مسلم - المكثر [١٦/ ٤١٣] (٦٧٠١) زيادة مني

٤٢٥ - شعب الإيمان [١٣/ ٤٧٧] (١٠٦٤٢) صحيح زيادة مني

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات، والاطلاع على السوءات.

والقرآن يقاوم هذا العمل الديء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سواهم. وتمشيا مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب. ولكن الأمر أبعد من هذا أثرا. فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية. إن للناس حرياتهم وحرماهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال. ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم. ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمانات الأئفس والبيوت والأسرار والعورات.

حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس. فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم. وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم.

وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة.

عَنْ زَيْدٍ، قَالَ: أَتَى ابْنُ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا فُلَانٌ تَقَطَّرَ لِحَيْتُهُ خَمْرًا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: "أَنْ قَدْ نُهَيْنَا عَنِ التَّجَسُّسِ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرُ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذُ بِهِ" ٤٢٦
وَعَنْ مُجَاهِدٍ، قَوْلُهُ: "وَلَا تَجَسَّسُوا قَالَ: " خُذُوا مَا ظَهَرَ لَكُمْ وَدَعُوا مَا سَتَرَ اللَّهُ " ٤٢٧

وَعَنْ دُخَيْنِ أَبِي الْهَيْثَمِ، كَاتِبِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: إِنْ لَنَا جِرَانًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَأَنَا دَاعِ الشَّرْطِ لِيَأْخُذُوهُمْ، فَقَالَ عُقْبَةُ: وَيَحْكُ، لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ عِظْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ، قَالَ: إِنِّي نَهَيْتُهُمْ، فَلَمْ يَنْتَهُوا، وَإِنِّي دَاعِ الشَّرْطِ لِيَأْخُذُوهُمْ، فَقَالَ عُقْبَةُ: وَيَحْكُ، لَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ، فَكَأَنَّمَا اسْتَحْيَى مَوْوُودَةَ فِي قَبْرِهَا ٤٢٨.

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّكَ إِنْ أَتَبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ قَالَ: يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةٌ سَمِعَهَا مُعَاوِيَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا ٤٢٩.

٤٢٦ - تفسير ابن أبي حاتم [١٢/ ٢٤٠] صحيح

٤٢٧ - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٢٩٣٠١) صحيح

٤٢٨ - صحيح ابن حبان [٢/ ٢٧٤] (٥١٧) حسن - الموعودة: الطفلة المقتولة ظلما ودفنت وهي حية وكانت هذه عادة جاهلية

٤٢٩ - صحيح ابن حبان [١٣/ ٧٣] (٥٧٦٠) صحيح

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ وَكَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ وَعَمْرٍو بْنِ الْأَسْوَدِ وَالْمَقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ وَأَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ -
ﷺ قَالَ « إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيْبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ » ٤٣٠ .

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: حَظَبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ فِي الْخَدْرِ يُنَادِي بَأَعْلَى صَوْتِهِ: " يَا
مَعْشَرَ، مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَخْلُصِ الْإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ، لَمْ تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعُ
عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبِعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبِعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ " ٤٣١

وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قَلْبَهُ لَا
تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعُ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ
يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ. ٤٣٢

وَعَنِ السُّدِّيِّ، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِذَا هُوَ بِضَوْءِ نَارٍ، وَمَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
مَسْعُودٍ، قَالَ: فَاتَّبَعَ الضَّوْءَ حَتَّى دَخَلَ دَارًا، فَإِذَا سَرَّاجٌ فِي بَيْتٍ، فَدَخَلَ، وَذَلِكَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَإِذَا شَيْخٌ
جَالِسٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ شَرَابٌ وَقَيْنَةٌ تُعْنِيهِ، فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى هَجَمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: " مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ مُنْكَرًا
أَفْبَحَ مِنْ شَيْخٍ يَنْتَظِرُ أَجَلَهُ "، فَرَفَعَ الشَّيْخُ رَأْسَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: " بَلَى، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا صَنَعْتَ أَنْتَ
أَفْبَحُ، إِنَّكَ قَدْ تَجَسَّسْتَ، وَقَدْ نُهِيَ عَنِ التَّجَسُّسِ، وَدَخَلْتَ بَعِيرَ إِذْنٍ، فَقَالَ عُمَرُ: " صَدَقْتَ، ثُمَّ خَرَجَ
عَاصِبًا عَلَى يَدَيْهِ يَبْكِي "، قَالَ: " تَكَلَّمْتُ عُمَرَ أُمُّهُ إِنْ لَمْ يَعْفِرْ لَهُ رَبُّهُ، يَجِدُ هَذَا، كَانَ يَسْتَخْفِي هَذَا مِنْ
أَهْلِهِ "، فَيَقُولُ: " الْآنَ رَأَى عُمَرَ فَيَتَّبِعُ فِيهِ "، قَالَ: " وَهَجَرَ الشَّيْخُ مَجَالِسَ عُمَرَ حِينًا، فَبَيْنَمَا عُمَرُ بَعْدَ
ذَلِكَ بَعِيدٌ جَالِسٌ، إِذَا هُوَ بِهَ قَدْ جَاءَ شَبِيهُ الْمُسْتَخْفِي، حَتَّى جَلَسَ فِي أُخْرِيَاتِ النَّاسِ، فَرَأَاهُ عُمَرُ، فَقَالَ: "
عَلَيَّ بِهَذَا الشَّيْخِ "، فَقِيلَ لَهُ: أَجِبْ . فَقَامَ وَهُوَ يَرَى أَنَّ عُمَرَ سَيَبْتُهُ بِمَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: " اذْنُ مَنِّي
"، فَمَا زَالَ يُدْنِيهِ حَتَّى أَجْلَسَهُ بِجَانِبِهِ، فَقَالَ: " اذْنُ مَنِّي اذْنُكَ، فَالْتَقِمِ اذْنَهُ "، فَقَالَ: أَمَا وَالَّذِي بَعَثَ
مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ رَسُولًا، مَا أَخْبَرْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بِمَا رَأَيْتُ مُنْكَرًا، وَلَا ابْنَ مَسْعُودٍ، فَإِنَّهُ كَانَ
مَعِي، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اذْنُ مَنِّي اذْنُكَ، فَالْتَقِمِ اذْنَهُ، فَقَالَ: وَلَا أَنَا وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ
رَسُولًا، مَا عُدْتُ إِلَيْهِ حَتَّى جَلَسْتُ مَجْلِسِي، فَرَفَعَ عُمَرُ صَوْتَهُ فَكَبَّرَ، مَا يَدْرِي النَّاسُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يُكَبِّرُ
٤٣٣ "

وَعَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: " احمِلُوا إِخْوَانَكُمْ عَلَى مَا كَانَ فِيهِمْ، كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَحْمِلُواكُمْ
عَلَى مَا كَانَ فِيكُمْ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ رَأَيْتَ مِنْهُ سَقَطَةٌ، أَوْ زَلَةٌ وَقَعَ مِنْ عَيْنَيْكَ، فَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ يُرَى ذَاكَ
مِنْهُ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ صَلَاةٌ فَلَا تَعْجَبَنَّ بِهَا فَلَعَلَّ صَاحِبَ وَالشَّعْرَ يَنَالُ مِنْ أَحْيَانًا أَوْفَى

٤٣٠ - سنن أبي داود - المكتز [٤/ ٤٢٣] (٤٨٩١) حسن

٤٣١ - شعب الإيمان [١٢/ ١٦٠] (٩٢١٣) صحيح

٤٣٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٦/ ٦٦٠] (١٩٧٧٦) ٢٠٠١٤ صحيح

٤٣٣ - التَّوْبِيخُ وَالتَّنْبِيهُ لِأَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ (١٠٠) حسن مرسل

لِلْعَهْدِ مِنْكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْكَ وَفَاءً لِلْعَهْدِ فَلَا تَعْجَبَنَّ بِهِ، فَلَعَلَّ الَّذِي تَمَقُّتُهُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ، أَوْصَلَ لِلرَّحِمِ مِنْكَ، وَإِنْ كَانَ مِنْكَ صَلَةً لِلرَّحِمِ فَلَا تَعْجَبَنَّ بِهَا، فَلَعَلَّ الَّذِي تَمَقُّتُهُ فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ أَكْثَرَ صَوْمًا مِنْكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ سِنًا مِنْكَ، فَقُلْ: هَذَا خَيْرٌ مِنِّي، صَامَ وَصَلَّى، وَعَبَدَ اللَّهَ قَبْلِي، وَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَصْعَرُ مِنْكَ، فَقُلْ: هُوَ أَحَدْتُ مِنِّي سِنًا، وَأَقْلُ ذُنُوبًا، وَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَقْلُ مِنْكَ مَالًا، فَقُلْ: هَذَا خَيْرٌ مِنِّي، زُوَيْتَ عَنْهُ الدُّنْيَا خَيْرًا، وَ..... وَأَعْطَيْتُهَا..... إِلَّا أَنْ يَرَحِمَنِي رَبِّي، وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ أَكْرَمُوكَ فَذَا، وَلَكَ حَقًّا، فَقُلْ: هَذَا الْفَضْلُ مِنْهُمْ عَلَيَّ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ اسْتَحْفُوا بِكَ، فَقُلْ: هَذَا خَطِي وَذَنْبِي، وَاتَّخِذْ أَكْبَرَ الْمُسْلِمِينَ لَكَ أَبَا، وَأَوْسَطَهُمْ لَكَ أَحَا، وَأَصْغَرَهُمْ لَكَ ابْنَا، أَيْسُرُكَ أَنْ تُعَذِّبَ الطِّفْلَ الصَّغِيرَ؟ أَوْ تَظْلِمَ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ؟ وَلْتَشْغَلْكَ ذُنُوبُكَ عَنْ ذُنُوبِ الْعِبَادِ، وَتُذَابُ أَيَّامِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَيْسَعَكَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ، عَمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيَّ الْعِبَادِ، وَتُذَابُ أَيَّامِ الْحَيَاةِ فِي الشُّكْرِ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَالرَّيَابِ، وَانظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَالْعَبِيدِ، وَلَا تُعَاهِدِ الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَحِيكَ، وَتَدْعُ الْجِدْعَ مُعْتَرِضًا فِي عَيْنِكَ وَاللَّهُ مَا عَدَلْتُ^{٤٣٤}

فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب، بل صار سياجا حول حرمان الناس وحقوقهم وحرمانهم، فلا تمس من قريب أو بعيد، تحت أي ذريعة أو ستار. فأين هذا المدى البعيد؟ وأين هذا الأفق السامق؟ وأين ما يتعجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظا لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مائة عام؟

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب، يبدعه القرآن إبداعا: «وَلَا يَغْتَابُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا؟ فَكَرِهْتُمُوهُ» ..

لا يغتاب بعضكم بعضا. ثم يعرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه.. ميتا..! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب! ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستحاشة شعور التقوى، والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ».. ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب. ويتشدد فيه رسول الله - ﷺ - متمشيا مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفرع من شبح الغيبة البغيض. فعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال «أُتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ» قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «ذِكْرُكَ أَحَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَحِي مَا أَقُولُ قَالَ «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^{٤٣٥}.

^{٤٣٤} - التَّوْبِيخُ وَالتَّنْبِيهُ لِأَبِي الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيِّ (٩٢)

^{٤٣٥} - صحيح مسلم - المكثر [١٦/ ٤٨١] ٦٧٥٨

وعن عائشة قالت قلت للنبي ﷺ - حسبك من صفة كذا وكذا قال غير مُسَدِّدٍ تَعْنِي قَصِيرَةً. فَقَالَ « لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مَزَجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ ». قَالَتْ وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ « مَا أَحَبُّ أُنْسَى حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا »^{٤٣٦}.

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ، يَخْمُسُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ. فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ^{٤٣٧}.

وعن عبد الرحمن بن الصامت، ابن عم أبي هريرة، أنه سمع أبا هريرة يقول: جاء الأَسْلَمِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ بِالزُّنَى، يَقُولُ: أَتَيْتُ امْرَأَةً حَرَامًا، وَفِي ذَلِكَ يَعْزُضُ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَقْبَلَ فِي الْخَامِسَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَهُ: أَنْكَبْتَهَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: هَلْ غَابَ ذَلِكَ مِنْكَ فِيهَا كَمَا يَغِيبُ الْمَرُودُ فِي الْمُكْحَلَةِ وَالرِّشَاءُ فِي الْبَيْرِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: فَهَلْ تَدْرِي مَا الزُّنَى؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُ مِنْهَا حَرَامًا مِثْلَ مَا يَأْتِي الرَّجُلَ مِنْ امْرَأَتِهِ حَلَالًا، قَالَ: فَمَا تُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرْجَمَ فَرَجِمَ. فَسَمِعَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: انظُرُوا إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدَعُهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ الْكَلْبِ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْهُمَا، فَمَرَّ بِجِيْفَةِ حِمَارٍ سَائِلٍ بِرِجْلِهِ، فَقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟ فَقَالَا: نَحْنُ ذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمَا: كَلَا مِنْ جِيْفَةِ هَذَا الْحِمَارِ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَنْ يَأْكُلُ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا نَلْتُمَا مِنْ عَرَضِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْفًا أَشَدُّ مِنْ أَكْلِ هَذِهِ الْجِيْفَةِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ الْآنَ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ^{٤٣٨}. ويمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع، وانتهى إلى ما صار إليه: حلما يمشي على الأرض، ومثلا يتحقق في واقع التاريخ. وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم وحرمتهم وضمائمهم، وضمائمهم هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه.^{٤٣٩}



^{٤٣٦} - سنن أبي داود - المكثر [٤/ ٤٢٠] ٤٨٧٧ صحيح

^{٤٣٧} - مسند أحمد (عالم الكتب) [٤/ ٥٧٦] (١٣٣٤٠) ١٣٣٧٣ صحيح

^{٤٣٨} - صحيح ابن حبان [١٠/ ٢٤٣] ٤٣٩٩ صحيح

^{٤٣٩} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١٨٧)

٧٤. جزاء من آمن بالله واتقى

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمَشُّونَ بِهِ وَيُغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } (٢٨) سورة الحديد
يَحْتُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ
مَعَاصِيهِ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَعِدُّهُمْ إِنَّ هُمْ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ، وَاتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ
بِأَنَّهُ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ ضِعْفَيْنِ جَزَاءً لَهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِنَبِيِّهِمْ وَبِالْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ قَبْلَهُ، وَأَجْرًا آخَرَ
لِإِيْمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُ سَيَجْعَلُ لَهُمْ هُدًى وَنُورًا يَمَشُّونَ بِهِ فَيَجَنَّبُهُمُ الْعَمَى وَالضَّلَالَةَ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يَغْفِرُ
لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ شَاءَ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ، يَقْبَلُ إِنْ أَحْسَنُوا التَّوْبَةَ
إِلَيْهِ . ٤٤٠

وَعَنْ قَتَادَةَ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: { أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ } [القصص: ٥٤] " عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَتَمِيمُ
الدَّارِيُّ، وَالْحَارُودُ الْعَبْدِيُّ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ أَنْزَلَتْ فِيهِمْ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ: قَدْ أُوتُوا أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِإِيْمَانِهِمْ [ص: ٢٩٩٠] بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَبِالْكِتَابِ الْآخِرِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: { يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ } [الحديد: ٢٨] فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: قَدْ
أَعْطُوا كَمَا أُعْطِينَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: { لَمَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ } [الحديد: ٢٩] حَتَّى حَتَمَ الْآيَةَ " ٤٤١
وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: " لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ { أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ } [القصص: ٥٤]
فَخَرَجَتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَتْ: مَنْ آمَنَ مِنَّا بِكِتَابِكُمْ وَكُتَابِنَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ
بِكِتَابِكُمْ فَلَهُ أَجْرٌ كَأَجْرِكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمَشُّونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } [الحديد: ٢٨]
فَرَادَهُمُ التَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ { لَمَّا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدُرُونَ } [الحديد: ٢٩] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ " ٤٤٢
يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِينَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، خَافُوا اللَّهَ بِأَدَاءِ
طَاعَتِهِ، وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ
وَقَوْلُهُ: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ يُعْطِكُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ لِإِيْمَانِكُمْ بَعِيسَى ﷺ، وَالْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ
ﷺ، ثُمَّ إِيْمَانِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حِينَ بُعِثَ نَبِيًّا وَأَصْلُ الْكِفْلِ: الْحِطُّ، وَأَصْلُهُ: مَا يَكْتَفِلُ بِهِ الرَّكَّابُ، فَيَحْسِبُهُ

٤٤٠ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٨١، بترقيم الشاملة آليا)

٤٤١ - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (٢٩٩٠/٩) (١٦٩٨٢) حسن مرسل

٤٤٢ - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (٢٩٩٠/٩) (١٦٩٨٣) حسن مرسل

وَيَحْفَظُهُ عَنِ السَّقُوطِ؛ يَقُولُ: يُحَصِّنُكُمْ هَذَا الْكِفْلُ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا يُحَصِّنُ الْكِفْلُ الرَّكَّابَ مِنَ
السَّقُوطِ " ٤٤٣

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: " بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ جَعْفَرًا فِي سَعِينِ رَاكِبًا إِلَى النَّجَاشِيِّ يَدْعُوهُ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَدَعَاَهُ فَاسْتَجَابَ لَهُ وَأَمَنَ بِهِ؛ فَلَمَّا كَانَ انْصِرَافُهُ قَالَ نَاسٌ مِمَّنْ قَدْ آمَنَ بِهِ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا: ائِذَنْ لَنَا، فَنَاتِي هَذَا النَّبِيَّ، فَنُسَلِّمُ بِهِ، وَنُسَاعِدُ هَوْلَاءَ فِي الْبَحْرِ، فَإِنَّا أَعْلَمُ بِالْبَحْرِ مِنْهُمْ، فَقَدِمُوا مَعَ جَعْفَرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ تَهَيَّأَ النَّبِيُّ ﷺ لَوْفَعَةٍ أُحْدٍ؛ فَلَمَّا رَأَوْا مَا بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ الْخِصَاصَةِ وَشِدَّةِ الْحَالِ، اسْتَأْذَنُوا النَّبِيَّ ﷺ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ لَنَا أَمْوَالًا، وَنَحْنُ نَرَى مَا بِالْمُسْلِمِينَ مِنَ الْخِصَاصَةِ، فَإِنْ أَذْنَتْ لَنَا انْصِرَفْنَا، فَجَنُنَا بِأَمْوَالِنَا، وَوَأَسِينَا الْمُسْلِمِينَ بِهَا فَأَذْنِ لَهُمْ، فَانْصِرَفُوا، فَأَتَوْا بِأَمْوَالِهِمْ، فَوَاسَوْا بِهَا الْمُسْلِمِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ " {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ} [القصص: ٥٢] إِلَى قَوْلِهِ: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ٣] " فَكَانَتْ التَّفَقُّهُ الَّتِي وَاسَّوَا بِهَا الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِقَوْلِهِ: " {يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: ٥٤] " فَخَرُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَمَا مَنْ آمَنَ مِنَّا بِكِتَابِكُمْ وَكُتَابِنَا فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكِتَابِكُمْ فَلَهُ أَجْرٌ كَأَجْرِكُمْ، فَمَا فَضَّلَكُمْ عَلَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ " {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ {ص: ٤٣٧} مِنْ رَحْمَتِهِ} [الحديد: ٢٨] " فَجَعَلَ لَهُمْ أَجْرَهُمْ، وَزَادَهُمُ الثَّوْرَ وَالْمَغْفِرَةَ، ثُمَّ قَالَ: " لِكَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَهَكَذَا قَرَأَهَا سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لِكَيْلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ " ٤٤٤

وَعَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ: " إِنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْبَعِ مَنَازِلَ: رَجُلٌ كَانَ مُؤْمِنًا بَعِيسَى، فَأَمَّنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ وَرَجُلٌ كَانَ كَافِرًا بَعِيسَى، فَأَمَّنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَهُ أَجْرٌ وَرَجُلٌ كَانَ كَافِرًا بَعِيسَى، فَكَفَرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَبَاءَ بِغَضَبِ عَلَى غَضِبِ وَرَجُلٌ كَانَ كَافِرًا بَعِيسَى مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، فَمَاتَ بِكَفْرِهِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَبَاءَ بِغَضَبِ " ٤٤٥

وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ آمَنَ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْكِتَابِ الْآخِرِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَادَّبَهَا وَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ " ٤٤٦

وَعَنْ نَافِعٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّمَا آجَالُكُمْ فِي آجَالٍ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَّمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وَإِنَّمَا مَتْلُكُمْ وَمِثْلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ

٤٤٣ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٤٣٤)

٤٤٤ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٤٣٦) صحيح مرسل

٤٤٥ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٤٣٨) صحيح مرسل

٤٤٦ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢/ ٤٣٩) صحيح

اسْتَأْجَرَ عُمَّالًا، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنْ بُكْرَةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، أَلَا فَعَمَلْتَ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، أَلَا فَعَمَلْتَ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغَارِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، أَلَا فَعَمَلْتُمْ "

وفي رواية عن عبد الله بن دينار، أنه سمع ابن عمر، يقول: قال رسول الله ﷺ: " مثل هذه الأمة أو قال: أممي ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجل قال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قالت اليهود: نحن، فعملوا؛ قال: فمن يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ قالت النصارى: نحن، فعملوا، وأنتم المسلمون تعملون من صلاة العصر إلى الليل على قيراطين، فعضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً، وأقل أجرًا قال: هل ظلمتكم من أجوركم شيئًا؟ قالوا: لا قال: فذاك فضلي أوتيته من أشاء " ٤٤٧

وعن أبي أمامة الباهلي، أنه قال: شهدت خطبة رسول الله ﷺ يوم حجة الوداع، فقال قولًا كثيرًا حسنًا جميلًا، وكان فيها: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله مثل الذي لنا، وعليه مثل الذي علينا ومن أسلم من المشركين فله أجره، وله مثل الذي لنا، وعليه مثل الذي علينا» ٤٤٨

وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله {كفليين من رحمته} أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ. ويحتمل أن يكون الأمر عامًا يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله {كفليين من رحمته} لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التشية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى. {ويجعل لكم ثورًا تمشون به} أي: يعطيكم علما وهدى ونورا تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات. {والله ذو الفضل العظيم} فلا يستكثر هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك. [وقوله] {لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرُونَ على شيءٍ من فضلِ الله} أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانًا عامًا، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم بأنهم لا يقدرُونَ على شيءٍ من فضلِ الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: {لئن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري} ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من

٤٤٧ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢ / ٤٤٠) صحيح

٤٤٨ - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢ / ٤٤١) حسن

رحمته، ونور، ومغفرة، رغمًا على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا {أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتية من فضله، {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الذي لا يقادر قدره].^{٤٤٩}

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدهم القدر لهذا الدور الضخم، ناسًا من الناس. منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم، واكتمل تصورهم للعقيدة الجديدة، وخلصت نفوسهم لها، ووصلوا.. وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير واندجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود، فأصبحوا بهذا طرفًا من قدر الله في الكون لا يجدون في أنفسهم عوجًا عنه، ولا يجدون في خطاهم تخلفًا عن خطاه، ولا يجدون في قلوبهم شيئًا إلا الله.. كانوا كما جاء عنهم في هذه السورة: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ. أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ. أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»..

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد - وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب - حتى قبل الفتح - ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي، ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة. كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دخل في القلوب، وتربص بالفرص، وذبذبة بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين. سواء معسكرات المشركين أو اليهود! ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهودًا ضخمة، وصبرًا طويلًا، وعلاجًا بطيئًا، في صغار الأمور وفي كبارها.. كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الإسلام، وقام بها رسول الإسلام - ﷺ - ببناء النفوس التي تهض ببناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، وتقوم على منهج الله، تفهمه وتحققه، وتنقله إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة، لا في صحائف وكلمات..^{٤٥٠}

ونداؤهم على هذا النحو: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان، وتذكير برعايته حق رعايته واستحاشة للصلة التي تربطهم برهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب. وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله. فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص.. معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار. اتقوا الله وآمنوا برسوله.. «يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ».. أي يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب. فرحمة الله لا تتجزأ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها. ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض.. «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ». وهي هبة لدية يودعها

^{٤٤٩} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٤٣)

^{٤٥٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٧٥)

الله القلوب التي تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله. هبة تنير تلك القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر فلا تتخبط، ولا تلتوي بها الطريق.. «نوراً تمشون به»..

«وَيَغْفِرْ لَكُمْ. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»... فالإنسان إنسان مهما وهب من النور. إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق. إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله.. «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ». لتنالوا كفلين من رحمة الله. ويكون لكم ذلك النور تمشون به. وتدرككم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير.. «لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ. وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ». فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأهم أبناء الله وأحباؤه: «وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا».. «وَقَالُوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى »..

فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على احتجاز شيء من فضله، وأن الفضل بيده يؤتية من يشاء، غير مقصور على قوم، ولا محجوز لطائفة، ولا محدود ولا قليل: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»..

وهي دعوة فيها تخصيص واستجاشة واستشارة للسباق إلى الجنة والرحمة. تختتم بها السورة ختاماً يتناسق مع سياقها كله، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح. في تجرد وإخلاص.

وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير. وهي في بدئها وسياقها وختامها وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة، وشوطا بعد شوط.. هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة، يعلمهم كيف يحاطبون الناس، وكيف يوظفون الفطرة، وكيف يستحيون القلوب! إنها درس رباني من صانع القلوب، وممثل القرآن، وخالق كل شيء بقدر. وفي هذه المدرسة الإلهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون...^{٤٥١}



^{٤٥١} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٧٣)

٧٥. تحريم التناجي بالإثم والعدوان

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) } إِنَّمَا التَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) } سورة المجادلة يُؤدِّبُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّأَ يَكُونُوا كَالْكَافِرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فِي أُنْدِيَتِكُمْ وَخَلَوَاتِكُمْ، فَلَا تَفْعَلُوا كَمَا يَفْعَلُ أَوْلِيَاكُمُ الْكُفَّارُ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَنْ وَالآهَمُ عَلَى ضَلَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَتَنَاجَوْا بِمَا هُوَ خَيْرٌ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا تَفْعَلُونَ وَفِيمَا تُذَرُونَ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ سَيُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ .

إِنَّمَا التَّنَاجِي بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ مِنْ وَسْوَسةِ الشَّيْطَانِ وَتَرْبِيئِهِ، وَالشَّيْطَانُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَيَّامِهِمْ أَنَّ هَذِهِ النَّجْوَى تَضُرُّهُمْ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا، إِلَّا بِإِرَادَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَهْتَمُّوا بِنَجْوَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلْيَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ .^{٤٥٢}

ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور، ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيدا عن قيادتهم. الأمر الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية، وروح التنظيم الإسلامي، التي تقتضي عرض كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء، وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة. كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة، وما يؤدي الجماعة المسلمة - ولو لم يكن قصد الإيذاء قائما في نفوس المتناجين - ولكن مجرد إثارهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم، قد يؤدي إلى الإيذاء، وإلى عدم الطاعة.

وهنا يناديهم الله بصفاتهم التي تربطهم به، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».. لينهاهم عن التناجي - إذا تناجوا - بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. ويبين لهم ما يليق بهم من الموضوعات التي يتناجى بها المؤمنون: «وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى».. لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما. والبر: الخير عامة. والتقوى: اليقظة والرقابة لله سبحانه، وهي لا توحى إلا بالخير. ويذكرهم بمخافة الله الذي يحشرون إليه، فيحاسبهم بما كسبوا. وهو شاهده ومحصيه. مهما ستروه وأخفوه.

روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كُنْتُ أَخْذًا بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ عَرَضَ لَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنِينَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ

^{٤٥٢} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٩١، بترقيم الشاملة آليا)

كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَعْفُوهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: {هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} ٤٥٣.

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرَزِ الْمَازِنِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا آخِذٌ بِيَدِ ابْنِ عُمَرَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَظَنَّ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوْجَبَ، قَالَ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ، وَإِنِّي أَعْفُوهَا لَكَ الْيَوْمَ، وَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: {هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود]. ٤٥٤.

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرَزِ الْمَازِنِيِّ قَالَ بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - آخِذٌ بِيَدِهِ إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - فِي النَّجْوَى فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَقُولُ «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفُوهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» ٤٥٥.

ثم ينفرهم من التناحي والمسارة والتدسس بالقول في خفية عن الجماعة المسلمة، التي هم منها، ومصالحتهم ومصالحتها، وينبغي ألا يشعروا بالانفصال عنها في شأن من الشئون. فيقول لهم: إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانعزال بالحديث تبت في قلوبهم الحزن والتوجس، وتخلق حوا من عدم الثقة وأن الشيطان يغري المتناحين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوسواس والهموم. ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد: «إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَكَانُوا يَصْبِرُونَ» - إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ - وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» .. فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله. فليس وراء ذلك توكل، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون! وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهي عن التناحي في الحالات التي توقع الريبة

٤٥٣ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣٩٦/ ٢] ٥٤٣٦ صحيح

وقوله: "يدني"، قال: من الإيداء بمعنى التقريب، أي: يقربه منه. وقوله: "كنفه"، قال: بفتحتين، في "القاموس": كنف الله محرمة: حرزه وستره، وهو الجانب والظل والناحية.

وقوله: "ويقرره"، قال: أي: يحمله على الإقرار بذنوبه.

٤٥٤ - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٦/ ٣٥٥] (٧٣٥٦) صحيح

٤٥٥ - صحيح البخاري - المكثر [٩٥/ ٩] ٢٤٤١

وتزعزع الثقة وتبعث التوجس: جاء في الصحيحين عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث »^{٤٥٦}.

وعن عبد الله قال قال رسول الله - ﷺ - « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه »^{٤٥٧}.

وهو أدب رفيع، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك. فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر، أو ستر عورة، في شأن عام أو خاص، فلا مانع من التشاور في سر وتكتم. وهذا يكون عادة بين القادة المسؤولين عن الجماعة. ولا يجوز أن يكون تجمعاً جانبياً بعيداً عن علم الجماعة. فهذا هو الذي نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول. وهذا هو الذي يفتت الجماعة أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة.

وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا. ووعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة المؤمنة، لأن الله حارسها وكائنها وهو شاهد حاضر في كل مناجاة، وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر. ولن يضر الشيطان المؤمنين.. «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».. وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطن من مواطن الوعد والجزم، لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم..

«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».. فهو الحارس الحامي، وهو القوي العزيز، وهو العليم الخبير. وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب. ولا يكون في الكون إلا ما يريد. وقد وعد بحراسة المؤمنين. فأبي طمأنينة بعد هذا وأي يقين؟^{٤٥٨}



^{٤٥٦} - صحيح البخارى- المکتز [٢١ / ٥٤] ٦٢٨٨ و صحيح مسلم- المکتز [١٤ / ٣٧٦] ٥٨٢٣

^{٤٥٧} - صحيح مسلم- المکتز [١٤ / ٣٧٨] ٥٨٢٥

^{٤٥٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٨٥)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } (١١)

يُيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ: مَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ فِي مَجَالِسِ الْقِتَالِ، فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ فِي مَنَازِلِكُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْقِيَامِ مِنْ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ فَقُومُوا (انشُرُوا)، لِأَنَّ الرَّسُولَ كَانَ يُؤْتِرُ الْإِنْفِرَادَ لِتُدْبِيرِ شُؤْنِ الْمُؤْمِنِينَ .

(وَلَا يَنْبَغِي لِقَادِمٍ أَنْ يُقِيمَ أَحَدًا مِنْ مَجْلِسِهِ لِيَجْلِسَ مَكَانَهُ) . فَإِذَا انْفَسَحَ الْمُؤْمِنُونَ وَنَشَرُوا، امْتِنَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُهُمْ، وَيَرْفَعُ الْعَالَمِينَ مِنْهُمْ خَاصَّةً، دَرَجَاتٍ كَثِيرَةً فِي الثَّوَابِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ .^{٤٥٩}

هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسيح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلًا لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للمجالس شيئًا، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه، وسع الله عليه. { وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا } أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض، { فَانشُرُوا } أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان. { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } فيجازي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بأدابه والعمل بمقتضاه.^{٤٦٠}

ويظهر من بعض الروايات التي حكى سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين، مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد في السياق.

عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ الْآيَةُ: كَانُوا إِذَا رَأَوْا مَنْ جَاءَهُمْ مُقْبِلًا ضَنُّوا بِمَجْلِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُفْسِحَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ " ٤٦١

وَعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، قَالَ: "أُنزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ يَوْمَ جُمُعَةٍ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ فِي الصُّفَّةِ وَفِي الْمَكَانِ ضَيْقٌ، وَكَانَ يُكْرِمُ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَجَاءَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَقَدْ سَبَقُوا إِلَى الْمَجْلِسِ، فَقَامُوا حِيَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ النَّبِيُّ

^{٤٥٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٩٣، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٦٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٤٦)

^{٤٦١} - جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٣١٢٥٨) صحيح مرسل

عَلَيْهِمْ، ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى الْقَوْمِ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ، فَقَامُوا عَلَى أَرْجُلِهِمْ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يُوسَعَ لَهُمْ، فَعَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ، فَلَمْ يُفْسَحْ لَهُمْ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ بَدْرٍ: قُمْ يَا فُلَانُ، وَأَنْتَ يَا فُلَانُ، فَلَمْ يَزَلْ يُقِيمُهُمْ بَعْدَةَ النَّفَرِ الَّذِينَ هُمْ قِيَامٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أُقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ". رواه ابن أبي حاتم. ٤٦٢.

وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه. كما جاء في الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ - قَالَ « لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ » ٤٦٣...

وعن ابن عمر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا. ٤٦٤.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قَالَ: لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ أَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ. ٤٦٥.

وما ورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس. فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكانا في الصدر! فالآية تحض على الإفصاح للقادم ليجلس، كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل الجالس أن يرفع فيرفع. وهذا الأمر يجيء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة. لا من القادم.

والغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجاد الفسحة في المكان. ومتى رحب القلب اتسع وتسامح، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة، فأفسح لهم في المكان عن رضى وارتياح. فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتبارا من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طواعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال. مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك، من عدم تخطى الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه.

وإنما هي السماحة والنظام يقررهما الإسلام. والأدب الواجب في كل حال.

٤٦٢ - تفسير ابن أبي حاتم [١٢/ ٢٩٤] وتفسير ابن كثير - دار طيبة [٨/ ٤٥] دون سند

قال الطبري: " وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ، وَلَمْ يُخَصَّصْ بِذَلِكَ مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ مَجْلِسِ الْقِتَالِ، وَكُلِّ الْمَوْضِعِينَ يُقَالُ لَهُ مَجْلِسٌ، فَذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْمَجَالِسِ مِنْ مَجَالِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَجَالِسِ الْقِتَالِ . وَاحْتَلَفَتْ الْقُرَاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَهُ عَامَّةُ قُرَاءِ الْأَمْصَارِ: (تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ) عَلَى التَّوْحِيدِ غَيْرَ الْحَسَنِ الْبُصْرِيِّ وَعَاصِمٍ، فَإِنَّهُمَا قَرَأَا ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ عَلَى الْجَمَاعِ . وَبِالتَّوْحِيدِ قِرَاءَةُ ذَلِكَ عِنْدَنَا ؛ لِاجْتِمَاعِ الْحُجَّةِ مِنَ الْقُرَاءِ عَلَيْهِ " جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبْرِيِّ (٣١٢٦٢)

٤٦٣ - صحيح البخارى - المكنز [٢١/ ٢١] ٦٢٦٩

٤٦٤ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٢/ ٢٥٦] (٤٦٥٩) صحيح

٤٦٥ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣/ ٧٧٥] (١٠٧٧٦) ١٠٧٨٦ صحيح

وعلى طريقة القرآن في استجاشة الشعور عند كل تكليف، فإنه يعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله لهم وسعة: «فَافْسَحُوا لِلَّهِ لَكُمْ» . . ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلوناه عن طاعة لأمر الرسول برفعة في المقام: «وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» . . وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقي الأمر بالقيام.

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول - ﷺ - لتلقي العلم في مجلسه. فالآية تعلمهم: أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر، والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات. وفي هذا مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول - ﷺ - «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» . . فهو يجزي به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون، وبما وراءه من شعور مكنون.

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها، وتعليمها الفسحة والسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة. فالدين ليس بالتكاليف الحرفية، ولكنه تحول في الشعور، وحساسية في الضمير. .^{٤٦٦}



^{٤٦٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٨٧)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) } سورة المجادلة

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَدِّثُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، (أَيُّ مُسَارَةً)، أَنْ يُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ ذَلِكَ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ، وَتُؤَهِّلُهُمْ لِبُلُوغِ هَذَا الْمَقَامِ، وَفِي تَقْدِيمِ هَذِهِ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيْ مُنَاجَاةِ الرَّسُولِ ﷺ ثَوَابٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَتَزَكِيَةٌ لِلنُّفُوسِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ، مَنْ يُرِيدُ مُنَاجَاةَ الرَّسُولِ، مِمَّنْ يَمْلِكُونَ شَيْئًا يَسْتَطِيعُونَ التَّصَدُّقَ بِهِ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَتَّصِدَّقْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِلتَّخْفِيفِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ السُّؤَالِ فَقَدْ سَأَلَهُ قَوْمٌ حَتَّى شَقُّوا عَلَيْهِ، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ .

أَبْخَلْتُمْ بِالْمَالِ أَنْ تُنْفِقُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَخَفْتُمْ الْفَقْرَ إِنْ قَدَّمْتُمْ الصَّدَقَاتِ، وَوَسَّسَ إِلَيْكُمْ الشَّيْطَانُ أَنْ هَذَا الْإِنْفَاقَ فِيهِ ضِيَاعٌ لِلْمَالِ؟ فَمَا دُمْتُمْ لَمْ تُنْفِقُوا الْمَالَ، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ فَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ، وَرَخَّصَ لَكُمْ بِالْمُنَاجَاةِ مِنْ غَيْرِ تَقَدُّمِ صَدَقَاتٍ، فَتَدَارَكُوا ذَلِكَ بِالْمُنَاجَاةِ عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ عَلَى وَجْهَيْهَا الْأَكْمَلِ، وَعَلَى دَفْعِ الزَّكَاةِ عَنْ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ هُوَ وَرَسُولُهُ، وَأَنْتَهُوا عَمَّا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ، وَسَيَحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ .^{٤٦٧}

يَأْمُرُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّدَقَةِ، أَمَامَ مُنَاجَاةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَأْدِيًا لَهُمْ وَتَعْلِيمًا، وَتَعْظِيمًا لِلرَّسُولِ ﷺ، فَإِنَّ هَذَا التَّعْظِيمَ، خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَطْهَرُ أَيُّ: بِذَلِكَ يَكْثُرُ خَيْرُكُمْ وَأَجْرُكُمْ، وَتَحْصِلُ لَكُمْ الطَّهَارَةُ مِنَ الْإِنْسَانِ، الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا تَرَكَ احْتِرَامَ الرَّسُولِ ﷺ وَالْأَدَبَ مَعَهُ بِكَثْرَةِ الْمُنَاجَاةِ الَّتِي لَا ثَمْرَةَ تَحْتَهَا، فَإِنَّهُ إِذَا أَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيْ مُنَاجَاةِ صَارَ هَذَا مِيزَانًا لِمَنْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ، فَلَا يِيَالِي بِالصَّدَقَةِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَرَصٌ وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْخَيْرِ، وَإِنَّمَا مَقْصُودُهُ مَجْرَدُ كَثْرَةِ الْكَلَامِ، فَيَنْكَفُ بِذَلِكَ عَنِ الَّذِي يَشُقُّ عَلَى الرَّسُولِ، هَذَا فِي الْوَاحِدِ لِلصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّذِي لَا يَجِدُ الصَّدَقَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضِيقْ عَلَيْهِ الْأَمْرَ، بَلْ عَفَا عَنْهُ وَسَامَحَهُ، وَأَبَاحَ لَهُ الْمُنَاجَاةَ، بِدُونِ تَقْدِيمِ صَدَقَةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا.

ثُمَّ لَمَّا رَأَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَفَقَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَشَقَّةَ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ كُلِّ مُنَاجَاةٍ، سَهَّلَ الْأَمْرَ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُمْ بِتَرْكِ الصَّدَقَةِ بَيْنَ يَدَيْ الْمُنَاجَاةِ، وَبَقِيَ التَّعْظِيمُ لِلرَّسُولِ وَالْاحْتِرَامُ بِحَالِهِ لَمْ يَنْسَخْ، لِأَنَّ هَذَا الْحُكْمَ مِنْ بَابِ الْمَشْرُوعِ لِغَيْرِهِ، لَيْسَ مَقْصُودًا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُوَ الْأَدَبُ مَعَ

^{٤٦٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٩٩٤، بترقيم الشاملة آليا)

الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: {فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا} أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هينا على العبد، ولهذا قيده بقوله: {وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} أي: عفا لكم عن ذلك، {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، {وَأْتُوا الزَّكَاةَ} المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقيها. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، [ولهذا قال بعده:] {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} وهذا أشمل ما يكون من الأوامر. ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله، بامتنال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله.

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: {وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.^{٤٦٨}

كذلك يعلمهم القرآن أدبا آخر في علاقتهم برسول الله - ﷺ - فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله - ﷺ - ليحدثه كل فرد في شأن يخصه ويأخذ فيه توجيهه ورأيه أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله - ﷺ - الجماعية وعدم الشعور بقيمة وقته، وبجدية الخلوة به، وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال. فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله - ﷺ - ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة. في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ. ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ. فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ..

وقد عمل بهذه الآية الإمام علي - كرم الله وجهه - فكان معه - كما روي عنه - دينار فصرفه دراهم. وكان كلما أراد خلوة برسول الله - ﷺ - لأمر تصدق بدرهم! ولكن الأمر شق على المسلمين. عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ} [المجادلة] صَدَقَةٌ، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا تَرَى دِينَارًا؟ قُلْتُ: لَا يُطِيقُونَهُ، قَالَ: فَكَمْ؟ قُلْتُ: شَعِيرَةٌ، قَالَ: إِنَّكَ لَزَهِيدٌ، فَنَزَلَتْ {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ} [المجادلة] الآية، قَالَ: فَبِي خَفَّفَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.^{٤٦٩}

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيَّ: يَا عَلِيُّ، مُرَّهُمْ أَنْ يَتَّصِدَّقُوا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِكُمْ؟ قَالَ: بِدِينَارٍ، قَالَ: لَا يُطِيقُونَهُ، قَالَ: فَبِي خَفَّفَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَ: فَكَمْ؟

^{٤٦٨} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٤٧)

^{٤٦٩} - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٥ / ٣٩٠] (٦٩٤١) حسن

قَالَ: بِشَعِيرَةٍ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلِيُّ! إِنَّكَ لَزَهِيدٌ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ {أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قَالَ: فَكَانَ عَلِيٌّ، يَقُولُ: بِي خُفِّفَ عَنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. ٤٧٠

وعلم الله ذلك منهم. وكان الأمر قد أدى غايته، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها. فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب: «أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ؟ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»..

وفي هاتين الآيتين والروايات التي ذكرت أسباب نزولهما نجد لونا من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة في الصغير والكبير من شؤون الشعور والسلوك". ٤٧١



٤٧٠ - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [٣٩١ / ١٥] (٦٩٤٢) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٤٨ / ٢٣] حسن

٤٧١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٣٨٩)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) } سورة الحشر

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَفْعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَأَنْ يَتْرُكُوا مَا نَهَاَهُمْ عَنْهُ، وَلِيَنْظُرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يَنْفَعُهُ فِي آخِرَتِهِ يَوْمَ الْحِسَابِ، ثُمَّ يُؤَكِّدُ تَعَالَى الْأَمْرَ بِتَقْوَاهُ، مُبَيِّنًا أَنَّهُ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ، جَمِيعِهَا، وَسَيِّحَاسِبُهُمْ عَلَيْهَا .

وَلَا يَكُنْ حَالِكُمْ كَحَالِ قَوْمٍ نَسُوا ذِكْرَ اللَّهِ فَأَنْسَاهُمْ اللَّهُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ، وَيُنْقِذُ أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ مِنَ الْعَذَابِ. وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ذِكْرَهُ، وَفَعَلَ الْخَيْرَ، هُمُ الْفَاسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَلَا يَسْتَوِي فِي حُكْمِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَهْلُ النَّارِ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ، وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ. ^{٤٧٢}

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُوْجِبُهُ الْإِيمَانُ وَيَقْتَضِيهِ مِنْ لَزُومِ تَقْوَاهُ، سِرًّا وَعِلَانِيَةً، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَأَنْ يَرَاعُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَوْامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ، وَيَنْظُرُوا مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَمَاذَا حَصَلُوا عَلَيْهِ مِنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَضُرُّهُمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ إِذَا جَعَلُوا الْآخِرَةَ نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ وَقَبْلَةَ قُلُوبِهِمْ، وَاهْتَمُّوا بِالْمَقَامِ بِهَا، اجْتَهَدُوا فِي كَثْرَةِ الْأَعْمَالِ الْمُوَصَّلَةِ إِلَيْهَا، وَتَصَفِيَّتِهَا مِنَ الْقَوَاطِعِ وَالْعَوَاقِقِ الَّتِي تَوْقِفُهُمْ عَنِ السَّيْرِ أَوْ تَعْوِقُهُمْ أَوْ تَصْرِفُهُمْ، وَإِذَا عَلِمُوا أَيْضًا، أَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، لَا تُخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ، وَلَا تَضِيغُ لَدَيْهِ وَلَا يَهْمَلُهَا، أَوْ جِبَ لَهَا الْجِدُّ وَالْاجْتِهَادُ.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابهه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في

٤٧٢ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٢٢، بترقيم الشاملة آليا)

معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغيره، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواظب القرآن أعظم المواظب على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد.^{٤٧٣}

والتقوى حالة في القلب يشير إليها اللفظ بظلاله، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها. حالة تجعل القلب يقظا حساسا شاعرا بالله في كل حالة. خائفا متحرجا مستحيا أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها. وعين الله على كل قلب في كل لحظة. فمتى يأمن أن لا يراه؟! «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» ..

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه .. ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيده حسابته بمفرداته وتفصيلاته. لينظر ماذا قدم لغيره في هذه الصفحة .. وهذا التأمل كفيلا بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد. فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا، ونصيبه من البر ضئيلا؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا، ولا يكف عن النظر والتفكير! ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .. فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء .. والله خبير بما يعملون ..

ومناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا «كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» .. وهي حالة عجيبة. ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة الله فأنساهم أنفسهم» .. وهي حالة عجيبة. ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى. وفي

^{٤٧٣} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٣)

هذا نسيان لإنسانيته. وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زادا للحياة الطويلة الباقية، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد.

«أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» .. المنحرفون الخارجون.

وفي الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقا غير طريقهم وهم أصحاب الجنة. وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار: «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ. أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ» .. لا يستويان طبيعة وحالا، ولا طريقا ولا سلوكا، ولا وجهة ولا مصيرا. فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدا في طريق. ولا يلتقيان أبدا في سمة. ولا يلتقيان أبدا في خطوة. ولا يلتقيان أبدا في سياسة. ولا يلتقيان أبدا في صف واحد في دنيا ولا آخرة ..

«أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ» .. يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتا عنه. معروفا. وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير! ^{٤٧٤}



^{٤٧٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤١٠)

٧٩. تحريم اتخاذ اعداء الإسلام أولياء

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) } سورة الممتحنة

هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان حاطب من أهل بدر، هاجر من مكة، وترك فيها ماله وولده، ولم يكن هو من قريش. فلما أراد الرسول ﷺ فتح مكة دعا ربه الله أن يعمي الأخبار عن قريش، حتى يأخذهم على حين غرة، فكتب حاطب كتاباً إلى قريش يعرفهم بعزم الرسول ﷺ على غزوهم، وأرسله مع امرأة ليتخذ عندهم يداً. وأعلم الله تعالى رسوله بالكتاب، فأرسل الرسول ﷺ علياً والزبير، وأمرهما بالذهاب إلى روضة خاخ ليأتيها بالكتاب من المرأة، فلما جاءها طلبا منها الكتاب فأنكرته، فهدداها بتجريدها من ثيابها لتفتيشها، فأخرجت الكتاب من ضفائر شعرها .

وسأل الرسول ﷺ حاطباً عن الكتاب فاعترف وقال للرسول ﷺ إنه لم يفعل ذلك كُفراً، ولا ارتداداً عن الإسلام، وإنما ليتخذ به يداً عند قريش يحمي بها أهله وولده وماله. فقال الرسول ﷺ للصحابه إنه صدقكم. وقال عمر بن الخطاب دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال الرسول ﷺ: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

ويأمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأن لا يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً لهم يبلغونهم أخبار الرسول التي لا ينبغي لأعدائه أن يطلعوا عليها، وقد كفر هؤلاء الكفار بالله وبرسوله وكتابه، فكيف بكم بعد هذا تتخذونهم أنصاراً تسرون إليهم بما ينفعهم، ويضُرُّ الرسول والمسلمين، وقد أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كرهاً بالتوحيد، وإخلاص العباد لله، ولم يكن لهم ذنب يؤخذون عليه غير ذلك .

فإن كنتم، يا أيها المؤمنون، قد خرجتم مجاهدين في سبيلي، وابتغاء مَرْضَاتِي، فلا تولوا أعدائي، ومن يفعل هذه الموالاة، ويُفشي سرَّ الرسول لأعدائه، فقد حادَّ عن قصد الطريق الموصلة إلى الجنة .

إِنْ ظَفَرَ بِكُمْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ، الَّذِينَ ثَلَقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، يُظْهِرُوا لَكُمْ عَدَاوَتَهُمْ، وَيَمْدُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
وَأَلْسِنَتَهُمْ بِمَا يَسُوءُكُمْ: يُقَاتِلُونَكُمْ وَيَشْتُمُونَكُمْ وَيَتَمَنُونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِرَبِّكُمْ فَتَكُونُوا عَلَى مِثْلِ
دِينِهِمْ، فَكَيْفَ تُسْرُونَ إِلَى هَؤُلَاءِ بِالْمَوَدَّةِ وَهَذِهِ هِيَ حَالُهُمْ؟.

وَيُرِدُّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ الَّذِي اعْتَدَرَ بِرِعْيَتِهِ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى أَوْلَادِهِ وَأَمْوَالِهِ فِي مَكَّةَ، بَأَنَّ الْأَقْرَابَ
وَالْأَوْلَادَ، الَّذِينَ تَوَالَوْنَ الْكُفَّارَ مِنْ أَجْلِهِمْ، لَنْ يَنْفَعُوكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَدْفَعُوا عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ
اللَّهِ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَيَبِينُ أَقْرَابَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ. وَيَذْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ
عَمَّنْ سِوَاهُ، وَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ .

أَفَلَا تَأْسَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤَادُّونَ الْكَافِرِينَ بِأَيِّهِمْ إِبْرَاهِيمَ، وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِاللَّهِ: إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْإِلَهَةِ وَالْأَنْدَادِ، وَجَحَدْنَا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ
الْكُفْرِ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الْحَرْبَ
عَلَيْكُمْ، فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَسَنَبَقِي عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتُوحِّدُوهُ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا
شَرِيكَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا وَلَدًا، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ .

وَلَكُمْ فِي أَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أَسْوَأَ حَسَنَةٍ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسَلِكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ، وَلَا
تَسْتَشْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلَّا اسْتِغْفَارَهُ لِأَيِّهِ الَّذِي بَقِيَ مُقِيمًا عَلَى الْكُفْرِ، فَقَدْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ لِأَيِّهِ: إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللَّهُ، وَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ، فَالْأَمْرُ مُرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ
اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ. وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ
بِاللَّهِ، وَيَتَّبِعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمَ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجَّوْا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ: رَبَّنَا إِنَّا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي
جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا)، وَرَجَعْنَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَإِلَيْكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثْنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعُرْضِ
وَالْحِسَابِ. فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .

رَبَّنَا وَلَا تُسَلِّطْ قَوْمَنَا الْكَافِرِينَ عَلَيْنَا، وَلَا تَجْعَلْهُمْ يُظْهِرُونَ عَلَيْنَا، فَيَعْمَلُوا عَلَى فِتْنَتِنَا عَنْ دِينِنَا بِالْعَذَابِ
وَالنَّكَالِ. وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ظَهَرُوا عَلَيْنَا لِأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ فِيمَا يَقُولُونَ، وَفِيمَا يَعْبُدُونَ، رَبَّنَا وَاسْتُرْ
ذُنُوبَنَا عَنْ غَيْرِكَ، وَاعْفُ عَنَّا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، إِنَّكَ يَا رَبُّ أَنْتَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُضَامُ، الْحَكِيمُ
فِيمَا تَشْرَعُ، وَفِيمَا تَقْضِي .^{٤٧٥}

ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمة في قصة حاطب بن أبي
بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش (١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ

^{٤٧٥} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٢٩، بترقيم الشاملة آليا)

إليهم، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا [شكا و] نفاقا، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطبا، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالات الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبغي من مجهوده في العداوة شيئا، ويتنزه الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} اعملوا بمقتضى إيمانكم، من ولاية من قام بالإيمان، ومعاداة من عاداه، فإنه عدو لله، وعدو للمؤمنين.

فلا تتخذوا عدو الله {وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} أي: تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعثها النصره والموالاته، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر وليا، عادم المروءة أيضا، فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير، ويأمره به، ويحثه عليه؟! وما يدعو المؤمن أيضا إلى معاداة الكفار، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحق، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقفة، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنكم ضلال على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق يدل على بطلان قول من رده وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنهم {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ} أيها المؤمنون من دياركم، ويشردونكم من أوطانكم، ولا ذنب لكم في ذلك عندهم، إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته، لأنه رباهم، وأنعم عليهم، بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو الله تعالى.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقمتم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأبى دين، وأي مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟ " ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

{إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي} أي: إن كان خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وابتغاء مرضاة الله (٣) فاعملوا بمقتضى هذا، من موالات أولياء الله ومعاداة أعدائه، فإن هذا هو الجهاد في سبيله (٤) وهو من أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ويتبعون به رضاه.

{تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} أي: كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشر، {وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ} أي: موالات الكافرين

بعد ما حذركم الله منها {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهيجا للمؤمنين على عداوتهم، {إِنْ يَتَّقُواكُمْ} أي: يجدوكم، وتسبح لهم الفرصة في أذاكم، {يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً} [ص: ٨٥٦] ظاهرين {وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} بالقتل والضرب، ونحو ذلك. {وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ} أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} فإن هذا غاية ما يريدون منكم. فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تعني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا. {والله بما تعملون بصير} فلذلك حذركم من موالاته الكافرين الذين تضركم موالاتهم. قد كان لكم يا معشر المؤمنين {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} أي: قدوة صالحة واثمام ينفعكم، {فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله. ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا} أي: ظهر وبان {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ} أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك {أَبْدَاءً} ما دمتم مستمرين على كفركم {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، {إِلَّا} في خصلة واحدة وهي {قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} أزر المشرك، الكافر، المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} و {الحال أي لا} {أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} إن إبراهيم لأواه حليم {ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك. {وَالَيْكَ أُنَبَّأُ} أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك .

{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا، {وَاعْفِرْ لَنَا} ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من

المأمورات، {رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ} القاهر لكل شيء، {الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها، فبِعزتك (٦) وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من {كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقرا ومضطرا إلى ذلك غاية الاضطرار.

{وَمَنْ يَتَوَلَّ} عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا، {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ} الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه]، {الْحَمِيدُ} في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة (١) الإيمانية ترجع، فلا تياسوا أيها المؤمنون، من رجوعهم إلى الإيمان، ف {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً} سببها رجوعهم إلى الإيمان، {وَاللَّهُ قَدِيرٌ} على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة. ولما نزلت هذه الآيات الكريمة، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقرابهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه.^{٤٧٦}

نداء من ربهم الذي آمنوا به، يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه. يدعوهم ليبصرهم بحقائق موقفهم، ويحذرهم حباتل أعدائهم، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم.

وفي مودة يجعل عدوهم عدوه، وعدوه عدوهم: «لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ».. فيشعر المؤمنون بأنهم منه وإليه. يعاديهم من يعاديه. فهم رجاله المنتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض، وهم أوداؤه وأحباؤه. فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائهم.

ويذكرهم بجزيرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم، وعدوانهم على هذا كله في تجنن وظلم: «وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ. أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ»..

٤٧٦ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٥)

فماذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاتة والمودة؟ كفروا بالحق. وأخرجوا الرسول والمؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم؟ إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم. وهي التي حارهم المشركون من أجلها، لا من أجل أي سبب آخر. ويبرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب. فهي قضية العقيدة دون سواها. قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجوه، والإيمان الذي من أجله أخرجوهم.

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت، ذكّرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهادا في سبيله: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي».. فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهادا في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، مع مودة لمن أخرجته من أجل إيمانه بالله، وهو عدو الله وعدو رسول الله! ثم يحذرهم تحذيرا خفيا مما تكن قلوبهم، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة، وهو مطلع على خفية القلوب وعلايتها: «تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ».

ثم يهددهم تهديدا مخيفا، يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة: «وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».. وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول؟! وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد. ثم تحيي البقية: «إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ».. فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل. ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالللسنة وبكل وسيلة وكل سبيل. والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»..

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان. فالذي يود له أن يخسر هذا الكثر العزيز. كثر الإيمان. ويرتد إلى الكفر، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان! والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر، ويهتدي بنوره بعد الضلال، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامته طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقي في النار. أو أشد. فععدو الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور. لهذا يتدرج القرآن في تهيج قلوب المؤمنين ضد أعدائهم وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ»..

هذه هي الجولة الأولى بلمساتها المتعددة. ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة والتي تشتجر في القلوب فتجرها جرا إلى المودة وتنسيها تكاليف التميز بالعقيدة: «لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ. يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ. وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»..

إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة. يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك. فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع وشائج القربى كلها إذا تقطعت وشيخة العقيدة، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة وتوجهه إلى طلب الوشيخة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة: ومن ثم يقول لهم: «لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ».. التي تهفون إليها وتتعلق قلوبكم بها وتضطررهم إلى موادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها - كما حدث لحاطب في حرصه على أولاده وأمواله - وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين خلفوهم في دار الهجرة. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم.

ذلك أنه «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ».. لأن العروة التي تربطكم مقطوعة. وهي العروة التي لا رباط بغيرها عند الله. «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».. مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه في الضمير. ثم تأتي الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة: أمة التوحيد. وهذه القافلة الواحدة: قافلة الإيمان. فإذا هي ممتدة في الزمان، متميزة بالإيمان، متبرئة من كل وشيخة تنافي وشيخة العقيدة.. إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم. أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى. وفيه أسوة لا في العقيدة وحدها، بل كذلك في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ثم خلص منها هو ومن آمن معه، وتجرد لعقيدته وحدها: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ، وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ. إِنَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْكَ أَنبْنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ»..

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأسوة ممتدة على آمد الزمان. وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أن له رصيда من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي يعيش فيه. إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمر به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين.. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا أنبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال.. الشجرة التي غرسها أول المسلمين.. إبراهيم.. مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانيتها المسلمون المهاجرون. وفيهم أسوة حسنة: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ»..

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعبادتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيخة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين. ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين. فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ».. فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».. كما جاء في سورة أخرى.

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال: «وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».. وهذا التسليم المطلق لله، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين. كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم^{٤٧٧}.

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا».. فلا تسلطهم علينا. فيكون في ذلك فتنة لهم، إذ يقولون: لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيراً ما تحيك في الصدور، حين يتمكن الباطل من الحق، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان - لحكمة يعلمها الله - في فترة من الفترات. والمؤمن يصبر للابتلاء، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور. وبقية الدعاء: «وَأَعْفِرْ لَنَا».. يقولها إبراهيم خليل الرحمن. إدراكاً منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوي الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه، ويمجد جلاله وكبريائه فيطلب المغفرة من ربه، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده.

ويحتم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء: «رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».. العزيز: القادر على الفعل، الحكيم: فيما يمضي من تدبير.

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ»..

^{٤٧٧} - يراجع فصل: القصة في القرآن في كتاب: التصوير الفني في القرآن «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدي. فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة.. وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج. من يريد أن يجيد عن طريق القافلة. من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق. فما بالله من حاجة إليه - سبحانه - «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ووجدوها طريقا معبدا من قبل ليسوا هم أول السالكن فيها.

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين، فلا يشعر بالغرابة أو الوحشة سالك - ولو كان وحده في جيل!

ولا يجد مشقة في تكليف فحسب به السالكون معه في الطريق!

ثم تأتي الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة: أمة التوحيد. وهذه القافلة الواحدة: قافلة الإيمان. فإذا هي ممتدة في الزمان، متميزة بالإيمان، متبرئة من كل وشيخة تنافي وشيخة العقيدة.. إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم. أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى. وفيه أسوة لا في العقيدة وحدها، بل كذلك في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ثم خلص منها هو ومن آمن معه، وتجرد لعقيدته وحدها: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ، وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ. إِنَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَكَلْنَاهُ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ. وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأسوة ممتدة على آمد الزمان. وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أن له رصيда من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي يعيش فيه. إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمر به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديدا ولا مبتدعا ولا تكليفا يشق على المؤمنين.. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا أنبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال.. الشجرة التي غرسها أول المسلمين.. إبراهيم.. مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانها المسلمون المهاجرون. وفيهم أسوة حسنة: «إِذْ

قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ» ..

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيخة العقيدة وآصرة الإيمان. وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين.

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين. فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ» .. فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» .. كما جاء في سورة أخرى.

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال: «وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» .. وهذا التسليم المطلق لله، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين. كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم^{٤٧٨}.

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا» .. فلا تسلطهم علينا. فيكون في ذلك فتنة لهم، إذ يقولون: لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم! وهي الشبهة التي كثيرا ما تحيك في الصدور، حين يتمكن الباطل من الحق، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان - لحكمة يعلمها الله - في فترة من الفترات. والمؤمن يصبر للابتلاء، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنة وشبهة تحيك في الصدور. وبقية الدعاء: «وَأَغْفِرْ لَنَا» .. يقولها إبراهيم خليل الرحمن. إدراكا منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه، وعجزه بشريته عن بلوغ المستوي الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه، ويمجد جلاله وكبريائه فيطلب المغفرة من ربه، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده.

ويجتم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء: «رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .. العزيز: القادر على الفعل، الحكيم: فيما يمضي من تدبير.

٤٧٨ - يراجع فصل: القصة في القرآن في كتاب: التصوير الفني في القرآن «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ. وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..

فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم، ويجدون فيها أسوة تتبع، وسابقة تهدي. فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة .. وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين.

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج. من يريد أن يجيد عن طريق القافلة. من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق. فما بالله من حاجة إليه - سبحانه - «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» ..

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة، ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ووجدوها طريقا معبدا من قبل ليسوا هم أول السالكن فيها.

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين، فلا يشعر بالغرابة أو الوحشة سالك - ولو كان وحده في جيل!

ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق!

بعدئذ يعود فينسم على هذه القلوب التي يعلم الله ما بها من حنين ورغبة في زوال حالة العداة والجفوة التي تكلفهم هذه المشقة. ينسم عليها بنسمة الأمل الندية في أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام، وإلى صفوف المسلمين فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين .. ثم يخفف عنهم مرة أخرى - وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم، فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداة والعدوان. فأما حين ينتفي العداة والعدوان فهو البر لمن يستحق البر، وهو القسط في المعاملة والعدل: «عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً، وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» ..

إن الإسلام دين سلام، وعقيدة حب، ونظام يستهدف أن يظلل العالم كله بظله، وأن يقيم فيه منهجه، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين. وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله. فأما إذا سلموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة ولا متطوع بها كذلك! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة

المعاملة، انتظارا لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضوا تحت لوائه الرفيع. ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس. ففتحته هذا الاتجاه المستقيم.

وفي الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذي لا يغلب عليه اليأس في معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين، وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً».. وهذا الرجاء من الله، معناه القطع بتحقيقه. والمؤمنون الذين سمعوه لا بد قد أيقنوا به، ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة، وأن أسلمت قريش، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد، وأن طويت الثارات والمواجد، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفي القلوب.

« وَاللَّهُ قَدِيرٌ » .. يفعل ما يريد بلا معقب.

« وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .. يغفر ما سلف من الشرك والذنوب ..

وإلى أن يتحقق وعد الله الذي دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم في موادة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم. ورفع عنهم الحرج في أن يبروهم، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم فلا يبخسوفهم من حقوقهم شيئا. ولكنه نهي أشد النهي عن اللؤا لمن قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم. وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون .. ومن معاني الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى: «إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» .. وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن، ويتقي أن يدخل في مدلوله المخيف! وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود، الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي، من وراء كل اختلاف وتنويع

٤٧٩

وهي أساس شريعته الدولية، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة، وهي تهديد بالاعتداء أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد. وهو كذلك اعتداء. وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين.

ثم هي القاعدة التي تتفق مع التصور الإسلامي الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها ويجعل القيمة التي يرضن بها المؤمن ويقااتل دونها هي قضية العقيدة وحدها. فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد، وتحقيق منهج الله في الأرض، وإعلاء كلمة الله.

٤٧٩ - يراجع فصل: طبيعة الإسلام في الإسلام: في كتاب: السلام العالمي والإسلام. «دار الشروق» (السيد رحمه الله)

وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة، وجعلها هي الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون. فمن وقف معهم تحتها فهو منهم، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم. ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم، ولم يصد الناس عنها، ولم يحل بينهم وبين سماعها، ولم يفتن المؤمنين بها، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه.

إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته، ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله. فلا خصومه على مصلحة، ولا جهاد في عصبية - أي عصبية - من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب. إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، ولتكون عقيدته هي المنهج في الحياة. ولقد نزلت بعد ذلك سورة التوبة وفيها «بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.. الخ» ..

فانتهت بهذا حالة المعاهدة والموادعة بين المسلمين والمشركين كافة. بعد مهلة أربعة أشهر لأصحاب المعاهدات غير المسماة الأجل، ومهلة إلى انتهاء الأجل لأصحاب المعاهدات المسماة. ولكن هذا إنما كان بعد ما أثبتت التجارب أن القوم لا يرعون عهودهم مع المسلمين إلا ريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الراجحون! فانطبقت القاعدة الأخرى: «وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» .. وكان هذا ضرورة لتأمين القاعدة الإسلامية - وهي حينئذ شبه الجزيرة كلها - من المتربصين بالمسلمين من أعدائهم المعاشين لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدراتهم ونقضهم للعهود. وهي حالة اعتداء في صميمها. تنطبق عليها حالة الاعتداء. وبخاصة أن الامبراطوريتين المحيطيتين بأرض الإسلام قد بدأتا تجمعان له وتشعران بخطرهما، وتؤلبان عليه الإمارات العربية المتاخمة الخاضعة للدولتين الرومانية والفارسية. فلم يبق بد من تطهير المعسكر الإسلامي من بقية أعدائه قبل الالتحام في المعارك الخارجية المتوقعة يومذاك.^{٤٨٠}



^{٤٨٠} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٢١)

٨٠. امتحان المهاجرات

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) } سورة الممتحنة

كَانَ مِنْ شُرُوطِ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ بَيْنَ الرَّسُولِ ﷺ وَقُرَيْشٍ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَّا رَدَّهُ، وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ. وَحِلَالِ فِتْرَةِ الصُّلْحِ جَاءَتِ الرَّسُولَ فِي الْمَدِينَةِ أُمَّ كَلْتُومُ بِنْتُ عُقْبَةَ بِنْتُ أَبِي مُعِيْطٍ مُسْلِمَةً فَجَاءَ أَخَوَاهَا إِلَى الرَّسُولِ يَسْأَلَانَهُ رَدَّهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، يَنْقُضُ بِهَا عَهْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ خَاصَّةً، فَمَنْعَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْ يَرُدُّوا الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةَ الْاِمْتِحَانِ .

وَيَبَيِّنُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَكُمْ، يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، النَّسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ مُهَاجِرَاتٍ مِنْ بَيْنِ الْكُفَّارِ، فَاحْتَبِرُوا حَالَهُنَّ، لِتَعْلَمُوا صِدْقَ إِيْمَانِهِنَّ، لِأَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَحِلُّونَ لِلْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُؤْمِنَاتُ لَا يَحِلُّنَ لِلْكَفَّارِ

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَعْلَمُ بِإِيْمَانِ الْمُهَاجِرَاتِ مِنْكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الْحُكْمَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ: فَقَالَ: أَعْطُوا أَرْوَاجَ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ مِنَ الْكُفَّارِ مِثْلَ مَا دَفَعُوا مِنَ الْمُهْرِ، وَلَا إِثْمَ عَلَى الرَّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنْ يَنْكِحُوا هَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرَاتِ، بِشَرْطِ أَنْ يَتَعَهَّدُوا بِأَنْ يُؤَدُّوا إِلَيْهِنَّ مَهْرَهُنَّ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ، وَلَا أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِعَقْدِ زَوْجِيَّةِ الْكَافِرَاتِ الْبَاقِيَاتِ فِي دَارِ الشَّرْكِ، وَإِذَا لَحِقَتْ امْرَأَةٌ كَافِرَةٌ هِيَ زَوْجَةٌ لِمُسْلِمٍ بِالْكَفَّارِ - بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ - فَلِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْأَلُوا الْكَفَّارَ مَهْرَهَا الَّذِي دَفَعَهُ زَوْجُهَا الْمُسْلِمَ، وَلَيْسَ أَسْأَلُ الْكَفَّارِ دَفْعَ مَهْرٍ نَسَائِهِمُ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ .

وَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فَاتَّبِعُوهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ فَلَا يَشْرَعُ إِلَّا مَا فِيهِ الْحِكْمَةُ . وَإِذَا ذَهَبَتْ زَوْجَاتُكُمْ الْكَافِرَاتُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَدْفَعُوا إِلَيْكُمْ الْمَهْرَ الَّتِي سَبَقَ أَنْ دَفَعْتُمُوهَا لَهُنَّ، ثُمَّ ظَفَرْتُمْ بِالْمُشْرِكِينَ، وَأَنْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، فَاعْطُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ زَوْجَاتُهُمْ الْمُشْرِكَاتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ مِثْلَ مَا دَفَعُوا إِلَيْهِنَّ مِنْ صِدَاقٍ، وَخَافُوا اللَّهَ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ، فَأَدُّوا فَرَائِضَهُ، وَاتَّزَمُوا بِأَمْرِهِ .^{٤٨١}

٤٨١ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٣٨، بترقيم الشاملة آليا)

لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومته النساء والرجال، فأما الرجال فإن الله لم ينه رسوله عن ردهم، إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن، بما يظهر به صدقهن، من أيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن، فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، {لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حينئذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أحورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: {وَلَا تُمَسِّكُوا بَعْضَ الْكُوفَرِ} وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، {وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ} أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أفسد مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ} أي: ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة.

وقوله: {وَأَنْتُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ} بأن ذهبن مرتدات {فَعَاقَبْتُمْ فَاثْوَا الَّذِيْنَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا} كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق .

{وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} فإيمانكم بالله، يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

هذه الشروط المذكورة في هذه الآية، تسمى "مبايعة النساء" اللاتي [كن] يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

[ص: ٨٥٨] وأما الرجال، فبمختلف ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزم بهذه الشروط بايعهن، وجبر

قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن { لا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا } بأن يفردن الله [وحده] بالعبادة.

{ وَلَا يَزْنِينَ } كما كان ذلك موجودا كثيرا في البغايا وذوات الأخذان، { وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ } كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.

{ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ } والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، { وَلَا يَعْصِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ } أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك طاعتهم [لك] في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخمش الوجوه، والدعاء بدعاء الجاهلية. { فَبَايَعُهُنَّ } إذا التزمن بجميع ما ذكر. { وَاسْتَغْفَرَ لِهِنَّ اللَّهُ } عن تقصيرهن، وتطيبها لخواطرهن، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، { رَحِيمٌ } وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا. ٤٨٢

وقد ورد في سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه: «على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا».. فلما كان الرسول ﷺ والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءت نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذًا للمعاهدة. ويظهر أن النص لم يكن قاطعا في موضوع النساء، فترلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار، يفتنّ في دينهن وهن ضعاف.

ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته دون تأثر بسلك الفريق الآخر، وما فيها من شطط وجور. على طريقة الإسلام في كل معاملاته الداخلية والدولية.

وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحرى سبب الهجرة، فلا يكون تخلصا من زواج مكروه، ولا طلبا لمنفعة، ولا جريا وراء حب فردي في دار الإسلام!

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: { إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاَمْتَحِنُوهُنَّ } [المتحنة: ١٠] قَالَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ لِتُسَلِّمَ، حَلَفَهَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: " مَا خَرَجَتْ مِنْ بَعْضِ زَوْجٍ، وَبِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَا خَرَجَتْ رَغْبَةً بِأَرْضٍ عَنْ أَرْضٍ، وَبِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَا خَرَجَتْ التَّمَاسُ دُنْيَا، وَبِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: مَا خَرَجَتْ إِلَّا حُبًّا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ " ٤٨٣.

٤٨٢ - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٧)

٤٨٣ - شرح مشكل الآثار [٢١٨/ ١٢] (٤٧٦٢) حسن

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فِيهِ هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحْلَافُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ يَأْتِيهِ مِنَ النِّسَاءِ لِلْهَجْرَةِ إِلَيْهِ عَلَى مَا ذُكِرَ فِيهِ مِنْ اسْتِحْلَافِهِ إِيَّاهُنَّ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِمَّا يَدْخُلُ فِي بَابِ مِنَ الْفَقْهِ، قَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُهُ فِيهِ، وَهُوَ الرَّجُلُ يَمُرُّ بِمَالِهِ عَلَى عَاشِرِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَطْلُبُ مِنْهُ زَكَاتَهُ، فَيَقُولُ: قَدْ أَدَيْتَهَا إِلَى الْمَسَاكِينِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهَا، أَوْ قَدْ أَدَيْتَهَا إِلَى عَاشِرِ مَرَرْتُ بِهِ قَبْلَكَ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: يَسْتَحْلِفُهُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ أَتَاهُمُ عَلَى مَا قَالَ لَهُ، وَيُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَالِهِ مِنْهُمْ؛ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَالشَّافِعِيُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُصَدِّقُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَحْلِفُهُ عَلَيْهِ، مِنْهُمْ مَالِكٌ

وعن سفيان، عن أبيه أو عكرمة (إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ) قال: يقال: ما جاء بك إلا حبّ الله، ولا جاء بك عشق رجل منا، ولا فرارا من زوجك، فذلك قوله: (فَاَمْتَحِنُوهُنَّ)^{٤٨٤}.

وهذا هو الامتحان .. وهو يعتمد على ظاهر حالهن وإقرارهن مع الحلف بالله. فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله، لا سبيل للبشر إليها: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ..» فإذا ما أقررن هكذا «فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَّا إِلَى الْكُفَّارِ» ..

«لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ» .. فقد أنبتت الوشيحة الأولى .. وشيحة العقيدة .. فلم تعد هناك وشيحة أخرى يمكن أن تصل هذه القطيعة.

والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار، لا يمكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيحة الأولى. والإيمان هو قوام حياة القلب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه، ولا أن يأنس به، ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن في جواره. والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن.

وكان الأمر في أول الهجرة متروكا بغير نص، فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة، لأن المجتمع الإسلامي لم يكن قد استقرت قواعده بعد. فأما بعد صلح الحديبية - أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة - فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات، كما يستقر في واقعهم، أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن لا وشيحة إلا وشيحة العقيدة، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله.

ومع إجراء التفريق إجراء التعويض - على مقتضى العدل والمساواة - فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التي فارقته تعويضا للضرر. كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التي يطلقها من عصمته.

وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن مهورهن .. مع خلاف فقهي: هل هن عدة، أم لا عدة إلا للحوامل حتى يضعهن حملهن؟ وإذا كانت هن عدة فهل هي عدة المطلقات ... ثلاثة قروء .. أم هي عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة؟

والتَّوْرِيُّ، وَكَانَا يَذْهَبَانِ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ عِبَادَةٌ، الْمُتَعَبَّدُونَ بِهَا مُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يَجِبُ اسْتِحْلَافُهُمْ بِالظُّنُونِ بِهِمْ فِيهَا غَيْرُ الْوَاجِبِ كَانَ عَلَيْهِمْ فِيهَا، وَيَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ اسْتِحْلَافَاتِ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْمُدَّعَاةِ إِنَّمَا تَجِبُ لِلْمُدَّعِيْنَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ أَنَّهَا قَدْ كَانَتْ مِنَ الْمُطْلُوبِينَ بِهَا، وَأَنَّ اسْتِعْمَالَ الظُّنُونِ بِهِمْ غَيْرُ الْوَاجِبِ كَانَ عَلَيْهِمْ فِيهَا غَيْرُ وَاسِعٍ لِمَنْ ظَنَّ ذَلِكَ بِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ مَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِالظُّنُونِ لَ بِالْحَقَائِقِ يَمِينٌ، وَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي يَقُومُ فِي قُلُوبِنَا وَالَّذِي نَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى حَتَّى وَقَفْنَا عَلَى مَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ اسْتِحْلَافِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُهَاجِرَاتِ إِلَيْهِ عَلَى مَا كَانَ يَسْتَحْلِفُهُنَّ عَلَيْهِ مِمَّا ذَكَرَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رُوِيَ فِي ذَلِكَ حَيَاطَةً لِلْإِسْلَامِ، فَمَثَلُ ذَلِكَ اسْتِحْلَافُ فِيمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِمَّا ذَكَرْنَا يَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ تَوَلَّى الصَّدَقَاتِ حَيَاطَةً لِلْإِسْلَامِ، وَاسْتِيفَاءَ لِحُقُوقِ أَهْلِهِ مِمَّنْ وَجِبَتْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ نَسَأَهُ التَّوْفِيقَ

٤٨٤ - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٣ / ٣٢٦] صحيح مرسل

«وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ. وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ، وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَا أَنْفَقُوا».

ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى في ضمير المؤمن. ضمانة الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه: «ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» ..

وهي الضمانة الوحيدة التي يؤمن عليها من النقص والالتواء والاحتيايل. فحكم الله، هو حكم العليم الحكيم. وهو حكم المطلع على ذوات الصدور. وهو حكم القوي القدير. ويكفي أن يستشعر ضمير المسلم هذه الصلة، ويدرك مصدر الحكم ليستقيم عليه ويرعاه. وهو يوقن أن مرده إلى الله.

فإذا فات المؤمنين شيء مما أنفقوا، بامتناع الكوافر أو أهليهن من رد حق الزوج المؤمن - كما حدث في بعض الحالات - عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم في دار الإسلام، أو مما يقع من مال الكفار غنيمة في أيدي المسلمين: «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا» ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذي يتعلق به كل حكم وكل تطبيق: «وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» .. وهي لمسة للمؤمنين بالله عميقة الأثر في القلوب.

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقا واقعيا للتصور الإسلامي عن قيم الحياة وارتباطاتها وعن وحدة الصف الإسلامي وتمييزه من سائر الصفوف وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة، وربطها كلها بمحور الإيمان وإنشاء عالم إنساني تذوب فيه فوارق الجنس واللون واللغة والنسب والأرض. وتبقى شارة واحدة تميز الناس .. شارة الحزب الذي ينتمون إليه .. وهما حزبان اثنان: حزب الله وحزب الشيطان ..^{٤٨٥}



^{٤٨٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٢٩)

٨١. تحريم تولي من غضب الله عليه

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعُ

الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } (١٣) سورة الممتحنة

وَبَعْدَ أَنْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَادَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، عَادَ تَعَالَى فَكَّرَ هَذَا النَّهْيَ فِي آخِرِهَا فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تُؤَالُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَصْدِقَاءَ لَكُمْ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَضُرُّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ قَدْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ لِعِنَادِهِمْ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ.. كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مَنْ بَعَثَ مَوْتَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِيَعْتِ وَلَا حَشْرٍ وَلَا حِسَابٍ ٤٨٦.

أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاه ومجانين لسخطه، { لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم } وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. { قد يتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ } أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم تحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله] { كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ } حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يتَّبِعُ الْكُفَّارُ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْتِ فِي الدُّنْيَا مِنْ رُجُوعِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. ٤٨٧.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الدُّنْيَا. وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَتَمَ السُّورَةَ بِمَا بَدَأَهَا مِنْ تَرْكِ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ، وَهِيَ خَطَابُ لِحَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ وَغَيْرِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا أَيُّ لَّا تُؤَالُوهُمْ وَلَا تُنَاصِحُوهُمْ، رَجَعَ تَعَالَى بِطُولِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ. يُرِيدُ أَنْ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ قَدْ يَتَّبِعُوا مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ الْمَقْبُورُونَ مِنْ حَظٍّ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَزَّةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى قَدْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ قَالَ: مَنْ مَاتَ مِنَ الْكُفَّارِ يَتَّبِعُ مِنَ الْخَيْرِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. ٤٨٨.



٤٨٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٤١، بترقيم الشاملة آليا)

٤٨٧ - تفسير السعدي = تيسير الكرم الرحمن (ص: ١٥٨)

٤٨٨ - تفسير القرطبي (١٨ / ٧٦)

٨٢. النهي عن القول بلا عمل

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

(٣) { سورة الصف

يُنْكِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَعِدُ وَعَدًا، أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفِي بِهِ، فَيَقُولُ تَعَالَى: لَأَيِّ شَيْءٍ تَقُولُونَ لَوْ دِدْنَا أَنْ نَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، حَتَّى إِذَا طُلِبَ مِنْكُمْ فَعْلُ ذَلِكَ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَفْعَلُوهُ؟.

وَأَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى إِنْكَارَهُ هَذَا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ يَكْرَهُ كُرْهًا شَدِيدًا أَنْ تَقُولُوا شَيْئًا لَا تَفْعَلُونَهُ لِأَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ وَالْوَعْدِ يُنَمِّي الثِّقَةَ بَيْنَ أَفْرَادِ الْجَمَاعَةِ، كَمَا أَنَّ فَشُوَّ الْخُلْفِ بِالْوَعْدِ يُضْعِفُهَا. ^{٤٨٩}

أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: { وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه } . ^{٤٩٠}

يعاتب الله الذين آمنوا عتابا شديدا على أمر حدث من طائفة منهم. أمر يكرهه الله أشد الكره، وبمقتنه أكبر المقت، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا، كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا» ..

عن ابن عباس، في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به؛ فلما نزل الجهاد، كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) ^{٤٩١}.. وقد اختار ابن جرير في تفسيره هذا القول ^{٤٩٢}.

^{٤٨٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٤٣، بترقيم الشاملة آليا)

^{٤٩٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٥٨)

^{٤٩١} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٣ / ٣٥٠] حسن

^{٤٩٢} - قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: عنى بما الذين قالوا: لو عرفنا أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، ثم قصرنا في العمل بعد ما عرفوا.

وقال ابن كثير في تفسيره: «وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ } [النساء: ٧٧، ٧٨]. وقال تعالى: { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ { الآية [محمد: ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لَوَدِدْنَا أَنَّ اللَّهَ -عز وجل- دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به. فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } ؟. وهذا اختيار ابن جرير .

وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به. فدلهم الله على أحب الأعمال إليه، فقال: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا } فبين لهم، فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي ﷺ مديرين، فأنزل الله في ذلك: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } ؟ وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي.

ومنهم من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: "قاتلت"، ولم يقاتل وطعنت" ولم يطعن و "ضربت"، ولم يضرب و"صبرت"، ولم يصبر.

وقال قتادة، والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: "قتلنا، ضربنا، طعنا، وفعلنا". ولم يكونوا فعلوا ذلك.

وقال ابن يزيد: نزلت في قوم من المنافقين، كانوا يعدون المسلمين النصر، ولا يفون لهم بذلك.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: { لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ } ؟، قال: في الجهاد.

وعن مجاهد، في قوله: هل أدلُّكم على تجارة تُنجيكم من عذاب أليم قال: "قال نقر من الأنصار في مجلس لهم وفيهم عبد الله بن رواحة: لو نعلم أي العمل أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت"، فأنزل

وإنما قلنا: هذا القول أولى بها، لأن الله جل ثناؤه خاطب بها المؤمنين، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ولو كانت نزلت في المنافقين لم يسموا، ولم يوصفوا بالإيمان، ولو كانوا وصفوا أنفسهم بفعل ما لم يكونوا فعلوه، كانوا قد تعمدوا قيل الكذب، ولم يكن ذلك صفة القوم، ولكنهم عندي أمَلُوا بقولهم: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله عملناه أهم لو علموا بذلك عملوه؛ فلما علموا ضعفت قوى قوم منهم، عن القيام بما أمَلُوا القيام به قبل العلم، وقوى آخرون فقاموا به، وكان لهم الفضل والشرف. تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٣]

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ إِلَى قَوْلِهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: "لَا أَرَأُلَ حَبِيسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى أَمُوتَ فَقُتِلَ شَهِيدًا" ٤٩٣. " ٤٩٤.

وروى ابن أبي حاتم ٤٩٥ عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيَلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ أَبُو مُوسَى إِلَى قُرَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةَ رَجُلٍ، كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: "أَنْتُمْ قُرَاءُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَخِيَارُهُمْ"، قَالَ: "كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةَ كُنَّا نَشَبِّهُهَا بِأَحَدَى الْمُسَبِّحَاتِ، فَأَنْسَيْنَاهَا، غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ "، فَتَكْتَبُ شَهَادَةً فِي أَعْنَاقِكُمْ، فَتَسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" قَوْلُهُ تَعَالَى: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ" ٤٩٦. والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة التزول هي التي عليها الجمهور وهي اختيار ابن جرير.

ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهةها، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها. ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة، مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات التزول.

إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟». وتثني باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق في صيغة تضخم هذا الاستنكار: «كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ؟». والمقت الذي يكبر «عِنْدَ اللَّهِ».. هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر.. وهذا غاية التفضيع لأمر، وبخاصة في ضمير المؤمن، الذي ينادى بإيمانه، والذي يناديه ربه الذي آمن به. والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذي قالوا فيه ما لم يفعلوا.. وهو الجهاد.. وتقرر ما يحبه الله فيه ويرضاه: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْضُوصًا».. فليس هو مجرد القتال. ولكنه هو القتال في سبيله. والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف. والقتال في ثبات وضمود «صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْضُوصًا»..

إن القرآن - كما قلنا في مناسبات متعددة في هذا الجزء - كان يبنى أمة. كان يبنينا لتقوم على أمانة دينه في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في الناس. ولم يكن بد أن يبنى نفوسها أفرادا وبنينها جماعة، وبنينها عملا واقعا.. كلها في آن واحد.. فالمسلم لا يبنى فردا إلا في جماعة. ولا يتصور الإسلام قائما إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط، وذات نظام، وذات هدف جماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها. هو إقامة هذا المنهج الإلهي في الضمير وفي العمل مع إقامته في الأرض. وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج في حدود ذلك المنهج الإلهي.

٤٩٣ - تَفْسِيرُ مُجَاهِدٍ (١٨٠٣) صحيح مرسل

٤٩٤ - تفسير ابن كثير - دار طيبة [١٠٧/ ٨]

٤٩٥ - تفسير ابن أبي حاتم [٣٠٧/ ١٢] حسن

٤٩٦ - تفسير ابن كثير - دار طيبة [١٠٦/ ٨]

والإسلام على شدة ما عني بالضمير الفردي وبالتبعة الفردية - ليس دين أفراد منعزلين، كل واحد منهم يعبد الله في صومعة .. إن هذا لا يحقق الإسلام في ضمير الفرد ذاته، ولا يحققه بطبيعة الحال في حياته.

ولم ييجئ الإسلام لينعزل هذه العزلة. إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها. ويهيمن على كل نشاط فردي وجماعي في كل اتجاه. والبشرية لا تعيش أفرادا إنما تعيش جماعات وأما. والإسلام جاء ليحكمها وهي كذلك. وهو مبني على أساس أن البشر يعيشون هكذا. ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس.

وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش في جماعة. وهو والجماعة التي يعيشون فيها يتجهون إلى الله، ويقوم - فيها - على أمانة دينه في الأرض، ومنهجته في الحياة، ونظامه في الناس.

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامي - أو جماعة مسلمة - ذات قيادة مطاعة هي قيادة مطاعة هي قيادة رسول الله - ﷺ - وذات التزامات جماعية بين أفرادها، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها، وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى فيها - في الوقت ذاته - حياة هذه الجماعة .. وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة. بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة في المدينة ..

ونظر في هذه الآيات الثلاث فرى امتزاج الخلق الفردي بالحاجة الجماعية، في ظل العقيدة الدينية، وطبيعتها التي تقتضي تحقيقها في الحياة البشرية في صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه. إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون. وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم .. الصدق .. والاستقامة. وأن يكون باطنه كظاهره، وأن يطابق فعله قوله .. إطلاقا .. وفي حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذي يجيء في الآية الثالثة. وهذه السمة في شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيرا، وتتابعها السنة في تكرار يزيدها توكيدا: يقول الله تعالى منددا باليهود: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟» .. ويقول تعالى منددا بالمنافقين: «وَيَقُولُونَ: طَاعَةٌ. فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ» .. ويقول فيهم كذلك: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» .. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ » ٤٩٧ ..

٤٩٧ - صحيح البخاري - المكثر [١ / ٦٧] (٣٣) وصحيح مسلم - المكثر [١ / ٢٥٨] (٢٢٠)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « أَرَبُّعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » ٤٩٨ .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. ولعل الحديث الذي سنذكره هنا من أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة في هذا الاتجاه.. روى الإمام أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِأَلْعَبَ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَ أُعْطِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَا أَرَدْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ؟ قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ كَذْبَةٌ. ٤٩٩ ..

ولعله استقاء من هذا النبع النبوي الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا. حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهمها بطعام وحجره فارغ! فتخرج أن يروي عنه، وقد كذب على بغلته! فهذا بناء أخلاقي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمن يقوم أمينا على منهج الله في الأرض. وهو الأمر الذي تقرره هذه السورة. وهذه حلقة من حلقات التربية في الجماعة المسلمة التي يعدها الله لتقوم على هذا الأمر. ٥٠٠



٤٩٨ - صحيح مسلم - المكثر [٢٥٧/ ١] (٢١٩)

٤٩٩ - مسند أحمد (عالم الكتب) [٣٩٤/ ٥] (١٥٧٠٢) ١٥٧٩٣ حسن لغيره

٥٠٠ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٣٦)

٨٣. التجارة التي لن تبور

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَعْرِضَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) } سورة الصف

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالْمُصَدِّقُونَ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَآيَاتِهِ، أَلَا تُرِيدُونَ أَنْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ صَفْقَةٍ رَّابِحَةٍ، وَتِجَارَةٍ نَّافِعَةٍ، تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرِّبْحِ الْعَظِيمِ، وَتُنْقِذُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

وَهَذِهِ الصَّفْقَةُ هِيَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَصَدَّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَعِزَّةِ دِينِهِ، بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَّكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا: مِنَ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَرَّ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ وَمَحَاَهَا، وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ فِي حَبْنَاتِهَا، وَأَسْكَنْكُمْ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً تَقْرُبُهَا الْعُيُونُ، وَهَذَا هُوَ مَتْنَهُ مَا تَصْبُوا إِلَيْهِ النَّفُوسُ، وَهُوَ الْفَوْزُ الَّذِي لَا فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ الْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ، الَّذِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ بِهِ، نِعْمَةٌ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، تَجْتَنُونَ مَعَانِمَهُ، وَبَشِّرْ يَا مُحَمَّدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الْجَزَاءِ. ^{٥٠١}

هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم.

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب، فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال { تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } .

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم. بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله (١) فلهذا قال: { وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ } بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم، لمصادمة أعداء الإسلام، والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك، ولو كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها، فإنه { خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فإن فيه الخير الدنيوي، من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع، وسعة الصدر وانسراحه.

^{٥٠١} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٥١، بترقيم الشاملة آليا)

وفي الآخرة الفوز بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة، فقال: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر.

{وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات، {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ} أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جعلتها، أنه الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بالمها، وسرورها بترحها.

وسميت الجنة حنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولا ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخرى.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي: {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ} [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد] فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، فعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدّها عليّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ففعل، ثم

قال: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، قال: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^{٥٠٢}

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل، واستفهام وجواب، وتقديم وتأخير، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية.

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا».. يليه الاستفهام الموحى. فالله - سبحانه - هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: «هَلْ أَذَلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تُنْجِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟»..

ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدلّه الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق. ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».. وهم مؤمنون بالله ورسوله. فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ».. وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة، يجيء في هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار، ويساق في هذا السياق. فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار، وهذا التنويع، وهذه الموحيات، لتنهض بهذا التكليف الشاق، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلم عليها بالتحسين والترزين: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد.. ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه، ويقره في الحس ويمكن له: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ».. وهذه وحدها تكفي.

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ».. وإنها لأرباح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم.. وحقاً.. «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الراجحة. وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة. فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق. فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا، فيكسب به خلوداً لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعاً غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله ﷺ - وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - ليلة العقبة. عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط

^{٥٠٢} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٦٠) وصحيح مسلم (٣/ ١٥٠١) - ١١٦ - (١٨٨٤)

لربِّك ولنفسك ما شئت ! قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فماذا لنا؟ قال: الجنة! قالوا: ربح البيع، لا نُقيل ولا نستقبل ! فتزلت: (إن الله اشترى من المؤمنين)، الآية^{٥٠٣}.

وعن قتادة (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) قال: " قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه". وذكّر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلاً من الأنصار، ذكّر لنا أن بعضهم قال: هل تدرّون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يُسلموا. ذكّر لنا أن رجلاً قال: يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: اشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتهم منه أنفسكم وأبناءكم" قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال: "لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة"، ففعلوا، ففعل الله^{٥٠٤}.

ولكن فضل الله عظيم. وهو يعلم من تلك النفوس أهما تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود. وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل: «وأخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب. وبشر المؤمنين» ..

وهنا تبلغ الصفة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله. الله الذي لا تنفد خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته. فهي المغفرة والجنات والمسكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة. وفوقها .. فوق البيعة الراجحة والصفة الكاسية النصر والفتح القريب .. فمن الذي يدلّه الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يجيد؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحبيب .. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان، في حدودها الضيقة الصغيرة، وفي مستوياتها الهابطة الواطية، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة .. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان، ولا يتردد لحظه واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الواسع الرفيع في عالم الواقع، ليعيش فيه، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك .. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجراً خارجاً عن ذاته. فهو ذاته أجر .. هذا الجهاد .. وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح. ثم إنه لا يطيق أن يعيش في عالم بلا إيمان. ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان. فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد. كائنا مصيره فيه ما يكون .. ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف، وأن الاندفاع يهبط، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط ..

^{٥٠٣} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [١٤ / ٤٩٩] ١٧٢٧٠ صحيح مرسل

^{٥٠٤} - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٣ / ٣٦٥] صحيح مرسل

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ويعالجها ذلك العلاج، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع، في شتى المناسبات. ولا يكلها إلى مجرد الإيمان، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان.^{٥٠٥}



^{٥٠٥} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٤٧)

٨٤. دعوة المؤمنين ليكونوا أنصار الله

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } (١٤) سورة الصف

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ: بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ، كَمَا اسْتَجَابَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى حِينَمَا سَأَلَهُمْ: مَنْ يُعِينُنِي فِي الدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ الْحَوَارِيُّونَ: إِنَّهُمْ أَنْصَارُ اللَّهِ، وَإِنَّهُمْ سَيُعِينُونَهُ وَسَيُؤَاوِرُونَهُ فِيمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ إِبْلَاحِ رِسَالَةِ رَبِّهِ، فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِرِسَالَةِ عِيسَى، وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَجَحَدَتْ نُبُوَّتَهُ، وَرَمَتْهُ وَأَمَّهُ بِالْبُهْتَانِ، وَعَلَّتْ فِرْقٌ مِنْهُمْ فِي عِيسَى، فَقَالُوا: إِنَّهُ اللَّهُ، أَوْ إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، أَوْ إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَرَفَعُوهُ مَرْتَبَةَ النُّبُوَّةِ. فَأَيَّدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ بِرِسَالَةِ عِيسَى بِنَصْرِهِ، وَأَظْهَرَهُمْ عَلَىٰ مَنْ عَادَاهُمْ، وَتَلَكَّ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ٥٠٦.

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل: الاثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتلقي عنه. وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه.

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة، فنتسیر نحن معها في ظلها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ».. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله. وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيرا للرب؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم.. كونوا أنصار الله، «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم. وعيسى جاء ليبشر بالني الجديد والدين الأخير.. فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت! وهذه هي

اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق. وماذا كانت العاقبة؟

«فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقاً من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما حدث في التاريخ. وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المؤهلين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد. ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي

٥٠٦ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٥٥، بترقيم الشاملة آليا)

بالحجة والبرهان. أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ. وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق. والعبارة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبارة التي أشرنا إليها، وهي استنهاض هممة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناء على منهج الله في الأرض، وورثة العقيدة والرسالة الإلهية. المختارين لهذه المهمة الكبرى. استنهاض هممتهم لنصرة الله ونصرة دينه «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ».. والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين. إنها الجولة الأخيرة في السورة، واللمسة الأخيرة في السياق وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها، مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق ..^{٥٠٧}



^{٥٠٧} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٥٠)

٨٥. السعي إلى ذكر الله يوم الجمعة

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) } سورة الجمعة

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَرْكِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَعَلَى السَّعْيِ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ إِلَى الْمَسَاجِدِ، حِينَمَا يُؤَدَّنُ الْمُؤَدَّنُ لَصَلَاةِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، لِاسْتِمَاعِ إِلَى مَوَاعِظِ الْخُطَبَاءِ، وَلِأَدَاءِ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ. وَذَلِكَ السَّعْيُ إِلَى الصَّلَاةِ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَبْقَى مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، هَذَا إِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ الصَّحِيحِ بِمَا يَذُرُّ وَيَنْفَعُ.

فَإِذَا أَدَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَتَفَرَّقُوا لِمُبَاشَرَةِ مَصَالِحِكُمْ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الرَّزْقَ الْحَلَالَ، وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا أَتْنَاءَ بَيْعِكُمْ وَشِرَائِكُمْ، وَلَا تَتْرَكُوا الدُّنْيَا تَشْغَلُكُمْ عَمَّا يَنْفَعُكُمْ فِي الْآخِرَةِ، لَعَلَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ تُفْلِحُونَ، وَتَقْوُونَ بِرِضَا اللَّهِ، وَحُسْنِ ثَوَابِهِ .

قَدِمَتْ عِيرٌ بِتِجَارَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاقِفٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَخَرَجَ النَّاسُ، وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ يُعَاتِبُ فِيهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى انْصِرَافِهِمْ عَنِ الْخُطْبَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى التِّجَارَةِ .

وَمَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا رَأَوْا عِيرَ تِجَارَةٍ، أَوْ لَهْوًا أَسْرَعُوا إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا الرَّسُولَ قَائِمًا يَخْطُبُ فِي النَّاسِ. فَقُلْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ: مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْثَوَابِ، خَيْرٌ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، فَاسْعَوْا إِلَيْهِ، وَاطْلُبُوا الرَّزْقَ مِنْهُ، فَلَنْ يَفُوتَكُمْ رِزْقٌ إِذَا تَأَخَّرْتُمْ لِسَمَاعِ الْخُطْبَةِ^{٥٠٨}.

وصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة، التي لا تصح إلا جماعة.. وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكروهم بالله. وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة وكلاهما عبادة^{٥٠٩}. وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التي تحدثنا عنها في ظلال سورة الصف. وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب.

^{٥٠٨} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٦٤، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٠٩} - يراجع فصل العبادات الإسلامية في كتاب: «في النفس والجماع» ل محمد قطب. «دار الشروق». (السيد رحمه الله)

جاء في الصحيح عن الأوزاعي قال حدثني يحيى بن أبي كثير حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن حدثني أبو هريرة قال بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس يوم الجمعة إذ دخل عثمان بن عفان فعرض به عمر فقال ما بال رجال يتأخرون بعد النداء. فقال عثمان يا أمير المؤمنين ما زدت حين سمعت النداء أن توضأت ثم أقبلت. فقال عمر والوضوء أيضا ألم تسمعوا رسول الله ﷺ - يقول « إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل »..^{٥١٠}

وروى أحمد عن أوس بن أوس الثقفي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ غَسَلَ وَاعْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَبَكَرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى، وَلَمْ يَرْكَبْ فِدْنَا مِنَ الْإِمَامِ، فَاسْتَمَعَ، وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلٌ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا^{٥١١}.

وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَمَسَّ مِنْ طَيْبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَلَيْسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعُ إِنْ بَدَأَ لَهُ، وَلَمْ يُؤَدِّ أَحَدًا، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى.^{٥١٢} ..

والآية الأولى في هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع - وسائر نشاط المعاش - بمجرد سماعهم للأذان: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع» .. وترغبهم في هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول في الذكر في هذا الوقت: «ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» .. مما يوحي بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضي هذا الترغيب والتحبيب. وهو في الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض، ليخلو إلى ربه، ويتجرد لذكره، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملأ الأعلى، ويملا قلبه وصدره من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه! ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله: «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون» ..

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي. التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض، من عمل وكد ونشاط وكسب. وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر. وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى. وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة. ولكنه - مع هذا - لا بد من فترة للذكر الخالص، والانقطاع الكامل، والتجرد الممحض. كما توحى هاتان الآيتان.

^{٥١٠} - صحيح مسلم - المكثر [٥/ ٣٤١] (١٩٩٣)

^{٥١١} - مسند أحمد (عالم الكتب) [٥/ ٥٤٥] (١٦١٧٣) ١٦٢٧٣ صحيح

^{٥١٢} - مسند أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٧٨٢] (٢٣٥٧١) ٢٣٩٦٨ صحيح

عَنْ مَكْحُولٍ، أَنَّ النَّدَاءَ كَانَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مُؤَذِّنٌ وَاحِدٌ حِينَ يَخْرُجُ الْإِمَامُ، ثُمَّ تُقَامُ الصَّلَاةُ، وَذَلِكَ النَّدَاءُ الَّذِي يَحْرُمُ عِنْدَهُ الْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ إِذَا نُودِيَ بِهِ، فَأَمَرَ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُنَادِيَ قَبْلَ خُرُوجِ الْإِمَامِ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ»

كَانَ عَرَاكُ بْنُ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ، فَوَقَفَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ، أَجِبْتُ دَعْوَتَكَ وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَأَنْتَ شَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ". رواه ابن أبي حاتم^{٥١٣}.

وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدا، في بساطة تامة، فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك!

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذي ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذي بلغت إليه، مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية. مما تصوره الآية الأخيرة في السورة: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا. قُلْ: مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ. وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ حَدَّثَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - إِذْ أُقْبِلَتْ عَيْرٌ تَحْمِلُ طَعَامًا، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا حَتَّى مَا بَقِيَ مَعَ النَّبِيِّ - ﷺ - إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَانزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) ^{٥١٤}.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ - ﷺ - قَائِمٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ قَدِمَتْ عَيْرٌ إِلَى الْمَدِينَةِ فَابْتَدَرَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ - قَالَ - وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) ^{٥١٥}

وفي الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة. وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله «والله خير الرازقين».. وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة في التاريخ. ويمنح القائمين على دعوة الله في كل زمان رصيда من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتحلف وتعثر في الطريق. فهذه هي النفس البشرية بخيرها وشرها. وهي قابلة أن تصعد مراقي العقيدة والتطهر والتزكي بلا حدود، مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة، وعدم النكوص من منتصف الطريق. والله المستعان. ^{٥١٦}



^{٥١٣} - تفسير ابن أبي حاتم [١٢/ ٣١٣] صحيح مقطوع

^{٥١٤} - صحيح البخاري - المكثر [٤/ ٦٧] (٩٣٦)

^{٥١٥} - صحيح مسلم - المكثر [٥/ ٣٩٦] (٢٠٣٧)

^{٥١٦} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٦١)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) } سورة المنافقون

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ وَبِالْإِشْغَالِ بِمَا لَهُمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّ مِنَ النَّهْيِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ يَخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَىٰ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي طَاعَتِهِ مِنَ الْمَالِ الَّذِي جَعَلَهُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَحِينَ أَجْلُهُمْ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَصَرُوا فِي الطَّاعَةِ، وَفِي الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ: يَا رَبِّ لَوْ أَنَّكَ أَخَّرْتَنِي مُدَّةً يَسِيرَةً، فَأَنْفَقَ فِي طَاعَتِكَ، وَأَسْتَجِيبَ لِأَمْرِكَ، وَأَكُونَ مِنْ عِبَادِكَ الْمُخْلِصِينَ الصَّالِحِينَ، الَّذِينَ تَرْضَىٰ عَنْهُمْ .

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُؤُلَاءِ: إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا الطَّاعَاتِ، وَيُنْفِقُوا فِي أَوْجُهِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ قَبْلَ أَنْ يَحِينَ أَجْلُهُمْ، لِأَنَّهُمْ إِذَا حَانَ أَجْلُهُمْ فَلَا مَجَالَ لِلتَّأَخِيرِ وَالْإِمْتِهَالِ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ^{٥١٧} .

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بال مخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية. وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان. ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر، ويلهيه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال «فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» .. وأول ما يخسرونه هو هذه السمة. سمة الإنسان. فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنسانا. ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء. مهما يملك من مال ومن أولاد. ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة .. «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ» .. فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم. فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق. «مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...» ..

فيترك كل شيء وراءه لغيره وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران. ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين! وأنى له هذا؟: «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا؟» وأنى له ما يتقدم به؟ «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»؟

^{٥١٧} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٧٥، بترقيم الشاملة آليا)

إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة. في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين. ولو إذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين.. فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان، وألا يغفلوا عن ذكر الله. وهو مصدر الأمان.. وهكذا يري الله المسلمين بهذا القرآن الكريم..^{٥١٨}



^{٥١٨} - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٧٦)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) } سورة التغابن

يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ أَعْدَاءٌ لِلْإِنْسَانِ يَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فِعْلِ الطَّاعَاتِ الَّتِي تُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ، وَرَبَّمَا حَمَلُوهُمْ عَلَى السَّعْيِ فِي اكْتِسَابِ الْحَرَامِ، وَاجْتِرَاحِ الْآثَامِ، لِمَنْفَعَةٍ أَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ يُؤَدِّي الْبُعْضُ إِلَى ارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ بِحَقِّ الْأَزْوَاجِ وَالْآبَاءِ، فَتَكُونُ عَدَاوَةٌ حَقِيقِيَّةٌ .

ثُمَّ يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ فَقَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرُ لِلْإِنْسَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ بِهِمْ وَبِهِ، وَيُعَامِلُهُ بِمِثْلِ مَا عَامَلَهُمْ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ تَكْرُمًا مِنْهُ .

الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ وَابْتِلَاءٌ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعْصِيهِ، إِذْ كَثِيرًا مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمُحْظُورَاتِ، وَاجْتِرَاحُ الْآثَامِ، وَقَدْ قَدَّمَ اللَّهُ الْأَمْوَالَ عَلَى الْأَوْلَادِ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ فِتْنَةٌ .

ثُمَّ يَبْنِي تَعَالَى النَّاسَ إِلَى مَا أَعَدَّهُ مِنْ عَظِيمِ الْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ لِمَنْ آتَرَ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ، عَلَى مَحَبَّةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ. فَاذْبُلُوا فِي تَقْوَى اللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَالطَّاقَةِ .

وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَعَامَلُوا بِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ عَلَى الْأَقَارِبِ وَالْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، وَأَحْسِنُوا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ يَكُنْ ذَلِكَ خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ يَتَّبِعْ عَنِ الْبُخْلِ وَالْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ، يَكُنْ مِنَ الْفَائِزِينَ .^{٥١٩}

وقد ورد عن ابن عباس، وسأله رجل عن هذه الآية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا "، قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوه، فأنزل الله هذه الآية: " وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " .^{٥٢٠} وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمدا. فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا: **نَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**

^{٥١٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٩١، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٢٠} - تفسير ابن أبي حاتم [٣١٦/ ١٢] صحيح

..والتنبية إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً.. إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية. وبمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي في ملابسات الحياة سواء. فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله. كما أنهم قد يكونون دافعا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقيه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير. كما يتعرض هو وأهله للعت. وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده. فينخل ويجن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال! فيكونون عدواً له، لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا. كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعون من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله.. وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات.. وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن.

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة، التحذير من الله، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات. ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنه الأموال والأولاد. وكلمة فتنة تحتل معنيين:

الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد. بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبداً يقظين لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتجردوا لله. كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب! والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله. وكلا المعنيين قريب من قريب.

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة، قال: سَمِعْتُ أَبِي بُرَيْدَةَ، يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُنَا، إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتُرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا فَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ اللَّهُ: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن] نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْشِيَانِ وَيَعْتُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ، حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي فَرَفَعْتَهُمَا. ٥٢١ ..

فهذا رسول الله - ﷺ - وهذان ابنا بنته.. وإنه لأمر إذن خطير. وخطر. وإن التحذير والتنبية فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس، وأودعها هذه المشاعر، لتكفكف نفسها عن التمادي والإفراط، وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو، وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكايد الأعداء! ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنة الأموال والأولاد، والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج. فهذه فتنة الله عنده أجرٌ عظيمٌ»..

٥٢١ - صحيح ابن حبان - ط ٢ مؤسسة الرسالة [١٣/ ٤٠٣] ٦٠٣٩ ومسنده أحمد (عالم الكتب) [٧/ ٦٣١] (٢٢٩٩٥) ٢٣٣٨٣

ويهدف للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة، وبالسمع والطاعة: «فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ - وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا» .. وفي هذا القيد: «مَا اسْتَطَعْتُمْ» يتجلى لطف الله بعباده، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ « دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ »^{٥٢٢} .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا ». فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِيتَ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ - ثُمَّ قَالَ - ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ »^{٥٢٣} .

فالطاعة في الأمر ليس لها حدود، ومن ثم يقبل فيها ما استطاع. أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان. ويهيب بهم إلى الإنفاق: «وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ» ..

فهم ينفقون لأنفسهم. وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم. فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم، ويعدّها الخير لهم حين يفعلون.

ويريهم شح النفس بلاء ملازما. السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه والوقاية منه فضل من الله: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .. ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتحيبهم في الإنفاق، فيسمي إنفاقهم قرضا لله. ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به، ويشكر المقرض، ويحلم عليه حين يقصر في شكره. وهو الله! «إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ. وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ» .. وتبارك الله. ما أكرمه! وما أعظمه! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه. ثم يسأله فضل ما أعطاه. قرضا. يضاعفه .. ثم .. يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه ..! يا لله!!!

إن الله يعلمنا - بصفاته - كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا، ونتطلع إلى أعلى دائما لنراه - سبحانه - ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة. وقد نفخ الله في الإنسان من روحه. فجعله مشتاقا أبدا إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائما ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة، حتى يلقى الله بما يحبه له ويرضاه. ويختم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب، بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .. فكل شيء مكشوف لعلمه، خاضع لسلطانه، مدير

^{٥٢٢} - صحيح البخارى - المكثر [٢٤ / ٨٢] (٧٢٨٨)

^{٥٢٣} - صحيح مسلم - المكثر [٨ / ٤٢٠] (٣٣٢١)

بحكمته. كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم، وسلطانه عليهم، وحكمته تدبر الأمر كله
حاضره وغائبه. وبكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب، لتتقي الله وتخلص له وتستجيب.^{٥٢٤}



^{٥٢٤} - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٨٥)

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } (٦) سورة التحريم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، اعْمَلُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّقُوا مَعْصِيَتَهُ، وَأْمُرُوا أَهْلَكُمْ بِالذِّكْرِ وَالتَّقْوَى، وَعَلِّمُوهُمْ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَأْمُرُوهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ لَتُنقِذُوهُمْ وَأَنْفُسَكُمْ مِنْ نَارٍ جَهَنَّمَ، الَّتِي يُكُونُ وَقُودُهَا النَّاسُ مِنَ الْكُفْرَةِ، وَالْحِجَارَةُ، وَتَقُومُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ، أَشِدَاءٌ عَلَيْهِمْ، لَا يُخَالِفُونَ رَبَّهُمْ فِي أَمْرٍ بِهِ، وَيُبَادِرُونَ إِلَى فِعْلِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ ٥٢٥ .

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبية. فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك. إنها نار. فظيعة متسعة: «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».. الناس فيها كالحجارة سواء. في مهانة الحجارة. وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة. دون اعتبار ولا عناية. وما أفضعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب: «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ». تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون.. «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».. فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم.. وهم بغلظتهم هذه وشدهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة. وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار. وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار. فيها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف، فلا يؤبه لاعتذارهم، بل يجبهون بالتيئيس: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ. إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»..

لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل. وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار! فكيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار؟ إنه يبين لهم الطريق، ويطمعهم بالرجاء: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا، وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».. هذا هو الطريق.. توبة نصوح.. توبة تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه.

٥٢٥ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥١١٣، بترقيم الشاملة آليا)

توبة عن الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها وتحضه على العمل الصالح بعدها. فهذه هي التوبة النصوح. التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحها فلا يعود إلى الذنوب.

فإذا كانت هذه التوبة فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيءات. وأن يدخلهم الجنات. في اليوم الذي يخزي فيه الكفار كما هم في المشهد الذي سبق في السياق. ولا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه. وإنه لإغراء مطمع، وتكريم عظيم، أن يضم الله المؤمنين إلى النبي - ﷺ - فيجعلهم معه صفا يتلقى الكرامة في يوم الخزي. ثم يجعل لهم نورا «يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». نورا يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب. ونورا يهتدون به في الزحام المريع. ونورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف! وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله: «يَقُولُونَ: رَبَّنَا أَلْمَمْنَا لَنَا نُورَنَا، وَأَغْفِرْ لَنَا، إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».. وإلهمهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب، هو علامة الاستجابة. فما يلهم الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب. فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم والنور. فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة؟

إن هذا الثواب، كذلك العقاب، كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار، وإنالتهم هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار. وفي ظلال ذلك الحادث الذي كان في بيوت النبي - ﷺ - ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص.

إن المؤمن مكلف هداية أهله، وإصلاح بيته، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه. إن الإسلام دين أسرة - كما أسلفنا في سورة الطلاق - ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته، وواجبه في بيته. والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي.. المجتمع الإسلامي..

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة. ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها. وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه، فلا يصعب على طارق، ولا يستعصي على مهاجم! وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله. واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها. واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا.

ولا بد من الأم المسلمة. فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة. لا بد من أم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات. فعبثا يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامي بمجموعة من الرجال. لا بد من النساء في هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء، وهو بذور المستقبل وثماره.

ومن ثم كان القرآن يتزل للرجال وللنساء وكان ينظم البيوت، ويقيّمها على المنهج الإسلامي، وكان يحمل المؤمنين تبعه أهلهم كما يحملهم تبعه أنفسهم: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا».. هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدا. إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت. إلى الزوجة. إلى الأم. ثم إلى الأولاد وإلى الأهل بعامة. ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم. وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة. وإلا فسيأخر طويلا بناء الجماعة الإسلامية. وسيظل البنیان متخاذلا كثير الثغرات!

وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه.. كان قد أنشئ مجتمع مسلم - في المدينة - يهيمن عليه الإسلام. يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية، ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور.

وكان المرجع فيه، مرجع الرجال والنساء جميعا، إلى الله ورسوله. وإلى حكم الله وحكم رسوله. فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير.. وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلا بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام. وكان الأمر سهلا بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام..

نحن الآن في موقف متغير. نحن نعيش في جاهلية. جاهلية مجتمع. وجاهلية تشريع. وجاهلية أخلاق.

وجاهلية تقاليد. وجاهلية نظم. وجاهلية آداب. وجاهلية ثقافة كذلك!!

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تم أن تليي الإسلام، سواء اهتدت إليه بنفسها، أو هداها إليه رجلها. زوجها أو أخوها أو أبوها.. هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع. كلهم. يتحاكمون إلى تصور واحد، وحكم واحد، وطابع واحد.

فأما هنا فالرجل يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع. والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضغطه على حس الرجل! وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن. إن عليه أن يقي نفسه النار! ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف! فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب لبيذل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى. ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتا أن يبحث أولا عن حارسة للقلعة، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو.. من الإسلام.. وسيضحى في هذا بأشياء: سيضحى بالالتماع الكاذب في المرأة. سيضحى بخضراء الدمن^{٥٢٦}! سيضحى بالمظهر البراق للحييف الطافية على وجه المجتمع. لبيحث عن ذات الدين، التي تعينه على بناء بيت مسلم، وعلى إنشاء قلعة مسلمة!

^{٥٢٦} - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمَنِ"، قِيلَ: وَمَا خَضْرَاءُ الدَّمَنِ؟ قَالَ: "الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَبَتِ السُّوءِ" قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: اسْمُ أَبِي وَجْزَةَ: يَزِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ. وَقَدْ جَاءَ هَذَا مُفَسَّرًا، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الرِّيحَ تَجْمَعُ الدَّمَانَ، وَهِيَ

ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا إليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أي أحد آخر. وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا» وارجع الكرة - بهذه المناسبة - إلى طبيعة الإسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيمن عليها الإسلام، والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي. فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة. الإسلام عقيدتها، والإسلام نظامها، والإسلام شريعته، والإسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها^{٥٢٧}.

هذه الجماعة هي المحضن الذي يحمي التصور الإسلامي ويحملة إلى النفوس، ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي، كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء.

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة، محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها. فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغط الساقط. ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العيش المسلم، أو في القلعة المسلمة، التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الإسلامي.

إنها ضرورة - وليست نافلة - أن تقوم جماعة مسلمة، تتواصى بالإسلام، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراتها كلها، فتعيش بها فيما بينها، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو إليها، في صورة واقعية يراها من يدعون إليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله. إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام. حتى تنشأ الأجيال في ظله، في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب^{٥٢٨} ..



البُعْرُ، فِي الْمَكَانِ مِنَ الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْكَبُهُ السَّافِي، فَيُنْبِتُ ذَلِكَ الْمَكَانَ نَبْتًا نَاعِمًا غَضًّا، فَيَرُوقُ بِحُسْنِهِ وَغَضَارَتِهِ، فَتَجِيءُ الْإِبِلُ إِلَى الْمَوْضِعِ وَقَدْ أُعْيَتْ فَرُبَّمَا أَكَلَتْهُ الْإِبِلُ فَتَمْرُضُ . يَقُولُ: لَا تَنْكِحُوا الْمَرْأَةَ لِحَمَالِهَا، وَهِيَ خَبِيثَةُ الْأَصْلِ، لِأَنَّ عِرْقَ السُّوءِ لَا يُنْجِبُ مَعَهُ الْوَلَدُ . وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَدْ يُنْبِتُ الْمَرْعَى عَلَى دَمِنِ الثَّرَى وَتَبَقَى حَزَازَاتُ النَّفْسِ كَمَا هِيَ

أَمْثَالُ الْحَدِيثِ لِلرَّامِهُرْمِزِيِّ (٨٧) ضَعِيفٌ

٥٢٧ - الظلال - هذا الجزء - سورة الصف ص ٣٥٥٢ - ٣٥٥٣ . (السيد رحمه الله)

٥٢٨ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٥٢٠)

٨٩. وجوب التوبة النصوح

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٨) سورة التحريم

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَتُوبُوا تَوْبَةً صَادِقَةً جَازِمَةً تَمْحُو مَا سَبَقَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ .

ثُمَّ يَبَيِّنُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ تَابُوا تَوْبَةً نَّصُوحًا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَغَفَرَ لَهُمْ، وَأَدْخَلَهُمْ بِرَحْمَتِهِ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِهَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَرْفَعُ اللَّهُ فِيهِ قَدْرَ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، وَقَدْرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ. وَيَجْعَلُ نُورَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، حِينَ يَمْشُونَ وَكُتِبَتْ لَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وَيَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يُبْتِغِيَ لَهُمْ نُورَهُمْ، فَلَا يَطْفِئُهُ حَتَّىٰ يُجُوزُوا الصَّرَاطَ بِهِ، وَيَسْتَعْفِرُونَ رَبَّهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ السَّالِفَةِ، وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا الْعَظِيمِ إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُعْجِزُكَ شَيْءٌ.^{٥٢٩}

قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياؤه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار، التي لا تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتم لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وحوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح. والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.^{٥٣٠}

قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) فِيهِ مَسْأَلَتَانِ: الْأُولَى - قَوْلُهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ أَمْرٌ بِالتَّوْبَةِ وَهِيَ فَرَضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ وَكُلِّ الْأَزْمَانِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا وَالْقَوْلُ فِيهَا فِي "النِّسَاءِ" وَغَيْرِهَا «٢». تَوْبَةً نَّصُوحًا اخْتَلَفَتْ عِبَارَةُ الْعُلَمَاءِ وَأَرْبَابِ الْقُلُوبِ فِي التَّوْبَةِ النَّصُوحِ عَلَى ثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ قَوْلًا، فَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لَا عُدَّةَ بَعْدَهَا كَمَا لَا يُعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الصَّرْعِ، وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَرَفَعَهُ مُعَاذٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ قَتَادَةُ: النَّصُوحُ الصَّادِقَةُ النَّاصِحَةُ. وَقِيلَ الْخَالِصَةُ، يُقَالُ: نَصَحَ أَيُّ أَخْلَصَ لَهُ الْقَوْلَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: النَّصُوحُ أَنْ يُبْغِضَ الذَّنْبَ الَّذِي أَحْبَبَهُ وَيَسْتَعْفِرَ مِنْهُ إِذَا ذَكَرَهُ. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لَا يَثِقُ بِقَوْلِهَا وَيَكُونُ عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا. وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى تَوْبَةٍ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ النَّدْمُ بِالْقَلْبِ، وَالِاسْتِعْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالِإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ، وَالِاطْمِئْنَانُ عَلَى أَنَّهُ لَا يُعُودُ.. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ

^{٥٢٩} - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥١١٥، بترقيم الشاملة آليا)

^{٥٣٠} - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧٤)

جَبِيْرٌ: هِيَ التَّوْبَةُ الْمَقْبُوْلَةُ، وَلَا تُقْبَلُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا ثَلَاثَةٌ شُرُوطٍ: خَوْفٌ أَلَّا تُقْبَلَ، وَرَجَاءٌ أَنْ تُقْبَلَ، وَإِدْمَانُ الطَّاعَاتِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: تَوْبَةٌ تَنْصَحُونَ بِهَا أَنْفُسَكُمْ. وَقَالَ الْقُرْظِيُّ: يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةٌ أَشْيَاءَ: الِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَإِقْلَاعُ بِالْأَبْدَانِ، وَإِضْمَارُ تَرْكِ الْعَوْدِ بِالْجَنَانِ، وَمُهَاجِرَةُ سَيِّئِ الْخَلْقَانِ. وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: عَلَامَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوحُ أَرْبَعَةٌ: الْقَلَّةُ وَالْعَلَّةُ وَالذَّلَّةُ وَالْعُرْبَةُ. وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الذَّنْبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَنَحْوَهُ عَنِ ابْنِ السَّمَاكِ: أَنْ تَنْصِبَ الذَّنْبَ الَّذِي أَقْلَقْتَ فِيهِ الْحَيَاءَ مِنَ اللَّهِ أَمَامَ عَيْنِكَ وَتَسْتَعِدُّ لِمُنْتَظَرِكَ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: هُوَ أَنْ تَضِيقَ عَلَيْكَ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، وَتَضِيقَ عَلَيْكَ نَفْسُكَ، كَالثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَأَسْطِيُّ: هِيَ تَوْبَةٌ لَا لَفَقْدِ عَوْضٍ، لِأَنَّ مَنْ أَذْنَبَ فِي الدُّنْيَا لِرَفَاهِيَةِ نَفْسِهِ ثُمَّ تَابَ طَلَبًا لِرَفَاهِيَتِهَا فِي الْآخِرَةِ، فَتَوْبَتُهُ عَلَى حِفْظِ نَفْسِهِ لَا لِلَّهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الدَّقَّاقُ الْمَصْرِيُّ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هِيَ رَدُّ الْمَظَالِمِ، وَاسْتِحْلَالُ الْخُصُومِ، وَإِدْمَانُ الطَّاعَاتِ. وَقَالَ رُوَيْمٌ: هُوَ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ وَجْهًا بِلَا قَفَا، كَمَا كُنْتَ لَهُ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ قَفَا بِلَا وَجْهِ. وَقَالَ ذُو الثُّونِ: عَلَامَةُ التَّوْبَةِ النَّصُوحُ ثَلَاثٌ: قَلَّةُ الْكَلَامِ، وَقَلَّةُ الطَّعَامِ، وَقَلَّةُ الْمَنَامِ. وَقَالَ شَقِيقٌ: هُوَ أَنْ يُكْثَرَ صَاحِبُهَا لِنَفْسِهِ الْمَلَامَةَ، وَلَا يَنْفَكَ مِنَ النَّدَامَةِ، لِيَنْجُوَ مِنْ آفَاتِهَا بِالسَّلَامَةِ. وَقَالَ سَرِيُّ السَّقَطِيُّ: لَا تَصْلُحُ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ إِلَّا بِنَصِيحَةِ النَّفْسِ وَالْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ مَنْ صَحَبَ تَوْبَتَهُ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مِثْلَهُ. وَقَالَ الْجُنَيْدُ: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ هُوَ أَنْ يَنْسَى الذَّنْبَ فَلَا يَذْكُرُهُ أَبَدًا، لِأَنَّ مَنْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ صَارَ مُحِبًّا لِلَّهِ، وَمَنْ أَحَبَّ اللَّهُ نَسِيَ مَا دُونَ اللَّهِ. وَقَالَ ذُو الْأُدُنَيْنِ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِصَاحِبِهَا دَمْعٌ مَسْفُوحٌ، وَقَلْبٌ عَنِ الْمَعَاصِي جَمُوحٌ. وَقَالَ فَتْحُ الْمَوْصِلِيِّ: عَلَامَتُهَا ثَلَاثٌ: مُخَالَفَةُ الْهَوَى، وَكَثْرَةُ الْبُكَاءِ، وَمُكَابَدَةُ الْجُوعِ وَالظَّمَا. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ: هِيَ التَّوْبَةُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، لِأَنَّ الْمُبْتَدِعَ لَا تَوْبَةَ لَهُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: (حَجَبَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ صَاحِبٍ بِدْعَةٍ أَنْ يَتُوبَ). وَعَنْ حُدَيْفَةَ: بِحَسَبِ الرَّجُلِ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَتُوبَ مِنَ الذَّنْبِ ثُمَّ يَعُودَ فِيهِ. وَأَصْلُ التَّوْبَةِ النَّصُوحُ مِنَ الْخُلُوصِ، يُقَالُ: هَذَا عَسَلٌ نَاصِحٌ إِذَا خَلَصَ مِنَ الشَّمْعِ. وَقِيلَ: هِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ النَّصَاحَةِ وَهِيَ الْخِيَاطَةُ. وَفِي أَخْذِهَا مِنْهَا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا - لِأَنَّهَا تَوْبَةٌ قَدْ أَحْكَمْتَ طَاعَتَهُ وَأَوْتَقَتْهَا كَمَا يُحْكِمُ الْخِيَاطُ الثُّوبَ بِخِيَاطَتِهِ وَيُوثِقُهُ. وَالثَّانِي - لِأَنَّهَا قَدْ جَمَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَالصَّقَاتِ بِهِمْ، كَمَا يَجْمَعُ الْخِيَاطُ الثُّوبَ وَيُلْصِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ نَصُوحًا بَفَتْحِ الثُّونِ، عَلَى نَعْتِ التَّوْبَةِ، مِثْلَ امْرَأَةٍ صَبُورٍ، أَيْ تَوْبَةٌ بِالْعَةِ فِي النَّصْحِ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَخَارِجَةُ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ بِالضَّمِّ، وَتَأْوِيلُهُ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ: تَوْبَةٌ نَصَحَ لِأَنْفُسِكُمْ. وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَصُوحًا، جَمْعُ نَصَحَ، وَأَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا، يُقَالُ: نَصَحَ نَصَاحَةً وَنُصُوحًا. وَقَدْ يَتَّفِقُ فِعَالَةٌ وَفَعُولٌ فِي الْمَصَادِرِ، نَحْوَ الذَّهَابِ وَالذُّهُوبِ. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: أَرَادَ تَوْبَةَ ذَاتِ نَصْحٍ، يُقَالُ: نَصَحْتُ نَصْحًا وَنَصَاحَةً وَنُصُوحًا. الثَّانِيَةُ - فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُتَابُ مِنْهَا وَكَيْفَ التَّوْبَةِ مِنْهَا. قَالَ الْعُلَمَاءُ: الذَّنْبُ الَّذِي تَكُونُ مِنْهُ التَّوْبَةُ لَا يَخْلُو، إِذَا أَنْ يَكُونَ حَقًّا لِلَّهِ أَوْ لِلدَّامِيَيْنِ. فَإِنْ كَانَ حَقًّا لِلَّهِ كَثْرَكَ صَلَاةُ فَإِنَّ التَّوْبَةَ لَا تَصِحُّ مِنْهُ حَتَّى يَنْصَمَّ إِلَى النَّدَمِ

قَضَاءُ مَا فَاتَ مِنْهَا. وَهَكَذَا إِنْ كَانَ تَرَكَ صَوْمَ أَوْ تَفَرِّطًا فِي الرِّكَاءِ. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ قَتَلَ نَفْسَ بَعِيرٍ حَقًّا فَانَّ يُمَكِّنَ مِنَ الْقِصَاصِ إِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَكَانَ مَطْلُوبًا بِهِ. وَإِنْ كَانَ قَدْ فَا يُوجِبُ الْحَدَّ فَيَسْأَلُ ظَهْرَهُ لِلْحَدِّ إِنْ كَانَ مَطْلُوبًا بِهِ. فَإِنْ عَفِيَ عَنْهُ كَفَاهُ النَّدْمَ وَالْعَزْمَ عَلَى تَرَكَ الْعُودِ بِالْإِخْلَاصِ. وَكَذَلِكَ إِنْ عَفِيَ عَنْهُ فِي الْقَتْلِ بِمَالٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَهُ إِنْ كَانَ وَاجِدًا لَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَحْيَاهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ [البقرة: ١٧٨]. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ كَانْنَا مَا كَانَ فَإِنَّهُ إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّدَمِ الصَّحِيحِ سَقَطَ عَنْهُ. وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى سُقُوطِ الْحَدِّ عَنِ الْمُحَارِبِينَ إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ. وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا لَا تَسْقُطُ عَنْهُمْ إِذَا تَابُوا بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ، حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ. وَكَذَلِكَ الشَّرَابُ وَالسَّرَاقُ وَالزُّنَاةُ إِذَا أَصْلَحُوا وَتَابُوا وَعُورِفَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ثُمَّ رَفَعُوا إِلَى الْإِمَامِ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْدُثَهُمْ. وَإِنْ رَفَعُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: ثَبْنَا، لَمْ يُتْرَكُوا، وَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ كَالْمُحَارِبِينَ إِذَا غَلَبُوا. هَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ. فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ مِنْ مَظَالِمِ الْعِبَادِ فَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنْهُ إِلَّا بَرَدَهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَالخُرُوجَ عَنْهُ - عَيْنًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ - إِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا فَالْعَزْمُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ إِذَا قَدَرَ فِي أَجَلٍ وَقْتٍ وَأَسْرَعِهِ. وَإِنْ كَانَ أَضْرَبَ بَوَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَذَلِكَ الْوَاحِدُ لَا يَشْعُرُ بِهِ أَوْ لَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أُتِيَ، فَإِنَّهُ يُزِيلُ ذَلِكَ الضَّرَرَ عَنْهُ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ وَيَسْتَعْفِرَ لَهُ، فَإِذَا عَفَا عَنْهُ فَقَدْ سَقَطَ الذَّنْبُ عَنْهُ. وَإِنْ أُرْسِلَ مَنْ يَسْأَلُ ذَلِكَ لَهُ، فَعَفَا ذَلِكَ الْمَظْلُومُ عَنْ ظَالِمِهِ - عَرَفَهُ بَعِينَهُ أَوْ لَمْ يَعْرِفْهُ - فَذَلِكَ صَحِيحٌ. وَإِنْ أَسَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ بَأَنَ فَرَزَعَهُ بَعِيرٍ حَقًّا، أَوْ عَمَهُ أَوْ لَطَمَهُ، أَوْ صَفَعَهُ بَعِيرٍ حَقًّا، أَوْ ضَرَبَهُ بِسَوْطٍ فَالْمَمُّ، ثُمَّ جَاءَهُ مُسْتَعْفِيًا نَادِمًا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، عَازِمًا عَلَى الْإِيعَادِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَذَلَّلُ لَهُ حَتَّى طَابَتْ نَفْسُهُ فَعَفَا عَنْهُ، سَقَطَ عَنْهُ ذَلِكَ الذَّنْبُ. وَهَكَذَا إِنْ كَانَ شَانَهُ بِشْتَمٍ لَأَ حَدِّ فِيهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ). وَأَنْ فِي مَوْضِعِ رَفْعِ اسْمِ عَسَى. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَيُدْخِلِكُمْ مَعْطُوفٌ عَلَى يُكْفِرُ. وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَبَّالَةَ (وَيُدْخِلِكُمْ) مَجْزُومًا عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ عَسَى أَنْ يُكْفِرَ. كَأَنَّهُ قِيلَ: تُوبُوا يُوجِبُ تَكْفِيرَ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ) الْعَامِلُ فِي يَوْمٍ: يُدْخِلِكُمْ أَوْ فِعْلٌ مُضْمَرٌ. وَمَعْنَى يُخْزِي هُنَا يُعَذِّبُ، أَيُّ لَا يُعَذِّبُهُ وَلَا يُعَذِّبُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ. (نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ "الْحَدِيدِ". (يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغُفْرَانٌ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا: هَذَا دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ أَطْفَأَ اللَّهُ نُورَ الْمُتَنَافِقِينَ، حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي سُورَةِ "الْحَدِيدِ" ^{٥٣١}

الحث على التوبة قبل فوات الأوان :

قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ
آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلَاثَةٌ شُرُوطٌ :

أَحَدُهَا: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ .

وَالثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .

وَالثَّلَاثُ: أَنْ يَعِزَّمَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ.

وَإِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ
مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهَ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَدًّا قَذَفَ وَنَحَوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْبَةً اسْتَحْلَهُ
مِنْهَا. وَيَجِبُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ
الذَّنْبِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ الْبَاقِي. وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلَائِلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى وَجُوبِ التَّوْبَةِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: {
اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ } [هود: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً
نَصُوحًا } [التحریم: ٨] .

عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^{٥٣٢}

وَعَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو بُرْدَةَ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ يُعْجِبُنِي
تَوَاضُعُهُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ، فَإِنِّي
أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مَرَّةٍ»^{٥٣٣} .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ، سَقَطَ عَلَيَّ
بَعِيرُهُ، وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»^{٥٣٤} .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ
كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجْرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي
ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، فَاتَمَّةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطْمِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ
الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ " ^{٥٣٥} .

^{٥٣٢} - صحيح البخاري (٦٧ / ٨) (٦٣٠٧)

^{٥٣٣} - السنن الكبرى للنسائي (١٦٨ / ٩) (١٠٢٠٥) صحيح

^{٥٣٤} - صحيح البخاري (٦٨ / ٨) (٦٣٠٩) [ش (سقط على بعيره) صادفه من غير قصد. (أضله) أضاعه. (فلاة) صحراء]

^{٥٣٥} - صحيح مسلم (٤ / ٢١٠٤) - ٧ (٢٧٤٧)

وَعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^{٥٣٦} ..

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^{٥٣٧} ..

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُعْرِغْ»^{٥٣٨}.
وَعَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالِ الْمُرَادِيِّ، أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زُرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ حَكٌّ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتُ أَمْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا أَوْ مُسَافِرِينَ أَنْ لَا نَنْزِعَ خُفَانَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ، فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهُوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٌّ يَا مُحَمَّدُ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَحْوِ مَنْ صَوْتِهِ هَاؤُمْ وَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ أَغْضَضَ مِنْ صَوْتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ نَهَيْتَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَغْضَضُ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقُ بِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنْ قَبْلِ الْمَغْرِبِ مَسِيرَةَ عَرْضِهِ، أَوْ يَسِيرَ الرَّكْبِ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا، قَالَ سُفْيَانُ: قَبْلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا - يَعْنِي لِلتَّوْبَةِ - لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ.^{٥٣٩}

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُدْلٌ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُدْلٌ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ بَهَا أَنَا سَأَلَ يَجْعَلُونَ اللَّهُ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوْءٌ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بَقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ

^{٥٣٦} - صحيح مسلم (٤/ ٢١١٣) ٣١ - (٢٧٥٩)

[ش (يسط يد) قال المازري المراد به قبول التوبة وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضي أحدهم الشيء بسط يده لقبوله وإذا كرهه قبضها عنه فخطوبوا بأمر حسي يفهمونه وهو مجاز]

^{٥٣٧} - صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٦) ٤٣ - (٢٧٠٣) [ش (تاب الله عليه) أي قبل توبته ورضي بها]

^{٥٣٨} - صحيح ابن حبان - مخرجا (٢/ ٣٩٥) (٦٢٨) صحيح - يغرغر : أي ما لم تبلغ روحه حلقومه . النهاية ٣/ ٣٦٠ .

^{٥٣٩} - سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٥٤٥) (٣٥٣٥) صحيح

الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ "، قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ ذَكَرَ لَنَا، أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ "٥٤٠.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: " أَنَّ رَجُلًا قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَأَتَى رَاهِبًا، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: لَيْسَتْ لَكَ تَوْبَةٌ، فَقَتَلَ الرَّاهِبَ، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ فِيهَا قَوْمٌ صَالِحُونَ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَأَى بِصَدْرِهِ، ثُمَّ مَاتَ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِيرٍ، فَجَعَلَ مِنْ أَهْلِهَا "٥٤١

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: " كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَقَالَ: قِسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدَ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَعُغِرَ لَهُ "٥٤٢

وَعَنْ ابْنِ شَهَابٍ، قَالَ: ثُمَّ غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ، وَهُوَ يُرِيدُ الرُّومَ وَنَصَارَى الْعَرَبِ بِالشَّامِ قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ كَانَ قَائِدَ كَعْبٍ، مِنْ بَنِيهِ، حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: لَمْ أَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا قَطُّ، إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يَعْتَبِرْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ، عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، حِينَ تَوَاتَفْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدٌ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا، وَكَانَ مِنْ خَبْرِي، حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ، حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّ لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرُهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بَوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ - يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيَّانَ - قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَنْتَعِبَ، يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ [ص: ٢١٢٢] سَيَخْفَى لَهُ، مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

٥٤٠ - صحيح مسلم (٤/ ٢١١٨) ٤٦ - (٢٧٦٦)

[ش (نصف) أي بلغ نصفها (نأى) أي نهض ويجوز تقديم الألف على الهمزة وعكسه]

٥٤١ - صحيح مسلم (٤/ ٢١١٩) ٤٧ - (٢٧٦٦)

٥٤٢ - صحيح البخاري (٤/ ١٧٤) (٣٤٧٠)

[ش (يسأل) عن طريق التوبة والاستغفار. (راهبا) هو المنقطع للعبادة. (فناء) مال إلى تلك القرية التي توجه إليها للتوبة والعبادة فيها.

(فأوحى) أمر أمر تكوين أي جعلها تتباعد وتقرب. (هذه) القرية المتوجه إليها. (هذه) القرية الخارج منها]

ﷺ تَلَكَ الْعَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الشَّمَارُ وَالظَّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفَقَتْ أَعْدُو لِكِي أَنْتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادِي بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتِمَادِي بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْعَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكُهُمْ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يَقْدِرْ ذَلِكَ لِي، فَطَفَقْتُ، إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ، بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَحْزِنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَعْمُوصًا عَلَيْهِ فِي التَّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مَمَّنَّ عَدَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعْفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ: وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظْرُ فِي عَطْفِيهِ، فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بئسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا حَيْشِمَةَ» فَإِذَا هُوَ أَبُو حَيْشِمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُتَنَافِقُونَ [ص: ٢١٢٣]، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ، حَضَرَنِي بَشِي، فَطَفَقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكُذْبَ وَأَقُولُ: بِمِ أَخْرَجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ لِي: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ، حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُو مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَصَبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، وَيُحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بَضْعَةً وَتَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمُ تَبَسُّمَ الْمُعْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَى» فَجِئْتُ أَمَشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا حَلَفُكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي، وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدُ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ، لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ وَلَنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُدْرٌ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا هَذَا، فَقَدْ صَدَقَ، فَقَمَّ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ» فَقَمْتُ، وَنَارَ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ [ص: ٢١٢٤] لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِمَا اعْتَدَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبِكَ، اسْتَغْفَرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَكَ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْتِبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأُكْذِبَ نَفْسِي، قَالَ ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِي هَذَا مَعِي مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعَةَ الْعَامِرِيُّ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ، قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا

بَدْرًا، فِيهِمَا أُسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، قَالَ وَنَهَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنِ كَلَامِنَا، أَيُّهَا
الثَّانِيَةُ، مَنْ بَيْنَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قَالَ: فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ، وَقَالَ: تَعَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَتَكَبَّرَ لِي فِي نَفْسِي
الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي
يُبُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ وَأَطُوفُ فِي
الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي
نَفْسِي: هَلْ حَرَكَ شَفْتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ، أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصْلِي قَرِيبًا مِنْهُ وَأَسَارِفُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي
نَظَرْتُ [ص: ٢١٢٥] إِلَيَّ وَإِذَا التَّفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ
الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ
عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَنَّ أَنِّي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟
قَالَ: فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ، فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ
عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ، حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبْطِيٌّ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ
الشَّامِ، مَمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ، يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَيَّ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ
لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا
أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارَ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةً، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ، قَالَ فَقُلْتُ: حِينَ
قَرَأْتَهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَّامَمْتُ بِهَا التَّنُورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا، حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنْ
الْخَمْسِينَ، وَاسْتَلْبَثْتُ الْوَحْيَ، إِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزَلَ
امْرَأَتَكَ، قَالَ: فَقُلْتُ: أَطَلَّقَهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزَلْهَا، فَلَا تَقْرَبْنَهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيَّ صَاحِبِي بِمِثْلِ
ذَلِكَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَامْرَأَتِي: الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: فَجَاءَتْ
امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ [ص: ٢١٢٦]
لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكَ» فَقَالَتْ: إِنَّهُ، وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَيَّ
شَيْءٍ، وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، قَالَ: فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ
اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ؟ فَقَدْ أَذِنَ لَامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَسْتَأْذِنُ
فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يَدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ، قَالَ: فَلَبِثْتُ
بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمَلْتُ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَيْتُ عَنْ كَلَامِنَا، قَالَ ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ
خَمْسِينَ لَيْلَةً، عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ يُبُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَّا، قَدْ
ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَيَّ سَلَعَ يَقُولُ
بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَّرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، قَالَ: فَآذَنَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا، حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي
مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ

الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، فَنَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَاللَّهُ مَا أَمَلْتُكَ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعْرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتَهُمَا، فَأَنْطَلَقْتُ أَتَاكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَتَلَقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَيِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ: لَتَهْنُوكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ حَتَّى دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لَطَلْحَةَ [ص: ٢١٢٧]. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهَهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ: «أُبَشِّرُ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ» قَالَ فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَتَارَ وَجْهَهُ، كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةٌ قَمَرٍ، قَالَ: وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ، قَالَ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قَالَ فَقُلْتُ: فَإِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرِ، قَالَ: وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيَتْ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ، مِنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ بِهِ، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مِنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِي مَا بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ} حَتَّى بَلَغَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]، قَالَ كَعْبٌ: وَاللَّهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ، بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، أَعْظَمَ فِي نَفْسِي، مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا، إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا، حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ، شَرٌّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ. وَقَالَ اللَّهُ: {سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٦]، قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلَفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا، وَكَانَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلَفْنَا، تَخَلَّفْنَا عَنِ الْعَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ ٥٤٣ .

٥٤٣ - صحيح مسلم (٤/ ٢١٢٠) - ٥٣ (٢٧٦٩)

[ش (ليلة العقبة) هي الليلة التي بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فيها على الإسلام وأن يؤووه وينصروه وهي العقبة التي في طرف منى التي يضاف إليها جمة العقبة وكانت بيعة العقبة مرتين في سنتين في السنة الأولى كانوا اثني عشر وفي الثانية سبعين كلهم

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ»^{٥٤٤}.

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّئِنِيِّ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلَيْبَهَا، فَقَالَ: «أَحْسِنِ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعْتَ فَاتْنِي بِهَا»، فَفَعَلَ، فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ، فَشَكَتَ عَلَيْهَا تِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ

من الأنصار رضي الله عنهم (تواتقنا على الإسلام) أي تبايعنا عليه وتعاهدنا (وإن كانت بدر أذكر) أي أشهر عند الناس بالفضيلة (ومغازا) أي برية طويلة قليلة الماء يخاف فيها الهلاك (فجلا للمسلمين أمرهم) أي كشفه وبينه وأوضحه وعرفهم ذلك على وجهه من غير تورية يقال جلوت الشيء ككشفته (ليتأهبوا أهبة غزوهم) أي ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم ذلك (فأخبرهم بوجههم) أي بمقصدهم (فقل رجل يريد أن يتغيب الخ) قال القاضي هكذا هو في جميع نسخ مسلم وصوابه إلا يظن أن ذلك سيخفى له بزيادة إلا وكذا رواه البخاري (فأنا إليها أصعر) أي أميل (وتفارت الغزوة) أي تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا (مغموصا عليه في النفاق) أي متهما به (حتى بلغ تبوكا) هو في أكثر النسخ تبوكا بالنصب وكذا هو في نسخ البخاري وكأنه صرفها لإرادة الموقع دون البقعة (والنظر في عطفيه) أي جانبيه وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه (مبيضا) هو لا لبس البياض ويقال هم المبيضة والمسودة أي لا بسوا البياض والسواد (يزول به السراب) أي يتحرك وينهض والسراب هو ما يظهر للإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء (كن أبا خيشمة) قيل معناه أنت أبو خيشمة قال ثعلب العرب تقول كن زيدا أي أنت زيد قال القاضي عياض والأشبه عندي أن كن هنا للتحقق والوجود أي لتوجد يا هذا الشخص أبا خيشمة حقيقة وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب وهو معنى قول صاحب التحرير تقديره اللهم اجعله أبا خيشمة (لمزه المنافقون) أي عابوه واحتقروه (توجه قافلا) أي راجعا (حضرني بتي) هو أشد الحزن (أظل قادما) أي أقبل ودنا قدمه كأنه ألقى علي ظله (زاح) أي زال (فأجمعت صدقة) أي عزمت عليه يقال أجمع أمره وعلى أمره وعزم عليه بمعنى (أعطيت جدلا) أي فصاحة وقوة في الكلام وبراعة بحيث أخرج عن عهدة ما ينسب إلي إذا أردت (ليوشكن) أي ليسرعن (تجد علي فيه) أي تغضب (إني لأرجو فيه عقي الله) أي أن يعقبن خيرا وأن يثيبني عليه (يؤنونني) أي يلومونني أشد اللوم (العامري) هكذا هو في جميع نسخ مسلم العامري وأنكره العلماء وقالوا هو غلط إنما صوابه العمري من بني عمرو بن عوف وكذا ذكره البخاري وكذا نسبه محمد بن إسحاق وابن عبد البر وغيرهما من الأئمة قال القاضي هو الصواب (أيها الثلاثة) قال القاضي هو بالرفع وموضعه نصب على الاختصاص قال سيبويه نقلنا عن العرب اللهم اغفر لنا أيتها العصابة وهذا مثله (فما هي بالأرض التي أعرف) معناه تغير علي كل شيء حتى الأرض فإنها توحشت علي وصارت كأنها أرض لم أعرفها بتوحشها علي (فاستكانا) أي خضعا (أشب القوم وأجلدهم) أي أصغرهم سنا وأقواهم (حتى تسورت) معنى تسورته علوته وصعدت سوره وهو أعلاه (أنشدك بالله) أي أسألك بالله وأصله من النشيد وهو الصوت (نبطي من نبط أهل الشام) يقال النبط والأنباط والنبيط وهم فلاحو العجم (مضيعة) فيها لغتان إحداها مضيعة والثانية مضيعة أي موضع وحال يضيع فيه حقل (نواسك) وفي بعض النسخ نواسيك بزيادة ياء وهو صحيح أي ونحن نواسيك وقطعه عن جواب الأمر ومعناه نشاركك فيما عندنا (فتيامت) هكذا هو في جميع النسخ ببلادنا وهي لغة في تيممت ومعناها قصدت (فسجرتها) أي أحرقتها وأنت الضمير لأنه أراد معنى الكتاب وهو الصحيفة (واستلبت الوحي) أي أبطأ (وضاقت علي الأرض بما رحبت) أي بما اتسعت ومعناه ضاقت علي الأرض مع أنها متسعة والرحب السعة (أوفي على سلع) أي صعده وارتفع عليه وطلع جبل بالمدينة معروف (فأذن الناس) أي أعلمهم (أتأمم) أي أقصد (فوجا فوجا) الفوج الجماعة (أن تلخع من مالي) أي أخرج منه وأتصدق به (أبلاه الله) أي أنعم عليه والبلاء والإبلاء يكون في الخير والنشر لكن إذا أطلق كان للنشر غالبا فإذا أريد الخير قيد كما قيد هنا فقال أحسن مما أبلاني (أن لا أكون كذبتة) هكذا هو في جميع نسخ مسلم وكثير من روايات البخاري قال العلماء لفظه لا في قوله أن لا أكون زائدا ومعناه أن أكون كذبتة كقوله تعالى ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك (وإرجاؤه أمرنا) أي تأخيره]

^{٥٤٤} - السنن الكبرى للنسائي (٨ / ٩٩) (٨٧٣٤) صحيح

عُمَرُ: نُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَقَدْ زَنْتَ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى؟»^{٥٤٥}

وَعَنْ ابْنِ شَهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^{٥٤٦}.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيَسْتَشْهَدُ"^{٥٤٧}.



^{٥٤٥} - صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٤) ٢٤ - (١٦٩٦) [ش (أصبت حدا) أي ارتكبت أمرا يوجب الحد(فشكت عليها ثيابها) هكذا هو في معظم النسخ فشكت وفي بعضها فشدت وهو معنى الأول وفي هذا استحباب جمع أثوابها عليها وشدها بحيث لا تنكشف عورتها في تقلبها وتكرار اضطرابها(جادت بنفسها) أي أخرجت روحها ودفعتها لله تعالى]

^{٥٤٦} - صحيح البخاري (٨/ ٩٣) (٦٤٣٩) [ش(نرى) نظن أو نعتقد. (هذا) أي الحديث المذكور. (حتى نزلت) أي هذه السورة التي بمعنى الحديث فحين المقايسة بينهما أعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقرآن. وقيل كان قرآنا فنسخ بتزول السورة اكتفاء بما هو في معناه. (ألهاكم) شغلكم. (التكاثر) المباراة في كثرة الأموال وغيرها والتفاخر بتلك الأموال]

^{٥٤٧} - صحيح البخاري (٤/ ٢٤) (٢٨٢٦) [ش (يضحك الله) كناية عن الرضا والقبول وإجزال العطاء وهو مثل ضربه لهذا الصنيع الذي هو مكان التعجب عند البشر أو هو ضحك يليق به سبحانه وتعالى وليس كضحك البشر. (يتوب الله على القاتل) بدخوله في الإسلام]

أهم المصادر

١. القرآن الكريم خط عادي
٢. تفسير الطبري ت أحمد محمد شاكر
٣. تفسير ابن كثير ط دار القلم - دار طيبة للنشر والتوزيع- الشاملة ٢ -موقع التفاسير
٤. تفسير القرطبي دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية + الشاملة ٢+موقع التفاسير
٥. تفسير الشوكاني (فتح القدير) الشاملة ٢+موقع التفاسير
٦. التفسير الوسيط -سيد طنطاوي -موقع التفاسير <http://www.altafsir.com>
٧. أيسر التفاسير - أسعد حومد - موقع التفاسير <http://www.altafsir.com>
٨. صفوة التفاسير للصابوني- دار الصابوني .
٩. تفسير الظلال - موقع التفاسير <http://www.altafsir.com>
١٠. مسند أحمد بن حنبل ط- موسوعة الأزهر - المكتز
١١. صحيح البخاري ط- موسوعة الأزهر - المكتز
١٢. صحيح مسلم ط- موسوعة الأزهر - المكتز
١٣. سنن أبي داود - موسوعة الأزهر - المكتز
١٤. سنن الترمذي - موسوعة الأزهر - المكتز
١٥. سنن النسائي - موسوعة الأزهر - المكتز
١٦. سنن ابن ماجه - موسوعة الأزهر - المكتز
١٧. سنن الدارمي - موسوعة الأزهر - المكتز
١٨. موطأ الإمام مالك - موسوعة الأزهر - المكتز
١٩. السنن الكبرى للبيهقي = موسوعة الأزهر - المكتز
٢٠. شعب الإيمان للبيهقي الشاملة ٢ = جامع الحديث النبوي
٢١. معجم الطبراني الكبير = أبو المعاطي
٢٢. معجم الطبراني الأوسط = جامع الحديث النبوي
٢٣. المعجم الصغير للطبراني = جامع الحديث النبوي
٢٤. مسند أبي عوانة الشاملة ٢
٢٥. مسند الشاميين للطبراني الشاملة ٢+ = جامع الحديث النبوي
٢٦. صحيح الترغيب والترهيب الشيخ ناصر الدين الألباني - أية طبعة مرقمة
٢٧. الترغيب والترهيب للمنذري - أية طبعة مرقمة

٢٨. دلائل النبوة للبيهقي = جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٢٩. سلسلة الأحاديث الصحيحة الشيخ ناصر الدين الألباني - أية طبعة مرقمة
٣٠. مسند أبي يعلى الموصلي = جامع الحديث النبوي - وطبعة دار المأمون
٣١. الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم = الشاملة ٢ + جامع الحديث النبوي
٣٢. صحيح ابن حبان = جامع الحديث النبوي - وطبعة مؤسسة الرسالة
٣٣. صحيح ابن خزيمة - الشاملة ٢ - جامع الحديث النبوي
٣٤. معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصفهاني = جامع الحديث النبوي
٣٥. مسند الحميدي - موسوعة الأزهر - المكتز
٣٦. المستدرک للحاكم - جامع الحديث النبوي = والطبعة الأساسية دار المعرفة
٣٧. مصنف عبد الرزاق - المكتب الإسلامي
٣٨. مسند البزار - الشاملة ٢
٣٩. مصنف ابن أبي شيبة تحقيق محمد عوامة
٤٠. السنة لابن أبي عاصم - جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٤١. الآداب للبيهقي - جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٤٢. معرفة الصحابة لأبي نعيم - جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٤٣. مسند عبد بن حميد - جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٤٤. تهذيب الآثار للطبري - جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٤٥. السنن الكبرى للنسائي = مؤسسة الرسالة
٤٦. صحيح الجامع الصغير الألباني - المكتب الإسلامي
٤٧. المختارة للضياء المقدسي الشاملة ٢ + المطبوع
٤٨. الشريعة للأجري الشاملة ٢ + جامع الحديث النبوي
٤٩. الإبانة الكبرى لابن بطة الشاملة ٢ + جامع الحديث النبوي
٥٠. الرد على الجهمية للدارمي الشاملة ٢ + جامع الحديث النبوي
٥١. الاعتقاد للبيهقي الشاملة ٢ + جامع الحديث النبوي
٥٢. المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني الشاملة ٢ + جامع الحديث النبوي
٥٣. صحيح أبي داود الألباني - أية طبعة مرقمة
٥٤. صحيح الترمذي الألباني - أية طبعة مرقمة
٥٥. صحيح النسائي الألباني - أية طبعة مرقمة
٥٦. صحيح ابن ماجة الألباني - أية طبعة مرقمة

٥٧. صحيح الجامع الصغير للألباني - أية طبعة مرقمة- المكتب الإسلامي
٥٨. شرح معاني الآثار للطحاوي - جامع الحديث النبوي
٥٩. فوائد تمام- الشاملة ٢ - جامع الحديث النبوي
٦٠. مشكل الآثار للطحاوي- الشاملة ٢ - جامع الحديث النبوي
٦١. حلية الأولياء لأبي نعيم الشاملة ٣+ جامع الحديث النبوي
٦٢. فضائل القرآن للفريابي - الشاملة ٢- جامع الحديث النبوي
٦٣. صفة الجنة لأبي نعيم الشاملة ٢+ جامع الحديث النبوي
٦٤. صفة الجنة لابن أبي الدنيا الشاملة ٢+ جامع الحديث النبوي
٦٥. الزهد والرفائق لابن المبارك الشاملة ٢+ جامع الحديث النبوي
٦٦. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر - الشاملة ٢
٦٧. شروح العقيدة الطحاوية
٦٨. التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة الشاملة ٢
٦٩. التيسير بشرح الجامع الصغير - للمناوي - مكتبة الإمام الشافعي - الرياض
٧٠. شرح الأربعين النووية عطية بن محمد سالم - الشاملة ٢
٧١. عمدة القاري للعينى الشاملة ٢
٧٢. شرح رياض الصالحين لابن عثيمين- جامع الحديث النبوي - الشاملة ٢
٧٣. فتح الباري لابن حجر العسقلاني - الشاملة ٢
٧٤. شرح صحيح مسلم للنووي - الشاملة ٢
٧٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي - أي طبعة مرقمة
٧٦. تحفة الأحوذى بشرح سنن الترمذي المبارك كفوري - الشاملة ٢
٧٧. عون المعبود شرح سنن أبي داود- الشاملة ٢
٧٨. شرح ابن بطال على البخاري- الشاملة ٢
٧٩. شرح سنن أبي داود - عبد المحسن العباد - الشاملة ٢
٨٠. مجمع الزوائد للهيثمي- الشاملة ٢- الطبعة المرقمة
٨١. الأسماء والصفات للبيهقي- الشاملة ٢- جامع الحديث النبوي
٨٢. شرح سنن النسائي للسندي - الشاملة ٢
٨٣. حاشية السندي على ابن ماجه - الشاملة ٢
٨٤. المنتقى - شرح الموطأ للباحي - الشاملة ٢
٨٥. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي - الشاملة ٢

٨٦. جامع العلوم والحكم لابن رجب تحقيق الفحل - الشاملة ٢
٨٧. فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتممة الخمسين عبد المحسن بن حمد العباد البدر -
دار ابن القيم، الدمام - السعودية
٨٨. الموسوعة الفقهية الكويتية - وزارة الأوقاف - الكويت
٨٩. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح القاري - الشاملة ٢
٩٠. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين للزيدي - الفكر
٩١. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الشاملة ٢ + المطبوع
٩٢. تقريب التهيب للحافظ ابن حجر الشاملة ٢ + المطبوع
٩٣. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة للذهبي الشاملة ٢ + المطبوع
٩٤. تهذيب الكمال للمزي الشاملة ٢ + مؤسسة الرسالة
٩٥. تعجيل المنفعة للحافظ ابن حجر الشاملة ٢ + المطبوع
٩٦. لسان الميزان للحافظ ابن حجر الشاملة ٢ + المطبوع
٩٧. سير أعملا النبلاء للذهبي الشاملة ٢ + ط مؤسسة الرسالة
٩٨. الضعفاء الكبير للعقيلي الشاملة ٢ + جماع الحديث النبوي
٩٩. الشاملة ٢
١٠٠. برنامج قالون

الفهرس العام

٢	النهي عن قول راعنا	١.
٥	الاستعانة بالصبر والصلاة	٢.
٩	الأكل من الطيبات	٣.
١١	وجوب القصاص في القتلى	٤.
١٦	فرض الصيام	٥.
٢٥	الدخول في السلم كافة	٦.
٣٣	الإنفاق مما رزقهم الله	٧.
٣٤	عدم إبطال الصدقات بالئن والأذى	٨.
٣٧	الإنفاق من طيبات ما كسبنا	٩.
٤٢	النهي عن الربا	١٠.
٤٨	الأمر بكتابة الدين	١١.
٥٥	طاعة الكافرين سبب للكفر بعد الإيمان	١٢.
٦١	الأمر بتقوى الله حق تقاته	١٣.
٧٧	تحریم اتخاذ بطانة من غير المسلمين	١٤.
٨١	النهي عن أكل الربا	١٥.
٨٧	التحذير من الربا في السنة النبوية :	
٩٢	طاعة الكفار خسارة في الدارين	١٦.
٩٥	وجوب التسليم بقضاء الله وقدره	١٧.
٩٨	الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله	١٨.
١٠١	تحریم عضل النساء	١٩.
١٠٦	تحریم أكل أموال الناس بالباطل	٢٠.
١١١	تحریم الصلاة وهم سكارى	٢١.
١٢٢	وجوب طاعة الله والرسول	٢٢.
١٢٦	وجوب أخذ العذر من الأعداء	٢٣.
١٣٠	لا يجوز قتل من أسلم أثناء القتال	٢٤.
١٣٣	وجوب العدل في الشهادة	٢٥.
١٣٧	وجوب الإيمان بالله ورسوله	٢٦.
١٣٩	تحریم اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين	٢٧.
١٤١	وجوب الوفاء بالعقود	٢٨.
١٤٤	تحریم استحلل شعائر الله ونحوها	٢٩.
١٥٨	وجوب الطهارة قبل الصلاة	٣٠.
١٦٢	وجوب العدل بالشهادة وغيرها	٣١.

١٦٥	وجوب ذكر نعم الله علينا	٣٢.
١٦٧	وجوب تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه	٣٣.
١٧٠	تعريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء	٣٤.
١٨٦	تعريم الردة عن الدين	٣٥.
١٩٣	تعريم اتخاذ الكفار أولياء	٣٦.
١٩٥	لا يجوز تعريم الحلال	٣٧.
٢٠٠	تعريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام	٣٨.
٢١١	إبتلاء المحرم بحج أو عمرة بالصيد	٣٩.
٢١٣	تعريم قتل صيد البر للمحرم بحج أو عمرة	٤٠.
٢١٨	تعريم السؤال عما لا يعنيننا	٤١.
٢٢٥	لا يضر المؤمنين ضلال الكافرين إذا بذلوا الوسع في هدايتهم فأبوا	٤٢.
٢٢٨	الأمر بالصوية قبل الموت	٤٣.
٢٣١	تعريم الفرار من الزحف	٤٤.
٢٣٧	وجوب طاعة الله ورسوله	٤٥.
٢٣٩	وجوب الاستجابة لله ولرسوله	٤٦.
٢٤٣	تعريم خيانة الله والرسول	٤٧.
٢٤٦	من اتقى الله جعل له فرقاناً	٤٨.
٢٤٧	عوامل النصر والهزيمة	٤٩.
٢٥٧	تعريم اتخاذ الآباء وغيرهم أولياء إذا استحبوا الكفر على الإيمان	٥٠.
٢٦٠	تعريم دخول المشركين المسجد الحرام	٥١.
٢٦٢	التعذير من التشبه بالأخبار والرهبان	٥٢.
٢٦٩	الحث على الجهاد في سبيل الله	٥٣.
٢٧٤	الأمر بتقوى الله ومتابعة الصادقين	٥٤.
٢٧٩	وجوب البدء قتال الأقرب لنا من الكفار	٥٥.
٢٩٠	الأمر بالركوع والسجود والعبادة	٥٦.
٢٩٣	النهي عن اتباع خطوات الشيطان	٥٧.
٢٩٥	النهي عن دخول بيوت الآخرين إلا بإذن	٥٨.
٣٠٠	وجوب الاستئذان داخل البيوت	٥٩.
٣٠٢	وجوب شكر الله تعالى على نصر المسلمين يوم الأحزاب	٦٠.
٣٠٧	الإكثار من ذكر الله	٦١.
٣١٠	لا عدة على المطلقة قبل الدخول	٦٢.
٣١٢	تعريم دخول بيوت النبي ﷺ دون إذن	٦٣.
٣١٦	الأمر بالصلاة على النبي ﷺ	٦٤.
٣١٧	النهي عن أذى الرسل	٦٥.
٣١٩	وجوب تقوى الله والقول السيد	٦٦.

٣٢٠	من نصر دين الله نصره الله	٦٧.
٣٢٤	وجوب طاعة الله والرسول	٦٨.
٣٢٧	تحريم التقدم على الله ورسوله بقول أو فعل	٦٩.
٣٣٠	النهي عن رفع الصوت عند رسول الله والتأديب في خطابه	٧٠.
٣٣٦	وجوب التثبت عند نقل الأخبار	٧١.
٣٤١	تحريم السخرية بالمؤمنين ونحوها	٧٢.
٣٤٣	النهي عن اجتناب سوء الظن	٧٣.
٣٥٠	جزاء من آمن بالله واتقى	٧٤.
٣٥٥	تحريم التنجس بالإثم والعداوة	٧٥.
٣٥٨	الأمر بالتفصح في المجالس	٧٦.
٣٦١	تقديم صدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ	٧٧.
٣٦٤	وجوب النظر لما يقدم الإنسان لأخرته	٧٨.
٣٦٧	تحريم اتخاذ أعداء الإسلام أولياء	٧٩.
٣٨٠	امتحان المهاجرات	٨٠.
٣٨٥	تحريم تولي من غضب الله عليه	٨١.
٣٨٦	النهي عن القول بلا عمل	٨٢.
٣٩١	التجارة التي لن تبور	٨٣.
٣٩٦	دعوة المؤمنين ليكونوا أنصار الله	٨٤.
٣٩٨	السعي إلى ذكر الله يوم الجمعة	٨٥.
٤٠٢	النهي الغفلة عن ذكر الله	٨٦.
٤٠٤	التحذير من فتنة الزوجة والأولاد	٨٧.
٤٠٨	وجوب وقاية النفس والأهل من النار	٨٨.
٤١٢	وجوب التوبة النصوح	٨٩.
٤١٤	الحث على التوبة قبل فوات الأوان :	
٤٢٣	أهم المصادر	
٤٢٧	الفهرس العام	